

شرح كشف الشبهات

للأعلام

محمد بن إبراهيم آل الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

ضبط نصه وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه

أبو أنس أشرف بن يوسف

دار العقيدة



وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار العقيدة
طبع * نشر * توزيع

رقم الإيداع: ٢٠٠٥ / ٧٧١٢
الترقيم الدولي: 8 - 062 - 347 - 977

دار العقيدة
الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٣/٥٧٦٥٦٢١
القاهرة: ٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٠٠٢٠٢/٥١٤٣١٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمةُ التحقيقِ

إنَّ الحمدَ للَّهِ نَحْمَدُه ، ونَسْتَعِينُه ، ونَسْتَغْفِرُه ، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ، ومن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِه اللَّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هادِىَ له .

وأشْهَدُ ألَّا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، وأشْهَدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ .

أما بعدُ فهذا شرحٌ لكتابِ كَشْفِ الشُّبُهاتِ الذى ألَّفَه الإمامُ المُجَدِّدُ مُحَمَّدُ ابنُ عبدِ الوَهَّابِ رحِمه اللَّهُ .

وهذا الشرحُ هو للشيخين الفاضِلَيْن : الشيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ ، والشيخِ محمدِ بنِ صالحٍ العُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ .

وقد قُمْتُ بجمعِ هذين الشرحين تحتَ متنٍ واحدٍ ، حتى يَسْهُلَ على القارئِ البحثُ عن الفوائدِ التى فيهما .

كما أننى قد قمتُ بتخريجِ الأحاديثِ والآثارِ وأقوالِ أهلِ العلمِ رحِمَهم

اللَّهُ الواردةِ فى الشرحَيْنِ .

وقد قُمْتُ أيضًا بضبطِ هذين الشرحَيْن مع المتنِ ضبطًا إعرابيًّا ، مع ضبطِ ما يُشْكِلُ من بِنْيةِ الكلمةِ ، مُتَحَرِّيًا فى ذلك الدِّقَّةَ عن طريقِ البحثِ فى قواميسِ اللغةِ المُعْتَمَدَةِ لَدَى أهلِ العلم رحِمَهم اللَّهُ ؛ كاللسانِ لابنِ مَنْظُورٍ ، والقاموسِ المحيطِ للفيروزآبادى ، ومُخْتَارِ الصِّحاحِ للرازىِّ ، إلى غيرِ ذلك من القواميسِ .

فالحمدُ للَّهِ على تيسيره إتمامَ هذا العملِ ، واللَّهَ أَسْأَلُ أن يكونَ ما بُذِلَ فى هذا الكتابِ من الجُهْدِ لوجهِهِ خالصًا ، وأن يَجْعَلَه فيما يَتَقَبَّلُه من صالحِ أعمالِ عبادِه ، وصلَّى اللَّهُ وسَلَّم وبارَكَ على نَبِيِّنا محمدٍ ، وآلِه وصَحابتِه أجمعين ، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمِينَ .

أبو أَنَس أَشْرَفُ بنُ يُوسُف

٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ

تَرْجَمةُ المُؤَلِّفِ
شيخِ الإسلامِ الإمامِ
محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ

* **نَسَبُه :**

هو الإمامُ الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ بنِ سُلَيْمانَ بنِ علىٍّ بنِ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ راشدِ بنِ بريدِ بنِ محمدِ بنِ مشرفِ بنِ عمرَ من أوهبةِ بنى تَمِيمٍ .

* **مولدُه :**

وُلِد هذا العالمُ فى بَلْدَةِ العيينةِ سنةَ ١١١٥ هِجْرِيةً ، فى بيتِ عِلْمٍ وشرفٍ ودينٍ ، فأبوه عالمٌ كبيرٌ ، وجَدُّه سُلَيْمانُ عالمُ نَجْدٍ فى زمانِه .

* **نَشْأَتُه :**

حفِظَ القرآنَ قبلَ بُلوغِ عَشْرِ سنينَ ، ودرَسَ فى الفقهِ حتى نال حظًّا وافرًا ، وكان مَوْضِعَ الإعجابِ من والدِه ؛ لقُوَّةِ حفظِه ، وكان كثيرَ المُطالَعَةِ فى كتبِ التفاسيرِ والحديثِ .

وَجَدَّ فى طلبِ العلمِ ليلًا ونهارًا ، فكان يَحْفَظُ المُتونَ العِلْمِيةَ فى شَتَّى الفنونِ ، ورحَل فى طَلَبِ العلمِ فى ضَواحِى نَجْدٍ ، وفى مكةَ ، وقرَأَ على عُلَمائِها .

ثم رَحَلَ إلى المدينةِ النبويةِ ، فقرَأَ على عُلمائِها ، ومنهم العَلَّامَةُ الشيخُ عبدُ اللَّهِ بنُ إبراهيمَ الشمرىُّ ، كما قرَأَ على ابنِه الفَرْضىِّ الشهيرِ إبراهيمَ الشمرىِّ ، مُؤَلِّفِ العَذْبِ الفَائِضِ فى شرحِ ألفيةِ الفَرائِضِ .

وعرَّفاه بالمُحَدِّثِ الشَّهِيرِ محمدِ حَياةَ السِّنْدىِّ ، فقرَأَ عليه فى علمِ الحديثِ ، ورجالِه ، وأجازه بالأُمَّهاتِ .

وكان الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ رحِمه اللَّهُ تعالى قد وهَبَه اللَّهُ فهمًا ثاقبًا ، وذكاءً مُفرِطًا ، وأَكَبَّ على المطالعةِ والبَحْثِ والتأليفِ ، وكان يُثْبِتُ ما يَمُرُّ عليه من الفوائدِ ، أثناءَ القراءةِ والبَحْثِ .

وكان لا يَسْأَمُ من الكتابةِ ، وقد خَطَّ كُتُبًا كثيرةً مِن مُؤَلَّفاتِ ابنِ تَيْمِيةَ وابنِ القيم رحِمَهما اللَّهُ ، ولا تَزالُ بعضُ المَخْطوطاتِ الثَّمينةِ بقلمِه السَّيَّالِ مَوْجودةً بالمَتاحفِ .

ولما تُوُفِّي والدُه أخذَ يُعْلِنُ جَهْرًا بالدَّعْوَةِ السَّلَفيةِ إلى توحيدِ اللَّهِ ، وإنكارِ المُنْكَرِ ، ويُهاجِمُ المُبْتَدِعةَ وغيرَهم من المشركين ، وقد شدَّ أَزْرَه الوُلاةُ مِن آلِ سُعودٍ ، وقَوِيَت شَوْكَتُه ، وذاع خبرُه .

*** مُؤَلَّفاتُه :**

له رحِمه اللَّهُ تعالى مُؤَلَّفاتٌ نافعةٌ ، نَذْكُرُ منها :

١ ـ الكِتابَ الجليلَ المُفِيدَ المُسَمَّى «كتابَ التوحيدِ» .

٢ ـ كَشْفَ الشُّبُهاتِ .

٣ ـ الكَبائِرَ .

٤ ـ مُخْتَصَرَ الإنصافِ ، والشرحِ الكبيرِ .

٥ ـ مُخْتَصَرَ زادِ المَعادِ .

٦ ـ فَتاوَى ورسائلَ جُمِعَت باسمِ مجموعةِ مُؤَلَّفاتِ الإمامِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ ، تحتَ إشرافِ جامعةِ الإمامِ محمدِ بنِ سُعودٍ .

*** وفاتُه :**

وقد تُوُفِّي رَحِمه اللَّهُ تعالى عامَ ١٢٠٦هـ ، فرحِمَه اللَّهُ رحمةً واسعةً ، وجزاه

عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاءِ ، إنه سَمِيعٌ مُجِيبٌ ، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمين ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ ، وعلى آلِه وصَحْبِه أجمعين .

بقلم

فهدِ بنِ ناصرِ بنِ إبراهيمَ السُّلَيْمانِ

عفا اللَّهُ عنه

وعن شرحِ الشيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ ، يقولُ جامِعُه الشيخُ محمدُ ابنُ عبدِ الرحمنِ بنِ قاسمٍ رحِمه اللَّهُ :

الحمدُ للَّهِ ، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه محمدٍ ، وعلى آلِه وصحبِه .

أما بعدُ : فهذا شرحٌ لكتابِ «كَشْفِ الشُّبُهاتِ»[١] الشيخِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ ـ قدَّس اللَّهُ رُوحَه ـ جَمَعْتُه مِن تقريراتِ شيخِنا الشيخِ/ محمدِ بنِ إبراهيمَ ـ رحِمه اللَّهُ ـ كتَبْتُها حالَ إلقائِه الدروسَ فى مسجدِه ، وفى بيتِه ، من عامِ ستةٍ وستين وثلاثِمائةٍ وألفٍ إلى عامِ اثنين وسبعين وثلاثِمائةٍ وألفٍ هجريةً .

وقد تكَرَّرَت كتاباتى لهذا الشرحِ ستَّ مراتٍ ، أَكْتُبُ لفظَه مِن فِيهِ فى حينِه ؛ حرصًا على تقييدِ الفوائدِ ، ومُحافظةً على أمانةِ النقلِ ، وإن كان الثِّقاتُ من العلماءِ يَقْتَنِعون بالنقلِ عن مشايخِهم سماعًا ، ويُحَدِّثون به .

كما يقولُ ابنُ القيمِ أحيانًا : وسمِعْتُ شيخَنا أو شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ يقولُ ، وكما يَذْكُرُه الشيخُ عبدُ اللَّهِ بنُ عبدِ العزيزِ العنقرىُّ ـ رحِمه اللَّهُ ـ عن مشايخِه بلفظِ : (تقريرٌ) ، وغيرُهما .

وهذه التقريراتُ التى سمِعْتُها منه ، وسجَّلْتُها فى دَفاتِرى كمَّلْتُ بعضَها ببعضٍ ، ورتَّبْتُها ، فتحَصَّلَ منها شرحٌ وافٍ بالمقصودِ ، مُوجَزٌ ، سَهْلُ العبارةِ ، وللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ .

---

(١) كشَفَ الشىءَ : أظْهَرَ عنه ما يُوارِيه أو يُغَطِّيه ، والشُّبْهة الالتباس ، والشُّبُهات : ما يلتبس فيه الحق بالباطل ، والحلال بالحرام على بعض الناس .

والنظر فى الشبهات لا ينبغى مخافة الوقوع فيها ، فالنظر فيها ليعرفها لينكرها ويُحَذِّر منها ، وإلا فهو شر ، وقُربان الشر شر .

وقدَّمْتُ للكتابِ بمُقَدِّمةٍ وصَفْتُ فيها طريقةَ الشيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ فى افتتاحِ الدروسِ ، وبيَّنْتُ حرصَه على تعليمِ التوحيدِ ، وحَثِّ الطُّلَّابِ على تعلُّمِه .

وذَكَرْتُ الفرقَ بينَ دينِ قريشٍ ودينِ محمدٍ ﷺ ، ثم ذَكَرْتُ موضوعَ الكتابِ ، ثم نَصَّ الشُّبَهِ ، ومُلَخَّصَ الجوابِ عنها .

* * *

طريقةُ الشيخِ فى افتتاحِ الدُّروسِ

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمِينَ ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وأصحابِه أجْمَعِين ، قال رحِمه اللَّهُ تعالى :

كان شيخُنا الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ يَسْتَفْتِحُ الدروسَ فى هذا الكتابِ وغيرِه بهذه العبارةِ التى فيها الثناءُ على اللَّهِ سبحانَه ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين ، ثم يَتَرَحَّمُ على المؤلِّفين .

وكذلك الطلابُ يَسْتَفْتِحُونَ قراءتَهم عليه فى المُخْتَصَراتِ (المُتونِ) والمُطَوَّلاتِ «كُتُبِ الحديثِ ، والتفسيرِ ، والعَقائِدِ ، والفقهِ ، والنحوِ ، وغيرِها» بهذه العبارةِ ، يَجْمَعون بينَ الصلاةِ والسلامِ على آلِه وأصحابِه ؛ تَبَعًا للصلاةِ والسلامِ عليه .

لا يَقْتَصِرونَ على الصلاةِ والسلامِ على «آلِه» دونَ «أصحابِه» ، وإذا تَلَوْا نصَّ الأحاديثِ اقْتَصَروا على الصلاةِ والسلامِ على الرسولِ ﷺ ، كما هما موجودان فى كتبِ الحديثِ ، ومُؤَلَّفاتِ العلماءِ المعروفين باتِّباعِ طريقةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ .

وقد نبَّهَنا شيخُنا - رحِمه اللَّهُ - فى تَقْريراتِه - وكم يَذْكُرُ ذلك غيرُه - على سرِّ الجمعِ بينَ الصلاةِ والسلامِ على آلِه وأصحابِه ، بأنَّ ذلك تأكيدًا لعقيدةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى معرفةِ حقوقِهم وفضائلِهم ومَحَبَّتِهم ، وبَراءةً من البِدْعَتَيْنِ الذميمتَيْنِ بِدْعةِ «النَّواصِبِ» ، وبِدْعَةِ «الرَّوافِضِ» حيث كان الاقتصارُ على الصلاةِ والسلامِ على «آلِه» ، دونَ أصحابِه شِعارًا للروافضِ ، ودِعايةً لعقيدتِهم ، هذا بقطعِ النظرِ عما يَعْنُون «بآلِه» .

ولم نَسْمَعْ منه - رحِمه اللَّهُ - فى الدروسِ ، ولا فى الخُطَبِ ، ولا غيرِها بعدِ

ذِكْرِ «آلِه» عبارةَ «الطيِّبين الطَّاهِرين» ؛ لأنَّ هذه العبارةَ خبرٌ عن طَهارتِهم ، والآيةُ والحديثُ الوارِدان فى ذلك فيهما الأمرُ لهم ، وفرقٌ بينَ الأمرِ والخبرِ .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيةَ رحِمه اللَّهُ فى «مِنْهاجِ السُّنَّةِ» : واللَّهُ لم يُخْبِرْ أنه طهَّر جميعَ أهلِ البيتِ ، وأذْهَبَ عنهم الرِّجْسَ ؛ فإنَّ هذا من الكَذِبِ على اللَّهِ ، كيف ونحن نَعْلَمُ أنَّ مِن بَنِى هاشم مَن ليس بمُطَهَّرٍ ، ولأنه قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

ففيه أنه يُحِبُّ ذلك ، ويَرْضاه لكم ، ويَأْمُرُكم به ، فمَن فعَلَه حصَلَ له هذا المرادُ المحبوبُ ، ومَن لم يَفْعَلْه لم يَحْصُلْ له ذلك .

وقال فى موضعٍ آخرَ : قولُه ﷺ : «اللَّهمَّ هؤلاءِ أهلُ بيتى ، فأَذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ ، و طَهِّرْهم تَطْهيرًا» . دليلٌ على أنه لم يُخْبِرْ بوُقوعِ ذلك ، فإنه لو كان وقَعَ لكان يُثْنِى على اللَّهِ بوُقوعِه ، ويَشْكُرُه على ذلك ، لا يَقْتَصِرُ على مجردِ الدُّعاءِ[1] ، ولأنه قال فى الدعاءِ لنفسِه ، والأُمَّةُ تَبَعٌ له : «اللَّهمَّ طَهِّرْنى من الذُّنوبِ والخَطايا»[2] .

* * *

(١) منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية (ج٤/ ٢٠، ج٢/ ٤١٩، ١٤٥، ١٤٦) .

(٢) قلت : ولبعض من لا أثق به عبارة أستريب منها فى الصلاة والسلام على الرسول ، وهى : «والصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله» وقد يرفع صوته بالجملة الأخيرة ، أو حبيبى حبيبى يا رسول الله .

ولم أكن أسمع شيخنا يقول فى خطبه ودروسه «سيدنا» ، وله فى ذلك فتوى مطبوعة ، ولا «شفيعنا» بهذا الإطلاق ، بل يقول : الشافع المشفع فى المحشر ، والمراد الشفاعة العظمى .

وأما شفاعاته الخاصة ، فلا يُجْزَم بها لكل شخص .

ولا «ورسولُه أَعْلَمُ» فهذه تقال فى حياته ، أما الآن فيقال : الله أعلم .

«يقول الله تعالى» قليلًا ما يستعمل هذه العبارة فى حال استدلاله بآية ، بل يقول : قال الله تعالى . =

= فالله قالها وقت إنزالها ، لا الآن والمستقبل .

ولا : «يقول القرآن» فالقرآن لا يتكلم ، وليس هو القائل ، بل هو المقول .

ومثلها : «يقول الحديث الشريف» ، بل يقول : قال رسول الله ﷺ .

ولا : «اسمعوا الله يقول» لأن هذه العبارة توهم أمرين محذورين :

الأول : أن الحاضرين يكونون بمنزلة موسى حين كلمه ربه .

الثانى : أن الله يتكلم الآن بما يتلوه من القرآن ، ورحم الله ابن مالك حيث قال فى تمثيله لبعض مسائل التعجب :

. . . . كما كَانَ أَصَحَّ عِلْمَ مَن تقَدَّمَا

حِرْصُه على تَعْلِيمِ التَّوحيدِ ، وحَثُّ الطُّلَّابِ على تَعَلُّمِه

قال شيخُنا رحِمه اللَّهُ : لا يُزْهَدُ في التوحيدِ ؛ فإنَّه بالزهدِ فيه يُوقَعُ في ضدِّه ، وما هَلَكَ مَن هَلَكَ ممَّن يَدَّعِي الإسلامَ إلا بعدمِ إعطائِه حقَّه ، ومعرفتِه حقَّ المعرفةِ ، وظَنُّوا أنه يَكْفِي الاسمُ والشهادتان [لفظًا] ، ولم يَنْظُروا ما يُنافِيه ، وما يُنافِي كمالَه ، هل هو موجودٌ أو مفقودٌ ؟!

قال : ومما يُذْكَرُ عن المؤلفِ - رحِمه اللَّهُ - أنه قال يومًا : يُذْكَرُ البارحةَ أنه وُجِد رجلٌ على أمِّه يُجامِعُها ، فاسْتَعْظَمَ المحْضَرُ ذلك ، وضَجُّوا منه ، رأَوْا أنه مُنْكَرٌ كبيرٌ ، وهو كبيرٌ .

ثم قال لهم مرةً أخرى : واحدٌ أُصِيبَ بمرضٍ شديدٍ ، فقيل له : اذْبَحْ دِيكَكَ لفلانٍ «وَليٍّ» ، فلم يَسْتَعْظِمُوه ، ثم بيَّنَ لهم أنَّ الأولَ فاحشةٌ يَبْقَى معها التوحيدُ ، والآخرَ يُنافِي التوحيدَ كلَّه .

وهذا لم يَسْتَعْظِمُوه مثلَ ذاك ، وهذا هو الواقعُ من أكثرِ الناسِ ؛ فإنَّ النفوسَ تَسْتَبْشِعُ أشياءَ أعظمَ من استبشاعِها ما هو من ضدِّ التوحيدِ .

ولمَّا ذكَرَ المؤلفُ قصةَ بني إسرائيلَ الذين قالوا : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف : ١٣٨] وقصةَ الذين سأَلُوا النبيَّ ﷺ «أَن يَجْعَلَ لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ» .

قال : ولكنَّ هذه القصةَ تُفِيدُ أن المسلمَ بل العالمَ قد يَقَعُ في أنواعٍ من الشركِ ، وهو لا يَدْرِي ، وتُفِيدُ أن قولَ الجاهلِ : «التوحيدَ فهِمْناه» أنَّ هذا من أكبرِ الجهلِ ومكائدِ الشيطانِ .

قال شيخُنا : إذ كان السائلُ في القصةِ الأولى مع نبيٍّ ، وهو موسى ، وهم أوسعُ علمًا منه ، والسائلُ في القصةِ الثانيةِ مع نبيٍّ ، وهم أعلمُ وأقْدَمُ فَضِيلةً ، اسْتَحْسَنوا

ذلك ظنًّا منهم أن اللَّهَ يُحِبُّه ، وأنه من العباداتِ التى يُتَقَرَّبُ بها إلى اللَّهِ .

وهذه الكلمةُ «التوحيدَ فهِمْناه» قد صدَرَتْ من بعضِ الطلبةِ لمَّا كثُرَ التدريسُ فى التوحيدِ ؛ مَتْنِه ، أو كُتُبٍ نحوِه ، سئِمُوا ، وأرادوا القراءةَ فى كتبٍ أخرى .

وقيل : إنَّها صدَرَت من المراسِلِين[1] .

* * *

(١) الذين يكاتبون الشيخ - والله أعلم - .

دينُ قريشٍ ، ودينُ محمدٍ ﷺ

عقيدةُ المشركين ودينُهم :

قريشٌ أُناسٌ يَتَعَبَّدون ، ويَحُجُّون ، ويَعْتَمِرون ، ويَتَصَدَّقون ، ويَصِلُون الرَّحِمَ ، ويُكْرِمون الضَّيْفَ ، ويَذْكُرون اللَّهَ كثيرًا ، ويَعْتَرِفون أنَّ اللَّهَ وحدَه هو المُتَفَرِّدُ بالخلقِ والتَّدْبيرِ ، ويُخْلِصُون للَّهِ العبادةَ فى الشدائدِ .

ولكنهم يَتَّخِذُونَ وَسَائطَ بينَهم وبينَ اللَّهِ يَدْعُونهم ، ويَذْبَحون لهم ، ويَنْذُرُون لهم ، ويَسْتَغِيثون بهم ؛ ليَشْفَعوا لهم ، ويَسْأَلُوا اللَّهَ لهم ؛ زَعْمًا منهم أنهم أقربُ منهم إلى اللَّهِ وسيلةً .

فبعَثَ اللَّهُ محمدًا ﷺ يُجَدِّدُ لهم دينَ أبيهم إبراهيمَ ، عليه السلامُ ، ويُخْبِرُهم أنَّ هذا التقرُّبَ والاعتقادَ مَحْضُ حقِّ اللَّهِ ، وأنَّ فعلَهم هذا أفْسَدَ جميعَ ما هم عليه من العباداتِ ، وصاروا بذلك كفارًا مُرْتَدِّينَ ، حَلالَ الدمِ والمالِ .

وقاتَلَهم رسولُ اللَّهِ ﷺ ؛ ليَكُونَ الدعاءُ كلُّه للَّهِ ، والذبحُ كلُّه للَّهِ ، والنَّذْرُ كلُّه للَّهِ ، والاستغاثةُ كلُّها باللَّهِ ، وجميعُ أنواعِ العبادةِ كلِّها للَّهِ .

وانْتَقَدَ المؤلِّفُ والشارحُ رحِمهما اللَّهُ مَن يَدَّعِى الإسلامَ ، بل يَدَّعِى العلمَ ، بل يَدَّعِى الإمامةَ فى الدينِ ، وهو لا يَعْرِفُ مِن كلمةِ «لا إلهَ إلا اللَّهُ» إلا مُجَرَّدَ التلفُّظِ بحروفِها ، من غيرِ اعتقادِ القلبِ لشىءٍ من المعانى .

وأنَّ الحاذقَ منهم الذى يَرَى أن المرادَ شىءٌ آخَرُ غيرَ اللفظِ ، يُخْطِىءُ المعنى المرادَ ، ولا يَعْرِفُه ، يَظُنُّ أن معناها : لا يَخْلُقُ ، ولا يَرْزُقُ إلا اللَّهُ ، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا اللَّهُ ، فلا خيرَ فى رجلٍ ، جُهَّالُ الكفارِ أعْلَمُ منه بأصلِ الإسلامِ ، هذا أجْهَلُ من أبى جهلٍ ، وأضْرابِه .

قلتُ : وسمِعْتُ أحدَ هؤلاء يَشْرَحُ حديثًا ، يُرْوَى فى فضلِ ليلةِ النصفِ من شَعْبانَ ، ونصُّه : «إنَّ اللَّهَ لَيَطَّلِعُ فى ليلةِ النصفِ من شعبانَ ، فيَغْفِرُ لجميعِ خلقِه إلا لمشركٍ أو مُشاحِنٍ» .

ففسَّر المشركَ : بأنه الشخصُ إذا أَتَى إلى صاحِبِ القبرِ ، وسَجَد له ، وسأَلَه جَلْبَ نَفْعٍ ، أو كَشْفَ ضرٍّ ، فهذا هو الشركُ .

وقال الشارحُ أيضًا : كثيرٌ ممَّن يَنْتَسِبُ إلى الإسلامِ من هذه الأمةِ ليسوا على الدينِ ، إنما معَهم اسمُه فقط ، ولا يَعْرِفون شركَ الأوَّلِين ، وشركَ أهلِ هذا الزمانِ ، ولو عَرَفوه لوَجَدوه هو هو ؛ بل شركُ مُشْرِكى هذه الأزمنةِ أعظمُ بكثيرٍ(١) .

وقال المؤلفُ والشارحُ فى آخرِ الكتابِ : كثيرٌ من الناسِ إذا بُيِّنِ له أن التوحيدَ لابدَّ أن يكونَ بالقلبِ واللسانِ والعملِ ، قالوا : هذا حقٌّ ، وهذا الذى نَدِينُ اللَّهَ به ؛ ولكن لا نَقْدِرُ أن نَفْعَلَه ، ولا يَجوزُ عندَ أهلِ بلدِنا إلا مَن وَافَقَهم ، وغيرَ ذلك من الأعذارِ .

---

(١) لأن الأولين يشركون فى الرخاء ، وفى الشدة يُخْلِصون ، فى الشدائد لا يَدْعُون إلا الله وحده لا شريك له ، وأما فى زماننا فشركهم فى الحالين جميعًا ؛ بل إذا كانوا فى الشدة نَسُوا الله بالكلية ، ولهِجوا بمعبوداتهم من دون الله ، هذا يقول : يا متبولى! يا عيدروس! يا بدوى! يا عبد القادر! يا على! يا حسين! يا رسول الله! يا فلان! اهـ (الشارح) .

قلت : ومن القصص الحية : أن بعض نسائهم إذا أخَذَهن الطَّلْقُ نادت : يا على! يا حسين! وأن بعض الرجال إذا أيقن أحدهم بموت فى بئر أو نفق استغاث بعلى ، أو بالنبى ، أو بالخمسة ، أو غيرهم ممن يعتقد فيه . وآخر يصرخ : من لبلادنا غيرك يا رسول الله!

وآخر وعظنا يومًا فى أحد مساجد من ينتسب إلى السنة ، وذكر أن وفاة النبى ﷺ ، أشكلت على بعض الصحابة حتى جاء أبو بكر رضى الله عنه ، فكشف عن وجهه ، وقال : بأبى أنت وأمى ، طِبْتَ حيًّا وميتًا ، اذْكُرْنا يا رسول الله عند ربك . اهـ

وهذه الجملة الأخيرة لا تصح نسبتُها إلى أبى بكر ، ولا يُصَدَّق أن الصديق يقول مثل ذلك ، وهو الذى تلا على المنبر : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٤٤] .

وقال : من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله ... إلخ .

ما جَهِلوا ذلك ، ولا جَحَدوه ؛ لكن آثَرُوا العاجلَ والحُطامَ على الآجلِ ، والعياذُ باللَّهِ .

هذا من أسبابِ بقاءِ كثيرٍ على الشركِ .

ومن أسبابِ بقاءِ عامَّتِهم على الشركِ : أن كثيرًا ممن يدَّعِي العلمَ والإمامَةَ فى الدينِ منهم يُشارِكُ عُبَّادَ القُبورِ فى عباداتِهم واحتفالاتِهم ، ويَأْكُلُ من نُذُورِهم .

وإذا شُدِّدَ الإنكارُ عليه ، وانْقَطَعَت حُجَّتُه قال : «هذه مظاهرُ الكفرِ» . وهذه الكلمةُ تُخْفِى تحتَها أن عقائدَهم فى التوحيدِ صَحيحةٌ سليمةٌ .

ويَعْتَذِرُ بعضُهم عن عامَّتِهم بأنَّهم جُهَّالٌ جُهَّالٌ ، أو خُرافِيُّون ، أو صُوفيةٌ ، أو ما قَصَدُوا بعبادةِ أصحابِ القبورِ إلا اللَّهَ ، فلا يَخْرُجون من دائرةِ الإسلامِ بهذه الأفعالِ ، وأشباهِ هذه العباداتِ التى فيها التَّهْوينُ من شأنِ الشركِ ، أو تَسْويغُه .

لم يُصَرِّحْ لهم بالتوحيدِ الذى بعَثَ اللَّهُ به الرسلَ ، ولا بأنَّ ما يَفْعَلونه مثلُ ما كان يُفْعَلُ عندَ اللَّاتِ والعُزَّى وهُبَلَ ، بل أعظمُ ، حتى إن بعضَهم يَحْلِفُ باللَّهِ كاذبًا ، ولا يَحْلِفُ بمعبودِه إن كان كاذبًا[١] .

بل إنَّ بعضَ مَن يَنْتَسِبُ إلى الإسلام بدلًا مَن أن يَقولَ : أَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، يُنْشِدون : أَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَا حَيْدَرةُ الأَنْزَعُ البطينُ[٢] .

وإذا أُضِيف إلى ذلك الشهادةُ لهم بالإسلامِ بمُوجَبِ البِطاقةِ «الهُوِيَّةِ» أو

---

(١) وهذا دليل على أن عظمة محلوفه أعظم فى قلبه من عظمة الله ، ثم كيف أعمال القلوب الأخرى من الحب والخوف والرجاء ؟!

ومن الأناشيد والأشعار التى فيها الغلو والشرك بالنبى ﷺ ما لا يزال يسمع كالهَمْزية والبُرْدة وغيرهما .

(٢) مجموع فتاوَى شيخ الإسلام ابن تيمية (جـ ٣٥/ ١٦١) .

بأنَّ آباءَهم كانوا مسلمين ، أو أن بُلْدانَهم كانت إسلاميةً ، وأُدْخِلوا فى تَعْدادِ المسلمين .

فمتى يُقْلِعُ هؤلاء عن دُعاءِ الأمواتِ ، والطَّوافِ بقُبورِهم ، والعُكوفِ عندَها ، وبناءِ المساجدِ عليها ، والذبحِ ، والنذرِ لها ، وسؤالِ أصحابِها العونَ والمَدَدَ ، وغيرِ ذلك من الشِّرْكِيَّاتِ ، والبِدْعِيَّاتِ التى الإسلامُ والمسلمون حقًّا بُرَاءٌ منها ، ومِن أهلِها؟[1] .

ومتى يَدْخُلونَ فى الإسلامِ المَبْنِيِّ على خمسةِ أركانٍ ، ويَسْلَمُ البعضُ الآخَرُ من الإلحادِ فى الدينِ ، واتِّباعِ طريقةِ العِلْمَانِيِّينَ (اللَّادِينِيِّين) ؟

ومتى تُصَحَّحُ عَقائدُ الناشِئِينَ ، ويَعْرِفونَ الفرقَ بينَ دينِ المُرْسَلِين ، ودينِ المُشْركين ؟

ومَن يَتَحَمَّلُ إثمَ الأَرِيسِيِّينَ ؟!!

* * *

(١) وكيف ينصرون ؟

موضوعُ كتابِ كَشْفِ الشُّبُهاتِ

(للشيخِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ ، قدَّسَ اللَّهُ رُوحَه)

أما موضوعُه فقد عبَّر عنه سَماحةُ الشيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ بقولِه :

هذا الكتابُ جوابٌ لشُبَهٍ اعْتَرَضَ بها بعضُ المُنْتَسِبين للعلمِ فى زمانِه عليه ؛ فإنَّ الشيخَ الإمامَ محمدَ بنَ عبدِ الوَهَّابِ رحِمه اللَّهُ لما تَصَدَّى لبيانِ التوحيدِ ، والدعوةِ إليه ، وتَفْصِيلِ أنواعِه ، والمُوالاةِ ، والمُعاداةِ فيه ، ومُصادمةِ مَن ضَادَّه ، وكَشْفِ شُبَهِ مَن شَبَّه عليه - وإن كانت أَوْهَى من خَيْطِ العَنْكَبُوتِ - وبيَّنَ ما عليه الكثيرُ من الشركِ الأكبرِ ، اعْتَرَضَ عليه بعضُ الجَهَلَةِ المُتَمَعْلِمِينَ .

أَزَّهم إبليسُ ، فجَمَعَوا شُبَهًا ، شَبَّهوا بها على الناسِ ، وزَعَمُوا أن الشيخَ رحِمه اللَّهُ يُكَفِّرُ المسلمين ، وحاشاه ذلك ؛ بل لا يُكَفِّرُ إلا مَن عَمِل مُكَفِّرًا[١] ، وقامَتْ عليه الحجةُ .

فأَجَابَهم المُصَنِّفُ بهذا الكتابِ ، وكَشَفَ شُبَهَهم بما تَطْمَئِنُّ به الألبابُ ، مِن نصوصِ السنةِ والكتابِ ، وما يَمِيزُ به المُنْصِفُ ما عليه الشيخُ وأتباعُه ، وما عليه أولئك .

وقدَّم مُقَدِّمةً فى بيانِ حقيقةِ دينِ المرسَلين ، وما دَعَوْا إليه ، وحقيقةِ دينِ المشركين ، وما كانوا عليه ، وبيَّنَ أن مُشْرِكى زمانِه هم أتباعُ دينِ المشركين . اهـ .

(١) ويأتى قوله : ليس المراد اللفظ ، بل اللفظ وإقرار وعمل . لكن لما كان العمل هو الأظهر للناس اكْتُفِى به هنا .

مُلَخَّصُ الشُّبُهاتِ وأَجْوِبَتُها

هذه «الشُّبَهُ» أجاب المُصَنِّفُ عنها بجوابٍ مُجْمَلٍ ، ومثَّل لذلك بآيةِ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس : ٦٢] ، وأنَّ الشفاعَةَ حقٌّ ، والأنبياءَ لهم جَاهٌ عندَ اللَّهِ ، ثم أجاب عن كلِّ شُبْهةٍ بجوابٍ يَخُصُّها ، أو جوابَيْنِ ، أو أكثرَ .

الشبهةُ الأولى : أنَّ مَن أقرَّ بتوحيدِ الرُّبوبيةِ - أنه لا يَخْلُقُ ، ولا يَرْزُقُ ، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا ﷺ لا يَمْلِكُ لنفسِه نفعًا ، ولا ضرًّا ، فضلًا عن عبدِ القادرِ أو غيرِه - وإنَّما قصَدَ من الصالحين الجاهَ والشفاعةَ فليس بمُشْرِكٍ .

والجوابُ : أنَّ الذين قاتَلَهم رسولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّون بما ذكَرْتَ ، وإنما أرادوا مثلَ ما أرَدْتَ .

الشبهةُ الثانيةُ : قولُه : إنَّ الآياتِ نزَلَت فيمَنْ يَعْبُدُ الأصنامَ ، ونحن لا نَعْبُدُ الأصنامَ .

الجوابُ : أن الكفارَ منهم مَن يَعْبُدُ الأصنامَ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الأولياءَ ، ومنهم مَن يَدْعو عيسى ابنَ مَرْيَمَ وأمَّه ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الملائكةَ ، ولا فرقَ بينَ المعبوداتِ[1] ، فالكلُّ شركٌ ، والكلُّ مُشْرِكون ، كفَّر اللَّهُ مَن يَعْبُدُ الأصنامَ ، وكفَّر مَن يَعْبُدُ الصالحين والملائكةَ .

الشبهةُ الثالثةُ : أنَّ طَلَبَ الشفاعةِ منهم ليس بشركٍ .

والجوابُ : أنَّ هذا هو قولُ الكفارِ ، سواءً بسواءٍ : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] ليس لهم قَصْدٌ إلَّا شيءٌ واحدٌ ، وهو طلبُ الشفاعةِ من ربِّ الجميعِ ، وأنه كفَّرهم بذلك .

(١) في أن شيئًا منها لا يصلح للإلهية .

الشبهةُ الرابعةُ : نَفْيُهم عِبادَةَ الصالحين ، مع أنهم يَدْعُونهم ، أو يَذْبَحون لهم ، ويُقِرُّون بأنَّ هذا عبادةٌ ، وأنَّ المشركين الأوَّلين هكذا كانت عبادتُهم . وإنْ أنْكَروا أنَّ هذا عبادةٌ ، أو جَهِلوا فهذه الآياتُ والأحاديثُ تُبَيِّنُ ذلك .

الشُّبْهةُ الخامسةُ : أنَّ مَن يُنْكِرُ طَلَبَ الشفاعةِ مِن الرسولِ والصالحين فهو مُنْكِرٌ لشفاعةِ الرسولِ ومُتَنَقِّصٌ للأولياءِ .

والجوابُ : أن الأمرَ بالعكسِ ؛ فإنَّ الشفاعةَ ملك للَّهِ ، ولا تكونُ إلا من بعدِ إذنِه ، ولا يَأْذَنُ اللَّهُ إلا لأهلِ التوحيدِ ، وأنَّ طَلَبَها مِن غيرِ اللَّهِ شركٌ ، وهو سببُ حِرْمانِها .

الشبهةُ السادسةُ : أنَّ النبيَّ ﷺ أُعْطِى الشفاعةَ ، وأنها تُطْلَبُ منه .

والجوابُ : أنَّ إعطاءَه الشفاعةَ إعطاءٌ مُقَيَّدٌ ، لا مُطْلَقٌ ، وشفاعتُه للعُصاةِ لا للمشركين ، وأيضًا الشفاعةُ أُعْطِيَها غيرُ الرسولِ ، فلا يَدُلُّ على أنه يُعْطِيها مَن سأَلَها ، ولا أنها تُطْلَبُ منه .

الشبهةُ السابعةُ : أنَّ الالتجاءَ إلى الصالحين ليس بشركٍ ، فليس مُشْرِكًا .

الجوابُ بالتَّحدِّى : يُسْأَلُ عن الشركِ ، ما هو ؟ وعن عبادةِ اللَّهِ ، ما هى ؟ فإنه لا يَدْرِى ما هو التوحيدُ ، ولا ما هو الشركُ الذى وَقَع فيه .

الشبهةُ الثامنةُ : قولُه : الشركُ عبادةُ الأصنامِ ، ونحن لا نَعْبُدُ الأصنامَ .

فيقالُ له : هل هم يَعْتَقِدون أنها تَخْلُقُ وتَرْزُقُ .

وإن قال : هو مَن قَصَدَ خَشَبَةً ، أو حجرًا ، أو بِنْيةً على قبرٍ ، أو غيرِه ، يَدْعُونه ، ويَذْبَحون له ، يقولون : إنه يُقَرِّبُنا إلى اللَّهِ زُلْفَى ، ويَدْفَعُ اللَّهُ عنا ببركتِه .

فهذا تفسيرٌ صحيحٌ لعبادةِ الأصنامِ ، وهو فعلُكم بعينِه ، مع أنَّ الشركَ ليس مخصوصًا بعبادةِ الأصنامِ .

الشبهةُ التاسعةُ : قولُهم : إنكم تُكَفِّرون المسلمين ؛ تَجْعَلُوننا مثلَ المشركين الأوَّلِين ، ونحن نَشْهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ونُصَدِّقُ بالبَعْثِ ، ونُصَلِّي ، ونَصُومُ ، ونَحُجُّ ، ونَعْتَمِرُ - وهم بالعكسِ - كيف تَجْعَلون مَن كان معَه هذه الخِصالُ ، وهذه الفروقُ كمَن ليس فيه منها شيءٌ؟

وقد أجاب عنها بتسعةِ أجوبةٍ ، بيَّن فيها أن هذه الفروقَ غيرُ مُؤَثِّرةٍ بالكتابِ والسنةِ والإجماعِ ، بل هذه الخِصالُ والفُروقُ مما يَتَغَلَّظُ بها كفرُهم .

مَن وُجِد منه مُكَفِّرٌ بأنْ صَدَّق الرسولَ فى شيءٍ ، وكذَّبه فى شيءٍ ، أو رفَعَ المخلوقَ فى رُتْبةِ الخالقِ ، أو غلا فى أحدٍ من الصالحين ، فادَّعَى فيه الألوهيةَ ، أو خالَفَ الشريعةَ فى أشياءَ ، مثلِ اسْتِحْلالِ نكاحِ الأُخْتَيْن .

أو وُجِد منه نوعٌ من أنواعِ الرِّدَّةِ ، أو اسْتَهْزَأ باللَّهِ أو آياتِه ، فهو مُرْتَدٌّ .

ليس من شرطِ الردةِ أن يَجْمَعَ أطرافَ الردةِ ، أو يَجْمَعَ الشِّرْكياتِ ، أو أنَّ ربَّ العالَمِين ومعبودَه واحدٌ فى جميعِ ما يَسْتَحِقُّ .

فإن الردةَ رِدَّتان : ردةٌ مطلقةٌ ، وهى الرجوعُ عما جاء به الرسولُ جُمْلةً .

والثانيةُ : أن يَكْفُرَ ببعضِ ما جاء به الرسولُ .

الشبهةُ العاشرةُ : أنَّ مَن قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ لا يُكَفَّرُ ، ولا يُقْتَلُ ، ولو فَعَلَ ما فعَلَ ، واسْتَدَلُّوا بأحاديثَ .

والجوابُ : أنها لا تَدُلُّ على ما زَعَمَ المُشَبِّهُ مِن أن مُجَرَّدَ قولِ لا إلهَ إلا اللَّهُ يَمْنَعُ مِن التَّكْفيرِ ، بل يَقولُها ناسٌ كثيرٌ ، وهم كفارٌ ؛ إما لعدمِ العلمِ بمعناها ، أو عدمِ العملِ بمُقْتَضَاها ، أو وجودِ ما يُنافِيها .

ومثَّل لذلك بأن اليهودَ يَقُولُونها ، وأصحابُ مُسَيْلِمةَ الذين قاتَلَهم الصحابةُ ، وكذلك الذين حرَّقَهم عليٌّ رضِى اللَّهُ عنه ، فقولُها باللسانِ لا

يَكْفِى فى عِصْمةِ الدمِ والمالِ .

الشبهةُ الحاديةَ عشَرَ : قولُهم : إنَّ الاستغاثةَ بغيرِ اللَّهِ ليست شركًا ؛ لجوازِ الاستغاثةِ بالأنبياءِ يومَ القيامةِ ، وقد بيَّن المؤلفُ جَهْلَهم حيث لم يُفَرِّقوا بينَ الاستغاثتين .

الشبهةُ الثانيةَ عشَرَ : استدلالُهم على أنَّ الاستغاثةَ بالأمواتِ والغائبين ليست شركًا بعَرْضِها على إبراهيمَ من جبْريلَ .

والجوابُ : أنَّ هذه الاستغاثةَ جِنْسٌ ، وتلك جنسٌ آخرُ ، فمَن سوَّى بينَهما فقد سوَّى بين المُتبايِنَيْنِ .

الخاتمــةُ :

فى بيانِ أنَّ التوحيدَ لابدَّ أن يكونَ بالقلبِ واللسانِ والعملِ ، فإنِ اخْتَلَّ شىءٌ من هذا لم يَكُنِ الرجلُ مُسْلِمًا .

هذا واللَّهَ أَسْأَلُ أن يَجْعَلَ هذا العملَ خالصًا لوجهِه الكريمِ ، إنه سَميعٌ قريبٌ مُجيبٌ ، وصلَّى اللَّهُ على محمدٍ ، وآلِه وصَحْبِه .

محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ قاسمٍ
٢٤/ ٤/ ١٤١٧هـ

تَرْجَمةُ الشارحِ

فضيلةِ الشيخِ / محمدِ بنِ صالحِ العُثَيْمِينَ

رحِمه اللَّهُ تعالى

* **نَسَبُه :**

هو أبو عبدِ اللَّهِ محمدُ بنُ صالحِ بنِ محمدِ بنِ عُثَيْمِينَ الوُهَيْبِيُّ التَّمِيمِيُّ .

* **مولدُه :**

وُلِدَ فى مدينةِ عنيزةَ فى ٢٧ رمضانَ المباركِ ١٣٤٧هـ .

* **نشأتُه :**

قَرَأَ القرآنَ الكريمَ على جَدِّه من جهةِ أمِّه عبدِ الرحمنِ بنِ سليمانَ آلِ دامِغٍ رحِمه اللَّهُ فحفِظه ، ثم اتَّجه إلى طلبِ العلمِ ، فتعَلَّم الخَطَّ والحسابَ ، وبعضَ فنونِ الآدابِ .

وكان الشيخُ عبدُ الرحمنِ السعدىُّ رحِمه اللَّهُ قد أقام اثنين من طلبةِ العلمِ عندَه ليُدَرِّسا الطلبةَ الصغارَ ؛ أحدُهما الشيخُ علىٌّ الصالحىُّ ، والثانى الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ العزيزِ المطوعُ رحِمه اللَّهُ .

قرَأ عليه مُخْتَصَرَ العقيدةِ الواسطيةِ للشيخِ عبدِ الرحمنِ السعدىِّ ، ومِنْهاجَ السالكين فى الفقهِ للشيخِ عبدِ الرحمنِ أيضًا ، والآجُرُّومية ، والألْفِيةَ .

وقرَأَ على الشيخِ عبدِ الرحمنِ بنِ علىِّ بنِ عودانَ فى الفرائضِ والفقهِ ، وقرَأَ على الشيخِ عبدِ الرحمنِ بنِ ناصرٍ السعدىِّ الذى يُعْتَبَرُ شيخَه الأولَ ، حيث لازَمَه ، وقرَأَ عليه التوحيدَ ، والتفسيرَ ، والحديثَ ، والفقهَ ، وأصولَ الفقهِ ، والفرائضَ ، ومُصْطَلَحَ الحديثِ ، والنحوَ والصَّرْفَ .

وكانَتْ لفضيلةِ الشيخِ مَنْزِلةٌ عظيمةٌ عندَ شيخِه رحِمه اللَّهُ ، فعندَما انْتَقَلَ والدُ الشيخِ محمدٍ رحِمه اللَّهُ إلى الرِّياضِ إبَّانَ أولِ تطوُّرِه رَغِبَ فى أن يَنْتَقِلَ معَه فضيلةُ ولدِه الشيخِ حفِظه اللَّهُ ، فكتَب له الشيخُ عبدُ الرحمنِ السعدىُّ رحِمه اللَّهُ : إن هذا لا يُمْكِنُ ، نُرِيدُ محمدًا أن يَمْكُثَ هنا حتى يَسْتَفِيدَ .

ويقولُ فضيلةُ الشيخِ حفِظَه اللَّهُ : إننى تأثَّرْتُ به كثيرًا فى طريقةِ التدريسِ ، وعَرْضِ العلمِ ، وتَقْرِيبِه للطلبةِ بالأمثلةِ والمَعانى ، وكذلك أيضًا تأثَّرْتُ به من ناحيةِ الأخلاقِ ؛ لأنَّ الشيخَ عبدَ الرحمنِ رحِمه اللَّهُ كانَ على جانبٍ كبيرٍ من الأخلاقِ الفاضلةِ ، وكان رحِمه اللَّهُ على قَدْرٍ كبيرٍ فى العلمِ والعبادةِ ، وكان يُمازِحُ الصغيرَ ، ويَضْحَكُ إلى الكبيرِ ، وهو من أحسنِ مَن رأَيْتُ أخلاقًا .

قرَأَ على سَماحةِ الشيخِ عبدِ العزيزِ بنِ بازٍ حيث يُعْتَبَرُ شيخَه الثانىَ ، فابْتَدَأ عليه قراءةَ صحيحِ البخارىِّ ، وبعضَ رسائلِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ ، وبعضَ الكتبِ الفقهيةِ .

يقولُ الشيخُ : «تأثَّرْتُ بالشيخِ عبدِ العزيزِ بنِ بازٍ حفِظَه اللَّهُ من جهةِ العنايةِ بالحديثِ ، وتأثَّرْتُ به من جهةِ الأخلاقِ أيضًا ، وبسطِ نفسِه للناسِ .

وفى عامِ ١٣٧١هـ جلَسَ للتدريسِ فى الجامعِ ، ولما فُتِحَت المعاهدُ العلميةُ فى الرياضِ الْتَحَقَ بها فى عامِ ١٣٧٢هـ .

يقولُ الشيخُ حفِظه اللَّهُ : دخَلْتُ المَعْهَدَ العِلْمىَّ من السنةِ الثانيةِ ، والْتَحَقْتُ به بمَشُورةٍ من الشيخِ علىٍّ الصالحىِّ ، بعدَ أن اسْتَأْذَنْتُ من الشيخِ عبدِ الرحمنِ السعدىِّ ، عليه رحمةُ اللَّهِ .

وكان المعهدُ العلمىُّ فى ذلك الوقتِ يَنْقَسِمُ إلى قسمين ؛ خاصٍّ وعامٍ ، فكنْتُ فى القسمِ الخاصِّ ، وكان فى ذلك الوقتِ أيضًا مَن شاء أن يَقْفِزَ - كما يُعَبِّرون - بمعنى أنه يُدَرِّسُ السنةُ المُسْتَقْبَلَةُ له فى أثناءِ الإجازةِ ، ثم يُخْتَبَرُها فى أولِ

العامِ الثانى ، فإذا نجحَ انْتَقَلَ إلى السنةِ التى بعدَها ، وبهذا اخْتَصَرْتُ الزمنَ . اهـ

وبعدَ سنتين تَخرَّج ، وعُيِّن مُدَرِّسًا فى معهدِ عنيزةَ العِلْمىِّ ، مع مُواصَلةِ الدراسةِ انْتِسابًا فى كليةِ الشريعةِ ، ومُواصَلَةِ طلبِ العلمِ على يدِ الشيخِ عبدِ الرحمنِ السعدىِّ .

ولما تُوُفِّى فضيلةُ الشيخِ عبدِ الرحمنِ السعدىِّ رحِمه اللَّهُ توَلَّى إمامةَ الجامعِ الكبيرِ بعنيزةَ ، والتدريسَ فى مكتبةِ عنيزةَ الوطنيةِ ، بالإضافةِ إلى التدريسِ فى المعهدِ العلمىِّ .

ثم انْتَقَلَ إلى التدريسِ فى كُلِّيتِي الشريعةِ وأصولِ الدينِ بفرعِ جامعةِ الإمامِ محمدِ بنِ سُعودٍ الإسلاميةِ بالقَصِيمِ حتىَّ الآنَ .

بالإضافةِ إلى عُضْويةِ هيئةِ كبارِ العلماءِ بالمملكةِ العربيةِ السعوديةِ .

ولفضيلةِ الشيخِ حفِظَه اللَّهُ نشاطٌ كبيرٌ فى الدعوةِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ وتَبْصِيرِ الدُّعاةِ فى كلِّ مكانٍ ، وله جُهودٌ مشكورةٌ فى هذا المجالِ .

والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ سَماحَةَ الشيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ قد عرَضَ ، بل أَلَحَّ على فضيلةِ الشيخِ فى توَلِّى القَضَاءِ ، بل أَصْدَرَ قرارَه بتَعْيينِه حفِظَه اللَّهُ تعالى رئيسًا للمحكمةِ الشرعيةِ بالأحساءِ ، فطلَبَ منه الإعفاءَ .

وبعدَ مُراجَعَاتٍ واتصالٍ شَخْصىٍّ من فضيلةِ الشيخِ سَمَحَ رحِمه اللَّهُ تعالى بإعفائِه من مَنْصِبِ القَضاءِ .

* **مُؤَلَّفاتُه :**

له حفِظَه اللَّهُ تعالى مُؤَلَّفاتٌ كثيرةٌ تَبْلُغُ ٤٠ ، ما بينَ كتابٍ ورسالةٍ ، وسوف تُجْمَعُ إن شاءَ اللَّهُ تعالى فى مجموعِ الفَتاوَى والرسائلِ .

* * *

المُقَدِّمةُ

الحمدُ للَّهِ نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه ، ونَعُوذُ باللَّهِ من شُرورِ أنفسِنا ، ومن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِه اللَّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هادىَ له ، وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شَريكَ له ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه ، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ ، وسَلَّم تسليمًا كثيرًا .

أما بعـــدُ :

فهذا شرحٌ يَسِيرٌ على كتابِ شيخِ الإسلام محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ المُسَمَّى **«كشفَ الشُّبُهاتِ»** ، والذى أوْرَدَ فيه المؤلفُ بِضْعَ عَشْرَةَ شُبْهَةً لأهلِ الشركِ ، وأجاب عنها بأحسنِ إجابةٍ ، مُدَعَّمةً بالدليلِ ، مع سُهولةِ المعنى ، ووُضُوحِ العبارةِ ، أَسْأَلُ اللَّهَ تعالى أن يُثِيبَه على ذلك ، وأن يَنْفَعَ بذلك العبادَ ، إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ .

محمدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين



مَتْنُ كَشْفِ الشُّبُهاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اعْلَمْ - رحِمك اللَّهُ- أنَّ التوحيدَ هو إفرادُ اللَّهِ سبحانه بالعبادةِ.

وهو دينُ الرُّسُلِ الذى أرْسَلَهم به إلى عبادِه، فأولُهم نوحٌ عليه السَّلامُ. أرْسَلَه اللَّهُ إلى قومِه لَمَّا غَلَوْا فى الصالِحينَ وَدًّا، وسُواعًا، ويَغُوثَ، ويَعُوقَ، ونَسْرًا.

وآخِرُ الرسلِ محمدٌ ﷺ، وهو الذى كسَّر صُوَرَ هؤلاء الصالحين.

أرْسَلَه اللَّهُ إلى أُناسٍ يَتَعَبَّدون، ويَحُجُّون، ويَتَصَدَّقُون، ويَذْكُرُون اللَّهَ كثيرًا، ولكنهم يَجْعَلون بعضَ المخلوقاتِ وَسائطَ بينَهم وبينَ اللَّهِ، يقولون: نُريدُ منهم التقرُّبَ إلى اللَّهِ، ونُريدُ شفاعتَهم عندَه، مثلَ الملائكةِ، وعيسى، ومريمَ، وأناسٍ غيرِهم من الصالحين.

فبعَث اللَّهُ محمدًا ﷺ يُجَدِّدُ لهم دينَ أبيهم إبراهيمَ عليه السلامُ، ويُخْبِرُهم أنَّ هذا التقرُّبَ والاعتقادَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ تعالى، لا يَصْلُحُ منه شىءٌ لغيرِ اللَّهِ، لا لمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا لنبيٍّ مُرْسَلٍ، فضلًا عن غيرِهما.

وإلا فهؤلاء المشركون يَشْهَدون أن اللَّهَ هو الخالقُ وحدَه لا شريكَ له، وأنه لا يَرْزُقُ إلا هو، ولا يُحْيِى إلا هو، ولا يُميتُ إلا هو، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا هو، وأنَّ جميعَ السماواتِ السبعِ، ومَن فِيهن، والأَرَضينَ السبعِ، ومَن فيهن، كلُّهم عبيدُه، وتحتَ تصرُّفِه وقَهْرِه.

فَإذَا أَرَدْتَ الدَّليلَ على أنَّ هؤلاء المُشْرِكِينَ الَّذينَ قَاتَلهُم رسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْهَدُون بهذا فَاقْرَأْ قولَه تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ

وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وَقَوْلَهُ : ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وَغيْرَ ذلك من الآياتِ.

فإذا تحَقَّقْتَ أنهم مُقِرُّون بهذا ، ولم يُدْخِلْهم في التوحيدِ الذي دعاهم إليه رسولُ اللَّهِ ﷺ ، وعرَفْتَ أنَّ التوحيدَ الذي جحَدُوه هو توحيدُ العبادةِ الذي يُسَمِّيه المشركون في زمانِنا (الاعتقادَ).

كما كانوا يَدْعُون اللَّهَ سبحانَه ليلًا ونهارًا ، ثم منهم مَن يَدْعو الملائكةَ ؛ لأجلِ صلاحِهم وقُرْبِهم من اللَّهِ ؛ ليَشْفَعوا له ، أو يَدْعُو رجلًا صالحًا مثلَ اللَّاتِ ، أو نبيًّا مثلَ عيسى.

وَعَرَفْتَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَاتَلَهُمْ على هذا الشِّرْكِ ، وَدَعَاهُمْ إلى إخْلاصِ العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرعد : ١٤].

وتحَقَّقْتَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ إنما قاتَلَهم ليكونَ الدعاءُ كلُّه للهِ ، والنَّذْرُ كلُّه للهِ ، والذَّبْحُ كلُّه للهِ ، والاستغاثةُ كلُّها باللَّهِ ، وجميعُ أنواعِ العبادةِ كلِّها للهِ.

وعَرَفْتَ أنَّ إقرارَهم بتوحيدِ الربوبيةِ لم يُدْخِلْهم في الإسلامِ ، وأنَّ قَصْدَهم الملائكةَ والأنبياءَ ، والأولياءَ يُريدون شفاعتَهم والتقرُّبَ إلى اللَّهِ بذلك هو الذي أحَلَّ دماءَهم وأموالَهم ، عرَفْتَ حينَئذٍ التوحيدَ الذي دعَتْ

إليه الرسلُ ، وأبَى عن الإقرارِ به المشركون.

وهذا التوحيدُ هو معنى قولِك : لا إلهَ إلا اللَّهُ.

فإن الإلهَ عندَهم هو الذي يُقْصَدُ لأجلِ هذه الأمورِ ، سواءٌ كان مَلَكًا ، أو نبيًّا ، أو وليًّا ، أو شجرةً ، أو قبرًا ، أو جِنِّيًّا ، لم يُريدوا أنَّ الإلهَ هو الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ ؛ فإنَّهم يَعْلَمون أنَّ ذلك للهِ وحدَه ، كما قدَّمْتُ لك ، وإنَّما يَعْنُون بالإلهِ ما يَعْني المشركون في زمانِنا بلفظِ : (السَّيِّد) فأتاهم النبيُّ ﷺ يَدْعُوهم إلى كلمةِ التوحيدِ ، وهي لا إلهَ إلا اللَّهُ.

والمرادُ مِن هذه الكلمةِ معناها ، لا مُجَرَّدُ لفظِها ، والكفارُ الجُهَّالُ يَعْلَمون أنَّ مُرادَ النبيِّ ﷺ بهذه الكلمةِ هو إفرادُ اللَّهِ تعالى بالتعلُّقِ به ، والكفرُ بما يُعْبَدُ مِن دونِ اللَّهِ ، والبَراءةُ منه ؛ فإنه لمَّا قال لهم قولوا : (لا إلهَ إلا اللَّهُ) قالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

فإذا عرَفْتَ أنَّ جُهَّالَ الكُفَّارِ يَعْرِفون ذلك ، فالعَجَبُ ممَّن يَدَّعِي الإسلامَ ، وهو لا يَعْرِفُ مِن تفسيرِ هذه الكلمةِ ما عرَفَه جُهَّالُ الكفارِ.

بل يَظُنُّ أنَّ ذلك هو التلفُّظُ بحروفِها مِن غيرِ اعتقادِ القلبِ لشيءٍ مِن المعاني ، والحاذقُ منهم يَظُنُّ أنَّ معناها : (لا يَخْلُقُ ، ولا يَرْزُقُ ، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا اللَّهُ) فلا خيرَ في رجلٍ ، جُهَّالُ الكفارِ أعْلَمُ منه بمعنى (لا إلهَ إلا اللَّهُ)...

إذا عرَفْتَ ما ذكَرْتُ لك معرفةَ قلبٍ ، وعرَفْتَ الشركَ باللَّهِ الذي قال اللَّهُ فيه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وعرَفْتَ دينَ اللَّهِ الذي أرْسَل به الرسلَ مِن أولِهم إلى آخرِهم ، الذي لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِن أحدٍ دينًا سواه .

وعرَفْتَ ما أصْبَح غالبُ الناسِ فيه من الجهلِ بهذا ، أفادك فائدتين :

الأولى : الفرحُ بفَضْلِ اللَّهِ ورحمتِه ، كما قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وأفادك أيضًا الخوفَ العظيمَ.

فإنك إذا عرَفْتَ أنَّ الإنسانَ يَكْفُرُ بكلمةٍ يُخْرِجُها من لسانِه ، وقد يَقولُها ، وهو جاهلٌ ، فلا يُعْذَرُ بالجهلِ.

وقد يقولُها ، وهو يَظُنُّ أنها قُرْبةٌ إلى اللَّهِ ، كما كان يَظُنُّ المشركون ، خصوصًا إن ألْهَمَك اللَّهُ تعالى ما قَصَّ عن قومِ موسى مع صلاحِهم وعلمِهم أنهم أتَوْه قائلين : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فحينئذٍ يَعْظُمُ خوفُك وحرصُك على ما يُخَلِّصُك من هذا وأمثالِه .

واعْلَمْ أنَّه سبحانَه من حكمتِه لم يَبْعَثْ نبيًّا بهذا التوحيدِ إلا جَعَلَ له أعداءً ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ .

وقد يكونُ لأعداءِ التوحيدِ عُلُومٌ كثيرةٌ ، وكُتُبٌ وحُجُجٌ ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ .

إذا عرَفْتَ ذلك ، وعرَفْتَ أنَّ الطريقَ إلى اللَّهِ لابُدَّ له من أعداءٍ قاعِدِين عليه ، أهلِ فَصَاحةٍ وعِلْمٍ وحُجَجٍ .

فالواجبُ عليك أن تَعْلَمَ من دينِ اللَّهِ ما يَصِيرُ لك سلاحًا ، تُقاتِلُ به هؤلاء الشياطينَ الذين قال إمامُهم ومُقَدَّمُهم لربِّك عزَّ وجلَّ : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

ولكن إذا أقْبَلْتَ على اللَّهِ ، وأصْغَيْتَ إلى حُجَجِه وبَيِّناتِه ، فلا تَخَفْ ، ولا تَحْزَنْ : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

والعامِّيُّ من المُوحِّدينَ يَغْلِبُ ألفًا من عُلماءِ هؤلاءِ المُشْركينَ ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ .

فجُندُ اللَّهِ هُمُ الغالِبُونَ بالحُجَّةِ واللِّسانِ ، كَما هُم الغالِبُونَ بالسَّيفِ والسِّنانِ ، وإنَّما الخَوْفُ على المُوحِّدِ الذي يَسْلُكُ الطَّريقَ ، وليسَ مَعَهُ سِلاحٌ .

وقَد مَنَّ اللَّهُ تعالى علَيْنَا بكِتَابِهِ الذي جَعَلهُ : ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

فَلا يأْتي صَاحِبُ باطلٍ بحُجَّةٍ إلَّا وفي القُرآنِ ما يَنْقُضُها ويُبَيِّنُ بُطلانَها ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ .

قال بعْضُ المُفَسِّرين : هذهِ الآيةُ عامَّةٌ في كُلِّ حُجَّةٍ يأتي بها أهْلُ البَاطلِ إلى يَوم القِيامةِ .

وَأَنَا أَذْكُرُ لك أشْياءَ مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ في كِتابِهِ جَوابًا لكَلامٍ احْتَجَّ بهِ المُشْركُونَ في زَمَانِنا عَلَيْنا .

فنقُولُ : جَوابُ أهْلِ الباطلِ من طَريقَينِ : مُجْمَلٍ ، ومُفَصَّلٍ .

أمَّا المُجْمَلُ : فهُو الأَمْرُ العَظيمُ والفائدةُ الكبيرةُ لِمَن عَقَلَها ، وذلك قولُه تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .

وقَدْ صَحَّ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنَّهُ قال : « إذَا رَأَيْتُم الذينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ فأولَئِكَ الذِينَ سَمَّى اللَّهُ فاحْذَرُوهُمْ » .

مِثالُ ذلكَ : إذا قالَ لَكَ بعْضُ المُشْركين : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ . أو إنَّ الشَّفاعةَ حقٌّ ، وإنَّ الأنْبياءَ لَهُم

جَاهٌ عِندَ اللَّهِ ، أو ذَكَرَ كَلامًا للنَّبِيِّ ﷺ ، يَستَدِلُّ بِهِ على شيءٍ مِنْ باطِلِهِ ، وَأنْتَ لا تَفْهَمُ مَعنَى الكَلامِ الذي ذَكَرَهُ .

فَجَاوِبْهُ بقولِك : إنَّ اللَّهَ ذَكَرَ في كِتابِهِ أنَّ الذينَ في قُلُوبِهم زَيْغٌ يَتْرُكُون المُحْكَمَ ويَتَّبِعونَ المُتشابِهَ ، وما ذَكَرْتُه لكَ مِن أنَّ اللَّهَ تَعالى ذَكَرَ أنَّ المُشْركينَ يُقِرُّونَ بالرُّبُوبيَّةِ ، وأنَّ كُفْرَهُم بتعَلُّقِهم عَلى المَلائِكَةِ والأنْبياءِ والأولياءِ ، مَعَ قولِهِم : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ .

هذَا أمْرٌ مُحْكَمٌ بيِّنٌ لا يَقْدِرُ أحَدٌ أن يُغَيِّرَ معنَاهُ .

وَما ذَكَرْتَه لِي أيُّها المُشْرِكُ من القُرآنِ أوْ كَلامِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أعْرِفُ مَعناهُ .

ولكن أقْطَعُ أنَّ كلامَ اللَّهِ لا يَتناقَضُ ، وَأن كَلامَ النَّبيِّ ﷺ لا يُخالِفُ كلَامَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

وهذا جَوابٌ جيِّدٌ سديدٌ ، ولكن لا يَفْهَمُهُ إلا مَن وفَّقَهُ اللَّهُ تعالى فلَا تَسْتَهِنْ به ؛ فإنَّه كما قال تعالى : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ .

وأمَّا الجوابُ المُفَصَّلُ فإن أعْداءَ اللَّهِ لَهُم اعْتراضَاتٌ كثيرةٌ علَى دِينِ الرُّسُلِ ، يصُدُّونَ بها النَّاسَ عنهُ ، مِنها قولُهم : نحن لا نُشْرِكُ باللَّهِ .

بل نَشهَدُ أنه لا يَخْلُقُ ولا يَرْزُقُ ولا يَنْفَعُ ولا يضُرُّ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ ، وأن مُحمَّدًا ﷺ لا يَملِكُ لنفْسِهِ نفعًا ولا ضرًّا ، فضْلًا عن عبدِ القَادِرِ أو غيْرِهِ ، ولكن أنا مُذْنِبٌ . والصَّالحُونَ لهم جاهٌ عنْدَ اللَّهِ ، وأطْلُبُ من اللَّهِ بهِم .

فجَاوِبْهُ بما تقدَّمَ ، وهُوَ : أن الذينَ قَاتَلُهم رسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بما

ذَكَرْتَ ، ومُقرُّونَ أن أوْثانَهُم لا تُدبِّرُ شيئًا ، وإنما أرَادُوا الجَاهَ والشَّفاعَةَ ، واقْرَأْ عليهِ ما ذَكَرَ اللَّهُ في كِتابِهِ ووَضَّحَهُ .

فإن قالَ : هؤلاءِ الآياتُ نزَلَتْ فيمَنْ يعبُدُ الأصْنامَ ، كيفَ تجْعلُونَ الصَّالحينَ مثلَ الأصْنامِ ؟ أم كيْفَ تجْعَلُونُ الأنْبياءَ أصْنامًا ؟ فجاوِبْهُ بمَا تقدَّمَ ؛ فإنَّه إذا أقَرَّ أنَّ الكُفَّارَ يشهَدُونَ بالرُّبُوبيةِ كُلِّها للهِ ، وأنَّهُم ما أرَادُوا مِمَّن قصَدُوا إلَّا الشَّفاعةَ ، ولكِن أرَادَ أن يُفرِّقَ بينَ فِعْلِهِمْ وفِعْلِه بمَا ذَكَرَهُ .

فاذْكُرْ لَهُ أنَّ الكُفارَ منْهُمْ مَن يَدْعُو الأصْنامَ ، ومِنْهُم مَن يَدْعُو الأوْلياءَ الذين قالَ اللَّهُ فيهم : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآيةُ .

ويَدْعُونَ عيسَى ابنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ ، وقد قَالَ تعالَى : ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)﴾ .

واذْكُرْ لهُ قولَه تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ .

وقَولَه تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ .

فقُلْ لهُ : أعَرَفْتَ أن اللَّهَ كفَّرَ مَن قَصَدَ الأصْنامَ ، وكَفَّرَ أيضًا مَن قَصَدَ الصَّالحِينَ ، وقاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ولم يُفرِّقْ بيْنَهُم .

فإن قَالَ : الكُفَّارُ يُرِيدُونَ منهُم ، وأنا أشْهَدُ أنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافعُ الضَّارُّ المُدَبِّرُ ، لا أُرِيدُ إلَّا منهُ ، والصَّالِحُونَ ليسَ لَهُمْ مِن الأمْرِ شيءٌ ، ولكِنْ أَقْصِدُهُم ، أرْجُو مِن اللَّهِ شَفَاعَتَهُم .

فالجَوابُ : أنَّ هذَا قوْلُ الكُفَّارِ سَواءً بسَواءٍ ، واقْرَأْ عليه قولَه تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ . وقولَه تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ .

واعْلَمْ أنَّ هذهِ الشُّبَهَ الثَّلاثَ هِي أكْبَرُ ما عندَهُمْ ، فإذَا عَرَفْتَ أنَّ اللَّهَ وضَّحَها لَنَا في كِتَابِهِ وفهِمْتَها فهمًا جيِّدًا فمَا بَعْدَها أيْسَرُ مِنها .

فإن قَالَ : أنَا لَا أعْبُدُ إلَّا اللَّهَ ، وهذَا الالْتِجَاءُ إلى الصَّالحينَ ودُعاؤُهُم ليسَ بعِبادَةٍ . فقُلْ لهُ : أنْتَ تُقِرُّ أنَّ اللَّهَ افْترضَ عليكَ إخْلاصَ العِبادَةِ للهِ ، وهُو حَقُّهُ عليكَ ، فإذَا قَالَ : نعمْ . فقُلْ لهُ : بيِّنْ لي هَذَا الذي فُرِضَ عليكَ ، وهو إخْلاصُ العِبادَةِ للهِ وحْدَه ، وهُوَ حقُّهُ عليكَ ، فإنْ كانَ لا يَعْرِفُ العِبادَةَ ولا أنْوَاعَهَا ، فبَيِّنْها لهُ بقَوْلِكَ : قالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

فإذا أعْلَمْتَهُ بهذا ، فقُلْ لَهُ : هلْ عَلِمْتَ هذا عِبادَةً للهِ ؟ فلَابُدَّ أن يقُولَ : نَعَمْ ، والدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ . فقُلْ لَهُ إذا أقْرَرْتَ أنَّه عِبادَةٌ ، ودَعَوْتَ اللَّهَ ليْلًا ونَهارًا ، خوفًا وطَمعًا ، ثم دَعَوْتَ في تِلْكَ الحَاجَةِ نَبيًّا أو غَيْرَهُ هلْ أشْرَكْتَ في عِبادَةِ اللَّهِ غيْرَهُ ؟ فلابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ . فقُلْ له : فإذَا عَلِمْتَ بقولِ اللَّهِ تَعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ وأطَعْتَ اللَّهَ ونَحَرْتَ له ، هلْ هذَا عِبادَةٌ ؟ فلَابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ .

فقُلْ له : إذَا نَحَرْتَ لمخْلُوقٍ نَبيٍّ ، أو جنِّيٍّ ، أو غيْرِهما ، هل أشْرَكْتَ في هذِهِ العِبادَةِ غيرَ اللَّهِ ؟ فلَابُدَّ أن يُقِرَّ ويقُولَ : نعمْ . وقُل له أيضًا : المُشرِكُونَ

الذينَ نزَلَ فيهمُ القُرآنُ ، هل كانُوا يعْبُدُونَ الملائِكَةَ والصَّالِحِينَ واللَّاتَ وغيرَ ذلكَ ؟ فلَابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ ، فقُل له : وهل كَانتْ عِبَادَتُهُمْ إيَّاهُم إلَّا في الدُّعَاءِ والذَّبْحِ والالْتِجَاءِ ونحوِ ذَلِكَ ؟ وإلَّا فهُمْ مُقِرُّونَ أنهُم عبِيدُهُ وتحتَ قَهْرِهِ ، وأن اللَّهَ هوَ الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ ، ولكن دَعَوْهم والْتَجأُوا إليهم لِلْجَاهِ والشَّفاعَةِ ، وهذَا ظَاهِرٌ جِدًّا .

فإن قَالَ : أتُنْكِرُ شَفاعَةَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وتَبْرَأُ منها ؟ فقُل : لا أُنْكِرُها ، ولَا أَتَبَرَّأُ منها ؛ بل هُوَ ﷺ الشَّافِعُ المُشَفَّعُ ، وأرْجُو شَفَاعَتَهُ ، ولكنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّها للهِ تعالى ، كما قَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ .

ولَا تَكُونُ إلَّا من بعْدِ إذنِ اللَّهِ ، كمَا قَالَ تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

ولا يَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ في أحدٍ إلَّا من بعدِ أن يأْذَنَ اللَّهُ فيهِ ، كما قَالَ تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ . وهو سُبحانَهُ لَا يَرْضَى إلَّا التَّوحِيدَ ، كما قالَ تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ . فإذا كانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا للهِ ، ولَا تَكُونُ إلَّا من بَعدِ إذْنِهِ ، وَلا يَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ ، ولَا غَيْرُهُ في أحَدٍ حتى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ ، ولَا يَأذَنُ اللَّهُ تعالى إلَا لأَهْلِ التَّوحِيدِ ، تَبَيَّنَ لَكَ أن الشَّفَاعَةَ كُلَّها للهِ ، فأَطْلُبُهَا منهُ ، فأَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْني شَفَاعَتَهُ ، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ ، وأَمْثَالَ هَذَا .

فإن قَالَ : النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنا أطْلُبُهُ مِمَّا أعْطَاهُ اللَّهُ تَعالى .

فالجَوابُ : أن اللَّهَ أعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ ونَهَاكَ عن هَذَا ، فقال تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فإذا كنتَ تَدْعُو اللَّهَ أن يُشَفِّعَ نَبيَّهُ فيكَ فأَطِعْهُ في قولِهِ : ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ .

وأيضًا فإنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَها غيرُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَصحَّ أنَّ الملائِكَةَ يَشْفَعونَ ،

والأَولِيَاءَ يَشْفَعُون ، والأفْرَاطَ يَشْفَعُونَ ، أتَقُولُ : إنَّ اللَّهَ أعْطاهُمُ الشَّفَاعَةَ فأَطْلُبُها منهُم ؟ فإن قُلْتَ هذا رَجَعْتَ إلى عِبَادَةِ الصَّالِحِينِ التي ذَكَرَ اللَّهُ في كِتَابِهِ ، وإن قُلْتَ : لَا . بَطَلَ قَوْلُكَ : أَعْطاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ .

فإن قَالَ : أنا لَا أُشْرِكُ باللَّهِ شَيئًا ، حَاشَا وَكلّا ، ولكنَّ الالْتِجَاءَ إلى الصَّالِحِينَ ليسَ بشِرْكٍ .

فقُل لَهُ : إذَا كُنْتَ تُقِرُّ أنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِن تَحْرِيمِ الزِّنى ، وَتُقِرُّ أن اللَّهَ لا يَغْفِرُهُ ، فَمَا هذا الأَمْرُ الذي حَرَّمَهُ اللَّهُ وذَكَرَ أنَّهُ لا يَغْفِرُهُ ؟ فإنَّه لا يَدْرِي .

فقُل له : كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفسَكَ مِن الشِّرْكِ ، وَأَنْتَ لا تَعْرِفُهُ ؟ أَمْ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هذَا ، ويَذْكُرُ أنَّه لا يَغْفِرُهُ ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ ، ولا تَعْرِفُهُ ؟ أَتَظُنُّ أن اللَّهَ يُحَرِّمُهُ ، وَلا يُبَيِّنُهُ لنَا؟ .

فإن قَالَ : الشِّرْكُ عِبادَةُ الأَصْنَامِ ، ونحنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ .

فقُل له الجَوَابَ الأَوَّلَ :

ما مَعنَى عِبَادَةِ الأَصْنَام؟ أَتَظُنُّ أنَّهُم يَعْتَقِدُونَ أن تِلْكَ الأَخْشَابَ والأَحْجَارَ تَخْلُقُ ، وتَرْزُقُ ، وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها ؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ القُرآنُ .

وإن قالَ : هُوَ مَن قَصَدَ خَشَبَةً ، أو حَجَرًا ، أو بِنْيَةً علىَ قَبْرٍ ، أو غَيْرِه ، يَدْعُونَ ذلكَ ، ويَذْبَحُونَ له ، يَقُولُونَ : إنَّه يُقَرِّبُنا إلى اللَّهِ زُلْفَى ، وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بِبَرَكَتِه ، أو يُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ .

فقُل : صَدَقْتَ ، وهذا هو فِعْلُكُمْ عندَ الأَحْجَارِ والأَبْنِيَةِ التي علىَ القُبُورِ وغيرِها ، فهذَا أقَرَّ أنَّ فِعْلَهُم هذَا هو عِبَادَةُ الأَصْنَامِ ؛ فَهُوَ المَطْلُوبُ .

الجَوَابُ الثَّاني :

ويُقالُ له أيضًا : قوْلُكَ : الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأصْنَام ، هل مُرَادُكَ أن الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بهذَا ، وأن الاعْتِمَادَ على الصَّالِحِينَ وَدُعاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ في ذَلِك ؟ فهَذا يَرُدُّ ما ذكَرَهُ اللَّهُ في كِتابِهِ مِن كُفرِ مَن تَعَلَّقَ على المَلائِكَةِ أو عيسَى أو الصَّالِحِينَ ، فلابُدَّ أن يُقِرَّ لَكَ أن مَن أشْرَكَ في عِبَادَةِ اللَّهِ أحَدًا من الصَّالِحِينِ فهذا هُوَ الشِّرْكُ المَذْكُورُ في القُرآنِ ، وهذا هو المَطْلُوبُ .

وَسِرُّ المَسْأَلَةِ : أنَّه إذا قالَ : أَنَا لا أُشْرِكُ باللَّهِ .

فقُل له : وَمَا الشِّرْكُ باللَّهِ ؟ فَسِّرْهُ لِي ؟

فَإن قالَ : هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَام .

فقُل : ومَا مَعْنَى عِبَادَةِ الأصْنَامِ ؟ فَسِّرْهَا لِي .

فإن قَالَ : أنا لا أَعْبُدُ إلَّا اللَّهَ وحْدَهُ . فقُل : ما مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَه ؟ فَسِّرْهَا لِي . فإن فَسَّرَها بِمَا بَيَّنَهُ القُرْآنُ فهوَ المَطْلُوبُ ، وإن لم يَعْرِفْهُ فكيفَ يَدَّعِي شَيئًا ، وهُوَ لا يَعْرِفُهُ ؟

وإن فَسَّرَ ذلك بغَيرِ مَعناهُ بَيَّنْتَ له الآيَاتِ الوَاضِحَاتِ في معْنَى الشِّركِ باللَّهِ وَعِبادَةِ الأوْثَانِ ، وأنهُ الذي يَفْعَلُونَهُ في هذا الزَّمانِ بعَيْنِهِ ، وأن عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هِيَ التي يُنْكِرُونَ علَيْنَا ، وَيَصِيحُونَ فيهِ ، كمَا صَاحَ إخْوانُهُم حَيثُ قَالُوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ .

فإذا عَرَفْتَ أن هذَا الذي يُسَمِّيهِ المُشْرِكُونَ في زَمَانِنا « كَبِيرَ الاعتِقَادِ » هو الشِّرْكُ الذي نَزَلَ فيهِ القُرْآنُ ، وقَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ عَليهِ ، فاعْلَمْ أن شِرْكَ الأوَّلِينَ أخَفُّ من شِرْكِ أهْلِ زَمَانِنَا بأمْرَيْنِ :

أحَدُهُمَا : أن الأوَّلِينَ لا يُشْرِكونَ ، وَلا يَدْعُونَ الملائِكَةَ والأَوْلِياءَ وَالأَوْثَانَ مَعَ اللَّهِ

إلَّا في الرَّخَاءِ ، وَأَمَّا في الشِّدَّةِ فَيُخْلِصُونَ للهِ الدِّينَ ، كَما قَالَ تَعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ .

وقال تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ ، وقَالَ تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إلى قولِه : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ . وقولِه تعالى : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ .

فَمَنْ فَهِمَ هذهِ المَسْأَلَةَ التي وَضَّحَها اللَّهُ في كِتَابِهِ ، وهِيَ أَنَّ المُشْرِكِينَ الذينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَ اللَّهَ تعالى ، ويَدْعُونَ غَيْرَهُ في الرَّخَاءِ ، وأَمَّا في الضَّرَّاءِ والشِّدَّةِ فَلا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، ويَنْسَوْنَ سَادَاتِهِم ، تَبَيَّنَ لَهُ الفَرْقُ بَيْنَ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا وشِرْكِ الأَوَّلِينَ ، ولكن أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هذِهِ المَسْأَلَةَ فَهْمًا رَاسِخًا ؟! واللَّهُ المُسْتَعانُ .

والأَمْرُ الثَّاني : أَنَّ الأَوَّلِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أُنَاسًا مُقَرَّبِينَ عِندَ اللَّهِ إِمَّا أَنْبياءُ ، وَإِمَّا أَوْلِياءُ ، وإِمَّا مَلائِكَةٌ ، أَو يَدْعُونَ أَحْجَارًا ، أَو أَشْجَارًا مُطِيعةً للهِ ، لَيْسَت عَاصِيَةً ، وأَهْلُ زَمانِنا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أُنَاسًا من أَفْسَقِ النَّاسِ ، والَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمُ الذين يَحْكُونَ عنهُمُ الفُجُورَ ؛ مِنَ الزِّنَى ، والسَّرِقَةِ ، وَتَرْكِ الصَّلاةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، والذي يَعْتَقِدُ في الصَّالِحِ ، أو الذي لا يَعْصِي مِثْلَ الخَشَبِ وَالحَجَرِ أَهْوَنُ مِمَّن يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشاهِدُ فِسْقَهُ وفَسَادَهُ ، ويَشْهَدُ بِهِ .

إذا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الذين قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولًا ، وأَخَفُّ شِرْكًا من هَؤُلاءِ ، فاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَها عَلى ما ذَكَرْنا ، وهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوابِها ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُون : إِنَّ الذِينَ نَزَلَ فِيهِم القُرْآنُ لا يَشْهَدونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ويُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ ﷺ ، وَيُنْكِرونَ

البَعْثَ ، ويُكَذِّبُونَ القُرْآنَ ويَجْعَلُونَهُ سِحْرًا ، وَنحنُ نَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَنُصَدِّقُ القُرْآنَ ، وَنُؤمِنُ بالْبَعْثِ ، وَنُصَلِّي ، وَنَصُومُ ، فكَيْفَ تَجْعَلُونَنا مِثْلَ أُولَئِكَ .

فالجَوَابُ : أنْ لَا خِلافَ بَيْنَ العُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أن الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في شَيءٍ ، وَكَذَّبَهُ في شَيءٍ ، فإنَّهُ كَافِرٌ ، لَمْ يَدْخُلْ في الإِسْلامِ ، وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ القُرْآنِ ، وجَحَدَ بَعْضَهُ ، كَمنْ أَقَرَّ بالتَّوحِيدِ ، وجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ ، أَوْ أَقَرَّ بالتَّوْحِيدِ والصَّلاةِ ، وجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ ، وَجَحَدَ الصَّوْمَ ، أو أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ ، وجَحَدَ الحَجَّ .

ولَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أُنَاسٌ في زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ للحَجِّ أَنْزَلَ اللَّهُ في حَقِّهِمْ : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] .

وَمَنْ أَقَرَّ بهذا كُلِّه ، وجَحَدَ البَعْثَ كَفَرَ بالإِجْمَاعِ ، وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ ، كَمَا قَالَ تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ .

فإذَا كان اللَّهُ قَدْ صَرَّحَ في كِتَابِه ، أنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ ، وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ الكَافِرُ حَقًّا ، زَالَتْ هذِهِ الشُّبْهَةُ ، وَهَذِهِ هي التي ذَكَرَها بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ في كِتَابِهِ الذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا .

وَيُقالُ أيضًا : إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ في كُلِّ شيءٍ ، وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ ، فهو كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالمَالِ بالإِجْمَاعِ ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بكُلِّ شَيءٍ إِلَّا بالبَعْثِ ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وُجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ ، وصدَّق بالباقي ، وهنا لَا تَخْتَلِفُ المَذَاهِبُ فِيهِ ، وقَدْ نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا .

فَمَعْلُومٌ أنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِها النَّبِيُّ ﷺ ، هُوَ أَعْظَمُ مِن الصَّلاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، والصَّوْمِ ، والحَجِّ .

فكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الإِنْسَانُ شَيْئًا مِن هَذِهِ الأُمُورِ كَفَرَ ، وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ ما جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الذِي هُو دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لا يَكْفُرُ ؟! سُبْحَانَ اللَّهِ ، ما أَعْجَبَ هَذَا الجَهْلَ .

وَيُقَالُ أيضًا : هَؤلاءِ أصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ ، وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَيُؤَذِّنُونَ وَيُصَلُّونَ .

فإنَّ قَالَ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ .

قُلْنَا : هَذا هُوَ المَطْلُوبُ ، إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا إلى رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ ، وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهادَتَانِ ، وَلَا الصَّلَاةُ ، فكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شمسانَ أوْ يُوسُفَ أوْ صَحَابِيًّا أو نَبِيًّا إلى مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ ؟! سُبْحَانَ اللَّهِ ، ما أَعْظَمَ شَأْنَهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

وَيُقَالُ أيضًا : الذين حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ بالنارِ رضِيَ اللَّهُ عَنهُ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الإِسْلامَ ، وَهُمْ مِنْ أصْحابِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ ، وَتَعَلَّمُوا العِلْمَ مِن الصَّحَابةِ ، ولكن اعْتَقَدُوا في عَلِيٍّ مِثْلَ الاعْتِقَادِ في يُوسُفَ وشمسانَ وَأَمْثَالِهِمَا ، فكَيْفَ أجْمَعَ الصَّحَابَةُ على قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ؟ أَتَظُنُّونَ أنَّ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرونَ المُسْلِمينَ ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أنَّ الاعْتِقَادَ في تاجٍ وأَمْثَالِهِ لا يَضُرُّ ، وَالاعْتِقَادَ في عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللَّهُ عنهُ يُكَفِّرُ؟ .

ويقالُ أيضًا : بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحُ الذِينَ مَلَكُوا المَغْربَ ومِصْرَ في زَمَانِ بَنِي العَبَّاسِ ، كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ،

ويَدَّعُونَ الإسْلامَ ، ويُصَلُّونَ الجُمُعَةَ والجَمَاعةَ ، فَلمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ في أشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ علَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ ، وَأَنَّ بِلادَهُمْ بِلادُ حَرْبٍ ، وَغَزَاهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا ما بَأيْدِيهِم مِنْ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ .

وَيُقَالُ أيضًا : إذَا كَانَ الأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إلَّا أَنَّهُم جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وتَكْذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ وَالقُرْآنِ ، وإنْكَارِ البَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فما مَعْنَى البَابِ الذِي ذَكَرَه العُلَمَاءُ في كُلِّ مَذْهَبٍ : (بَابُ حُكْمِ المُرْتَدِّ) وَهُوَ المُسْلِمُ يَكْفُرُ بَعْدَ إسْلامِهِ ، ثُمَّ ذَكَرُوا أنواعًا كَثِيرَةً ، كُلُّ نُوْعٍ مَنها يُكَفِّرُ ، وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ ، حَتَّى إنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا ، مِثْلَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُها بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ ، أو يَذْكُرُها عَلى وَجْهِ المَزْحِ واللَّعِبِ .

ويُقَالُ أيضًا : الذِين قَالَ اللَّهُ فِيهم : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة : ٧٤] . أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ كَفَّرَهُمْ بِكَلِمَةٍ ؟ مَعَ كَوْنِهِمْ في زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ ، وَيُصَلُّونَ معه ، ويُزَكُّونَ ، وَيَحُجُّونَ ، وَيُوحِّدُونَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ قالَ اللَّهُ فيهِم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

فَهَؤلاءِ الذِينَ صَرَّحَ اللَّهُ فِيهمْ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ ، قَالُوا كلمَةً ذَكَرُوا أَنَّهم قَالُوهَا علَى وَجْهِ المَزْحِ .

فتَأَمَّلْ هذِهِ الشُّبْهَةَ ، وَهِيَ قَوْلُهُم : تُكَفِّرُونَ المُسْلمينَ ، أُناسًا يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ ، ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَها ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ ما في هذِهِ الأَوْرَاقِ .

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أيضًا ما حَكَى اللَّهُ تعالى عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ مَعَ

إسْلامِهِم وَعِلْمِهِم وَصَلاحِهِم أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف : ١٣٨] . وَقَوْلُ أُنَاسٍ مِن الصَّحابةِ : «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْواطٍ » فَحَلَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذَا نَظِيرُ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ .

وَلَكِن لِلْمُشْرِكينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِها عِنْدَ هَذِهِ القَصَّةِ ، وهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ بَنِي إِسْرائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ قَالُوا للنَّبِيِّ ﷺ : اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْواطٍ . لَمْ يَكْفُرُوا .

فَالجَوَابُ : أَنْ نقُولَ : إنَّ بَنِي إِسْرَائيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ، وَلَا خِلافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا ، وَكَذَلِكَ لا خِلَافَ في أَنَّ الذِينَ نَهَاهُمُ النَّبيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ ، واتَّخَذُوا ذاتَ أَنْواطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لكَفَرُوا . وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ .

وَلَكِن هَذِه القِصَّةُ تُفِيدُ أَنَّ المُسْلِمَ - بَلِ العَالِمَ - قَدْ يَقَعُ في أَنْواعٍ مِنَ الشِّرْكِ لا يَدْرِي عَنْها ، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ والتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الجَاهِلِ : (التَّوْحِيدَ فَهِمْنَاهُ) أَنَّ هذا مِنْ أَكْبَرِ الجَهْلِ وَمَكايِدِ الشَّيْطَانِ .

وتُفِيدُ أيضًا أنَّ المُسْلِمَ المُجْتَهِدَ إذا تَكَلَّمَ بِكَلامِ كُفْرٍ ، وَهُوَ لا يَدْرِي ، فَنُبِّهَ عَلَى ذَلِكَ ، فَتابَ مِن ساعَتِهِ أَنَّه لا يَكْفُرُ ، كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرائِيلَ ، وَالذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ .

وَتُفِيدُ أيضًا أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الكَلامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَلِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ أُخْرَى يَقُولُونَ : إنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ عَلَى أُسَامَةَ قَتْلَ مَنْ قَالَ : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، وَقَالَ : «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » وَأَحادِيثُ

أُخَرُ في الكَفِّ عَمَّنْ قَالَها ، وَمُرَادُ هُؤلاءِ الجَهَلَةِ أَنَّ مَنْ قَالَها لا يَكْفُرُ ، وَلا يُقْتَلُ ، وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ .

فَيُقَالُ لِهَؤُلاءِ الجُهَّالِ : مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَ اليَهُودَ وَسَبَاهُمْ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُصَلُّونَ ، ويَدَّعُونَ الإِسْلامَ ، وَكَذلِكَ الذِينَ حَرَّقَهُم عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ بِالنَّارِ .

وهَؤُلاء الجَهَلةُ مُقِرُّونَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ كَفَرَ وَقُتِلَ ، وَلَوْ قَال لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ شَيئًا مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ كَفَرَ وَقُتِلَ ، وَلَوْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فكَيْفَ لا تَنْفَعُهُ إذا جَحَدَ فَرْعًا مِن الفُرُوعِ ، وتَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الذِي هُوَ أَصْلُ دِينِ الرُّسُلِ وَرَأْسُهُ ؟!

وَلَكِنَّ أَعْداءَ اللَّهِ ما فَهِمُوا مَعنَى الأَحَادِيثِ .

فَأَمَّا حَدِيثُ أُسَامَةَ فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ادَّعَى الإِسْلامَ بِسَبَبِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ ما ادَّعَى الإِسْلامَ إِلَّا خَوْفًا على دَمِهِ وَمَالِه ، والرَّجُلُ إذا أَظْهَرَ الإِسْلامَ وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنْهُ ما يُخَالِفُ ذَلِكَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالى في ذَلِكَ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء : ٩٤] ؛ أَيْ : فتَثَبَّتُوا ، فالآيَةُ تَدُلُّ على أَنَّهُ يَجِبُ الكَفُّ عَنْهُ والتَّثبُّتُ ، فَإِذا تَبَيَّنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ ما يُخَالِفُ الإِسْلَامَ قُتِلَ ؛ لقولِهِ : ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وَلَوْ كَانَ لا يُقْتَلُ إِذَا قَالَها لَمْ يَكُنْ للتَّثَبُّتِ مَعْنًى .

وَكَذَلِكَ الحَدِيث الآخَرُ وَأَمْثَالُه مَعْنَاهُ ما ذَكَرْنَاهُ ، أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ والتَّوحِيدَ وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُ إِلَّا إِنْ تَبَيَّنَ مِنْهُ ما يُنَاقِضُ ذَلِكَ .

والدَّلِيلُ على هَذَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الذي قال : «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» . وَقَالَ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، هُو

الذِي قَالَ فِي الخَوَارِجِ : «أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُم» ، «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» . مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَةً وتَهْلِيلًا وتَسْبِيحًا ، حَتَّى إِنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَهُمْ ، وَهُمْ تَعَلَّمُوا العِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَلَمْ تَنْفَعْهُم لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلا كَثْرَةُ العِبَادةِ ، وَلا ادِّعَاءُ الإِسْلامِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُخَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ .

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِن قِتَالِ اليَهُودِ ، وَقِتَالِ الصَّحَابَةِ بَنِي حَنِيفَةَ ، وَكَذَلِكَ أَرَادَ ﷺ أَنْ يَغْزُوَ بني المُصْطَلِقِ لَمَّا أَخْبَرَهُ رَجُلٌ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات : ٦] . وَكَانَ الرَّجُلُ كَاذِبًا عَلَيْهِم ، وكلُّ هَذَا يَدُلُّ علَى أنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ في الأحَادِيثِ التِي احْتَجُّوا بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ .

ولَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى : وَهي ما ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بآدَمَ ، ثُمَّ بنُوحٍ ، ثُمَّ بإِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ بمُوسَى ، ثُمَّ بعِيسَى ، فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُ حَتَّى يَنْتَهُوا إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قالُوا : فَهَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ الاسْتِغَاثَةَ بغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَتْ شِرْكًا .

وَالجَوَابُ : أَنْ نَقُولَ : سُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ على قُلُوبِ أَعْدَائِه ؛ فَإِنَّ الاسْتِغَاثَةَ بالمَخْلُوقِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْه لا نُنْكِرُهَا ، كَمَا قَالَ تعالى في قصَّةِ مُوسى : ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص : ١٥] ، وَكَمَا يَسْتَغيثُ الإِنْسَانُ بأَصْحَابِهِ في الحَرْبِ أَوْ غَيْرِها في أَشْيَاءَ يَقْدِرُ عَلَيْها المَخْلُوقُ ، وَنَحْنُ أَنْكَرْنَا اسْتِغَاثَةَ العِبَادَةِ التِي يَفْعَلُونَهَا عِندَ قُبُورِ الأَوْلِيَاءِ ، أَو في غَيْبَتِهم في الأَشْياءِ التِي لا يَقْدِرُ علَيْها إِلَّا اللَّهُ .

إذا ثَبَتَ ذَلِكَ فالاسْتِغَاثَةُ بالأَنْبِيَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ أَن يَدْعُوا اللَّهَ

أن يُحاسِبَ النَّاسَ حتَّى يَسْتَرِيحَ أهْلُ الجَنَّةِ مِنْ كَرْبِ المَوْقِفِ ، وَهَذَا جَائِزٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْتِيَ عِندَ رَجُلٍ صَالِحٍ حيٍّ يُجَالِسُكَ ، وَيَسْمَعُ كَلامَكَ ، وتَقُولُ لَهُ : ادْعُ اللَّهَ لِي ، كَمَا كَانَ أَصْحابُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ ذَلِكَ في حَيَاتِهِ ، وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ فَحَاشَا وَكَلَّا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِهِ ، بَلْ أَنْكَرَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَلَى مَنْ قَصَدَ دُعَاءَ اللَّهِ عِنْد قَبْرِهِ فَكَيْفَ بِدُعَائِهِ نَفْسِهِ؟ .

وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى ، وَهِي قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْه السَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ في النَّارِ اعْتَرَضَ لَهُ جِبْرِيلُ في الهواءِ فَقَالَ : أَلَكَ حَاجَةٌ ؟ فَقالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْه السَّلامُ : أَمَّا إِلَيْكَ فَلا . قَالُوا : فَلَوْ كَانَت الاسْتِغَاثَةُ بِجِبْرِيلَ شِرْكًا لَمْ يَعْرِضْها عَلى إِبْرَاهِيمَ .

فالجَوَابُ : أنَّ هَذا مِن جِنْسِ الشُّبْهَةِ الأُوْلى ؛ فَإنَّ جِبْرِيل عَرَضَ عَلَيْه أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْه ؛ فَإِنَّهُ كَما قالَ اللَّهُ تَعالى فِيهِ : ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فَلَوْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَارَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَوْلَها من الأَرْضِ وَالجِبَالِ وَيُلْقِيَها في المَشْرِقِ أَوْ المَغْرِبِ لَفَعَلَ ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ إِبْرَاهِيمَ عليْه السَّلَامُ في مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنهُم لفَعَلَ ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يرفَعَهُ إلى السَّمَاءِ لَفَعَلَ ، وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيٍّ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ يَرَى رَجُلًا مُحْتَاجًا فَيَعْرِضُ عَلَيْه أَنْ يُقْرِضَهُ ، أَوْ أَنْ يَهَبَهُ شَيئًا يَقْضِي بِهِ حَاجَتَهُ ، فَيَأْبَى ذَلِكَ الرَّجُلُ المُحْتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ ، ويَصْبِرُ حَتَّى يَأتِيَهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ ، لا مِنَّةَ فِيهِ لأَحَدٍ ، فأَيْنَ هَذَا مِن اسْتِغَاثَةِ العِبَادَةِ والشِّرْكِ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ؟! .

وَلْنَخْتِمِ الكَلامَ - إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالى - بِمَسْأَلةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا تُفْهَمُ مِمَّا تَقَدَّمَ ، وَلَكِنْ نُفْرِدُ لَهَا الكَلامَ ، لعِظَمِ شَأْنِها ، ولكَثْرَةِ الغَلَطِ فيها ، فَنَقُولُ : لا خِلَافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بالقَلْبِ واللِّسَانِ وَالعَمَلِ ، فَإِنِ اخْتَلَّ شيءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُسْلِمًا .

فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ ، مُعَانِدٌ ، كَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ ،

وَأَمْثَالِهِمَا .

وهَذا يَغْلَطُ فِيهِ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، يَقُولُونَ : هَذَا حَقٌّ ، ونَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا ، ونَشْهَدُ أَنَّهُ الحَقُّ ، وَلَكِنْ لا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ ، ولا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنا إلَّا مَنْ وَافَقَهُم ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ .

وَلَمْ يَدْرِ المِسْكِينُ أنَّ غَالِبَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ يَعْرِفُونَ الحَقَّ ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ إلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الأَعْذَارِ ، كَمَا قَالَ تعالى : ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِن الآياتِ ، كَقولِه : ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ .

فَإنْ عَمِلَ بالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا ، وَهُوَ لا يَفْهَمُهُ ، ولا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ ، فَهُوَ مُنافِقٌ ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الكَافِرِ الخَالِصِ : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .

وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ مَسْأَلةٌ كَبيرةٌ طَويلَةٌ تُبَيِّنُ لَكَ إذَا تَأَمَّلْتَها في أَلْسِنَةِ النَّاسِ ، تَرَى مَنْ يَعْرِفُ الحَقَّ ، ويَتْرُكُ العَمَلَ بِهِ لِخَوْفِ نَقْصِ دُنْيا ، أَوْ جاهٍ ، أَوْ مُداراةً لأَحَدٍ ، وتَرَى مَنْ يَعْمَلُ بِهِ ظاهِرًا لا بَاطِنًا ، فَإذَا سَأَلْتَهُ عَمَّا يَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ فَإذا هُوَ لَا يَعْرِفُهُ .

وَلَكنْ عَلَيْكَ بفَهْمِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ :

أُولاهُمَا : ما تَقَدَّمَ مِن قَوْلِه : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة : ٩٦] ، فَإذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ بَعْضَ الصَّحابَةِ الذِينَ غَزَوُا الرُّومَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَفَرُوا بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالُوها عَلى وَجْهِ المَزْحِ وَاللَّعِبِ ، تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الذِي يَتَكَلَّمُ بالْكُفْرِ ، أَوْ يَعْمَلُ بِهِ ؛ خَوْفًا مِن نَقْصِ مَالٍ ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ مُدَارَاةً لأَحَدٍ أَعْظَمُ مِمَّن يَتَكَلَّمُ بكَلِمةٍ يَمْزَحُ بِهَا .

والآيَةُ الثَّانيةُ : قَولُه تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل : ١٠٦] . فَلَمْ يَعْذُرِ اللَّهُ مِن هؤلاءِ

إلَّا مَنْ أُكْرِهَ مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئِنًّا بالإيمَانِ ، وأَمَّا غَيْرُ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بعْدَ إيمانِهِ ، سَواءٌ فَعَلَهُ خَوْفًا ، أو مُدَاراةً ، أو مَشَحَّةً بِوَطَنِهِ أَوْ أَهْلِهِ ، أو عَشِيرَتِه أو مَالِهِ ، أو فَعَلَهُ عَلى وَجْهِ المَزْحِ ، أو لغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأغْرَاضِ ، إلَّا المُكْرَهَ .

فَالآيةُ تَدُلُّ عَلى هذا مِن جِهَتَيْن :

الأُولى : قولُه : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فَلَمْ يَسْتَثْنِ اللَّهُ تعالى إلَّا المُكْرَهَ ، ومَعْلُومٌ أنَّ الإنْسَانَ لا يُكْرَهُ إلَّا عَلى العَمَلِ أو الكَلَامِ ، وَأَمَّا عَقِيدَةُ القَلْبِ فَلَا يُكْرَهُ أَحَدٌ عَليها .

والثَّانِيةُ : قَولُه تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ﴾ . فصَرَّحَ أنَّ هذَا الكُفْرَ والعَذَابَ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ الاعْتقَادِ ، أو الجَهْلِ ، أو البُغْضِ للدِّينِ ، أو مَحَبَّةِ الكُفْرِ ، وَإنَّما سَبَبُهُ أنَّ لَهُ في ذَلِكَ حَظًّا من حُظُوظِ الدُّنْيا ، فآثَرَهُ عَلَى الدِّينِ .

واللَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى أعْلَمُ وَأَعَزُّ وأَكْرَمُ ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ ، وصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

* * *



شَرْحُ كَشْفِ الشُّبُهاتِ

بسمِ اللهِ[١] الرحمنِ[٢] الرحيمِ[٣]

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ[١] رحِمه اللَّهُ** : لفظُ الجَلالةِ عَلَمٌ على البارِى جلَّ وعلا ، وهو الاسمُ الذى تَتْبَعُه جميعُ الأسماءِ .

حتى إنه فى قولِه تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ١، ٢] ، لا نقولُ : إنَّ لفظَ الجلالةِ (**اللَّه**) صفةٌ ، بل نَقولُ : هى عطفُ بَيانٍ ؛ لئلا يكونَ لفظُ الجلالةِ تابعًا تَبَعِيةَ النعتِ للمنعوتِ .

ولهذا قال العلماءُ : أَعْرَفُ المعارفِ لفظُ (**اللَّه**) ؛ لأنَّه لا يَدُلُّ على أحدٍ سِوَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ[٢] .

(٢) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ** : الرحمنُ اسمٌ مِن الأسماءِ الـمُخْتَصَّةِ باللَّهِ ، لا يُطْلَقُ على غيرِه ، ومعناه : الـمُتَّصِفُ بالرحمةِ الواسعةِ .

(٣) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ** : الرحيمُ اسمٌ يُطْلَقُ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ وعلى غيرِه ، ومعناه : ذو الرحمةِ الواصِلةِ .

فالرحمنُ ذو الرحمةِ الواسعةِ ، والرحيمُ ذو الرحمةِ الواصلةِ ، فإذا جُمِعا صار المرادُ بالرحيم الـمُوصِلَ رحمتَه إلى مَن يشاءُ مِن عبادِه ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت : ٢١] ، والمرادُ بالرحمنِ الواسعُ الرحمةِ .

---

(١) كلمة (عثيمين) الأشبه أن تكون من الملحقات بجمع المذكر السالم ، باعتبار أنها مما سُمِّي به من هذا الجمع ، كـ(عابدين) فهى بأصل وضعها جمع للاسم (عُثَيْم) - اسم راوٍ من الرُّواة - ثم نقلت منه إلى اسم للشيخ رحمه الله ، وإذا كانت ملحقة بجمع المذكر السالم فإن نونها تفتح دائمًا فى الرفع والنصب والجر . والله أعلم .

(٢) انظر القواعد الأساسية للهاشمى ص ٧٩، ٨٠ .

اعْلَمْ(١) - . . . .

وابْتَدَأ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى كتابَه بالبَسْملةِ؛ اقتداءً بكتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنه مبدوءٌ بالبسملةِ، واقتداءً برسولِ اللَّهِ ﷺ، فإنه يَبْدَأُ كتبَه ورسائلَه بالبسملةِ[١].

والجارُّ والمجرورُ مُتَعَلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ، مُؤَخَّرٍ، مُناسِبٍ للمَقامِ، تقديرُه: بسمِ اللَّهِ أكْتُبُ.

وقدَّرْناه فعلًا؛ لأنَّ الأصلَ في العملِ الأفعالُ.

وقدَّرْناه مُؤَخَّرًا لفائدتين:

الأولى: التَّبَرُّكُ بالبداءةِ باسمِ اللَّهِ تعالى.

الثانيةُ: إفادةُ الحَصْرِ؛ لأنَّ تقديمَ المُتعَلِّقِ يُفيدُ الحصرَ.

وقدَّرْناه مناسبًا؛ لأنه أدلُّ على المرادِ، فلو قلنا مثلًا عندَما نُريدُ أن نَقْرَأَ كتابًا: بسمِ اللَّهِ نَبْتَدِئُ، ما يُدْرَى بماذا نَبْتَدِئُ، لكن بسمِ اللَّهِ نَقْرَأُ أَدَلُّ على المرادِ.

و**قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ**: ابْتَدَأ المُصَنِّفُ رحِمه اللَّهُ كتابَه بالبسملةِ؛ اقتداءً بالكتابِ العزيزِ، وتأسِّيًا بالنبيِّ ﷺ في مكاتباتِه ومُراسلاتِه؛ فإنه كان يَبْدَأُها بالبَسْمَلةِ، وعملًا بحديثِ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ - أي: حالٍ وشأنٍ يُهْتَمُّ به شرعًا - لا يُبْدَأُ فيه بـ «بسمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ» فهو أقطعُ»[٢].

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:**

قَدَّمَ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ بعدَ البسملةِ مُقَدِّمَةً نافعةً في بيانِ حقيقةِ دينِ المُرْسَلِينَ، وما دَعَوْا إليه، وحقيقةِ دينِ المشركينَ وما كانوا عليه، ليَعْلَمَ الإنسانُ حقيقةَ دينِهم

---

(١) ومن ذلك الخطاب الذي أرسله النبي ﷺ إلى هِرَقْلَ، رواه البخاري (٧)، ومسلم ٣/ ١٣٩٣ (١٧٧٣).

(٢) رواه الخطيب في الجامع (١٢١٠)، وضعَّفه الحافظ في الفتح ٨/ ٢٢٠.

. . . .

عندَ وُرُودِ الشُّبُهاتِ ، ويعلمَ مَن هو أَوْلَى بدينِ المرسلينَ مِن دينِ المشركينَ ، ثم ذكَرَ شُبُهَاتِهم التى أَوْرَدُوهَا عليه ، وأجابَ عنها ، حيثُ قال : وأنا أذكرُ لك أشياءَ مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ فى كتابِهِ جوابًا لكلامٍ احْتَجَّ به المشركونَ فى زمانِنا علينا . . . إلخ .
وهى موضوعُ الكتابِ .

(اعْلَمْ) هذه كلمةٌ يُؤْتَى بها عندَ ذكرِ الشيءِ الذى له أهميةٌ ، ويَنْبَغِى أن يُصْغِيَ إليه المُتَعَلِّمُ ، ويَتَفَهَّمَ ما يُلْقَى إليه ، وما قرَّرَهُ المصنِّفُ فى هذا الكتابِ حقيقٌ بأن يُصْغَى إليه غايةَ الإصغاءِ .

وهذه الكلمةُ يأتى بها المُتَكَلِّمُ لقصدِ التَفَهُّم لِمَا بَعْدَهَا ؛ أى : اجْمَعْ قُوَاكَ وحَواسَّكَ ، وكُن مُتَفَهِّمًا لِمَا يُلْقَى إليك بعدَها ، ولَا شيءَ أعظَمُ مِن أن يُعْتَنَى به ، ويُلْقَى له السمعُ والقلبُ أعظمُ مِن كلمةِ التوحيدِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ : العِلْمُ هو إدراكُ الشيءِ على ما هو عليه إدراكًا جازمًا .

ومراتبُ الإدراكِ ستٌّ :

الأولى : العلمُ ، وتقَدَّم تعريفُهُ .

الثانيةُ : الجهلُ البسيطُ ، وهو عدمُ الإدراكِ بالكُلِّيةِ .

الثالثةُ : الجهلُ المُرَكَّبُ ، وهو إدراكُ الشيءِ على وجهٍ يُخالِفُ ما هو عليه .

وسُمِّى مُرَكَّبًا ؛ لأنَّه جَهْلان : جهلُ الإنسانِ بالواقعِ ، وجهلُه بحالِه ، حيثُ ظنَّ أنه عالمٌ ، وليس بعالمٍ .

الرابعةُ : الوَهْمُ ، وهو إدراكُ الشيءِ مع احتمالِ ضدٍّ راجحٍ .

الخامسةُ : الشكُّ ، وهو إدراكُ الشيءِ مع احتمالِ ضدٍّ مساوٍ .

رحِمك اللَّه[١]- أنَّ التوحيدَ[٢] هو إفرادُ اللَّهِ سبحانه . . . .

السادسةُ : الظنُّ ، وهو إدراكُ الشيءِ مع احتمالِ ضدٍّ مرجوحٍ .

والعلمُ يَنْقسَمُ إلى قسمين : ضروريٌّ ونظريٌّ .

فالضروريُّ ما يكونُ إدراكُ المعلومِ فيه ضروريًّا ؛ بحيث يُضْطَرُّ إليه مِن غيرِ نظرٍ ، ولا استدلالٍ ، كالعلمِ بأن النارَ حارةٌ مثلًا .

والنظريُّ ما يَحْتاجُ إلى نظرٍ واستدلالٍ ، كالعلمِ بوجوبِ النيةِ فى الوضوءِ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(رحِمك اللَّهُ) كثيرًا ما يَجْمَعُ المُصنِّفُ رحِمه اللَّهُ بينَ الدعاءِ للطالبِ مع ما قَرَّرَهُ ووضَّحَهُ ، وهذا مِن حُسْنِ مَسْلكِهِ ومَحَبَّتِهِ ورحمتِهِ بالمسلمينَ .

ورحِمك اللَّهُ ؛ أى : غَفَرَ لك فيما مَضَى ، ووفَّقَك فيما يُسْتَقْبَلُ .

وقال **الشيخُ ابنُ عُثَيْمينَ رحِمه اللَّهُ** : أى : أفاض اللَّهُ عليك مِن رحمتِه التى تَحْصُلُ بها على مطلوبِك ، وتَنْجُو مِن مَحذورِك ، فالمعنى : غفَرَ اللَّهُ لك ما مضَى من ذنوبِك ، ووفَّقك وعصَمَك فيما يُسْتَقْبَلُ منها ، هذا إذا أُفْرِدَت الرحمةُ .

أمَّا إذا قُرِنَت بالمغفرةِ فالمغفرةُ لما مضَى من الذنوبِ ، والرحمةُ والتوفيقُ للخيرِ والسلامةُ مِن الذنوبِ فى المستقبلِ .

وصَنيعُ المؤلفِ رحِمه اللَّهُ يَدُلُّ على شفقتِه وعنايتِه بالمخاطَبِ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ : (أنَّ التوحيدَ)** الذى بُعِثَتْ به الرُّسُلُ وأولَ واجبٍ على المُكَلَّفِ علمًا وعَمَلًا .

وقال **الشيخُ ابنُ عُثَيْمينَ رحِمه اللَّهُ :**

التوحيدُ لغةً : مَصْدَرُ وحَّد يُوَحِّدُ ؛ أى : جعَل الشيءَ واحدًا ، وهذا لا يَتَحَقَّقُ إلا بنفيٍ

. . . .

وإثباتٍ ؛ نفيُ الحكمِ عما سِوَى الموحَّدِ ، وإثباتُه له ؛ لأنَّ النفيَ وحدَه تعطيلٌ ، والإثباتَ وحدَه لا يَمْنَعُ المشاركةَ .

فمثلًا لا يَتِمُّ للإنسانِ التوحيدُ حتى يَشْهَدَ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، فيَنْفِيَ الأُلوهيةَ عما سِوَى اللَّهِ تعالى ، ويُثْبِتَها للهِ وحدَه .

وفى الاصطلاح عرَّف المؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى التوحيدَ بقولِه : التوحيدُ هو إفرادُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بالعبادةِ ؛ أى : أن تَعْبُدَ اللَّهَ وحدَه ، ولا تُشْرِكَ به شيئًا ، بل تُفْرِدَه وحدَه بالعِبادةِ محبةً ، وتعظيمًا ، ورغبةً ، ورهبةً .

ومرادُ الشيخِ رحِمه اللَّهُ تعالى التوحيدُ الذى بُعِثَ الرسلُ لتحقيقِه ؛ لأنه هو الذى حصَل الإخلالُ به ، والخلافُ بينَ الرسلِ وأُمَمِهم .

وهناك تعريفٌ أعمُّ للتوحيدِ ، وهو : إفرادُ اللَّهِ سبحانَه وتعالى بما يَخْتَصُّ به .

وأنواعُه ثلاثةٌ :

الأولُ : توحيدُ الربوبيةِ ، وهو إفرادُ اللَّهِ تعالى بالخلقِ ، والملكِ ، والتدبيرِ . قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢] . وقال تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [فاطر : ٣] ، وقال تعالى : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ [الملك : ١] ، وقال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

الثانى : توحيدُ الأُلوهيةِ ، وهو إفرادُ اللَّهِ تعالى بالعبادةِ بأن لا يَتَّخِذَ الإنسانُ مع اللَّهِ أحدًا يَعْبُدُه كما يَعْبُدُ اللَّهَ ، أو يَتَقَرَّبُ إليه كما يَتَقَرَّبُ إلى اللَّهِ تعالى .

الثالثُ : توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ ، وهو إفرادُ اللَّهِ سبحانَه وتعالى بأسمائِه وصفاتِه الواردةِ فى كتابِه وسنةِ رسولِه ﷺ ، وذلك بإثباتِ ما أثْبَتَه ، ونفيِ ما نفاه ، مِن غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومن غيرِ تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ .

بالعبادةِ[١] . . . .

---

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(**هو إفرادُ اللَّهِ سبحانَه بالعبادَةِ**) فـ (**أَلْ**) فيه للعَهْدِ ، والـمُصَنِّفُ كثيرًا ما يَعْتَمِدُ هذه العبارةَ ، وهى أحسنُ التَّعَارِيفِ وأحْصَرُها .

نَعْرِفُ أن التوحيدَ ثلاثةُ أقسامٍ :

الأولُ : توحيدُ الأُلُوهِيَّةِ والعبادةِ ، وهو المَعْنِيُّ هنا .

الثانى : توحيدُ الرُّبُوبيَّةِ ، وهو العلمُ والإقرارُ بأنَّ اللَّهَ هو الخالقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ وحدَه .

الثالثُ : توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ ، وهو أن يُوصَفَ اللَّهُ بما وَصَفَ به نفسَهُ فى كتابِهِ ، وبما وصَفَهُ به رسولُه محمدٌ ﷺ فى السُّنَّةِ ، مِن غيرِ تَحْرِيفٍ ولا تَعْطِيلٍ ، ومِن غيرِ تَكْييفٍ ولا تمثيلٍ .

والقسمُ الأولُ هو مَدْلُولُ كلمةِ لا إلهَ إلا اللَّهُ مطابقةً ، وإن كانت قد دلَّت على القِسْمَيْنِ الأوَّلينِ بطريقِ التَّضَمُّنِ[١] .

(**والعبادةُ**) مُشْتَقَّةٌ مِن التَّعَبُّدِ ، وهو التَّذَلُّلُ والخُضُوعُ . يقالُ : طريقٌ مُعَبَّدٌ ؛ أى :

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فى شرح القواعد المثلى ص ٣٠** : أنواع الدَّلالة ثلاثة : دَلالة المطابقة ، والتضمن ، والالتزام .

ودلالة المطابقة : هو أن يدل اللفظ على جميع أجزاء معناه وأفراده .

ودلالة التضمن : دلالته على جزء معناه .

ودلالة الالتزام : دلالته على لازم خارج .

مثال ذلك : السيارة . فكلمة «سيارة» تدل على كل السيارة ؛ هيكلها ، وعجلاتها ، وبَطَّاريتها ، وكل شيء ، من باب المطابقة .

وتدل على العجلات فقط ، وعلى البطارية فقط بالتضمن ، وتدل على الذى صنعها بالالتزام ؛ لأن لها صانعًا ، فلم تصنع نفسها . اهـ

وهو دينُ الرُّسُلِ الذى أرْسَلَهم به إلى عبادِه[1]، فأولُهم نوحٌ . . . . .

مُذَلَّلٌ قد وطِئَتْهُ الأقدامُ. وسُمِّيَتْ وظائفُ الشرعِ على المكلَّفينَ عباداتٍ؛ لأنهم يَفْعَلُونَهَا خاضعينَ ذليلينَ.

وفى الشرعِ لها تعاريفُ عندَ العلماءِ؛ أحدُها ما عرَّفها به شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية بقولِه: العبادةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّهُ اللَّهُ ويَرْضَاهُ مِن الأقوالِ والأعمالِ الظاهرَةِ والباطنةِ[1].

ومنها ما عرَّفَه الفقهاءُ بقولِهم: العبادةُ ما أُمِرَ به شرعًا مِن غيرِ اطِّرَادٍ عُرْفِيٍّ، ولا اقْتِضَاءٍ عقليٍّ.

ومنها ما عرَّفَها به ابنُ القَيِّمِ رحِمه اللَّهُ بقولِه:

وعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وعليهما فَلَكُ العَبَادَةِ دَائِرٌ ... ما دَارَ حَتَّى قَامَتِ القُطْبَانِ
ومَدَارُه بالأمْرِ أمرِ رسولِهِ ... لا بالهَوَى والنَّفْسِ والشيطانِ[2]

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:

(وهو دينُ الرُّسُلِ الذى أرسلَهُمُ اللَّهُ به إلى عبادِهِ) عرَّفَهُ بأنَّهُ دينُ جميعِ المرسَلينَ من أولِهم إلى آخرِهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وإن تفرَّقَتْ شرائعُهُم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٤٩.
(٢) شرح القصيدة النونية لمحمد خليل هراس ١/ ١١١.

. . . .

جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة : ٤٨] ، وقال ﷺ : «الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهاتُهُمْ شَتَّى ، ودينُهُمْ واحدٌ»[1] . فدينُ جميعِ الرسلِ واحدٌ ، والذى بُعِثُوا به هو عبادةُ اللَّهِ ، والذى بُعِثُوا به هو الذى مِن أجلِهِ خُلِقَ الخلقُ ، وهو الذى مِن أجلِهِ أُرْسِلَتِ الرسُلُ ، وأُنْزِلت الكُتُبُ .

وقال الشيخ ابنُ عُثَيمينَ رحمه اللَّهُ :

مرادُ الشيخِ رحمه اللَّهُ تعالى هنا توحيدُ الألوهيةِ ، فهو دينُ الرسلِ ، فكلُّهم أُرْسِلوا بهذا الأصلِ الذى هو التوحيدُ ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وهذا النوعُ هو الذى ضَلَّ فيه المشركون الذين قاتَلَهم النبىُّ ﷺ ، واسْتَبَاح دماءَهم ، وأموالَهم ، وأرْضَهم ، وديارَهم ، وسَبَى نساءَهم وذريتَهم .

ومَن أخَلَّ بهذا التوحيدِ فهو مُشْرِكٌ كافرٌ ، وإنَّ أقرَّ بتوحيدِ الربوبيةِ والأسماءِ والصفاتِ .

فإفرادُ اللَّهِ وحدَه بالعبادةِ هو دينُ الرسلِ ، الذى أرْسَلَهم اللَّهُ به إلى عبادِه ، كما

---

(١) البخارى (٣٤٤٣) ، ومسلم ٤/ ١٨٣٧ (٢٣٦٥) .

قال النووى رحمه الله فى شرح مسلم ٨/ ١٣٢: قال العلماء : أولاد العَلَّات - بفتح العين المهملة ، وتشديد اللام - هم الإخوة لأب من أمهات شتى ، وأما الإخوة من الأبوين ، فيقال لهم : أولاد الأعيان .

قال جمهور العلماء : معنى الحديث : أصل إيمانهم واحد ، وشرائعهم مختلفة ؛ فإنهم متفقون فى أصول التوحيد ، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف . اهـ

وانظر الفتح ٦/ ٤٨٩ .

عليه السَّلامُ(١) .

قال الشيخُ رحمه اللَّهُ ، فها هو أولُ الرسلِ نوحٌ عليه السلامُ يقولُ ، كما حَكَى اللَّهُ عنه : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود : ٢٥ ، ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود : ٦١] .

وقال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود : ٨٤] .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحمه اللَّهُ :**

(**فأولُهُم نوحٌ عليه السلامُ**) نوحٌ هو أولُ رسولٍ بُعِثَ إلى أهلِ الأرضِ ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ . وكان بنُو آدمَ قَبْلَهُ عشرةَ قُرُونٍ ، كُلُّهُم على دينِ الإسلامِ(١) .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحمه اللَّهُ :

هذا حقٌّ ، فإنه لم يُبْعَثْ قبلَ نوحٍ عليه الصلاةُ والسلامُ رسولٌ ، وبهذا نَعْلَمُ خطأَ المُؤَرِّخِين الذين قالوا : إن إدريسَ عليه الصلاةُ والسلامُ كان قبلَ نوحٍ ؛

---

(١) **روى الطبرى فى تفسيره ٢/ ٣٣٤، والحاكم فى مستدركه ٢/ ٤٨٠، ٥٩٦، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :** كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط البخارى ، ولم يخرجاه .

ورواه الطبرى أيضا فى تفسيره ٢٩/ ٩٩، عن عكرمة ، ولفظه : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام .

أرْسَلَه اللَّهُ إلى قومِه لَمَّا غَلَوْا فى الصالِحينَ[١] وَدًّا ، وسُواعًا ، ويَغُوثَ ،

لأنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء : ١٦٣] .

وفى الحديثِ الصحيحِ فى قصةِ الشفاعةِ : « أنَّ الناسَ يَأْتُون إلى نوحٍ ، فيقولون له : أنت أولُ رسولٍ أرْسَلَه اللَّهُ إلى أهلِ الأرضِ »[١] .

فلا رسولَ قبلَ نوحٍ بإجماعِ العلماءِ .

فنوحٌ أولُ الرسلِ بالكتابِ ، والسنةِ ، والإجماعِ .

ونوحٌ عليه الصلاةُ والسلامُ أحدُ الرُّسُلِ الخمسةِ ، الذين هم أولو العَزْمِ ، وهم : محمدٌ ﷺ ، وإبراهيمُ ، وموسى ، ونوحٌ ، وعيسى ، عليهم الصلاةُ والسلامُ ، وقد ذكَرَهم اللَّهُ فى موضِعَيْن من كتابِه ؛ فى سورةِ الأحزابِ ، وسورةِ الشورى[٢] .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(أرسلَهُ اللَّهُ إلى قَوْمِهِ لمَّا غَلَوْا فى الصالحينَ) ، فأولُ ما حدَثَ الشِّرْكُ فى قومِ نوحٍ بسببِ الغلوِّ ، وهو مُجَاوَزَةُ الحَدِّ فى محبةِ الصالحينَ ، وتَعْظِيمُهُم فَوْقَ ما شَرَعَهُ اللَّهُ ؛ عَظَّمُوهُم تعظيمًا غيرَ سائغٍ لهم بأن عَكَفُوا على قبورِهم ، ثم صَوَّرُوا تماثيلَهم ، وإن كانوا ما عبَدُوهُم ، وإنما عَبَدُوا الصُّورَ ؛ لأنهم لم يأمُرُوهم بعبادَتِهم ، وإن كانوا أيضًا لم يَعْبُدُوا الصورَ ، وإنما عبَدُوا الشيطانَ فى الحقيقةِ ؛ لأنَّه الذى أمَرَهُم .

وبه تُعْرَفُ مَضَرَّةُ الغُلُوِّ فى الصالحينَ فإنَّه الهَلاكُ كلَّ الهَلاكِ ، فإن الشركَ بهم

---

(١) البخارى (٤٧١٢) ، ومسلم ١/ ١٨٥ (٣٢٧) .

(٢) **قال تعالى في سورة الأحزاب :** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ .

وقال تعالى في سورة الشورى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ .

. . . .

أقربُ إلى النفوسِ من الشركِ بالأشجارِ والأحجارِ ، وإذا وقَعَ في القلوبِ صَعُبَ إخراجُهُ منها ، ولهذا أتتِ الشريعةُ بقطعِ وسائِلِه وذرائعِهِ المُوصِلةِ إليه ، والمُقَرِّبَةِ منه .

والوسائلُ إمَّا **قوليةٌ أو فعليةٌ** ، وهؤلاء غَلَوا فعلًا ، غَلَوْا بكثيرةِ التَّرَدُّدِ إلى قبورِهِم ، وهذا فيه مشروعٌ ، لكن زادُوا فيه ، وغلَوْا بالعُكوفِ ، وهو نفسُهُ عبادةٌ ووسيلةٌ إلى عبادةِ أربابِهَا .

فلما رأى منهم الشيطانُ ذلك زيَّن لهم تَصْويرَهُم . وهاتانِ الذريعتانِ – التصويرُ والعكوفُ – من أعظمِ الوسائلِ المُوصِلَةِ إلى الشِّرْكِ كما تقدَّم ، ويَأتِي .

وقال الشيخُ ابنُ عُثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

يعني : أنَّ اللَّهَ أرْسَل نوحًا عليه الصلاةُ والسلامُ إلى قومِه ، لَمَّا وقَع فيهم الغُلُوُّ فى الصالحين ، وقد بوَّب المؤلفُ رحِمه اللَّهُ فى كتابِ التوحيدِ على هذه المسألةِ ، فقال : بابُ ما جاء أن سببَ كفرِ بنى آدمَ وتركِهم دينَهم هو الغُلُوُّ فى الصالحين[١] .

والغُلُوُّ هو : مُجاوَزةُ الحدِّ فى التعبُّدِ والعملِ والثناءِ ، قَدْحًا ، أو مدحًا .

والغلوُّ يَنْقَسِمُ إلى أربعةِ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : الغُلُوُّ فى العقيدةِ ، كغُلُوِّ أهلِ الكلامِ فى الصفاتِ ، حتى أدَّى بهم ، إمَّا إلى التمثيلِ ، أو التعطيلِ .

والوَسَطُ مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ بإثباتِ ما أَثْبَتَه اللَّهُ لنفسِه ، أو أثْبَتَه له

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٤٦٥ .

. . . .

رسولُه ﷺ من الأسماءِ والصفاتِ ، من غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومِن غيرِ تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ .

القسمُ الثانى : الغُلُوُّ فى العباداتِ ، كغلوِّ الخَوارجِ[1] الذين يَرَوْنَ كفرَ فاعلِ الكبيرةِ ، وغُلُوِّ المُعْتَزِلَةِ[2] ، حيث قالوا : إن فاعلَ الكبيرةِ بمنزلةٍ بينَ المنزلتين .

وهذا التشَدُّدُ قابَلَه تَساهُلُ المُرْجِئةِ[3] ، حيث قالوا : لا يَضُرُّ مع الإيمانِ ذَنْبٌ .

---

(١) سُمُّوا بهذا الاسم ؛ لخروجهم على الإمام على رضى الله عنه ، ونزلوا بأرض يقال لها : حَرُوراء . فسموا بالحَرُورية ، وهم الذين يُكَفِّرون أصحاب الكبائر ، ويقولون بأنهم مخلدون فى النار ، كما يقولون بالخروج على أئمة الجَوْر ، وأن الإمامة جائزة فى غير قريش ، وهم يكفرون عثمان وعليًّا رضى الله عنهما وطلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم ويعظمون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما .

الفِصَل فى المِلَل والأهواء والنِّحَل ٢/ ١١٣ ، والمِلَل والنحل للشَّهْرَستانى ١/ ١٥٤ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٥٠ ، البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ص ٩ .

(٢) سُمُّوا بذلك لاعتزالهم أقوال المسلمين فى مرتكب الكبيرة ، حيث قالوا : إنه فى منزلة بين المنزلتين ، فلا هو مؤمن ، ولا هو كافر .

وقيل : لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى .

ومذهبهم يقوم على نفى الصفات عن الله تعالى ، ونفى القَدَر فى معاصى العباد ، وإضافة خلقها إلى فاعليها ، وأن القرآن مخلوق ، ونفَوْا شفاعة النبى ﷺ لأهل الكبائر .

وهم فِرَق كثيرة ، منها الجبائية ، والضرارية ، والنظامية ، والجحاظية وغيرها .

انظر فى مذهبهم : البرهان فى عقائد أهل الأديان ص ٢٦ ، ٢٧ ، مقالات الإسلاميين ١/ ٣٣٥ ، وما بعدها ، الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٥٤ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٢٧ ، وما بعدها .

(٣) سُمُّوا بذلك لقولهم بالإرجاء ، وأصل الإرجاء التأخير ، وذلك لأنهم أخَّروا الأعمال عن مسمى الإيمان .

وقيل : من إعطاء الرجاء ، حيث قالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وقيل : الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يُقْضَى عليه بحكم ما فى الدنيا ، من كونه من أهل النار ، أو من أهل الجنة .
=

ويَعُوقَ ، ونَسْرًا[(١)] . . . .

والوَسَطُ مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ : أنَّ فاعلَ المعصيةِ ناقصُ الإيمانِ بقَدْرِ المعصيةِ .

القسمُ الثالثُ : الغُلُوُّ فى المعاملاتِ ، وهو التشدُّدُ بتحريمِ كلِّ شىءٍ ، وقابَل هذا التشَدُّدَ تساهُلُ مَن قال بحِلِّ كلِّ شىءٍ يَنْمِى المالَ والاقتصادَ ، حتى الرِّبا ، والغِشِّ ، وغيرِ ذلك .

والوَسَطُ أن يُقالَ : تَحِلُّ المُعامَلاتُ المَبْنيةُ على العدلِ ، وهى ما وافَقَ ما جاءت به النصوصُ مِن الكتابِ والسنةِ .

القسمُ الرابعُ : الغُلُوُّ فى العاداتِ ، وهو التشَدُّدُ فى التمسُّكِ بالعاداتِ القديمةِ ، وعدمُ التَّحَوُّلِ إلى ما هو خيرٌ منها .

أما إن كانت العاداتُ مُتَساويةً فى المصالحِ ، فإنَّ كونَ الإنسانِ يبْقَى على ما هو عليه خيرٌ مِن تلَقِّى العاداتِ الوافدةِ .

والصالحُ هو الذى قامَ بحقِّ اللَّهِ ، وبحقِّ عبادِ اللَّهِ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

ثم ذكَرَ المَغْلُوَّ فيهم :

(**وَدًّا ، وسُوَاعًا ، ويَغُوثَ ، ويَعُوقَ ، ونَسْرًا**) ، وكانوا أهلَ خيرٍ وعلمٍ وصلاحٍ ، فماتُوا فى زمنٍ مُتقارِبٍ ، فأَسِفُوا عليهم ، وفقَدُوا ما معَهم مِن العلمِ ، فَزَيَّنَ لهم الشيطانُ

= فعلى هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان .

وقيل : الإرجاء تأخير عليٍّ من الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة .

فعلى هذا المرجئة والشيعة طائفتان متقابلتان .

والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القَدَرية ، ومرجئة الجَبْرية ، والمرجئة الخالصة .

انظر تفاصيل مذهبهم فى : الملل والنحل ١/ ١٨٦ ، الفصل فى الملل والنحل ٢/ ١١٣ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

. . . .

التَّرَدُّدَ إلى قبورِهِم واللُّبثَ عندَها .

ثم أَوْقَعَهُم فيما هو أعظمُ مِن ذلك ، فقال : ألا أَدُلُّكُم على شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوه صَارَ أَهْونَ عليكم مِن التَّرَدُّدِ إلى قبورِهِم واللُّبثِ عندَها ؟

فدَلَّهُم على تصويرِ تماثيلِهِم ، وقال : إذا فعلْتُم ذلك كان أشْوَقَ لكم إلى الإِكْثَارِ مِن العبادةِ ، فكأنكم تُشَاهِدُونهم فى مجالسِهِم ، وعلى حالاتِهِم ، ولم يكنْ مفقودًا منهم إلا الأجسامُ فقط . ففعَلُوا .

ثم انْقَرَض ذلك الجيلُ ، وأتى جيلٌ آخرُ لم يَدْرُوا لِمَ صُوِّرتْ تلك الصورُ ، فقال : إنَّ مَن كان قبلَكُم كانوا يَسْتَسْقُونَ بهم المطرَ ؛ يعني : يَسْألونهم ويزعُمُونَ أنهم يَسْأَلُونَ اللَّهَ لهم ، فَوَقَعَ الشرْكُ فى بنى آدَمَ بسببِ الغُلُوِّ فى الصالحينَ ، فهو البابُ الأعظمُ المُفْضِى إلى الشركِ باللَّهِ .

ولمَّا أرسلَهُ اللَّهُ إلى قومِهِ فدعاهُم إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه ، ولم يُجِبْهُ إلا القليلُ ، أَمَرَهُ اللَّهُ بصُنْعِ السفينةِ ، فصَنَعَهَا ، وأرسلَ اللَّهُ على أهلِ الأرضِ الطُّوفَانَ ، وأغرقَ جميعَ مَن عَصَوْهُ .

ورُوِى أن السَّيْلَ أَلْقَى هذه الأصنامَ فى جُدَّةَ لَمَّا أُغْرِقَ قومُ نوحٍ ، ثم بعدَ مُضِيِّ سنينَ أَتَى إبليسُ إلى عمرِو بنِ لُحَيٍّ الخُزَاعِيِّ – وكان رئيسَ قَوْمِهِ تلكَ المُدَّةَ – فقال له : ائْتِ جُدَّةَ ، تَجِدْ بها أصنامًا مُعَدَّةً ، فَرِّقْهَا فى العربِ ، وادْعُ إليها تُجَبْ ؛ فإنك إذا فعلتَ ذلك لم يَخْتَلِفْ عليك منهم اثنانِ . فَفَعَلَ – لَعَنَهُ اللَّهُ – فعُبِدَتْ[١] .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :

هذه أصنامٌ فى قومِ نوحٍ عليه السلامُ ، كانوا رجالًا صالحين ، وقد جاء فى

(١) انظر أخبار مكة ٥/ ١٦١ ، ومعجم البلدان ٥/ ٣٦٨ .

وآخِرُ الرسلِ محمدٌ ﷺ[(١)]، وهو الذى كسَّر صُوَرَ هؤلاء . . . .

صحيحِ البخاريِّ ، عن ابنِ عباسٍ ، رضِى اللَّهُ عنهما ، أنه قال : هذه أسماءُ رجالٍ صالحين مِن قوم نوحٍ ، فلمَّا هلَكُوا أوْحَى الشيطانُ إلى قومِهم أن انْصِبُوا إلى مجالسِهم التى كانوا يَجْلِسُون فيها أنْصابًا ، وسَمُّوها بأسمائِهم . ففعَلُوا ، ولم تُعْبَدْ حتى إذا هَلَك أولئك ، ونُسِى العلمُ عُبِدَت[(١)].

وهذا التفسيرُ فيه إشكالٌ ، حيث يقولُ رضِى اللَّهُ عنه : هذه أسماءُ رجالٍ صالحين مِن قومِ نوحٍ . وظاهرُ القولِ أنها قبلَ نوحٍ ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح : ٢١ - ٢٣] . فظاهرُ الآيةِ أن قومَ نوحٍ كانوا يَعْبُدُونهم ، وأنه نهاهم عن ذلك .

فسِياقُ الآيةِ يَدُلُّ على ما ذكَره ابنُ عباسٍ ، إلا أنَّ ظاهرَ السياقِ أن هؤلاء القومَ الصالحين كانوا قبلَ نوحٍ عليه السلامُ . واللَّهُ أعلمُ .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(وآخرُ الرُّسُلِ محمدٌ ﷺ) ، وهو خاتمُ النَّبِيِّينَ ، كما قال تعالى : ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾ ، وقال ﷺ : « وأنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لا نَبِيَّ بَعْدِى »[(٢)] .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :

دليلُ ذلك قولُه تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، فلا نبيَّ بعدَ النبيِّ محمدٍ ﷺ .

فإن قيل : إن عيسى ابنَ مريمَ عليه الصلاةُ والسلامُ يَنزِلُ آخرَ الزمانِ ، وهو رسولٌ ؟

---

(١) البخارى (٤٩٢٠) .

(٢) البخارى (٣٤٥٥، ٣٥٣٥) ، ومسلم ٣/ ١٤٧١ (١٨٤٢)، ٤/ ١٧٩١ (٢٢٨٦) .

الصالحين(١). . . . .

فنقولُ : هذا حقٌّ ، ولكنَّه لا يَنْزِلُ على أنه رسولٌ مُجَدِّدٌ ، بل يَنْزِلُ على أنه حاكمٌ بشريعةِ النبيِّ محمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ ؛ لأنَّ الواجبَ على عيسى ، وعلى غيرِه من الأنبياءِ الإيمانُ بمحمدٍ ﷺ ، واتِّباعُه ونَصْرُه .

كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران : ٨١] .

وهذا الرسولُ المُصَدِّقُ لما معهم هو محمدٌ ﷺ ، كما صحَّ ذلك عن الصحابيِّ الجليلِ ابنِ عباسٍ رضِي اللَّهُ عنه ، وغيرِه(١) .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(وهو الذى كَسَّرَ صورَ هؤلاءِ الصالحينَ) المَعْبُودَةَ على عهدِ نوحٍ عليه السلامُ ؛ صورَ وَدٍّ ، وسُوَاعٍ ، ويَغُوثَ ، ويَعُوقَ ، ونَسْرٍ .

فانْظُرْ إلى آثارِ الشِّرْكِ وعُرُوقِهِ إذا عَلِقَتْ مَتَى تَزُولُ وتَنْمَحِى ؟ فإن هذه الأصنامَ بَقِيَتْ مِن يومَ(٢) عُبِدَت مِن دونِ اللَّهِ ، حتى بُعِثَ محمدٌ ﷺ وكَسَّرَها .

فالشِّرْكُ إذا وقَعَ عَظِيمٌ رَفْعُهُ وشديدٌ ؛ فإنَّ نوحًا مع كمالِ بيانِه ونُصْحِهِ ودعوتِهِ إياهُم ليلًا ونهارًا ، سرًّا وجِهَارًا ، أخَذَ ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا ، ما أجابَهُ إلا قليلٌ ، ومع ذلك أغرقَ اللَّهُ أهلَ الأرضِ كُلَّهُم من أجلِهِ ، ومع ذلك تلك الأصنامُ الخمسةُ ما زَالَت حتى بُعِثَ محمدٌ ﷺ ، وكَسَّرَهَا .

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره ٣/ ٣٣١، ٣٣٢، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٢٥٢، ٢٥٣ إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر .

(٢) كذا مفتوحة ، بالبناء على الفتح ، وانظر شرح شذور الذهب ص ٧٩ .

أرْسَلَه اللَّهُ إلى أُناسٍ يَتَعَبَّدون ، ويَحُجُّون ، ويَتَصَدَّقُون ، ويَذْكُرُون اللَّهَ كثِيرًا[١]، ولكنهم يَجْعَلُون بعضَ المخلوقاتِ وَسائطَ بينَهم وبينَ اللَّهِ ،

فيُفِيدُك : عِظَمَ الشِّرْكِ إذا خالَطَ القُلُوبَ صَعُبَ زَوالُهُ ، كيف أن أصنامًا عُبِدَتْ على وَقْتِ أوَّلِ الرسلِ ، وما كَسَّرَها إلا آخرُهُم .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :

أى : أنَّ النبيَّ ﷺ ، كسَّرَ صُورَ الأصنامِ ، وذلك يومَ الفتحِ ، حينَ دخَل الكعبةَ ، فوجَد حولَها ، وفيها ، ثلاثَمائةٍ وستين صنمًا ، وجعَل يَطْعَنُها عليه الصلاةُ والسلامُ بالحَرْبةِ ، وهو يَتْلُو قولَه تعالى : ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[١] [الإسراء : ٨١] .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(**أرسَلَهُ اللَّهُ إلى**) قومِهِ قريشٍ ومَن يَلْحَقُ بهم ، وإلا فهو بُعِثَ إلى الناسِ كافَّةً ؛ أحْمَرِهِم وأسْوَدِهِم : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ .

(**أُناسٍ يَتَعَبَّدُونَ ويَحُجُّونَ ويَتَصَدَّقُونَ ويَذْكُرُونَ اللَّهَ كثيرًا**) ، ويَصِلُونَ الرَّحِمَ ويُكْرِمُونَ الضيفَ ، ويَعْرِفُون أنَّ اللَّهَ وَحْدَه هو المُتَفَرِّدُ بالخلقِ والتَّدْبيرِ ، ويُخْلِصُونَ فى الرَّخاءِ[٢] .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :

أى : أنَّ اللَّهَ بَعَث رسولَه محمدًا عليه الصلاةُ والسلامُ إلى قومٍ يَتَعَبَّدون ، لكنها عبادةٌ باطلةٌ ، ما أنْزَل اللَّهُ بها مِن سلطانٍ ، ويَتَصَدَّقون ، ويَفْعَلُون كثيرًا مِن أمورِ الخيرِ ، لكنها لا تَنْفَعُهم ؛ لأنهم كفارٌ .

---

(١) البخارى (٤٧٢٠) .

(٢) لعلها : الرجاء .

يقولون : نُرِيدُ منهم التقرُّبَ إلى اللَّهِ ، ونُرِيدُ شفاعتَهم عندَه ، مثلَ الملائكةِ ، وعيسى ، ومريمَ ، وأناسٍ غيرِهم من الصالحين[١] .

ومِن شرطِ التقرُّبِ إلى اللَّهِ تعالى أن يكونَ المتقرِّبُ إلى اللَّهِ مُسْلِمًا ، وهؤلاء غيرُ مسلمين .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(ولكنهم يَجْعَلُون بعضَ المخلوقاتِ وسائطَ بينَهم وبينَ اللَّهِ ، يقولونَ : نُرِيدُ منهم التَّقَرُّبَ إلى اللَّهِ ، ونُرِيدُ شَفَاعَتَهُم عندَه ، مثلَ الملائكةِ ، وعيسَى ، ومريمَ ، وأُناسٍ غيرِهِم من الصالحِينَ) .

هذه آفَتُهُم ، وهى اتِّخَاذُهُم وسائطَ بينَهُم وبينَ اللَّهِ ، فعبادَتُهُم لا تَنْفَعُهُم ؛ إذ جَعَلُوا للهِ شريكًا فى العبادةِ ، فهذا أَفْسَدَ جميعَ ما هم عليه من هذه العباداتِ ، وصارُوا بذلك كُفَّارًا مُرْتَدِّينَ ، حَلالَ الدَّمِ والمالِ ، فهذه هى عَقِيدةُ المشركينَ الأوَّلينَ ، وهذا دِينُهُم .

فأَهَمُّ شيءٍ معرفةُ دينِ المرسَلينَ فيُتَّبَعُ ، ومعرفةُ دينِ المشركينَ والشياطينِ فيُجْتَنَبُ ؛ فإنَّ مَن لا يَعْرِفِ الجاهليةَ لا يَعْرِفِ الإسلامَ ، وللشيخِ رحِمه اللَّهُ مُؤَلَّفٌ فى مسائلِ الجاهليةِ[١] ، فاعرِفْ حقيقةَ دينِ المشركينَ كلمةً كلمةً وفِقْرةً فِقْرةً ، واعْرِفْ تَفاصِيلَهَا ، ويأتى بعضُها وبعضُ تفاصِيلِها بأدلَّةٍ معروفةٍ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :

أى : أنَّهم إنما يَعْبُدُون هذه الأصنامَ لتُقَرِّبَهم إلى اللَّهِ زُلْفَى ، فهم مُقِرُّون بأنها دونَ اللَّهِ ، وأنها لا تَمْلِكُ لهم نفعًا ، ولا ضرًّا ، وأنهم شُفَعاءُ لهم عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

---

(١) وهو بعُنْوان «١٢٨ مسألة من مسائل الجاهلية» ، وقد قام الشيخ الفوزان حفظه الله بشرح هذا المؤلَّف ، يسَّر الله طبعه .

فبعَثَ اللَّهُ محمدًا ﷺ يُجَدِّدُ لهم دينَ أبيهم إبراهيمَ عليه السلامُ، ويُخْبِرُهم أنَّ هذا التقرُّبَ والاعتقادَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ تعالى، لا يَصْلُحُ منه شيءٌ لغيرِ اللَّهِ، لا لمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا لنبيٍّ مُرْسَلٍ، فضلًا عن غيرِهما(١).

ولكنَّ هذه الشفاعةَ شفاعةٌ باطلةٌ لا تَنْفَعُ أصحابَها؛ لأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

وذلك لأنَّ اللَّهَ تعالى لا يَرْضَى لهؤلاءِ المشركين شِرْكَهم، ولا يُمْكِنُ أن يَأْذَنَ بالشفاعةِ لهم؛ لأنه لا شفاعةَ إلا لمن ارْتَضَاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ، واللَّهُ لا يَرْضَى لعبادِه الكفرَ، ولا يُحِبُّ الفَسادَ.

فتعلُّقُ المشركين بآلهتِهم يَعْبُدُونها، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] تعلُّقٌ باطلٌ غيرُ نافعٍ، بل هذا لا يَزيدُهم مِن اللَّهِ تعالى إلا بُعْدًا.

على أن المشركين يَرْجُون شفاعةَ أصنامِهم بوسيلةٍ باطلةٍ، وهى عبادةُ هذه الأصنامِ، وهذا من جهلِهم وسَفَهِهم أن يُحاوِلوا التقرُّبَ إلى اللَّهِ تعالى بما لا يَزيدُهم منه إلا بُعْدًا.

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:**

(**فبعَثَ اللَّهُ محمدًا ﷺ**)، وهم على تلك الحالةِ (**يُجَدِّدُ لهم**) ما انْدَرَس واخْلَوْلَق مِن (**دينِ أبيهم إبراهيمَ عليه السلامُ**) فإنَّ قريشًا ومَن يَليهم؛ ذُرِّيَّتُه وورثَتُه، وكانوا على هذا الدِّينِ الحنيفِ، ولكنه اندرسَ واخْلَوْلَقَ فيهم بسَبَبِ عمرِو بنِ لُحَيٍّ، بعدَ أن استخرجَ الأصنامَ، وفرَّقَها في العربِ، وغيَّرَ عليهم التَّلْبِيَةَ، فتَغَيَّرَ بسَبَبِ ذلك(١).

(**ويُخْبِرُهم أنَّ هذا التَّقَرُّبَ والاعتقادَ**) الذى يُباشِرُون به الآلهةَ (**مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ**) خالصُ حقِّ اللَّهِ من العبادةِ (**لا يَصْلُحُ منه شيءٌ، لا لملكٍ مُقَرَّبٍ، ولا نبيٍّ مُرْسَلٍ فَضْلًا**

---

(١) تقدم تخريجه ص ٦٧.

وإلا فهؤلاء المشركون يَشْهَدون أن اللَّهَ هو الخالقُ وحدَه ، لا شريكَ له ، وأنه لا يَرْزُقُ إلا هو ، ولا يُحْيِي إلا هو ، ولا يُمِيتُ إلا هو ، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا هو ، وأنَّ جميعَ السماواتِ السبعِ ، ومَن فِيهن ، والأَرَضِينَ[1]

عن غيرهما) ، وإذا كان لا يَصْلُحُ لأهلِ الدِّينِ والفضلِ فمَن دُونَهُم بطريقِ الأَوْلَى .

فلا يُعْتَقَدُ ولا يُطْلَبُ ولا يُقْصَدُ إلا اللَّهُ تعالى ، ولا يُوَسَّطُ مِن الخلقِ أحدٌ بَيْنَهُ وبينَهم ، ولا يُتَقَرَّبُ به ، ولا يَصْلُحُ وَلا يَدْنُو مِن أن يَصْلُحَ لبَشَرٍ مِن حَقِّ رَبِّ العالمينَ شيءٌ ، وبهذا تَعْرِفُ دينَ قريشٍ ودينَ محمدٍ ﷺ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْميـنَ رحِمه اللَّهُ :

يقولُ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى : إنهم مازالوا على هذا الكفرِ ، وهو عبادةُ هذه الأصنامِ لتُقَرِّبَهم بزعمِهم إلى اللَّهِ تعالى ، حتى بعَثَ اللَّهُ رسولَه وخاتَمَ أنبيائِه محمدًا ﷺ ، بعَثَه اللَّهُ تعالى بالتوحيدِ الخالصِ يَدْعُو الناسَ إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه .

ويُحَذِّرُهم من الشركِ ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢] .

ويُبَيِّنُ لهم أن العبادةَ حقٌّ للهِ وحدَه ، وأنه لا يَجوزُ صَرْفُ شيءٍ منها لغيرِه سبحانَه وتعالى ، لا لمَلَكٍ مُقَرَّبٍ ، ولا لنبيٍّ مُرْسَلٍ ، فضلًا عن غيرِهما ، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس : ٦٠ ، ٦١] .

---

(١) أرَضين - بفتح الراء - جمع «أرض» ، وأرَضين ملحقة بجمع المذكر السالم ؛ لأنها ليست علمًا ، ولا صفة ، ولا لمذكر ، ولا لعاقل ، ولأنها تغيرت صورة مفردها عند الجمع ، إذ إن المفرد بسكون الراء ، بينما بفتحها في الجمع ، ولذلك قال النحاة : إن «أرضون» نوع من جموع التكسير ورد في اللغة العربية على صورة جمع المذكر السالم .

قال ابن هشام رحمه الله في شرح القطر ص ٤٤: ويجوز إسكانها في ضرورة الشعر . اهـ

السبعِ ، ومَن فيهن ، كلُّهم عبيدُه ، وتحتَ تصرُّفِه وقَهْرِه[١] .

وقولُه : « يُجَدِّدُ لهم دينَ أبيهم إبراهيمَ » . كأنه يُشِيرُ إلى قولِه تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل : ١٢٣] .

وقولُه : « مَحْضَ حقِّ اللَّهِ » . أي : خالصُ حقِّه .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(وإلا فهؤلاء المشركون مُقِرُّونَ يَشْهَدونَ أنَّ اللَّهَ هو الخالقُ وحدَهُ ، لا شريكَ له ، وأنه لا يرزقُ إلا هو ، ولا يُحيِي إلا هو ، ولا يُميتُ إلا هو ، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا هو ، وأن جميعَ السماواتِ السبعِ ومَن فيهنَّ ، والأرَضينَ السبعِ ومَن فيهنَّ ، كُلُّهمْ عَبِيدُهُ ، وتحتَ تَصَرُّفِهِ وقَهْرِهِ) .

فهم مُقِرُّون مُذْعِنُونَ بتوحِيدِ الرُّبُوبيةِ ، لم يُنَازِعُوا فيه ، ولا جاءهم الخَلَلُ من ذلك ، فهم يَعْرِفُونَ اللَّهَ ، ويَفعلونَ أنواعًا من العباداتِ .

إنما نَازَعُوا فى توحيدِ العبادةِ ، وجاءهُم الخللُ بجعلِ الوسائطِ شُرَكاءَ مع اللَّهِ فى العبادةِ ؛ زَعْمًا منهم أنهم أقربُ منهم إلى اللَّهِ وسيلةً . هذا هو شركُهم الذى صاروا به كفارًا مُرْتَدِّينَ .

فحقيقةُ دينِ قُرَيْشٍ قَبْلَ مَبْعَثِ النبيِّ ﷺ أنهم يَتَّخِذُون شُفَعَاءَ يَدْعُونَهم ، ويَذْبَحُونَ لهم ، ويَهْتِفُونَ بأسمائِهم ، يقولون : لَسْنا أهلًا لسؤالِ اللَّهِ ، فَيَتَّخِذُونَ وَسَائِطَ أَقْرَبَ منهم إلى اللَّهِ لِيَشْفَعُوا لهم ، ويَسْأَلُوا اللَّهَ لهم ، فأخْبَرَهُم النبيُّ ﷺ أن هذا مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ ، لا يَصْلُحُ منه شيءٌ لغيرِ اللَّهِ . أمَّا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ فهم مُعْتَرِفُونَ به .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمينَ رحِمه اللَّهُ :

يقولُ رحِمه اللَّهُ تعالى : إنَّ هؤلاء المشركين الذين بُعِث فيهم رسولُ اللَّهِ ﷺ

فَإِذَا أَرَدْتَ الدَّلِيلَ على أنَّ هؤلاء المُشْرِكِينَ الَّذينَ قَاتَلهُم رسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْهَدُون بهذا فَاقْرَأْ قولَه تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

يُقِرُّون بأنَّ اللَّهَ وحدَه هو الخالقُ ، وأنَّه هو الذى خلَقَ السماواتِ والأرضَ ، وأنه هو الذى خَلَقَهم ، وأنه هو المدَبِّرُ للأمورِ ، كما ذكَر اللَّهُ عنهم فى آياتٍ عَديدةٍ من القرآنِ الكريمِ .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف : ٩] ، وقال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

والآياتُ فى هذا المعنى كثيرةٌ ، لكنَّ هذا لا يَنْفَعُهم ؛ لأنَّ هذا إقرارٌ بالربوبيةِ فقط ، ولا يَنْفَعُ الإقرارُ بالربوبيةِ حتى يَكونَ معه الإقرارُ بالأُلوهيةِ وعبادةِ اللَّهِ وحدَه .

واعْلَمْ أن الإقرارَ بالربوبيةِ يَسْتَلْزِمُ الإقرارَ بالألوهيةِ ، وأن الإقرارَ بالألوهيةِ مُتَضَمِّنٌ الإقرارَ بالربوبيةِ .

أما الأولُ : فهو دليلٌ مُلْزِمٌ ؛ أى : أنَّ الإقرارَ دليلٌ مُلْزِمٌ لمن أقَرَّ به ، أن يُقِرَّ بالألوهيةِ ؛ لأنه إذا كان اللَّهُ وحدَه هو الخالقَ ، وهو المدبِّرَ للأمورِ ، وهو الذى بيدِه مَلَكوتُ كلِّ شىءٍ ، فالواجبُ أن تكونَ العبادةُ له وحدَه ، لا لغيرِه .

والثانى : مُتَضَمِّنٌ للأولِ ؛ يعنى : أن توحيدَ الألوهيةِ يَتَضَمَّنُ توحيدَ الربوبيةِ ؛ لأنَّه لا يَتأَلَّهُ للربِّ عزَّ وجلَّ إلا الذى يَعْتَقِدُ أنه هو الخالقُ وحدَه ، وهو المدبِّرُ لجميعِ الأمورِ سبحانَه وتعالى .

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وَقَوْلَهُ : ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وَغَيْرَ ذلك من الآياتِ[١].

---

(١) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللّهُ :**

فَإِذَا أَرَدْتَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ قَاتَلَهُم رسُولُ اللَّهِ ﷺ ، يَشْهَدونَ بِهَذا فَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ .

سَيُجِيبُونَكَ إِذَا سَأَلْتَهُم أَنَّ الذي يَفْعَلُ ذلك هو اللّهُ ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ بِهِ في أُلُوهِيَّتِهِ وعِبَادَتِهِ .

وقَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿قُل﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ مِلْكٌ له ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ المالكُ لَهَا وحْدَه هو اللّهُ ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى أَنَّهُ المُسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إِذَا كَانَتْ مِلْكَهُ ، وليس لَهُم فيها شِرْكَةٌ ، فَتُفْرِدُونَه بالعِبَادَةِ ، وتَتْرُكُونَ مَن سِوَاه مِن العِبَادِ الذين ليس لهم مِن مِلْكٍ في الأَرْضِ ومَن فِيهَا .

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ؛ يَعْنِي : وَحْدَه ؛ فإِنَّهُم مَا أَشْرَكُوا في الرُّبُوبِيَّةِ إِنَّمَا أَشْرَكُوا في الأُلُوهِيَّةِ بِجَعْلِهِم الوَسَائِطَ .

﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ؛ أي : كيف تُخْدَعُونَ وتُصْرَفُونَ عن طَاعَتِهِ وتَوْحِيدِهِ مَعَ اعْتِرَافِكُم وعِلْمِكُم بِأَنَّه وحْدَه الخَالِقُ المُتَصَرِّفُ.

(وغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ) الدَّالَّةِ عَلَى إِقْرَارِ المُشْرِكِينَ بالرُّبُوبِيَّةِ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

. . . .

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ، وقولِه تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

وهذا مِمَّا احْتَجَّ بِهِ تَعَالَى عَلَيْهِم ؛ احْتَجَّ عَلَيْهِم بِمَا أَقَرُّوا به مِن رُبُوبِيَّتِهِ عَلَى مَا جَحَدُوهُ مِن تَوْحِيدِ العِبَادَةِ ؛ فإِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ هو الأَصْلُ ، وهو الدَّلِيلُ عَلَى تَوْحيدِ الأُلُوهِيَّةِ .

فإذا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هو المُتَفَرِّدَ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَمْ يُشْرَكْ فيه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، فَكَوْنُه هو الخَالِقَ وحْدَه يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هوَ المَعْبُودَ وحْدَه ؛ فإِنَّه مِن أَبْعَدِ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ المَخْلُوقُ مُسَاوِيًا لِلخَالِقِ ، أو مُسْتَحِقًّا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ الخَالِقُ .

فَلَا يُسَوَّى ، ولَا يُجْعَلُ مَن لَا شِرْكَةَ لَهُ في شَيْءٍ شَرِيكًا لِمَن هو مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، فإِقْرَارُهم بالرُّبُوبِيَّةِ نَاقِصٌ ، ولَو كَانَ حَقِيقَةً لعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهُ .

لو تَمَّمُوا أَنَّه الخَالِقُ وحْدَه ، الرَّازِقُ وحْدَه لَمَا جَعَلُوا لَه نِدًّا مِن خَلْقِهِ ؛ لكنَّه مَعَ ذلك فيه ضَعْفٌ ؛ لو أَنَّه تَامٌّ لَمَا تَخَلَّفَ عنه إِفْرَادُه بالعِبَادَةِ.

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحمه اللَّهُ :

ذكَر المؤلِّفُ رحِمه اللَّهُ هنا دليلَ ما قرَّرَ أن هؤلاء يُقِرُّون بتوحيدِ الربوبيةِ ، ولكنه أتَى به على سبيلِ السؤالِ والجوابِ ؛ ليكونَ هذا أمكنَ ، وأثْبَتَ ، وأتمَّ في الاستدلالِ ، فقال : فإذا أرَدْتَ الدليلَ . . . فاقْرَأْ قولَه تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ .

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ؛ يعني : إذا كنتم تُقِرُّون بهذا أفلا تَتَّقُون اللَّهَ ، الذي أقْرَرْتُم له بتمامِ الملكِ ، وتَمامِ التدبيرِ ، وأنه وحدَه الخالقُ ، الرازقُ ، المالكُ للسمعِ

فإذا تحَقَّقْتَ أنهم[١] مُقِرُّون بهذا[٢] ، ولم يُدْخِلْهم في التوحيدِ الذي دعاهم إليه رسولُ اللَّهِ ﷺ[٣] ، وعرَفْتَ أنَّ التوحيدَ الذي جحَدُوه هو توحيدُ العبادةِ

والأبصارِ ، المُخْرِجُ للحيِّ من الميتِ ، وللميتِ من الحيِّ ، المدَبِّرُ لجميعِ الأمورِ.

وهذا الاستفهامُ للتوبيخِ والإلزامِ ؛ أي : أنكم إذا أقْرَرْتُم بذلك لزِمَكم أن تَتَّقُوا اللَّهَ ، وتَعْبُدوه وحدَه ، لا شريكَ له.

وقولُه : يعني : واقْرَأْ قولَه تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ إلى آخرِ الآياتِ ، وهذه الآياتُ مما يَدُلُّ على أن المشركين الذين بُعِث فيهم النبيُّ ﷺ يُقِرُّون بتوحيدِ الربوبيةِ ؛ فإنهم يُقِرُّون بأنَّ الأرضَ ومَن فيها للهِ لا شريكَ له ، ويُقِرُّون بأنَّ اللَّهَ هو الذي خلَق السماواتِ والأرضَ ، وأنه ربُّ العرشِ العظيمِ.

ويُقِرُّون بأنَّ بيدِه مَلَكوتَ كلِّ شيءٍ ، وأنه هو الذي يُجِيرُ ، ولا يُجارُ عليه .

وكلُّ هذا مُلْزِمٌ لهم بأن يَعْبُدوا اللَّهَ وحدَه ، ويُفْرِدُوه بالعبادةِ ، ولهذا جاء توبيخُهم بصيغةِ الاستفهامِ في ختامِ كلِّ آيةٍ من الآياتِ الثلاثِ.

والآياتُ الدالَّةُ على أن المشركين الذين بُعِث فيهم النبيُّ ﷺ يُقِرُّون بتوحيدِ الربوبيةِ كثيرةٌ.

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثيمينَ رحمه اللَّهُ :

أي : الذين بُعِث فيهم رسولُ اللَّهِ ﷺ مِن المشركين.

(٢) قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

يعني : توحيدِ الربوبيةِ ، وهو اعتقادُ أن اللَّهَ وحدَه هو الخالقُ المالكُ المدبِّرُ لجميعِ الأمورِ.

(٣) قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

أي : أن إيمانَهم بأن اللَّهَ هو الخالقُ المالكُ المدبِّرُ لجميعِ الأمورِ لم يُدْخِلْهم في

الذي يُسَمِّيه المشركون في زمانِنا (الاعتقادَ)[1].

كما كانوا يَدْعُون اللَّهَ سبحانَه ليلًا ونهارًا ، ثم منهم مَن يَدْعو الملائكةَ ؛ لأجلِ صلاحِهم وقُرْبِهم من اللَّهِ ؛ لِيَشْفَعوا له ، أو يَدْعُو رجلًا صالحًا مثلَ اللَّاتِ ، أو نبيًّا مثلَ عيسى[2].

توحيدِ العبادةِ الذي دعاهم إليه رسولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آلِه وسلَّم ، ولم يَعْصِمْ دماءَهم وأموالَهم.

(١) **قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

أي : إذا عرَفْتَ أن الذي أنْكَروه هو توحيدُ العبادةِ الذي يُسَمِّيه ـ كما قال الشيخُ رحمه اللَّهُ ـ مُشْرِكو زمانِنا «الاعتقادَ» تبيَّن لك أن هذا الذي أقَرُّوا به لا يَكْفِي في التوحيدِ ، بل ولا يَكْفِي في الإسلامِ كلِّه ؛ فإنَّ مَن لم يُقِرَّ بتوحيدِ العبادةِ فإنَّه ليس بمسلمٍ ، حتى ولو أقَرَّ بتوحيدِ الربوبيةِ ، ولهذا قاتَلَ النبيُّ ﷺ المشركين ، مع أنهم يُقِرُّونَ بتوحيدِ الربوبيةِ ، كما تَقَدَّم.

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهم مُقِرُّونَ بِهذا) إِذَا تَحَقَّقْتَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّهم مُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وأَنَّهُ لَمْ يُدْخِلْهُم في الإِسْلَامِ لَمْ يَكُونُوا مُوحِّدِينَ ، بل كَانُوا مُشْرِكِينَ ، دَلِيلُ ذَلِكَ الآياتُ المُتَقَدِّمُ ذِكْرُهَا.

(وَعَرَفْتَ أَنَّ التَوْحِيدَ الَّذي جَحَدُوهُ) وصَارُوا بِجَحْدِهِ كُفَّارًا حَلَالَ الدَّمِ والمَالِ **(هو تَوْحِيدُ العِبَادَةِ)** .

إِذَا تَأَمَّلْتَ مَا مَرَّ مِن قَوْلِهِ : (إِذَا تَحَقَّقْتَ) وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا ، وأَنَّه ليس تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ كَافِيًا في الدُّخُولِ في الإِسْلَامِ ، وأَنَّه لَابُدَّ مِن ثَمَرَتِهِ ، وهو تَوْحِيدُ الأُلُوهيَّةِ ، وأَنَّ التَّوْحِيدَ الذي أَشْرَكُوا فيه ، ولَمْ يُخْلِصُوا فيه هو تَوْحِيدُ العِبَادَةِ .

. . . .

(الذي يُسَمِّيهِ المُشْرِكُونَ في زَمَانِنَا الاعْتِقَادَ) فيَقُولُونَ : فُلَانٌ فيه عَقِيدَةٌ ؛ يَعْنِي : يَصْلُحُ أَنْ يُعْتَقَدَ فيه أَنَّه يَنْفَعُ ، إِذَا ادَّعَوْا في شَخْصٍ الاعْتِقَادَ ؛ يَعْنِي : الادِّعَاءَ فيه الأُلُوهِيَّةَ .

(كَمَا كَانُوا يَدْعُونَ اللَّهَ لَيْلًا ونَهَارًا) ؛ يَعْنِي : المُشْرِكِينَ الأَوَّلِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ لَيْلًا ونَهَارًا.

(ثُمَّ منهم مَنْ يَدْعُو المَلَائِكَةَ ؛ لِأَجْلِ صَلَاحِهِم وقُرْبِهِم مِن اللَّهِ لِيَشْفَعُوا له ، أو يَدْعُو رَجُلًا صَالِحًا مِثْلَ اللَّاتِ ، أو نَبِيًّا مِثْلَ عِيسَى) مِن الأَوَّلِينَ في بَعْضِ الأَحْيَانِ مَن يَدْعُو المَلَائِكَةَ.. . إلخ ، هذا هو حَقِيقَةُ شِرْكِهِم فقط ، **فحَقِيقَةُ دِينِهِم أَمْرَانِ** :

الأَوَّلُ : أَنَّهُم يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ.

الثَّانِي : أَنَّهُ يُقَرِّبُهُم إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، فَتَقَرَّبُوا إلى اللَّهِ بِمَا يُبْعِدُهُم منه.

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

يعني : أن هؤلاء المشركين في عبادةِ اللَّهِ كانوا يَدْعُون اللَّهَ تعالى إذا اضْطُرُّوا إلى ذلك ، ومنهم مَن يَدْعُو الملائكةَ لقُرْبِهم مِن اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

ويَزْعُمون أنَّ مَن قَرُبَ مِن اللَّهِ سبحانه وتعالى فهو مُسْتَحِقٌّ للعبادةِ ، وهذا من جهلِهم ، فإنَّ العبادةَ حقُّ اللَّهِ وحدَه ، لا يَشْرَكُه فيها أحدٌ.

وأن منهم مَن يَدْعُو اللاتَّ ، واللاتُّ بالتشديدِ اسمُ فاعلٍ من اللَّتِّ ، وأصْلُه رَجُلٌ كان يَلُتُّ السَّوِيقَ للحُجَّاجِ ؛ أي : يَجْعَلُ فيه السَّمْنَ ، ويُطْعِمُه الحُجَّاجَ.

لما مات عكَفُوا على قبرِه ، ثم عَبَدوه .

وأن منهم مَن يَعْبُدُ المسيحَ عليه السلامُ ؛ لكونِه آيةً من آياتِ اللَّهِ ، وأنَّ منهم مَن يَعْبُدُ الأولياءَ ؛ لقُرْبِهم مِن اللَّهِ سبحانَه وتعالى.

وكلُّ هذا مِن تَزْيِينِ الشيطانِ لهم أعمالَهم التي ضَلُّوا بها عن الصراطِ

وَعَرَفْتَ[١] أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَاتَلَهُمْ على هذا الشِّركِ[٢] ، وَدَعَاهُمْ إلى إخْلاصِ العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ[٣] ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾[٤] [الرعد: ١٤] .

المستقيم ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥].

(١) قال الشيخُ ابنُ عثيمين رحِمه اللَّهُ :

هذه معطوفةٌ على قولِه : «فإذا تحقَّقْتَ».

(٢) قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

أي : الشركِ في العبادةِ ، حيث كانوا يَعْبُدون غيرَ اللَّهِ معه ، وليس المرادُ الشركَ في الربوبيةِ ؛ لأنَّ المشركين الذين بُعِث فيهم النبيُّ ﷺ كانوا يُؤْمِنون بأنَّ اللَّهَ وحدَه هو الربُّ ، وأنه مُجيبُ دَعْوةِ المُضْطَرِّين ، وأنه هو الذي يَكْشِفُ السُّوءَ ، إلى غيرِ ذلكَ مما ذكَر اللَّهُ عنهم مِن إقرارِهم بربوبيةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وحدَه.

فالنبيُّ ﷺ قاتَل هؤلاء المشركين الذين لم يُقِرُّوا بتوحيدِ العبادةِ ، بل اسْتَحَلَّ دماءَهم وأموالَهم ، وإن كانوا يُقِرُّون بأنَّ اللَّهَ وحدَه هو الخالقُ ؛ لأنهم لم يَعْبُدوه ، ولم يُخْلِصوا له العبادةَ.

(٣) قال الشيخُ ابنُ عُثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

الإخلاصُ للهِ معناه : أن يَقْصِدَ المرءُ بعبادتِه التقرُّبَ إلى اللَّهِ سبحانَه وتعالى ، والوصولَ إلى دارِ كرامتِه .

(٤) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(وَعَرَفْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَاتَلَهُمْ عَلَى هَذَا الشِّرْكِ وَدَعَاهُمْ إِلَى إِخْلَاصِ

. . . .

العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾) قِيلَ : المُرَادُ بالْمَسَاجِدِ أَعْضَاءُ السُّجُودِ ، وقِيلَ : المُرَادُ بِهَا المَبْنِيَّةُ للصَّلَوَاتِ .

والكُلُّ حَقٌّ ؛ فالمَسَاجِدُ بُنِيَتْ لِيُوَحَّدَ اللَّهُ فيها ، ولَا يُعبَدَ فيها سِوَاهُ ، والأَعْضَاءُ خُلِقَتْ لِيُعْبَدَ بِهَا ، ولا يُعْبَدَ بِهَا سِوَاه .

(﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾) هذا عُمُومٌ دَاخِلٌ فيه جَمِيعُ المُخَاطَبِينَ مِن الأَنْبِيَاءِ وسَائِرِ المُكَلَّفِينَ .

و(﴿أَحَدًا﴾) نَكِرَةٌ ؛ لَا حَجَرٌ ، وَلَا شَجَرٌ ، ولَا نَبِيٌّ ، ولَا وَلِيٌّ.

(**وكَمَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾) فهو الحَقُّ ، ودَعْوَتُه وَحْدَه هي الحَقُّ ، وهو المُسْتَجِيبُ لدَاعِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

(﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾) وهَذِه مِن صِيَغِ العُمُومِ ؛ تَشْمَلُ الأَنْبِيَاءَ وَالأَوْلِيَاءَ والصَّالِحِينَ .

﴿شَىْءٍ﴾ نَكِرَةٌ ؛ فَشَمِلَتْ أيَّ نَوْعٍ وجِنْسٍ ؛ فَعَمَّتْ المَدْعُوَّ ، وعَمَّت المَطْلُوبَ ؛ فَأَيُّ مَدْعُوٍّ لَا يَسْتَجِيبُ مِن أَيِّ شَيْءٍ كَانَ ، وأَيُّ مَطْلُوبٍ لَا يَحْصُلُ مِن أيِّ شَيْءٍ كَانَ ، فَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ ، ودَعْوَتُهم بَاطِلَةٌ ؛ فإنَّهم مَا بَيْنَ مَيِّتٍ وغَائِبٍ وحَاضِرٍ لا يَقْدِرُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ .

وتحَقَّقْتَ(١) أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ إنما قاتَلَهم ليكونَ الدعاءُ كلُّه للهِ(٢) ،

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ .

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ الآيةَ .

فَدَعَاؤُهُم كَمَا أَنَّهُ شِرْكٌ فهو ذَاهِبٌ ضَياعًا وخَسارًا ، فالمُشْرِكُ أَضَلُّ النَّاسِ ، وأَغْبَنُهُم صَفْقَةً فِي الدُّنيا والْآخِرَةِ .

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ :

يعني : أنْ هذه الأصنامَ التي يَدْعُونها من دونِ اللَّهِ لا تَسْتَجِيبُ لهم بشيءٍ ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف : ٥].

(١) قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُهُ : «وتحَقَّقْتَ» . معطوفٌ على قولِه : فإذا تحَقَّقْتَ.

(٢) قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

الدعاءُ على نوعين :

الأولُ : دعاءُ عبادةٍ بأن يَتَعَبَّدَ للمَدْعُوِّ ؛ طلبًا لثوابِه ، وخوفًا من عقابِه ، وهذا لا يَصِحُّ لغيرِ اللَّهِ ، وصرفُه لغيرِ اللَّهِ شركٌ أكبرُ مُخْرِجٌ عن الملةِ ، وعليه يَقَعُ الوعيدُ في قولِه تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

والنَّذْرُ كلُّه للهِ[1] ، والذَّبْحُ كلُّه للهِ[2] ، . . . .

دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠].

النوعُ الثاني : دعاءُ المسألةِ ، وهو دعاءُ الطَّلَبِ ؛ أي : طلبِ الحاجاتِ ، ويَنْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : دعاءُ اللَّهِ سبحانَه وتعالى بما لا يَقْدِرُ عليه إلا هو ، وهو عبادةٌ للهِ تعالى ؛ لأنه يَتَضَمَّنُ الافْتِقارَ إلى اللَّهِ تعالى واللُّجوءَ إليه ، واعتقادَ أنه قادرٌ كريمٌ ، واسعُ الفضلِ والرحمةِ .

فمَن دعا غيرَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بشيءٍ لا يَقْدِرُ عليه إلَا اللَّهُ ، فهو مُشْرِكٌ ، كافرٌ ، سواءٌ كان المدعُوُّ حيًّا أو ميتًا.

القسمُ الثاني : دعاءُ الحيِّ بما يَقْدِرُ عليه ، مثلَ : يا فلانُ اسْقِني . فلا شيءَ فيه.

القسمُ الثالثُ : دعاءُ الميتِ أو الغائبِ بمثلِ هذا ، فإنه شركٌ ؛ لأنَّ الميتَ أو الغائبَ لا يُمْكِنُ أن يقومَ بمثلِ هذا ، فدعاؤُه إياه يَدُلُّ على أنه يَعْتَقِدُ أن له تصرُّفًا في الكونِ ، فيكونُ بذلك مشركًا.

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

النَّذْرُ يُطْلَقُ على العباداتِ المفروضةِ عمومًا ، ويُطْلَقُ على النذرِ الخاصِّ ، وهو إلزامُ الإنسانِ نفسَه بشيءٍ للهِ عزَّ وجلَّ ، والمرادُ به هنا الأولُ ، فالعباداتُ كلُّها للهِ تعالى ؛ لقولِه تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٣٢].

(٢) **قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

الذبحُ : إزهاقُ الرُّوحِ بإراقةِ الدمِ على وجهٍ مخصوصٍ .

ويَقَعُ على وجوهٍ :

الأولُ : أن يُقْصَدَ به تعظيمُ المذبوحِ له ، والتذلُّلُ له ، والتقرُّبُ إليه ، فهذا

والاستغاثةُ كلُّها باللَّهِ(١) ، وجميعُ أنواعِ العبادةِ كلِّها للهِ.

عبادةٌ لا يكونُ إلا للهِ تعالى على الوجهِ الذي شرَعَه اللَّهُ تعالى .

وصرْفُه لغيرِ اللَّهِ شركٌ أكبرُ ؛ لقولِه تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام : ١٦٢].

الثاني : أن يُقْصَدَ به إكرامُ الضيفِ ، أو وَلِيمةٌ لعُرْسٍ ، ونحوُ ذلك ، فهذا مأمورٌ به إما وجوبًا أو استحبابًا ؛ لقولِه ﷺ : «مَن كان يُؤْمِنُ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضيفَه»(١).

وقولِه لعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ حينَ تزَوَّج : «أوْلِمْ ، ولو بشاةٍ»(٢).

الثالثُ : أن يُقْصَدَ به التمتُّعُ بالأكلِ ، أو الاتِّجارُ به ، ونحوُ ذلك ، فهذا من قِسْمِ المباحِ ، فالأصلُ فيه الإباحةُ ؛ لقولِه تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس : ٧١، ٧٢] .

وقد يكونُ مطلوبًا أو مَنْهِيًّا عنه ، حَسْبَما يكونُ وسيلةً له.

(١) **قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

الاستغاثةُ : طَلَبُ الغَوْثِ والإنقاذِ من الشدةِ والهلاكِ.

وهو أقسامٌ :

الأولُ : الاستغاثةُ باللَّهِ عزَّ وجلَّ ، وهذا مِن أفضلِ الأعمالِ وأكملِها ، وهو دَأْبُ الرسلِ عليهم الصلاةُ والسلامُ وأتباعِهم ، ودليلُه قولُه تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ

---

(١) البخارى (٦٠١٨) ، ومسلم ١/ ٦٨ (٤٧ ، ٤٨) .

(٢) البخارى (٢٠٤٨) ، ومسلم ٢/ ١٠٤٢ (١٤٢٧) .

وعَرَفْتَ[١] أنَّ إقرارَهم بتوحيدِ الربوبيةِ لم يُدْخِلْهم في الإسلامِ ، وأنَّ قَصْدَهم الملائكةَ ، والأنبياءَ ، والأولياءَ يُريدون شفاعتَهم والتقرُّبَ إلى اللَّهِ بذلك هو الذي أحَلَّ دماءَهم وأموالَهم ، عرَفْتَ حينَئذٍ التوحيدَ الذي دعَتْ إليه الرسلُ ، وأبَى عن الإقرارِ به المشركون[٢].

رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال : ٩].

الثاني : الاستغاثةُ بالأمواتِ ، أو بالأحياءِ غيرِ الحاضرين القادرين على الإغاثةِ فهذا شركٌ ؛ لأنه لا يَفْعَلُه إلا مَن يَعْتَقِدُ أن لهؤلاء تصرُّفًا خفيًّا في الكونِ ، فيَجْعَلُ لهم حَظًّا من الربوبيةِ ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل : ٦٢].

الثالثُ : الاستغاثةُ بالأحياءِ العالمين القادرين على الإغاثةِ ، فهذا جائزٌ ، كالاستعانةِ بهم ، قال اللَّهُ تعالى في قصةِ موسى عليه السلامُ : ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص : ١٥].

الرابعُ : الاستغاثةُ بحيٍّ غيرِ قادرٍ ، مِن غيرِ أن يَعْتَقِدَ أن له قوةً خَفِيةً ، مثلَ أن يَسْتَغِيثَ بمشلولٍ على دفعِ عدوٍّ صائلٍ ، فهذا لَغْوٌ وسُخْرِيَّةٌ بِالْمُسْتَغاثِ به ، فيُمْنَعُ لهذه العلةِ ، ولعلةٍ أخرى ، وهي أنه رُبَّما اغْتَرَّ بذلك غيرُه ، فتوَهَّم أن لهذا المُسْتَغاثِ به ، وهو عاجزٌ ، أنَّ له قوةً خَفِيةً يُنْقِذُ بها من الشدةِ.

(١) **قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

قولُه : «وعرَفْتَ» . معطوفٌ على «تحقَّقْتَ» الأولى.

وقولُه : «عرَفْتَ» . جوابُ «فإذا تحقَّقْتَ» وما عُطِف عليها.

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وتَحَقَّقْتَ) مِمَّا تَقَدَّمَ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ ؛ لِيكُونَ الدُّعَاءُ كُلُّهُ للهِ ، وَالذَّبْحُ كُلُّهُ

وهذا التوحيدُ هو معنى قولِك : لا إلهَ إلا اللَّهُ(١).

للهِ ، وَالنَّذْرُ كُلُّهُ للهِ ، وَالاسْتِغاثَةُ كُلُّهَا بِاللَّهِ ، وَجَمِيعُ أَنْواعِ العِبَادَاتِ كُلِّها للهِ ، وَعَرَفْتَ أَنَّ إِقْرَارَهُمْ بِتَوْحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لَمْ يُدْخِلْهُم في الإِسلَامِ ، وَأَنَّ قَصْدَهُمْ المَلَائِكَةَ ، وَالأَنْبياءَ ، وَالأَوْلِيَاءَ يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ وَالتَّقَرُّبَ إِلى اللَّهِ بِذَلكَ هُوَ الَّذي أَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ ، عَرَفْتَ حِينَئِذٍ التَّوحِيدَ الَّذي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ وَأَبَى عن الإِقْرَارِ بِهِ المُشْرِكُونَ) .

إِذَا تَأَمَّلْتَ مَا مَرَّ مِن قَوْلِهِ : **(إِذَا تَحَقَّقْتَ)** ومَا عُطِفَ عَلَيْهَا ، تَبَيَّنَ لَكَ التَّوْحِيدُ الذي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ ، وأَبَى عن الإِقْرَارِ بِهِ المُشْرِكُونَ ، وعَرَفْتَ حَقِيقَتَهُ ؛ أَنَّه تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ والعِبَادَةِ.

وبعِبَارَةٍ أُخْرَى : فإِذَا عَرَفْتَ إِقْرَارَهُم بالرُّبُوبِيَّةِ هَانَ عَلَيْكَ مَا عَلَيْهِ المُتَأَخِّرُونَ ، واتَّضَحَ لَكَ دِينُ المُرْسَلِينَ مِن دِينِ المُشْرِكِينَ.

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

قرَّر المؤلفُ رحِمه اللَّهُ أن التوحيدَ الذي جاءَت به الرسلُ من اللَّهِ هو توحيدُ الألوهيةِ ؛ لأنَّ هؤلاء المشركين الذين بُعِث فيهم رسولُ اللَّهِ ﷺ كانوا يُقِرُّون بتوحيدِ الربوبيةِ ، ومع هذا اسْتَبَاحَ النبيُّ ﷺ دماءَهم وأموالَهم ، على أنهم يَعْبُدون الملائكةَ وغيرَهم مما يَعْبُدونهم من الأولياءِ والصالحين .

يُريدون بذلك أن يُقَرِّبوهم إلى اللَّهِ ، وهي كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣].

فهم مُقِرُّون بأنَّ اللَّهَ هو المقصودُ ، ولكنهم يَقْصِدون الملائكةَ وغيرَهم ؛ لِيُقَرِّبوهم إلى اللَّهِ ، ومع ذلك لم يُدْخِلْهم في التوحيدِ.

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ :**

(وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ مَعنَى قَوْلِكَ : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . لَمْ يَكْتَفِ بِذِكْرِ التَّوْحِيدِ ، بل صَرَّحَ لَكَ بكَلِمَتِهِ ، فَقَالَ : **(هَذَا التَّوْحِيدُ)** هو مَدْلُولُ هذه الكَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛

فإن الإلهَ عندَهم هو الذي يُقْصَدُ لأجلِ هذه الأمورِ ، سواءٌ كان مَلَكًا ، أو نبيًّا ، أو وليًّا ، أو شجرةً ، أو قبرًا ، أو جِنِّيًّا ، لم يُرِيدوا أنَّ الإلهَ هو الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ ؛ فإنَّهم يَعْلَمون أنَّ ذلك للهِ وحدَه ، كما قدَّمْتُ لك ، وإنَّما يَعْنُون بالإلهِ ما يَعْنِي المشركون في زمانِنا بلفظِ : (السَّيِّد)[1] فأتاهم النبيُّ

يَعْنِي : أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ المَعْبُودُ هو اللَّهَ وحْدَه دونَ كُلِّ مَا سِوَاهُ .

هَذَا التَّوْحِيدُ هو مَعْنَى قَوْلِكَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُطَابَقَةً ، وهي التي وُضِعَتْ لَهُ ، واشْتَمَلَتْ عَلَى رُكْنَيْنِ : النَّفْيِ ، والْإِثْبَاتِ ؛ نَفْيِ الأُلُوهِيَّةِ عن كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ ، وإِثْبَاتِهَا للهِ وَحْدَه . ومَعْنَاهَا لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ وحدَه ؛ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَى اللَّهِ فَعِبَادَتُهُ وتَأَلُّهُهُ أَبْطَلُ البَاطِلِ ، وأَضَلُّ الضَّلَالِ .

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ :

قولُه : وهذا التوحيدُ هو معنى قولِك لا إلهَ إلا اللَّهُ . أي : أن التوحيدَ الذي دعا إليه النبيُّ صلى اللَّه عليه وعلى آلِه وسلَّم هو معنى **(لا إلهَ إلا اللَّهُ)** ؛ أي : لا معبودَ حقٌّ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ .

فهم يَعْلَمون أن معناها لا معبودَ حقٌّ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ ، وليس معناها لا خالقَ ، أو لا رازقَ ، أو لا مُدَبِّرَ إلا اللَّهُ ، أو لا قادرَ على الاختراعِ إلا اللَّهُ ، كما يقولُه كثيرٌ مِن المتكلِّمين ؛ فإنَّ هذا المعنى لا يُنْكِرُه المشركون ، ولَا يَرُدُّونه ، وإنما يَرُدُّون معنى «لا إلهَ إلا اللَّهُ» ؛ أي : لا معبودَ حقٌّ إلا اللَّهُ .

كما قال تعالى عنهم : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾ [ص : ٥ - ٧].

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحمه اللَّهُ :

(فَإِنَّ الْإِلَهَ عِنْدَهُمْ) ؛ أي : عندَ أَهْلِ اللِّسَانِ مِن قُرَيْشٍ وغَيْرِهِم الذِينَ بُعِثَ فيهم النَّبِيُّ

ﷺ يَدْعُوهم إلى كلمةِ التوحيدِ ، وهي لا إلهَ إلا اللَّهُ[١].

ﷺ ، وخاطَبَهُم بقَوْلِهِ : «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا»[١] هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ بالذَّبْحِ والنَّذْرِ والدُّعَاءِ ونَحْوِ ذَلِكَ .

(لِأَجْلِ هذه الأُمُورِ) وهي طَلَبُ الشَّفَاعَةِ والتَّقْرِيبِ إلى اللَّهِ .

(لَمْ يُرِيدُوا أَنَّ الإِلَهَ) إِذَا قَالُوا : إِلَهٌ أَنَّهُ يَرْزُقُ حَقِيقَةً؟

لَا ، هَذَا يُكَذِّبُهُ القُرْآنُ ، بَلْ جَاءَ القُرْآنُ بِأَنَّهُم يَقُولُونَ : يُصْلِحُ ويَنْفَعُ إِذَا اعْتَقَدَ فيه ، وأَنَّه يَتَصَرَّفُ بالشَّفَاعَةِ عِنْدَ رَبِّ الجَمِيعِ .

نَعَمْ في آخِرِ الزَّمَانِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّه يَفِيضُ عَلَيْهِ مِن بَرَكَتِهِ .

(هو الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ فَإِنَّهُم يَعْلَمُونَ أن ذَلِكَ للهِ وحْدَه) كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ بِأَدِلَّتِهِ مِن الكِتَابِ كَقَوْلِهِ : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيَةَ ونَحْوَهَا .

(وإِنَّمَا يَعْنُونَ بالإِلَهِ مَا يَعْنِي المُشْرِكُونَ في زَمَانِنَا بِلَفْظِ السَّيِّدِ) إِذَا قَالُوا : هَذَا سَيِّدٌ ؛ يَعْنِي : إِلَهٌ ، وإِنْ لَمْ يَسْتَشْعِرُوا هذا اللَّفْظَ ، لَكِنَّ المَعْنَى أَنَّه يَصْلُحُ لِأَنْ يُوَسَّطَ بَيْنَ أَحَدٍ مِن الخَلْقِ وبَيْنَ اللَّهِ ، وأَنَّ الاعْتِقَادَ فِيهِ يَنْفَعُ إِذَا تُشُبِّثَ بِهِ ، وطُلِبَ منه أَنْ يَطْلُبَ لَهُم مِن اللَّهِ حَوَائِجَهُم .

يَعْنُونَ أَنَّ هَذَا وَلِيٌّ ، وَهَذَا مُعْتَقَدٌ لَنَا ؛ بِمَعْنَى : أَنَّ المُعْتَقَدَ فيه يَنْفَعُهُ ويُجِيبُهُ ، وأَنَّه يَصْلُحُ للالْتِجَاءِ إِلَيْهِ ، فَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ لِيُقَرِّبَهُم إِلَى اللَّهِ ؛ يَعْنِي : أَنَّهُم وَسَائِطُ.

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ :

(فَأَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمةِ التَّوْحِيدِ ، وَهِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) التي فيها

---

(١) رواه أحمد ٣/ ٤٩٢ ، ٤/ ٦٣ ، ٣٤١ ، ٥/ ٣٧١ (١٥٩٦٥ ، ١٦٥٥٦ ، ١٨٩٠٥ ، ٢٣٠٤٤) ، وابن خزيمة ١/ ٨٢ ، وابن حبان ١٤/ ٥١٨ ، والحاكم ١/ ٦١ ، ٢/ ٦٦٨ ، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٨/ ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٠/ ١٤ .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٢: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

والمرادُ مِن هذه الكلمةِ معناها ، لا مُجَرَّدُ لفظِها[١] ، والكفارُ الجُهَّالُ يَعْلَمون أنَّ مُرادَ النبيِّ ﷺ بهذه الكلمةِ هو إفرادُ اللَّهِ تعالى بالتعلُّقِ به ، والكفرُ بما يُعْبَدُ مِن دونِ اللَّهِ ، والبَراءةُ منه ؛ فإنه لمَّا قال لهم قولوا : (لا إلهَ إلا اللَّهُ) قالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾[٢].

إبْطَالُ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُونَ به على غَيْرِ اللَّهِ بِشَيْءٍ مِن أَنْوَاعِ العِبَادَةِ المُفْرِدَةِ رَبَّ العَالَمِينَ بالأُلُوهِيَّةِ اسْتِحْقَاقًا وعَمَلًا وَفَهْمًا لذلك.

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحمه اللَّهُ :

يُريدُ رحمه اللَّهُ بيانَ أن المشركين لا يُريدون بقولِ : لا إلهَ إلا اللَّهُ ؛ أي : لا مُدَبِّرَ ولا خالقَ إلا اللَّهُ ؛ لأنهم يَعْرِفون أن ذلك حقٌّ ، وإنما يُنْكِرون معناها : «لا مَعبودَ حقٌّ إلا اللَّهُ» ، وهذا الذي بدَأ به المؤلفُ وأعاد ، إنما قاله للتأكيدِ والردِّ على مَن يقولُ : إننا لا نَعْبُدُ الملائكةَ ، أو غيرَهم ، إلا من أجلِ أن يُقَرِّبونا إلى اللَّهِ زُلْفَى ، ولسنا نَعْتَقِدُ أنهم يَخْلُقون أو يَرْزُقُونَ.

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ :

قولُه : «من هذه الكلمةِ» . أي : قولِ : **(لا إلهَ إلا اللَّهُ)** .

(٢) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحمه اللَّهُ :

(والمرادُ من هَذِه الكلِمةِ) ؛ كَلِمَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» **(مَعْنَاهَا لَا مُجَرَّدُ لَفْظِها)** ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكْفِي فيما أُرِيدَ بِهَا ، وإِنْ كَانَ لَابُدَّ مِن النُّطْقِ بِهَا عِنْدَ إِسْلَامِ العَبْدِ ، لَكِنْ هي مَقْصُودَةٌ لغَيْرِهَا ، وهو العَمَلُ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ ، هي مِن الوَسَائِلِ ، لَا مِن الغَايَاتِ ، فَلَا يَكْفِي اللَّفْظُ بدونِ المَعْنَى ، ولَا يَكْفِي المَعْنَى بدونِ اللَّفْظِ .

(والكُفَّارُ الجُهَّالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ هو إِفْرَادُ اللَّهِ بالتَّعَلُّقِ والكُفْرُ بـ) جَمِيعِ **(مَا يُعبَدُ مِن دونِهِ)** كَهُبَلَ ونَحْوِهِ ، وهَذَا فَهْمٌ صَحِيحٌ **(والبَرَاءَةُ منه)** وأَنْ يَتَبَرَّأَ منه ، ودَلِيلُ ذلك وبرْهَانُه **(فإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُم : قَولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** فَرُّوا واسْتَنْكَرُوا مِن

فإذا عرَفْتَ أنَّ جُهَّالَ الكُفَّارِ يَعْرِفون ذلك[1] ، فالعَجَبُ ممَّن يَدَّعِي الإسلامَ ، وهو لا يَعْرِفُ مِن تفسيرِ هذه الكلمةِ ما عرَفَه جُهَّالُ الكفارِ[2].

إِفْرَادِ اللَّهِ بالعِبَادَةِ و(قَالُوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ ؛ أي : أَجَعَلَ المَعْبُودَاتِ مَعْبُودًا واحِدًا؟! فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُم عَرَفُوا مَعْنَاهَا ، وقَالُوا فيما حَكَاهُ اللَّهُ عنهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ .

فالتَّوْحِيدُ هو الحَقُّ ، وهو النُّورُ ، لَكِنَّ عُقُولَهُم فَسَدَتْ ، وأَفْسَدَ مِزَاجَهَا الشِّرْكُ ؛ لِأَنَّهَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ وأَلِفَتْهُ ، فَصَارَتْ لَا تَسْتَنْكِرُه ، فَصَارُوا كالمَرِيضِ الذي إِذَا أُتِيَ بالشَّيءِ الحُلْوِ قَالَ : هذا مُرٌّ لِفسَادِ مِزَاجِهِ ، ولَمْ تَنْشَأْ علَى التَّوْحِيدِ ، فاسْتَنْكَرَتْهُ.

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

هذه الجملةُ كالتي قبلَها يُبَيِّنُ فيها ـ رحِمه اللَّهُ ـ أن معنى لا إلهَ إلا اللَّهُ : لا معبودَ حقٌّ إلا اللَّهُ ، وأن المشركين قد فهِموا هذا منها ، وعَلِموا أنه ليس المرادُ بها مجرَّدَ لفظِها ، وأنَّ المرادَ بها لا معبودَ حقٌّ إلا اللَّهُ ، ولهذا أنْكَروه مع أنهم لا يُنْكِرون أنَّ اللَّهَ وحدَه هو الخالقُ الرازقُ.

(١) **قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

أي : يَعْرِفون أن معنى لا إلهَ إلا اللَّهُ : لا معبودَ حقٌّ إلا اللَّهُ.

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الكُفَّارِ) كَأَبِي جَهْلٍ ؛ فِرْعَوْنَ هذه الأُمَّةِ ، وَأَضْرَابِهِ .

(يَعْرِفُونَ ذَلِكَ) ؛ يَعْنِي : مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

(فَالعَجَبُ مِمَّن يَدَّعِي الإِسْلَامَ) بل يَدَّعِي العِلْمَ ، بل يَدَّعِي الإِمَامَةَ في الدِّينِ .

بل يَظُنُّ أنَّ ذلك هو التلفُّظ بحروفِها مِن غيرِ اعتقادِ القلبِ لشيءٍ مِن المعاني[١] ، . . . .

(**وهو لَا يَعْرِفُ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الكُفَّارِ**) فَإِنَّ هذا ـ ادِّعَاءَهُ الْإِسْلَامَ ، فَضْلًا عن العِلْمِ ، فَضْلًا عن الْإِمَامَةِ ، ويَخْفَى عَلَيْهِ ذَلِكَ الذي بَانَ وظَهَرَ لِجُهَّالِ الكُفَّارِ ـ هَذَا في الحَقِيقَةِ مِن أَعْجَبِ العَجَبِ ، بل مِن أَعْظَمِ الجَهْلِ وأَفْحَشِ الخَطَأِ.

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ :

يُريدُ المؤلفُ ـ رحِمه اللَّهُ ـ أن يُبَيِّنَ أن مِن الناسِ مَن يَدَّعي الإسلامَ ، ولا يَعْرِفون معنى كلمةِ «لا إلهَ إلا اللَّهُ» حيث يَظُنُّون أن المقصودَ هو التَّلَفُّظ بحروفِها دونَ معرفةِ معناها واعتقادِه.

ومن الناسِ مَن يَظُنُّ أنَّ المرادَ بها توحيدُ الربوبيةِ ؛ أي : لا خالقَ إلا اللَّهُ ، ولا رازقَ إلا اللَّهُ.

ومِن الناسِ مَن يُفَسِّرُها بأنَّ المرادَ بها إخراجُ اليقينِ الصادقِ عن ذاتِ الأشياءِ ، وإدخالُ اليقينِ الصادقِ على ذاتِ اللَّهِ .

وهذا التفسيرُ باطلٌ ، لم يَعْرِفْه السَّلَفُ الصالحُ ، وليس المرادُ به أن تَتَيَقَّنَ باللَّهِ عَزَّ وجلَّ ، وتُخْرِجَ اليقينَ مِن غيرِه ؛ لأن هذا لا يُمْكِنُ ؛ فإنَّ اليقينَ ثابتٌ في غيرِ اللَّهِ : ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر : ٦ ، ٧]. وَتَيَقُّنُ الأشياءِ الواقعةِ الحِسِّيةِ المعلومةِ لا يُنافِي التوحيدَ.

ومن الناسِ مَن يُفَسِّرُها بأنه «لا معبودَ إلا اللَّهُ» ، وهذا التعريفُ لا يَصِحُّ على ظاهرِه ؛ لأن هناك أشياءَ عُبِدَت مِن دونِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

فيكونُ هؤلاء أجهلَ مِن الجُهَّالِ الذين بُعِث فيهم رسولُ اللَّهِ ﷺ ؛ فإنهم كانوا يَعْرِفون من معناها ما لا يَعْرِفُه هؤلاء.

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(**بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذلك هو التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِن غَيْرِ اعْتِقَادِ القَلْبِ لِشَيْءٍ مِن الْمَعَانِي**) فَإِنَّ

والحاذقُ منهم[١] يَظُنُّ أنَّ معناها : (لا يَخْلُقُ ، ولا يَرْزُقُ ، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا اللَّهُ[٢]) فلا خيرَ في رجلٍ ، جُهَّالُ الكفارِ أعْلَمُ منه بمعنى (لا إلهَ إلا اللَّهُ)[٣].

أَبَا جَهْلٍ وأَضْرَابَه لو يَعْلَمُونَ أنَّ هَذَا هُو المُرَادُ لَمَا تَلَعْثَمُوا في قَوْلِهَا ، ولا نَازَعُوا ، وكذلك لو فَهِمُوا أَنَّ المُرَادَ الرُّبُوبِيَّةُ لَسَارَعُوا إِلَى ذَلِكَ ، وَلَمْ يُنَازِعُوا ، لَكِنْ عَلِمُوا أَنَّ مَعْنَاهَا أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ المَعْبُودُ هو اللَّهَ وحْدَه دونَ كُلِّ مَا سِوَاه والتَّبَرِّي مِمَّا سِوَاه ، وأَنَّه لَابُدَّ مِن اعْتِقَادِ ذَلِكَ ووُجُودِه في العَمَلِ ، وأَنَّها تُبْطِلُ جَمِيعَ مَا هُم عَلَيْهِ مِن دِينِ آبَائِهِم وأَجْدَادِهِم.

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وَالحَاذِقُ مِنهُمْ) الذي يَرَى أَنَّ المُرَادَ شَيْءٌ آخَرُ غَيْرَ اللَّفْظِ يُخْطِئُ المَعْنَى المُرَادَ ، ولا يَعْرِفُهُ.

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاها «لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا اللَّهُ» ؛ يَعْنِي : أَنَّهَا دَلَّتْ عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، ومَعْلُومٌ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَلَّت عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بالتَّضَمُّنِ ، لَكِنَّ مَعْنَاها الذي وُضِعَتْ لَهُ مُطَابَقَةً أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَحْدَه هو المَعْبُودَ دونَ كُلِّ مَن سِوَاهُ.

(٣) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هَذَا رَجُلُ سَوْءٍ ، لَا خَيْرَ فيه ، هَذَا أَقَلُّ مَا يُقَالُ فيه ؛ فالمُصَنِّفُ اقْتَصَرَ واقْتَصَدَ عَلَى أَدْنَى مَا يُقَالُ فيه ، وإِلَّا فهو يَسْتَحِقُّ أَعْظَمَ .

بل لَا خَيْرَ فيه بِحَالٍ ، إِذَا كَانَ أَبُو جَهْلٍ فِرْعَوْنُ هَذِه الْأُمَّةِ وأَضْرَابُه أَعْلَمَ منه بِمَعْنَاهَا ، فَلَا جَهْلَ فَوْقَ جَهْلِ مَنْ جَهِلَ مَعْنَى هَذِه الكَلِمَةِ التي هي أَصْلُ دينِ

إذا عرَفْتَ ما ذكَرْتُ لك معرفةَ قلبٍ[١] ، وعرَفْتَ الشركَ باللَّهِ الذي قال اللَّهُ فيه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢] .

وعرَفْتَ دينَ اللَّهِ الذي أرْسَل به الرسلَ مِن أولِهم إلى آخرِهم ، الذي لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِن أحدٍ دينًا سواه[٣] .

الْإِسْلَامِ وقَاعِدَتُه وأَسَاسُهُ.

(١) **قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

أي : عرَفْتَ معنى لا إلهَ إلا اللَّهُ الحقيقيَّ ، وأن معناها : لا معبودَ حقٌّ إلا اللَّهُ .

(٢) **قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

اخْتَلَف أهلُ العلمِ - رحِمهم اللَّهُ تعالى - في هذه الآيةِ : هل تَشْمَلُ كلَّ الشركِ ، أم أنها خاصةٌ بالشركِ الأكبرِ ؟

فمنهم مَن قال : تَشْمَلُ كلَّ شركٍ ، ولو كان أصغرَ ، كالحلفِ بغيرِ اللَّهِ ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُه.

ومنهم مَن قال : إنها خاصةٌ بالشركِ الأكبرِ ، فهو الذي لا يَغْفِرُه اللَّهُ.

وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ - رحِمه اللَّهُ - اخْتَلَف كلامُه فمرةً قال بالقولِ الأولِ ، ومرةً قال بالقولِ الثاني.

وعلى كلِّ حالٍ يَجِبُ الحَذَرُ من الشركِ مطلقًا ؛ لأن العمومَ يَحْتَمِلُ أن يكونَ داخلًا فيه الأصغرُ ؛ لأن قولَه : ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ﴿أَن﴾ وما بعدَها في تأويلِ مصدرٍ ، تقديرُه «إشراكًا به» ، فهو نكرةٌ في سياقِ النفيِ ، فتفيدُ العمومَ.

(٣) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(إِذَا عَرَفْتَ ما ذَكَرْتُ لَكَ مَعرفَةَ قَلْبٍ) ؛ يَعْنِي : مَعْرِفَةً حَقِيقِيَّةً واصِلَةً إلى سُوَيْدَاءِ القَلْبِ ، لَيسَتْ مُجَرَّدَ دَعْوَى باللِّسَانِ ؛ فإِنَّ مُجَرَّدَ دَعْوَى اللِّسَانِ مِن غَيْرِ مَعْرِفَةِ القَلْبِ

وعرَفْتَ ما أصْبَح غالبُ الناسِ فيه من الجهلِ بهذا[1] ، . . . .

لَيسَتْ مَعْرِفَةً .

(وعَرَفْتَ الشِّرْكَ باللَّهِ) وهَذَا مِن عَطْفِ العَامِّ عَلَى الخَاصِّ ، وإلَّا فَمَا تَقَدَّمَ وافٍ في بَيَانِ حَقِيقَةِ دِينِ المُرْسَلِينَ وحَقِيقَةِ دِينِ المُشْرِكِينَ .

(الذي قَالَ اللَّهُ فِيهِ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآيَةَ[1]) ، وتَصَوَّرْتَه مَا هو ، وَقَدْ قَدَّمَ لَكَ المُصَنِّفُ مَا يُعَرِّفُكَ بِهِ فِيمَا قَرَّرَهُ مِن مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ ؛ فَإِنَّه بالتَّوْحِيدِ يتَبيَّنُ ضِدُّهُ ؛ الشِّرْكُ .

(وَعَرَفْتَ دِينَ اللَّهِ الذي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِن أَوَّلِهِم إلى آخِرِهِم الذي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِن أَحَدٍ سِوَاهُ) ؛ يَعْنِي : الذِي هو التَّوْحِيدُ.

وتَقَدَّمَ هَذَانَ الأَمْرَانِ مُقَرَّرَيْنِ لَكَ في صَدْرِ هَذَا الكِتَابِ : دِينُ المُرْسَلِينَ ودِينُ المُشْرِكِينَ.

وقال الشيخ ابنُ عثيمينَ رحمه اللَّهُ :

وهو عبادةُ اللَّهِ وحدَه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء : ٢٥].

وهذا هو الإسلامُ الذي قال اللَّهُ فيه : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران : ٨٥].

(١) قال الشيخ ابنُ عُثَيمينَ رحمه اللَّهُ :

أي : بمعنى هذه الكلمةِ مما تَقَدَّم ذكرُه عندَ قولِ المؤلفِ رحمه اللَّهُ : فالعَجَبُ ممَّن يَدَّعِي الإسلامَ ، وهو لا يَعْرِفُ مِن تفسيرِ هذه الكلمةِ . . . إلخ .

(١) تقرأ بالنصب إما على أنها مفعول به لفعل محذوف ، تقديره : أكْمِلِ الآية ، أو أنها منصوبة بنزع الخافض ؛ أي : إلى آخر الآية .

أفادك[١] فائدتين[٢] :

الأولى : الفرحُ بفَضْلِ اللَّهِ ورحمتِه ، كما قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣] وأفادك أيضًا الخوفَ العظيمَ[٤] .

---

(١) قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : «**أفادك**» . جوابُ قولِه : «إذا عرَفْتَ ما ذكَرْتُ لك ... إلخ».

(٢) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(**وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبُ النَّاسِ فيه مِن الجَهْلِ بِهَذَا**) بالتَّوْحِيدِ والشِّرْكِ ؛ فإنَّ أَكْثَرَهُم مَا عَرَفَ دِينَ اللَّهِ الذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ ؛ بَلْ أَكْثَرُ أَهْلِ البَسِيطَةِ ما عَرَفُوا الفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وهَذَا ، بَلْ عَادُوا أَهْلَ التَّوْحِيدِ وعَابُوهُم وحَارَبُوهُم ، واتَّبَعُوا دِينَ المُشْرِكِينَ كُلَّهُ بِسَبَبِ عَدَمِ الفَرْقِ بَيْنَ هَذَا وهَذَا .

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الأُمُورَ الأَرْبَعَةَ مَعْرِفَةَ قَلْبٍ (**أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ**) عَظِيمَتَيْنِ.

(٣) قال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

يَحْصُلُ ذلك من وجْهَيْنِ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ اللَّهَ تعالى فتَح عليك حتى عرَفْتَ المعنى الصحيحَ لهذه الكلمةِ العظيمةِ «لا إلهَ إلا اللَّهُ» . وهذا فضلٌ عظيمٌ مِن اللهِ ورحمةٌ.

والفرحُ بمثلِ هذا مما أمَرَ اللَّهُ به ، ودليلُه ما ذكَرَه المؤلفُ رحِمه اللَّهُ : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وفرحُ العبدِ بما أنْعَم اللَّهُ عليه من العلمِ والعبادةِ مِن الأمورِ المحمودةِ ، كما جاء في الحديثِ : «للصائمِ فرحتان : فرحةٌ عندَ فِطْرِه ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّه»[١].

(٤) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

---

(١) البخارى (١٩٠٤) ، ومسلم ٢/٨٠٦ (١١٥١) .

فإنك إذا عرَفْتَ أنَّ الإنسانَ يَكْفُرُ بكلمةٍ يُخْرِجُها من لسانِه ، وقد يَقولُها ، وهو جاهلٌ ، فلا يُعْذَرُ بالجهلِ(١).

(**الأُولَى : الفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ) إِحْدَاهُمَا** : مَعْرِفَتُكَ دِينَ المُرْسَلِينَ واعْتِقَادُه والعَمَلُ بِهِ ، ومَعْرِفَتُكَ دِينَ المُشْرِكِينَ ومُجَانَبَتُهُ والكُفْرُ بِهِ ، كَوْنُ اللَّهِ عَلَّمَكَ دِينَ المُرْسَلِينَ ودَلَّكَ سَبِيلَهُم وعَرَّفَكَ طَرِيقَهُم .

وتَعْظُمُ النِّعْمَةُ أَنَّ الأَكْثَرَ صَارُوا مِن أَهْلِ الجَهْلِ بِهِ ؛ فَإِنَّ النِّعْمَةَ تَزْدَادُ إِذَا كَانَتْ مُخْتَصَّةً بالقَلِيلِ دونَ الكَثِيرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ .

الفَرَحُ مَذْمُومٌ كَمَا في آيةِ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ ، لَكِنَّهُ في الدِّينِ مَمْدُوحٌ ومَحْبُوبٌ ووَاجِبٌ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِه الآيةُ ؛ هو خَيْرٌ مِمَّا فَرِحَ النَّاسُ بِهِ ، وهو الدُّنْيَا ؛ لو اجْتَمَعَتْ لِأَحَدٍ ، ولو أَنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ لِأَحَدٍ ، ولو اجْتَمَعَتْ فهي للزَّوَالِ والاضْمِحْلَالِ .

ومَا كَانَ للهِ مَقْصُودٌ به وَجْهُ اللَّهِ فهو بَاقٍ لا يَزُولُ ، فَأَفَادَ أَنَّ الفَرَحَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِه وَاجِبٌ.

(**وَأَفَادَكَ أَيْضًا الخَوْفَ العَظِيمَ**) هذه هي الفَائِدَةُ الثَّانِيةُ ؛ يُفِيدُكَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِن الفَرَحِ العَظِيمِ الخَوْفَ علَى نَفْسِكَ ودِينِكَ ، فَتَفْرَحُ بالدينِ والعَمَلِ بِهِ ، وتَخَافُ عَلَى نَفْسِكَ مِن زَوالِ هَذِه النِّعْمَةِ وذَهَابِ هَذَا النُّورِ ؛ وهي مَعْرِفَتُكَ دِينَ المُرْسَلِينَ واتِّبَاعُه ، وَمَعْرِفَتُكَ دِينَ المُشْرِكِينَ واجْتِنَابُه ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ في غَايَةِ الجَهْلِ بِهِ.

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

أي : مِن أن تَقَعَ في مثلِ ما وقَع فيه هؤلاء من الجهلِ بمعناها ، والخطرِ العظيمِ في ذلك.

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ : (فإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الإِنسانَ يَكْفُرُ**

. . . .

بِكَلِمَةٍ) وَاحِدَةٍ **(يُخْرِجُها مِنْ لِسَانِهِ)** دونَ قَلْبِهِ .

(وَقَدْ يَقُولُها وَهُوَ جَاهِلٌ) لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ بِهِ مِن المَبْلَغِ **(فَلَا يُعْذَرُ بِالجَهْلِ)**.

وقال الشيخُ ابنُ عثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

تعليقُنا على هذه الجملةِ مِن كلامِ المؤلفِ رحِمه اللَّهُ :

أولًا : لا أَظُنُّ الشيخَ رحِمه اللَّهُ لا يَرَى العُذْرَ بالجهلِ ، اللَّهمَّ إلا أن يكونَ منه تفريطٌ بتركِ التعلُّمِ ، مثلَ : أن يَسْمَعَ بالحقِّ ، فلا يَلْتَفِتُ إليه ، ولا يَتَعَلَّمُ ، فهذا لا يُعْذَرُ بالجهلِ.

وإنما لا أَظُنُّ ذلك من الشيخِ ؛ لأنَّ له كلامًا آخرَ يَدُلُّ على العذرِ بالجهلِ ، فقد سُئِل رحِمه اللَّهُ تعالى عما يُقاتَلُ عليه؟ وعما يُكَفَّرُ الرجلُ به؟

فأجاب :

أركانُ الإسلامِ الخمسةُ ، أوَّلُها الشهادتان ، ثم الأركانُ الأربعةُ ؛ فالأربعةُ إذا أقَرَّ بها ، وترَكَها تهاونًا ، فنحن ، وإن قاتَلْناه على فعلِها ، فلا نُكَفِّرُه بتركِها .

والعلماءُ اخْتَلَفوا في كفرِ التاركِ لها كسلًا مِن غيرِ جحودٍ ، ولا نُكَفِّرُ إلا ما أجْمَع عليه العلماءُ كلُّهم ، وهو الشهادتان:

وأيضًا نُكَفِّرُه بعدَ التعريفِ ، إذا عرَف وأنْكَر ، فنقولُ : أعداؤُنا معَنا على أنواعٍ.

النوعُ الأولُ : مَن عرَف أن التوحيدَ دينُ اللَّهِ ورسولِه ، الذي أظْهَرْناه للناسِ ، وأقَرَّ أيضًا أنَّ هذه الاعتقاداتِ في الحجرِ ، والشجرِ ، والبشرِ ، الذي هو دينُ غالبِ الناسِ أنه الشركُ باللَّهِ ، الذي بعَث اللَّهُ رسولَه ﷺ يَنْهَى عنه ، ويُقاتِلُ

. . . .

أهلَه ؛ ليكونَ الدينُ كلُّه للهِ.

ومع ذلك لم يَلْتَفِتْ إلى التوحيدِ ، ولا تَعَلَّمَه ، ولا دخَل فيه ، ولا ترَكَ الشركَ ، فهو كافرٌ ، نُقاتِلُه بكفرِه ؛ لأنه عرَف دينَ الرسولِ ، فلم يَتْبَعْه ، وعرَف الشركَ فلم يَتْرُكْه ، مع أنه لا يَبْغَضُ دينَ الرسولِ ، ولا مَن دَخَل فيه ، ولا يَمْدَحُ الشركَ ، ولا يُزَيِّنُه للناسِ.

النوعُ الثاني : مَن عرَف ذلك ، ولكنه تَبَيَّن في سبِّ دينِ الرسولِ ، مع ادِّعائِه أنه عاملٌ به ، وتبَيَّن في مدحِ مَن عبَدَ يوسُفَ ، والأشْقَرَ ، ومَن عبَدَ أبا عليٍّ ، والخَضِرَ مِن أهلِ الكويتِ ، وفضَّلهم على مَن وحَّد اللَّهَ ، وترَك الشركَ.

فهذا أعظمُ من الأولِ ، وفيه قولُه تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٨] وهو ممَّن قال اللَّهُ فيه : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة : ١٢].

النوعُ الثالثُ : مَن عرَف التوحيدَ ، وأحَبَّه ، واتَّبَعَه ، وعرَف الشركَ ، وترَكَه ، ولكن يَكْرَهُ مَن دخَل في التوحيدِ ، ويُحِبُّ مَن بقِي على الشركِ ، فهذا أيضًا كافرٌ ، فيه قولُه تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد : ٩].

النوعُ الرابعُ : مَن سلِم مِن هذا كلِّه ، ولكنَّ أهلَ بلدِه يُصَرِّحون بعَداوةِ أهلِ التوحيدِ ، واتِّباعِ أهلِ الشركِ ، وساعُون في قتالِهم ، ويَتَعَذَّرُ بأنَّ ترْكَ وطنِه يَشُقُّ عليه ، فيُقاتِلُ أهلَ التوحيدِ مع أهلِ بلدِه ، ويُجاهِدُ بمالِه ، ونفسِه.

فهذا أيضًا كافرٌ ؛ فإنهم لو يأمُرُونَه بتركِ صوم رمضانَ ، ولا يُمْكِنُه الصيامُ إلا بفراقِهم فعَل ، ولو يأمُرُونَه بتزوُّجِ امرأةِ أبيه ، ولا يُمْكِنُه ذلك إلا بفراقِهم فعَل.

. . . .

وموافقتُهم على الجهادِ معهم بنفسِه ومالِه ، مع أنهم يُريدون بذلك قطعَ دينِ اللَّهِ ورسولِه أكبرُ من ذلك بكثيرٍ ، كثيرٍ.

فهذا أيضًا كافرٌ ، وهو ممَّن قال اللَّهُ فيهم : ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ إلى قولِه : ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء : ٩١] فهذا الذي نقولُ.

وأمَّا الكذبُ والبُهْتانُ فمثلُ قولِهم : إنَّا نُكَفِّرُ بالعموم ، ونُوجِبُ الهجرةَ إلينا على مَن قدَرَ على إظهارِ دينِه ، وإنَّا نُكَفِّرُ مَن لم يُكَفِّرْ ، ومَن لم يُقَاتِلْ ، ومثلُ هذا وأضعافُ أضعافِه ، فكلُّ هذا مِن الكذبِ والبُهْتَانِ ، الذي يَصُدُّون به الناسَ عن دينِ اللَّهِ ورسولِه.

وإذا كنا لا نُكَفِّرُ مَن عبَد الصنمَ الذي على عبدِ القادرِ ، والصنمَ الذي على قبرِ أحمدَ البَدَويِّ ، وأمثالِهما ؛ لأجلِ جهلِهم ، وعدمِ مَن يُنَبِّهُهم ، فكيف نُكَفِّرُ مَن لم يُشْرِكْ باللَّهِ إذا لم يُهاجِرْ إلينا ، أو لم يُكَفِّرْ ويُقَاتِلْ؟! ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور : ١٦].

بل نُكَفِّرُ تلك الأنواعَ الأربعةَ ؛ لأجلِ مُحادَّتِهم للهِ ورسولِه ، فرحِم اللَّهُ امْرَءًا نظَر نفسَه ، وعرَف أنه مُلاقٍ اللَّهَ ، الذي عندَه الجنةُ والنارُ ، وصلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِه ، وصَحْبِه ، وسلَّم.

* تَتِمَّةٌ :

الاختلافُ في مسألةِ العُذْرِ بالجهلِ كغيرِه مِن الاختلافاتِ الفقهيةِ الاجْتِهاديةِ ، وربَّما يكونُ اختلافًا لفظيًّا في بعضِ الأحيانِ ، مِن أجلِ تطبيقِ الحكمِ على الشخصِ المُعَيَّنِ ؛ أي : أن الجميعَ يَتَّفِقُون على أنَّ هذا القولَ كفرٌ ، أو هذا الفعلَ كفرٌ ، أو هذا التركَ كفرٌ ، ولكن هل يَصْدُقُ الحكمُ على هذا الشخصِ المعيَّنِ لقيامِ المُقْتَضِي في حقِّه وانتفاءِ المانعِ ، أو لا يَنْطَبِقُ لفَواتِ بعضِ المُقْتَضِياتِ ،

. . . .

أو وجودِ بعضِ المَوانعِ .

وذلك أن الجهلَ بالمُكَفِّرِ على نوعين :

الأولُ : أن يكونَ من شخصٍ يَدِينُ بغيرِ الإسلامِ ، أو لا يَدِينُ بشيءٍ ، ولم يَكُنْ يَخْطِرُ ببالِه أن دينًا يُخالِفُ ما هو عليه ، فهذا تَجْرِي عليه أحكامُ الظاهرِ في الدنيا.

وأمَّا في الآخرةِ فأمْرُه إلى اللَّهِ تعالى.

والقولُ الراجحُ أنه يُمْتَحَنُ في الآخرةِ بما يَشاءُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ، واللَّهُ أعلمُ بما كانوا عاملين ، لكننا نَعْلَمُ أنه لن يَدْخُلَ النارَ إلا بذنْبٍ ؛ لقولِه تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩].

وإنما قلنا تَجْرِي عليه أحكامُ الظاهرِ في الدنيا ، وهي أحكامُ الكفرِ ؛ لأنه لا يَدِينُ بالإسلامِ ، فلا يمكنُ أن يُعْطَى حُكْمَه.

وإنما قلنا بأنَّ الراجحَ أنه يُمْتَحَنُ في الآخرةِ ؛ لأنه جاء في ذلك آثارٌ كثيرةٌ ذكَرَها ابنُ القَيِّمِ رحِمه اللَّهُ تعالى في كتابِه : «طريقُ الهِجْرَتَيْن» عندَ كلامِه على المذهبِ الثامنِ في أطفالِ المشركين ، تحتَ الكلامِ على الطَّبقةِ الرابعةَ عشْرةَ[1].

النوعُ الثاني : أن يكونَ مِن شخصٍ يَدِينُ بالإسلامِ ، ولكنه عاش على هذا المكفِّرِ ، ولم يَكُنْ يَخْطِرُ ببالِه أنه مُخالِفٌ للإسلامِ ، ولا نَبَّهَه أحدٌ على ذلك ، فهذا تَجْرِي عليه أحكامُ الإسلامِ ظاهرًا.

أما في الآخرةِ فأمْرُه إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، وقد دلَّ على ذلك الكتابُ ، والسنةُ ، وأقوالُ أهلِ العلمِ :

---

(١) طريق الهجرتين ٥٨٧-. ٥٩٥

. . . .

فمن أدلةِ الكتابِ :

١ ـ قولُه تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥].

٢ ـ وقولُه : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص : ٥٩].

٣ ـ وقولُه : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥].

٤ ـ وقولُه : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم : ٤].

٥ ـ وقولُه : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة : ١١٥].

٦ ـ وقولُه : ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام : ١٥٥ ـ ١٥٧].

إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الدالةِ على أن الحُجَّةَ لا تقومُ إلا بعدَ العلمِ والبيانِ.

وأما السنةُ : ففي صحيحِ مسلمٍ ١/١٣٤ ، عن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه ، أن النبيَّ ﷺ قال : «والذي نفسُ محمدٍ بيدِه ، لا يَسْمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمةِ ـ يعني : أمةِ الدَّعْوةِ ـ يهوديٌّ ولا نَصْرانيٌّ ، ثم يموتُ ، ولم يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به إلا كان من أصحابِ النارِ»[1].

وأما كلامُ أهلِ العلمِ : فقال في المغني ٨/ ١٣١ : فإن كان ممَّن لا يَعْرِفُ الوجوبَ ،

(١) مسلم ١/ ١٣٤ (١٥٣) .

. . . .

كحديثِ الإسلامِ ، والناشيءِ بغيرِ دارِ الإسلامِ ، أو باديةٍ بعيدةٍ عن الأمصارِ وأهلِ العلمِ لم يُحْكَمْ بكفرِه . اهـ

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ في الفتاوَى ٢٢٩/٣ مجموعِ ابنِ قاسم : «إني دائمًا - ومَن جالَسَني يَعْلَمُ ذلك مني - من أعظمِ الناسِ نهيًا عن أن يُنْسَبَ مُعَيَّنٌ إلى تكفيرٍ ، وتفسيقٍ ، ومعصيةٍ ، إلا إذا عُلِمَ أنه قد قامَت عليه الحُجَّةُ الرِّساليةُ التي مَن خالَفَها كان كافرًا تارةً ، وفاسقًا أخرى ، وعاصِيًا أخرى ، وإني أُقَرِّرُ أن اللَّهَ تعالى قد غفَر لهذه الأمةِ خطأَها ، وذلك يَعُمُّ الخطأَ في المسائلِ الخَبَريةِ القوليةِ ، والمسائلِ العَمَليةِ.

وما زال السلفُ يَتَنازعون في كثيرٍ من هذه المسائلِ ، ولم يَشْهَدْ أحدٌ منهم على أحدٍ ، لا بكفرٍ ، ولا بفِسْقٍ ، ولا بمعصيةٍ.

إلى أن قال : وكنتُ أُبَيِّنُ أنَّ ما نُقِل عن السلفِ والأئمةِ مِن إطلاقِ القولِ بتكفيرِ مَن يقُولُ كذا وكذا ، فهو أيضًا حقٌّ ، لكن يَجِبُ التفريقُ بينَ الإطلاقِ والتعيينِ.

إلى أن قال : والتكفيرُ هو مِن الوعيدِ ؛ فإنه ، وإن كان القولُ تكذيبًا لَما قاله الرسولُ ﷺ ، لكنَّ الرجلَ قد يكونُ حديثَ عهدٍ بإسلامٍ ، أو نشَأَ بباديةٍ بعيدةٍ.

ومثلُ هذا لا يُكَفَّرُ بجَحْدِ ما يَجْحَدُه حتى تقومَ عليه الحجةُ ، وقد يكونُ الرجلُ لم يَسْمَعْ تلك النصوصَ ، أو سمِعَها ، ولم تَثْبُتْ عندَه ، أو عارَضَها عندَه معارِضٌ آخرُ أوْجَب تأويلَها ، وإن كان مُخْطِئًا . اهـ

وقال شيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ ٥٦/١ من الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ : وأما التكفيرُ فأنا أُكَفِّرُ مَن عرَفَ دينَ الرسولِ ، ثم بعدَما عرَفَه سبَّه ، ونهَى الناسَ عنه ، وعادَى مَن فعَلَه ، فهذا هو الذي أُكَفِّرُه . اهـ

. . . .

وفي ص ٦٦ : وأما الكذبُ والبُهْتانُ فقولُهم : إنا نُكَفِّرُ بالعمومِ ، ونُوجِبُ الهجرةَ إلينا على مَن قدَر على إظهارِ دينِهِ ، فكلُّ هذا من الكذبِ والبهتانِ الذي يَصُدُّون به الناسَ عن دينِ اللَّهِ ورسولِه.

وإذا كنا لا نُكَفِّرُ مَن عبَدَ الصنمَ الذي على عبدِ القادرِ ، والصنَمَ الذي على أحمدَ البَدَويِّ وأمثالِهما ؛ لأجلِ جهلِهم ، وعدم مَن يُنَبِّهُهم ، فكيف نُكَفِّرُ مَن لم يُشْرِكْ باللَّهِ إذا لم يُهاجِرْ إلينا ، أو لم يُكَفِّرْ ويُقَاتِلْ ؟! اهـ

وإذا كان هذا مُقْتَضَى نصوصِ الكتابِ ، والسنةِ ، وكلامِ أهلِ العلمِ فهو مُقْتَضَى حكمةِ اللَّهِ تعالى ، ولُطْفِه ، ورأفتِه ، فلن يُعَذِّبَ أحدًا حتى يُعْذَرَ إليه.

والعقولُ لا تَسْتَقِلُّ بمعرفةِ ما يَجِبُ للهِ تعالى من الحقوقِ ، ولو كانت تَسْتَقِلُّ بذلك لم تَتَوَقَّفِ الحجةُ على إرسالِ الرسلِ.

فالأصلُ فيمَن يَنْتَسِبُ للإسلامِ بقاءُ إسلامِه حتى يَتَحَقَّقَ زوالُ ذلك عنه بمُقْتَضَى الدليلِ الشرعيِّ ، ولا يَجوزُ التَّساهُلُ في تكفيرِه ؛ لأنَّ في ذلك مَحْذُورَيْنِ عظيمَيْنِ :

أحدُهما : افتراءُ الكذبِ على اللَّهِ تعالى في الحُكْمِ ، وعلى المحكومِ عليه في الوصفِ الذي نَبَزَه به.

أما الأولُ فواضحٌ حيث حكَم بالكفرِ على مَن لم يُكَفِّرْه اللَّهُ تعالى ، فهو كمَن حرَّم ما أحَلَّ اللَّهُ ؛ لأن الحكمَ بالتكفيرِ أو عدمِه إلى اللَّهِ وحدَه ، كالحُكْمِ بالتحريمِ أو عدمِه.

وأما الثاني فلأنه وصَف المسلمَ بوصْفٍ مُضادٍّ ، فقال : إنه كافرٌ ، مع أنه بريءٌ من ذلك ، وحَرِيٌّ به أن يعودَ وَصْفُ الكفرِ عليه ؛ لما ثبَت في صحيحِ مسلمٍ ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رضِي اللَّهُ عنهما ، أن النبيَّ ﷺ قال : «إذا كفَّر

. . . .

الرجلُ أخاه فقد باء بها أحدُهما»[١] .

وفي رواية : «إن كان كما قال ، وإلا رجَعَت عليه»[٢].

وله من حديثِ أبي ذَرٍّ رضي اللَّهُ عنه ، أن النبيَّ ﷺ قال : «ومَن دعا رجلًا بالكفرِ ، أو قال : عَدُوُّ اللَّهِ ، وَليس كذلك إلا حار عليه»[٣] . يعني : رجَع عليه .

وقولُه في حديثِ ابنِ عمرَ : «**إن كان كما قال**» ؛ يعني : في حكمِ اللَّهِ تعالى .

وكذلك قولُه في حديثِ أبي ذرٍّ : «**وليس كذلك**» ؛ يعني : في حكمِ اللَّهِ تعالى.

وهذا هو المحذورُ الثاني ؛ أعني : عَوْدَ وصفِ الكفرِ عليه ، إن كان أخوه بريئًا منه ، وهو محذورٌ عظيمٌ يُوشِكَ أن يقعَ به ؛ لأن الغالبَ أنَّ مَن تسرَّع بوصفِ المسلمِ بالكفرِ كان مُعْجَبًا بعملِه ، مُحْتَقِرًا لغيرِه ، فيكونُ جامعًا بينَ الإعجابِ بعملِه الذي قد يُؤَدِّي إلى حُبوطِه ، وبينَ الكِبْرِ المُوجِبِ لعذابِ اللَّهِ تعالى في النارِ ، كما جاء في الحديثِ الذي أخْرَجه أحمدُ ، وأبو داودَ ، عن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ : الكِبْرياءُ رِدائي ، والعَظَمةُ إزاري ، فمَن نازَعني واحدًا منهما قَذَفْتُه في النارِ »[٤] .

فالواجبُ قبلَ الحكمِ بالتكفيرِ أن يُنْظَرَ في أمرَيْنِ :

الأمرُ الأولُ : دَلالةُ الكتابِ والسُّنةِ على أن هذا مُكفِّرٌ ؛ لئلا يَفْتَرِيَ على اللَّهِ الكذبَ .

الثاني : انْطِباقُ الحُكْمِ على الشخصِ المعيَّنِ ، بحيث تَتِمُّ شروطُ التكفيرِ في حقِّه ،

---

(١) البخارى (٦١٠٣) ، ومسلم ١/ ٧٩ (٦٠) .

(٢) مسلم ١/ ٧٩ (٦٠) .

(٣) البخارى (٣٥٠٨) ، ومسلم ١/ ٨٠ (٦١) .

(٤) أحمد ٢/ ٣٧٦ (٨٨٨٠) ، ومسلم ٤/ ٢٠٢٣ (١٣٦) ، وأبو داود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) .

. . . .

وتَنْتَفِي الموانعُ .

ومن أهمِّ الشروطِ أن يكونَ عالمًا بمُخالفتِه التي أوْجَبَت كفرَه ؛ لقولِه تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء : ١١٥] .

فاشْتَرَط للعُقوبةِ بالنارِ أن تكونَ المُشاقَّةُ للرسولِ مِن بعدِ أن يَتَبَيَّنَ الهُدَى له .

ولكن هل يُشْتَرَطُ أن يكونَ عالمًا بما يَتَرَتَّبُ على مخالفتِه من كفرٍ أو غيرِه ، أو يَكْفِي أن يكونَ عالمًا بالمخالفةِ ، وإن كان جاهلًا بما يَتَرَتَّبُ عليها ؟

الجوابُ : الثاني ؛ أي : أنَّ مُجردَ علمِه بالمخالفةِ كافٍ في الحكمِ بما تَقْتَضِيه ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ أوْجَب الكفارةَ على المُجامعِ في نهارِ رمضانَ(١) ؛ لعلمِه بالمخالفةِ مع جهلِه بالكفارةِ .

ولأنَّ الزانيَ المُحْصَنَ العالمَ بتحريمِ الزنى يُرْجَمُ ، وإن كان جاهلًا بما يتَرَتَّبُ على زِناه ، وربما لو كان عالمًا ما زنى .

ومِن الموانعِ مِن التكفيرِ أن يُكْرَهَ على المُكَفِّرِ ؛ لقولِه تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل : ١٠٦] .

ومن الموانعِ أن يُغْلَقَ عليه فكرُه وقَصْدُه ، بحيث لا يَدْرِي ما يقولُ لشدةِ

---

(١) روى البخارى (١٩٣٦ ، ٢٦٠٠) ، ومسلم ٢/ ٧٨١ (١١١١) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : هلكْتُ يا رسول الله . قال : «وَمَا أَهْلَكَكَ ؟» قال : وقعت على امرأتى فى رمضان . قال : «هل تجد ما تُعْتِق رقبة ؟» . قال : لا . قال : «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟» . قال : لا . قال : «فهل تجد ما تطعم ستين مسكينًا ؟» قال : لا . قال : ثم جلس . فأتى النبى ﷺ بعَرَقٍ فيه تمر ، فقال : «تصدق بهذا» قال : أفقر منا ؟ فما بين لَابَتَيْها أهل بيت أحوج منا .. فضحك النبى ﷺ حتى بدت أنيابه . ثم قال : «اذهب فأطعمه أهلك» .

. . . .

فرحٍ ، أو حُزْنٍ ، أو غَضَبٍ ، أو خوفٍ ، ونحوِ ذلك ؛ لقولِه تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥] .

وفي صحيحِ مسلمٍ (٢١٠٤) ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللَّهُ عنه ، أن النبيَّ ﷺ قال : « لَلهُ أشَدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه حينَ يَتوبُ إليه مِن أحدِكم كان على راحلتِه بأرضِ فَلاةٍ ، فانْفَلَتَت منه ، وعليها طعامُه وشرابُه ، فأيِس منها ، فأتى شجرةً ، فاضْطَجَع في ظِلِّها ، قد أيِس من راحلتِه ، فبينَما هو كذلك إذا هو بها ، قائمةً عندَه ، فأخَذ بخِطامِها ، ثم قال مِن شدةِ الفرحِ : اللَّهمَّ أنت عَبْدِي ، وأنا ربُّك . أخْطَأ من شدةِ الفرحِ »[(١)] .

ومِن الموانعِ أيضًا أن يكونَ له شُبْهةُ تأويلٍ في الكفرِ ، بحيث يَظُنُّ أنه على حقٍّ ؛ لأن هذا لم يَتَعَمَّدِ الإثمَ والمخالفةَ ، فيكونَ داخلًا في قولِه تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾ [الأحزاب : ٥] .

ولأن هذا غايةُ جُهْدِه ، فيكونُ داخلًا في قولِه تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

قال في المغني (١٣١/٨) : وإن اسْتَحَلَّ قتلَ المَعْصُومِين ، وأخْذَ أموالِهم ، بغيرِ شُبْهةٍ ، ولا تأويلٍ ، فكذلك – يعني : يكونُ كافرًا – وإن كان بتأويلٍ كالخوارجِ[(٢)] ، فقد ذكَرْنا أنَّ

---

(١) البخارى (٦٣٠٩) ، ومسلم ٤/ ٢١٠٤ (٢٧٤٧) .

(٢) سُمُّوا بهذا الاسم ؛ لخروجهم على الإمام على رضى الله عنه ، ونزلوا بأرض يقال لها : حَرُوراء فسُمُّوا بالحَرُورِيَّة ، وهم الذين يُكَفِّرون أصحاب الكبائر ، ويقولون بأنهم مخلدون فى النار ، كما يقولون بالخروج على أئمة الجور ، وأن الإمامة جائزة فى غير قريش ، وهم يكفرون عثمان وعليًّا رضى الله عنهما وطلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم ، ويعظمون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما . =

. . . .

أكثرَ الفقهاءِ لم يَحْكُموا بكفرِهم مع استحلالِهم دماءَ المسلمين وأموالَهم، وفعلِهم ذلك مُتَقَرِّبين به إلى اللَّهِ تعالى. اهـ

إلى أن قال: وقد عُرِف مِن مذهبِ الخوارجِ تكفيرُ كثيرٍ مِن الصحابةِ، ومَن بعدَهم، واستحلالُ دمائِهم، وأموالِهم، واعتقادُهُم التَّقَرُّبَ بقتلِهم إلى ربِّهم، ومع هذا لم يَحْكُم الفقهاءُ بكفرِهم لتأويلِهم.

وكذلك يُخَرَّجُ في كلِّ مُحَرَّمٍ اسْتُحِلَّ بتأويلٍ مثلُ هذا. اهـ

وفي فتاوَى شيخِ الإسلامِ (١٣/ ٣٠ مجموع ابنِ قاسم): وبِدْعةُ الخوارجِ إنما هي مِن سوءِ فهمِهم للقرآنِ، لم يَقْصِدوا مُعارضتَه، لكن فهِموا منه ما لم يَدُلَّ عليه، فظَنُّوا أنه يُوجِبُ تكفيرَ أربابِ الذنوبِ. اهـ

وفي ص٢١٠ منه: فإنَّ الخوارجَ خالَفوا السُّنةَ التي أمَر القرآنُ باتِّباعِها، وكفَّروا المؤمنين الذين أمَر القرآنُ بمُوالاتِهم، وصاروا يَتَّبِعون المُتَشابِهَ مِن القرآنِ، فيَتَأَوَّلُونه على غيرِ تأويلِه، من غيرِ معرفةٍ منهم بمَعْناه، ولا رسوخٍ في العلمِ، ولا اتباعٍ للسنةِ، ولا مُراجعةٍ لجماعةِ المسلمين، الذين يَفْهَمون القرآنَ. اهـ

وقال أيضًا (٢٨/ ٥١٨ من المجموعِ المذكورِ): فإنَّ الأئمةَ مُتَّفِقون على ذمِّ الخوارجِ وتَضْليلِهم، وإنما تَنازَعوا في تكفيرِهم على قولَيْن مَشْهورين. اهـ

لكنَّه ذكَر في (٧/ ٢١٧): أنه لم يَكُنْ في الصحابةِ مَن يُكَفِّرُهم، لا عليُّ بنُ أبي طالبٍ، ولا غيرُه، بل حكَموا فيهم بحكمِهم في المسلمين الظالمين المُعْتَدِين، كما ذُكِرَت الآثارُ عنهم بذلك، في غيرِ هذا الموضعِ[1]. اهـ

= الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٢/ ١١٣، الملل والنحل للشهرستانى ١/ ١٥٤، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٥٠، البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ص ٩ .

(١) انظر فى هذه الآثار: مصنف عبد الرزاق ١٠/ ١٥٠، ومصنف ابن أبى شيبة ٧/ ٥٤٨،=

. . . .

وهذه حِكْمَةٌ بالغَةٌ ؛ ابْتلاءُ الأخْيَارِ بالأشْرَارِ ؛ ليَكْمُلَ للأخْيَارِ مَرَاتبُ الجهَادِ ، وإلَّا لو شَاءَ لَمَا جَعَلَ للأشْرارِ شيئًا من السُّلْطَةِ ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكن ليَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ الآيَةَ .

سُنَّتُهُ البَالِغَةُ أن يُسَلِّطَ الأشْرَارَ عَلى الأخْيَارِ ؛ سَلَّطَ الأشْرَارَ عَلى الرُّسُلِ فَمَا دُونَهم ، وليسَ هَوانًا بالأنْبيَاءِ عليهمُ السَّلامُ ، وأتْباعِهم ، ولكن ليَقُومَ الأخْيارُ بالجهادِ فتَعْظُمَ الدَّرَجَةُ ، ويَعْظُمَ الأجْرُ ، ويَنَالُوا المَرَاتِبَ العَاليةَ ؛ لأنَّ الجنَّةَ غاليةٌ لا تُنَالُ إلَّا بالصَّبْرِ على المَصَاعِبِ والمَشَاقِّ .

واعْلَمْ أن أتْبَاعَهُم كَذلكَ ، مَن صَدَّقَ اللَّهَ في اتِّبَاعِهِ للرُّسُلِ كانُوا أعْظَمَ أعْدَائِهِ (كَمَا قَالَ تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾) يَشْمَلُ جَميعَ الأنْبياءِ ، ثُمَّ بَيَّنَ العَدُوَّ فقالَ : ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ ؛ يَعني : من هؤلاءِ وهؤلاءِ .

والشَّياطينُ هُم الذين فيهم تمرُّدٌ وعُلُوٌّ ، قال بعضُهم : إنَّه بَدَأَ بشَيَاطِينِ الإنْسِ ؛ لأنَّهُم أعظمُ في هذَا المَقَامِ من شَيَاطِينِ الجنِّ ؛ لأنَّ شَيطَانَ الإنْسِ يَأْتِي في صُورَةِ نَاصِحٍ مُحِبٍّ ليِّنِ الجَانِبِ واللِّسَانِ .

ثُمَّ بَيَّنَ الذي به يَصْدِفُونَ عن الحقِّ ، فقالَ : ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ . فتَبَيَّنَ لكَ أنَّ تَزْيِيفَ القولِ بالعبَارةِ له تأْثِيرٌ ، وأن الحَقَّ قد يَعْرِضُ له مَن يَجْعَلُهُ في صُورَةِ الباطِلِ ، كمَا قالَ الشاعِرُ :

فِي زُخْرُفِ القَوْلِ تَحْسِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ
تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ[١] النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإنْ تَشَأْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

(١) المُجَاج ـ بالضمِّ ـ : الرِّيقُ الذى تَمُجُّه من فِيك ، يقال : المَطَرُ مُجَاجُ المُزْنِ ، والعَسَلُ مُجاجُ النَّحْلِ . مختار الصحاح (م ج ج) .

وقد يقولُها ، وهو يَظُنُّ أنها قُرْبَةٌ إلى اللَّهِ ، كما كان يَظُنُّ المشركون ، خصوصًا إن أَلْهَمَك اللَّهُ تعالى ما قَصَّ عن قوم موسى مع صلاحِهم وعلمِهم أنهم أَتَوْه قائلين : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فحينئذٍ يَعْظُمُ خوفُك وحرصُك على ما يُخَلِّصُك من هذا وأمثالِه[1] .

إلى أن قال في ص٢٨٨ : وقد اختَلَف العلماءُ في خطابِ اللَّهِ ورسولِه هل يَثْبُتُ حكمُه في حقِّ العبيدِ قبلَ البلاغ ، على ثَلاثةِ أقوالٍ في مذهبِ أحمدَ وغيرِه ، والصحيحُ ما دلَّ عليه القرآنُ في قولِه تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] . وقولِه : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وفي الصحيحَيْن عن النبيِّ ﷺ : « ما أَحَدٌ أحبَّ إليه العُذْرُ من اللَّهِ ، مِن أجلِ ذلك أرْسَل الرسلَ مُبَشِّرين ومُنْذِرين »[1] . اهـ

والحاصلُ أن الجاهلَ مَعْذورٌ بما يقولُه أو يَفْعَلُه ، مما يَكونُ كفرًا ، كما يكونُ معذورًا بما يقولُه أو يَفْعَلُه مما يكونُ فسقًا ، وذلك بالأدلةِ من الكتابِ والسنةِ ، والاعتبارِ ، وأقوالِ أهلِ العلمِ .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

وقد يَقولُها ، وهو مُجتهدٌ **(يَظُنُّ أنَّها تُقَرِّبُه إلى اللَّهِ)** زُلفَى **(كما ظَنَّ المُشْرِكُونَ)** ؛ يعني : في جِنْسِ شِرْكِهم وتَوَسُّلِهم إلى غَيرِ اللَّهِ ، قَصدُهُم أنَّهم يُقَرِّبُونَهُم إلى اللَّهِ زُلفَى ، فيَصْرِفُونَ لهم خَالِصَ العِبادَةِ من أجلِ جَهْلِهِم ، يقولُونَ : إنهم يَتشأَلُونَ لنَا مِن اللَّهِ ، وإنَّهُم أقْرَبُ مِنَّا إليه ، ولكنَّ هذا هو عينُ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ .

(خُصُوصًا إنْ أَلْهَمَكَ اللَّهُ ما قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِم وعِلْمِهم) لمَّا مَرُّوا

---

(١) البخاري (٧٤١٦) ، ومسلم ٢/١١٣٦ (١٤٩٩) .

. . . .

بقَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنامٍ لهُم (أَنَّهُم أَتَوْهُ قَائِلِينَ : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ . فقالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِم : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ .

(فحينئِذٍ) إذا عَرَفْتَ أنَّ الرَّجُلَ يَكْفُرُ بِكَلمةٍ... إلخ **(يَعظُمُ خَوْفُكَ وحزَصُكَ عَلى ما يُخَلِّصُكَ من هذَا وأَمْثَالِه)** .

ومن أَسْبابِ الخُلُوصِ من هذَا الدَّاءِ العُضَالِ : التَّفْتيشُ عن مَبَادِئِهِ ووَسَائِلِهِ وذَرَائِعِه ؛ خشْيَةَ أن تَقَعَ فيه ، وأَنْتَ لَا تَشْعُرُ ، وكانَ حُذَيْفةُ بنُ اليَمَانِ رضِيَ اللَّهُ عنه يَقُولُ : كَان أَصْحابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الخَيْرِ ، وكنتُ أَسْأَلُهُ عن الشَّرِّ مَخَافَةَ أن يُدْرِكَنِي[1] .

ومن أَسْبَابِ التَّخَلُّصِ من هذَا : صِدْقُ الابْتِهَالِ إلى اللَّهِ وسُؤَالُهُ التَّثْبِيتَ ، وكثيرًا ما كَان رسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو بِهذَا الدُّعَاءِ : « اللَّهُمَّ يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ والأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ »[2] .

كَمَا ابْتَهَلَ الخَلِيلُ عليهِ السَّلامُ إلى اللَّهِ فَقالَ : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ .

وفي الحديثِ : « مَنْ أَمِنَ اللَّهَ عَلَى دِينِه طَرْفَةَ عَيْنٍ سَلَبَهُ إِيَّاهُ » .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

حينَما حذَّر الشيخُ رحِمه اللَّهُ من أمرَيْنِ ؛ أحدُهما : خوفُ الإنسانِ على نفسِه من أن يَظُنَّ ما ظَنَّ هؤلاء في معنى التوحيدِ أنه هو إفرادُ اللَّهِ تعالى بالخلقِ والرزقِ والتدبيرِ بيَّن رحِمه اللَّهُ أن الواجبَ على الإنسانِ أن يكونَ على خوفٍ دائمًا ، ثم يَذْكُرَ

---

(١) البخارى (٣٦٠٦) ، (٧٠٨٤) ، ومسلم ٣/ ١٤٧٥ (١٨٤٧) .

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٨٢ (١٧٥٦٢) ، والترمذى (٢١٤٠) .

وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٩٨٧، ٧٩٨٨) : صحيح .

واعْلَمْ أنَّه سبحانَه من حكمتِه لم يَبْعَثْ نبيًّا بهذا التوحيدِ إلا جَعَلَ له أعداءً ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾[١] .

حالَ القومِ الذين قالوا لموسى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩] .

فبيَّن لهم أن سؤالَهم أن يَجْعَلَ لهم آلهةً ، كما كان هؤلاء لهم آلهةٌ من الجهلِ ، فهذا يُؤَدِّي إلى خوفِ الإنسانِ على نفسِه من أن يَتِيهَ في الضَّلالاتِ والجهالاتِ ، حيث يَظُنُّ أن معنى : «لا إلهَ إلا اللَّهُ» ؛ أي : لا خالقَ ، ولا رازقَ ، ولا مُدَبِّرَ إلا اللَّهُ ، عزَّ وجلَّ .

وهذا الذي قاله الشيخُ رحِمه اللَّهُ وحَذَّر منه وقَع فيه عامةُ المتكلِّمين الذين تكَلَّموا في التوحيدِ ، حيث قالوا : إن معنى « لا إلهَ إلا اللَّهُ » ؛ أي : لا مُخْتَرِعَ ، ولا قادرَ على الاختراعِ إلا اللَّهُ .

ففسَّروا هذه الكلمةَ العظيمةَ بتفسيرٍ باطلٍ ، لم يَفْهَمْه أحدٌ من المسلمين ، بل ولا غيرِ المسلمين ، حتى المشركون الذين بُعِث فيهم رسولُ اللَّهِ ﷺ كانوا يَعْرِفون معنى هذه الكلمةِ أكثرَ مما يَعْرِفُها هؤلاء المتكلِّمون .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(واعْلَمْ) أيُّها الطالِبُ **(أنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكْمَتِه)** البَالغةِ **(لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا)** من الأَنْبِياءِ **(بِهَذَا التَّوحِيدِ)** من لدُنْ نوحٍ إلى أن خَتَمهُم بمُحمَّدٍ ﷺ .

(إلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً) إلَّا قَيَّضَ له أعداءً ، قَصْدُهُم الإغْوَاءُ والصَّدْفُ[١] عن دينِ اللَّهِ ؛ هذا الصِّراطُ المُسْتقيمُ .

---

(١) يقال : صَدَفَ فلانًا عن الشيءِ يَصْدِفُه صَدْفًا : صَرَفَه . المعجم الوسيط (ص د ف) .

. . . .

وهذه حِكْمَةٌ بالغَةٌ ؛ ابْتلاءُ الأخْيَارِ بالأشْرَارِ ؛ لِيَكْمُلَ للأخْيَارِ مَرَاتِبُ الجِهَادِ ، وإلَّا لو شَاءَ لَمَا جَعَلَ للأشْرارِ شيئًا من السُّلْطَةِ ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ الآيةَ .

سُنَّتُهُ البَالِغَةُ أن يُسَلِّطَ الأشْرَارَ عَلى الأخْيَارِ ؛ سَلَّطَ الأشْرَارَ عَلى الرُّسُلِ فَمَا دُونَهم ، وليسَ هَوانًا بالأنْبِيَاءِ عليهمُ السَّلامُ ، وأتْباعِهِم ، ولكن لِيَقُومَ الأخْيارُ بالجهادِ فتَعْظُمَ الدَّرَجَةُ ، ويَعْظُمَ الأجْرُ ، ويَنَالُوا المَرَاتِبَ العَالِيَةَ ؛ لأنَّ الجنَّةَ غاليةٌ لا تُنَالُ إلَّا بالصَّبْرِ على المَصَاعِبِ والمَشَاقِّ .

واعْلَمْ أن أتْبَاعَهُم كَذلك ، مَن صَدَّقَ اللَّهَ في اتِّبَاعِهِ للرُّسُلِ كانُوا أعْظَمَ أعْدَائِهِ (كَمَا قَالَ تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾) يَشْمَلُ جميعَ الأنْبياءِ ، ثُمَّ بَيَّنَ العَدُوَّ فقالَ : ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ ؛ يَعني : من هؤلاءِ وهؤلاءِ .

والشَّياطينُ هُم الذين فيهم تمرُّدٌ وعُلُوٌّ ، قال بعضُهم : إنَّه بَدَأَ بشَيَاطِينِ الإنْسِ ؛ لأنَّهُم أعظمُ في هذَا المَقَامِ من شَيَاطِينِ الجنِّ ؛ لأنَّ شَيطَانَ الإنْسِ يَأْتِي في صُورَةِ نَاصِحٍ مُحِبٍّ لِيِّنِ الجَانِبِ واللِّسَانِ .

ثُمَّ بَيَّنَ الذي به يَصْدِفُونَ عن الحقِّ ، فقالَ : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ . فتَبَيَّنَ لكَ أنَّ تَزْيِيفَ القولِ بالعبَارةِ له تأْثِيرٌ ، وأن الحَقَّ قد يَعْرِضُ له مَن يَجْعَلُهُ في صُورَةِ الباطِلِ ، كمَا قالَ الشاعِرُ :

فِي زُخْرُفِ القَوْلِ تَحْسِينٌ لِبَاطِلِهِ	وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ
تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ[1] النَّحْلِ تَمْدَحُهُ	وَإنْ تَشَأْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا	وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

(١) المُجَاج ـ بالضمِّ ـ : الرِّيقُ الذى تَمُجُّه من فِيك ، يقال : المَطَرُ مُجَاجُ المُزْنِ ، والعَسَلُ مُجاجُ النَّحْلِ . مختار الصحاح (م ج ج) .

. . . .

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ لَكنَّهُ جعَلَهُم ابْتِلاءً وامْتِحانًا ؛ لِيَتَبيَّنَ المُجاهِدُ مِن القاعِدِ ، والصَّابِرُ من غيرِ الصَّابرِ ، والمُجِدُّ من المُخْلِدِ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وهذا وَعِيدٌ شَدِيدٌ وتَهْدِيدٌ وتَغْلِيظٌ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :

نبَّه ا لمؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى في هذه الجملةِ على فائدةٍ عظيمةٍ حيث بيَّن أنَّ مِن حكمةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ أنه لم يَبْعَثْ نبيًّا إلا جعَلَ له أعداءً من الإنسِ والجنِّ ، وذلك أن وجودَ العدوِّ يُمَحِّصُ الحقَّ ويُبَيِّنُه ؛ فإنه كلما وُجِدَ المُعارِضُ قَوِيَت حُجَّةُ الآخَرِ .

وهذا الذي جعَلَه اللَّهُ تعالى للأنبياءِ جعَلَه أيضًا لأتْباعِهم ، فكلُّ أتْباعِ الأنبياءِ يَحْصُلُ لهم مثلُ ما يَحْصُلُ للأنبياءِ ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ، وقال : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان : ٣١] .

فإنَّ هؤلاء المُجْرِمين يَعْتَدُون على الرسلِ وأتباعِهم ، وعلى ما جاءوا به بأمرَيْن :

الأولُ : التَّشْكِيكُ .

الثاني : العُدْوانُ .

أما التشكيكُ فقال اللَّهُ تعالى في مقابلتِه : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ . لمن أراد أن يُضِلَّه أعداءُ الأنبياءِ .

وأما العُدْوانُ فقال اللَّهُ تعالى في مقابلتِه : ﴿وَنَصِيرًا﴾ . لمن أراد أن يَرْدَعَه أعداءُ الأنبياءِ .

فاللَّهُ تعالى يَهْدِي الرسلَ وأتباعَهم ويَنْصُرُهم على أعدائِهم ، ولو كانوا من

وقد يكونُ لأعداءِ التوحيدِ عُلُومٌ كثيرةٌ ، وكُتُبٌ وحُجُجٌ ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[١] .

أقوى الأعداءِ ، فعلينا أن لا نَيْأَسَ لكثرةِ الأعداءِ وقوَّةِ مَن يُقاوِمُ الحقَّ ؛ فإنَّ الحقَّ ، كما قال ابنُ القيِّم رحِمه اللَّهُ :

الحقُّ منصورٌ ومُمْتَحَنٌ فلا تَعْجَبْ فهَذِي سنةُ الرَّحْمنِ

فلا يَجوزُ لنا أن نَيْأَسَ ، بل علينا أن نُطِيلَ النفَسَ ، وأن نَنْتَظِرَ ، وستَكونُ العاقبةُ للمتَّقِينَ ، فالأملُ دافعٌ قويٌّ للمُضيِّ في الدعوةِ ، والسَّعْيِ في إنجاحِها ، كما أن اليأسَ سببٌ للفشلِ والتأخُّرِ في الدعوةِ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وَقَدْ يكُونُ لأعْدَاءِ التَّوحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرةٌ) : لُغَوِيَّةٌ **(وَكُتُبٌ)** يَرجِعُونَ إليها **(وَحُجَجٌ)** لكنَّها عندَ التَّحْقيقِ مثلُ السَّرَابِ ، عندَ المُنَاظَرَةِ يَتَبيَّنُ أنها لا شيءَ ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ عندَ الحَاجَةِ إليهِ .

ومن تلكَ الحُجَجِ ما تقَدَّمَ ، ومنها ما يَأْتِي الجَوَابُ عنهُ .

والعِلْمُ : هو المَوْرُوثُ عن الأنبِيَاءِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأَمَّا علمُهُم فهو إمَّا مَنَامَاتٌ - أحْلَامٌ - أو تُرَّهاتٌ[١] باطِلَةٌ لا أصْلَ لها . ومنها شيءٌ صَحيحٌ في نفْسِهِ ، لكن لا يَفْهَمُونَهُ ، وهو في الحَقيقَةِ لَا يَدُلُّ على باطِلِهم ، بل هو رَدٌّ عليهم ، والدَّليلُ أن عندَهُم علُومًا كثيرةً وكُتبًا وحُجَجًا ، قولُه تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

يعني : أن أعداءَ الرسلِ الذين يُجادِلُونهم ويُكَذِّبونهم قد يكونُ عندَهم علومٌ

---

(١) التُّرَّهات : كناية عن الأباطيل ، واحدها تُرَّهة - بضم التاء ، وفتح الراء المشدَّدة - وهي في الأصل : الطُّرُقُ الصِّغار المُتَشَعِّبة عن الطريق الأعظم . النهاية لابن الأثير (ت ر ه) .

إذا عرَفْتَ ذلك ، وعرَفْتَ أنَّ الطريقَ إلى اللَّهِ لابُدَّ له من أعداءٍ قاعِدِين عليه ، أهلِ فَصَاحةٍ وعِلْمٍ وحُجَجٍ[1] .

كثيرةٌ ، وكتبٌ ، وشُبُهاتٌ ، يُسَمُّونها « حُجَجًا » يَلْبِسون بها على الناسِ ، فيَلْبِسون الحقَّ بالباطلِ ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ .

وهذا الفرحُ مذمومٌ ؛ لأنه فرحٌ بغيرِ ما يُرْضِي اللَّهَ ، فيكونُ من الفرحِ المذمومِ .

وأشار المؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى بهذه الجملةِ إلى أنه يَنْبَغِي أن نَعْرِفَ ما عندَ هؤلاء من العلوم والشُّبُهاتِ ؛ مِن أجلِ أن نَرُدَّ عليهم بسلاحِهم ، وهذامن هَدْيِ النبيِّ ﷺ ، ولهذا لما بَعَثَ مُعاذًا إلي اليمنِ قال له : « إنك تأتي قومًا أهلَ كتابٍ »[1] . وذلك من أجلِ أن يَسْتَعِدَّ لهم ، ويَعْرِفَ ما عندَهم مِن الكتابِ ؛ حتى يَرُدَّ عليهم بما جاءوا به .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(إذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ) ؛ يَعْني : ما قَرَّرَهُ وقَدَّمهُ المُصنِّفُ .

(وعَرَفْتَ أنَّ الطَّرِيقَ إلَى اللَّهِ لابُدَّ لهُ مِن أعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَليهِ) مُلازِمِينَ له ، لَا يَنْفَكُّونَ عنه ، ولَا يَرْجِعُونَ عنه أبدًا ، قَصْدُهُم الإغْواءُ والصَّدْفُ عن هذَا الصِّراطِ المستقيمِ .

(أَهْلِ فَصَاحَةٍ) وبَلَاغَةٍ في المَنْطِقِ .

(وعِلْمٍ وحُجَجٍ) على باطِلِهم ؛ ولكنَّها ليست مِن الحُجَجِ المَوْرُوثَةِ عن الأَنْبِيَاءِ صَلواتُ اللَّهُ وسَلامُهُ عليهم ، إنَّما هي مَنَامَاتٌ وأكَاذِيبُ إذا جَاءَ عندَ التَّحْصِيلِ فإذَا هي تَخُونُهُم أحْوَجَ ما يَكُونُونَ إليها .

---

(١) البخارى (٤٣٤٧) ، ومسلم ١/ ٥٠ (١٩) .

فالواجبُ عليك أن تَعْلَمَ من دينِ اللَّهِ ما يَصِيرُ لك سلاحًا ، تُقاتِلُ به هؤلاء الشياطينَ الذين قال إمامُهم ومُقَدَّمُهم لربِّك عزَّ وجلَّ : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[1] .

---

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(فَالوَاجِبُ عَليكَ أنْ تَتعلَّمَ مِن دِينِ اللَّهِ) الذي أنْزَلَهُ **(ما يَصِيرُ لَكَ سِلَاحًا)** تَذُبُّ بِهِ عن نَفْسِكَ ودِينِكَ ، وتُدَافِعُ به .

و **(تُقَاتِلُ بهِ هَؤُلاءِ الشَّياطِينَ الذينَ)** هُمْ بهَذا المَقَامِ أَعْظَمُ ضَرَرًا مِن شَيَاطِينِ الجِنِّ ، وهم نُوَّابُ إبْلِيسَ الذي (قَالَ إمَامُهُم ومُقَدَّمُهُم لربِّكَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ؛ أي : لَا أَتْرُكُ أَحَدًا يَمُرُّ إلَّا تَشَبَّثْتُ بِهِ وأَغْوَيْتُهُ !

لِشِدَّةِ عَدَوَاتِهِ لِهَذَا النَّوْعِ الإنْسَانِيِّ جَدَّ كُلَّ الجِدِّ ، واجْتَهَدَ كُلَّ الاجتهادِ في إغْوائِهِ وصَدْفِهِ وإضْلالِهِ ؛ أَخبَرَ هذا الخبَرَ عمَّا هو مُرِيدٌ وجَازِمٌ وعَازِمٌ عليهِ ؛ ثُمَّ أكَّدَهُ بهذِه التَّأْكِيدَاتِ : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

فإذا كانَ الطَّرِيقُ الذي هذه صِفتُهُ مَقْعُودٌ عليهِ ومرْصُودٌ عليهِ بأنْواعِ الصُّدُوفِ ، وأنْواعِ القُيُودِ ، وأنْوَاعِ السِّلاحِ ، وأنْوَاعِ الحُجَجِ والبَيِّنَاتِ ، وأنْواعِ الكَيْدِ والمَكْرِ والخِدَاعِ ، فكيف يَأْمَنُ الإنْسَانُ ولَا يَخَافُ ؟!

ومِمَّا تقدَّمَ تَعْرِفُ البُعْدَ عن صفةِ التَّعَبِ والهُوَيْنَى ، بل الأَمْرُ جِدٌّ كُلُّ الجِدِّ . فمعلُومٌ أن المُقَيَّضَ له أعداءٌ ، لا يكُونُ في غفْلَةٍ عنهم ، وليس مقْصُودُهم سَفْكَ الدَّمِ فقط ، لا بَل الدِّينَ .

وكم أُهْلِكَ في الطَّرِيقِ الذي عليهِ شياطِينُ الإنسِ والجنِّ مُرَاصِدِينَ ، معَ ما جُعِلَ لهم مِن السُّلْطَةِ على القَلْبِ ونحوِ ذَلِكَ ، يَحْسَبُونَ أنه آمِنٌ ، ولَا خَافُوا من

ولكن إذا أقْبَلْتَ على اللّهِ ، وأصْغَيْتَ إلى حُجَجِه وبَيِّناتِه ، فلا تَخَفْ ، ولا تَحْزَنْ : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1] .

مَخاوِفِهِ ، ولَا عَلِمُوا من الشَّرْعِ طُرُقَهُ ومَخاوِفَهُ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللّهُ :

إذا عرَفْتَ ذلك ؛ أي : أنَّ لهؤلاء الأعداءِ كتبًا وعلومًا وحججًا ، يَلْبِسون بها الحقَّ بالباطلِ ، فعليك أن تَسْتَعِدَّ لهم ، والاستعدادُ لهم يكونُ بأمرين :

أحدُهما : ما أشار إليه المؤلفُ رحِمه اللّهُ بأن يكونَ لديك من الحُجَجِ الشرعيةِ والعقليةِ ما تَدْفَعُ به حُجَجَ هؤلاءِ وباطلَهم .

الثاني : أن تَعْرِفَ ما عندَهم من الباطلِ حتى تَرُدَّ عليهم به ، ولهذا قال شيخُ الإسلامِ رحِمه اللّهُ في كتابِه « دَرْءُ تَعارُضِ النَّقْلِ والعَقْلِ » ، قال : إنه ما من إنسانٍ يأتي بحُجَّةٍ يَحْتَجُّ بها على الباطلِ إلا كانت حجةً عليه ، وليست حجةً له[1] . اهـ

وهذا الأمرُ كما قال رحِمه اللّهُ ؛ فإنَّ الحُجَّةَ الصحيحةَ إذا احْتَجَّ بها المُبْطِلُ على باطلِه ؛ فإنها تكونُ حُجَّةً عليه ، وليست حُجَّةً له ، فعلى مَن أراد أن يُجادِلَ هؤلاء ، يَتَأَكَّدُ أن يُلاحِظَ هذين الأمرين :

الأمرُ الأولُ : أن يَفْهَمَ ما عندَهم من العلمِ حتى يَرُدَّ عليهم به .

والأمرُ الثاني : أن يَفْهَمَ الحُجَجَ الشرعيةَ والعقليةَ التي يَرُدُّ بها على هؤلاء .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللّهُ :**

بعدَ ذِكرِ المُصنِّفِ ما ذَكَر من عَداوةِ الشَّيطانِ ونُوَّابِهِ وحرصِهم على إهْلاكِ هذا الجِنْسِ الإنْسانِيِّ قالَ : **(ولَكِنْ إذا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ)** بقلبِكَ وقالِبِكَ ، وَعلِمَ منكَ اللَّجْأَ إليهِ والتَّبَرِّيَ والتَّخَلِّيَ من الحَوْلِ والقوَّةِ إلَّا بهِ .

---

(١) وانظر أيضًا مجموع الفتاوى ٦/ ٢٨٨ .

. . . .

(وأَصْغَيْتَ) كلَّ الإصْغاءِ **(إلَى حُجَجِ اللّهِ وبَيِّنَاتِه)** مِن الكتابِ والسُّنَّةِ .

(فَلا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ) من الأعْدَاءِ القَاعدِينَ لكَ على الصِّراطِ المُستقيم ؛ فعندَكَ ما يُحَصِّنُكَ من هذا ؛ فالخَوْفُ عليكَ عندَما تُعْرِضُ عن حُججِ اللّهِ وبَيِّناتِه .

الخوْفُ والحَزَنُ عليكَ من جِهَةِ نفسِكَ أن لا تُقْبِلَ ولا تُصْغِيَ ؛ وأمَّا إن لَجأْتَ إليه فلا ، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

وإن كان قَسْمُهُ وحَظُّهُ من الألْفِ تسعَمائَةٍ وتسعَةً وتسْعينَ(١) ،

فليسَ كَثْرَةُ حِزْبِه من قُوَّةِ كيْدِهِ ، بل كيدُه ضَعيفٌ ، ولكنَّ أكثَرَ الخلْقِ أطَاعُوهُ وتَولَّوْهُ ومَكَّنُوهُ من أنفُسِهم .

فلمَّا جعَلُوا له سُلْطانًا كان له عليهم سُلطانٌ ، وإلَّا فكلُّ عبادِ اللّهِ ليسَ له عليهم سلطانٌ ، ولو أنهم لم يجعلُوا له عليهم سُلطانًا لما كَانَ له عليهم سُلطانٌ .

فهُم الذين أعْطَوْهُ القِيَادَ لأجْلِ الشَّهَوَاتِ ، وإيثارِ العَاجلِ على الآجِلِ ؛ أعْطَوْهُ ذلكِ فصارُوا إلى حَيِّزِه من جَانبٍ ، فصارت قُوَّتُه نسْبيَّةً ، كما قال تعالى :

---

(١) روى البخارى (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) ، ومسلم ١/ ٢٠١ (٢٢٢) ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا آدم ، فيقول : لبيك ، وسعديك ، والخير فى يديك ، قال : يقول : أخرج بَعْثَ النار ، قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعَمائةٍ وتسعةً وتسعين ، قال : فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حملٍ حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد» . قال : فاشتد ذلك عليهم ، قالوا : يا رسول الله ، أينا ذلك الرجل ؟ فقال : «أبشروا ، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا ، ومنكم رجل» . قال : ثم قال : «والذى نفسى بيده ، إنى لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة» . فحمدنا الله وكبرنا ، ثم قال : «والذى نفسى بيده ، إنى لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة» . فحمدنا الله وكبرنا ، ثم قال : «والذى نفسى بيده ، إنى لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة ، إني مثلكم فى الأمم كمثل الشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، أو كالرَّقْمة فى ذراع الحمار» .

والعامِّيُّ من المُوحِّدينَ يَغْلِبُ ألفًا من عُلماءِ هؤلاءِ المُشْركينَ ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1] .

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ .

فمَن استولَى عليه الشَّيْطانُ في شيءٍ فهو الذي ولَّاهُ على نفسِه ، وإذا أطاعَه في شيءٍ انتظَرَ منه شيئًا آخَرَ ، وهكذا حتَّى يُوصِلَهُ إلى الهَلاكِ ، والعِيَاذُ باللَّهِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

يُرِيدُ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ أن يُشَجِّعَ مَن أقْبَلَ على اللَّهِ تعالى ، وعَرَفَ الحقَّ بأن لا يخافَ مِن حُجَجِ أهلِ الباطلِ ؛ لأنها حُجَجٌ واهيةٌ ، وهي من كيدِ الشيطانِ ، وقد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

وفي ذلك يقولُ القائلُ :

حُجَجٌ تَهَافَتُ كالزُّجاجِ تَخَالُها حقًّا وكلٌّ كاسرٌ مكسورُ[1]

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قال الشيخُ رحِمه اللَّهُ تعالى : والعاميُّ من الموحِّدِينَ يَغْلِبُ ألفًا من علماءِ هؤلاءِ المشركين . واسْتَدَلَّ بقولِه تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ .

العاميُّ من الموحِّدين ؛ يعني : من الذين يُقِرُّون بالتوحيدِ بأنواعِه الثلاثةِ **(الألوهيةِ ، والربوبيةِ ، والأسماءِ والصفاتِ)** ، يَغْلِبُ ألفًا من علماءِ المشركين ؛ لأنَّ علماءَ هؤلاء المشركين يُوَحِّدونَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ توحيدًا ناقصًا ؛ حيث إنهم لا يُوَحِّدونه إلا بتوحيدِ الربوبيةِ

---

(١) هذا البيت ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى «مجموع الفَتاوَى» ٤/ ٢٨ ، ونسبه إلى الخطابي رحِمه الله .

كما ذكره السيوطى فى «صون المنطق والكلام» ص ٩٩ ، ١٧٦ ، ولم يذكر قائله .

فجُندُ اللَّهِ همُ الغالِبُونَ بالحُجَّةِ واللِّسانِ ، كَما هُم الغالِبُونَ بالسَّيفِ والسِّنانِ[١] ، وإنَّما الخوْفُ على المُوحِّدِ الذي يَسْلُكُ الطَّريقَ ، وليسَ مَعَهُ

فقط .

وهذا توحيدٌ ناقصٌ ، ليس هو توحيدًا في الحقيقةِ ، بدليلِ أن النبيَّ ﷺ قاتَلَ المشركينَ الذين يُوَحِّدونَ اللَّهَ هذا التوحيدَ ، ولم يَنْفَعْهم هذا التوحيدُ ، ولم تُعْصَمْ به دماؤُهم وأموالُهم .

والعاميُّ من الموحِّدِين يُقِرُّ بأنواعِ التوحيدِ الثلاثةِ (**توحيدِ الربوبيةِ** ، **والألوهيةِ** ، **والأسماءِ والصفاتِ**) ، فيكونُ خيرًا من هؤلاء .

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

أشار المؤلفُ رحِمه اللَّهُ إلى أن جندَ اللَّهِ ، وهم عبادُه المؤمنون ، الذين يَنْصُرُون اللَّهَ ورسولَه ، يُجاهِدُون الناسَ بأمْرَيْن :

الأولُ : الحُجَّةُ والبيانُ ، وهذا بالنسبةِ للمنافقين الذين لا يُظْهِرونَ عَداوةَ المسلمين ، فهؤلاء يُجاهَدون بالحُجَّةِ والبيانِ .

الثاني : مَن يُجاهَدُ بالسيفِ والسِّنانِ ، وهم المُظْهِرون للعَداوةِ ، وهم الكفارُ الخُلَّصُ ، المُعْلِنون بكفرِهم ، وفي هذا والذي قبلَه يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾ [التحريم : ٩] .

والجهادُ بالحُجَّةِ والبيانِ يكونُ للكفارِ الخُلَّصِ المُعْلِنين لكفرِهم أولًا ، ثم يُجَاهَدون بالسيفِ والسِّنانِ ثانيًا ، ولا يُجاهَدون بالسيفِ والسِّنانِ إلا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم .

والواجبُ على الأمةِ الإسلاميةِ أن تُقابِلَ كلَّ سلاحٍ يُصَوَّبُ نحوَ الإسلامِ بما

سِلاحٌ[(١)] .

يُناسِبُه ، فالذين يُحارِبون الإسلامَ بالأفكارِ والأقوالِ يَجِبُ أن يُبَيِّنَ بُطْلانُ ما هم عليه بالأدلةِ النظريةِ العقليةِ ، إضافةً إلى الأدلةِ الشرعيةِ .

والذين يُحارِبون الإسلامَ من الناحيةِ الاقتصاديةِ يَجِبُ أن يُدافَعوا ، بل أن يُهاجَموا إذا أمْكَنَ ، بمثلِ ما يُحارِبون به الإسلامَ .

والذين يُحارِبون الإسلامَ بالأسلحةِ يَجِبُ أن يُقاوَموا بما يُناسِبُ تلك الأسلَحةَ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(والعَامِّيُّ مِن المُوَحِّدينَ) الذي عرَف أدلةَ دِينِه ، وإن كانَ ليس بفقيهٍ ، ولَا عَالمٍ ، ليس المُرادُ العَامِّيَّ الجاهِلَ ، اللَّهم إلَّا أن يُوَفَّقَ العَامِّيُّ - الذي لَا يَعرِفُ - لحُجَّةٍ عقليةٍ ، وهو نادرٌ .

(يَغلِبُ الأَلْفَ) بل الأُلُوفَ **(من عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ)** ؛ لأَنَّ حُجَجَ المُشْرِكينَ تُرَّهَاتٌ وأباطِيلُ ومَنَاماتٌ كاذِبَةٌ ، وما كانَ معَهُم من الحَقِّ فهو رَدٌّ في الحَقيقةِ عليهم .

(كمَا قَالَ تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾) فهذه الآيةُ أفادت حصْرَ الغَلَبَةِ في جُنْدِ اللَّهِ ، وهو يَقْتَضِي بعُمُومِه الغَلَبَ في جميعِ النَّواحِي : الحُجَّةِ واللِّسَانِ والسَّيفِ والسِّنانِ .

يَغْلِبُونَ قَبيلَهُم ، ولَا تَظُنَّ أنه يَرِدُ عليهِ تَسليطُ أهلِ الشَّرِّ في هذهِ الأزْمانِ ، فإنَّهُ بسَبَبِ إضَاعَتِهِ ، وإلَّا فدينُ ربِّ العالَمِينَ محفُوظٌ مُؤَمَّنٌ بحِفْظِ من يَقُومُ به .

وَلَا تظُنَّ أنه يَرِدُ عليهِ إدَالَةُ أهلِ البَاطلِ بعضَ الأحْيانِ فإنهُ تَمْحيصٌ ورِفعَةٌ وغُرُورٌ لأهْلِ الباطِلِ .

(وإنَّما الخَوْفُ عَلَى المُوَحِّدِ) العَابِدِ للهِ المُستقيمِ على التَّوْحِيدِ **(الذي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ ،**

وقَد مَنَّ اللَّهُ تعالى علَيْنَا بكِتَابِهِ الذي جَعَلَهُ : ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(١) .

ولَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ) يَذُبُّ بِهِ عن دِينِه ، وهو الحُجَّةُ والسِّلَاحُ ، لَمْ يَتعلَّمْ أدِلَّةَ دِينِه ، فهذا مخُوفٌ عليهِ أن يُقْتَلَ ، أو يُسْلَبَ ، أو يَبقَى أسِيرًا في يَدِ عدُوِّه الشَّيطانِ وجُنودِهِ .

يُخْشَى عليهِ أن يُلِمَّ بِهِ الشيطانُ وجُنودُه فيَسْتَزِلُّونه عن الطَّرِيقِ السَّوِيِّ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

أي : أنَّ الخوفَ من أعداءِ الأنبياءِ إنما هو على الموحِّدِ الذي يَسْلُكُ الطريقَ ، وليس معه سلاحٌ ؛ لأنه ليس له علمٌ يَتَسَلَّحُ به ، فيُخْشَى أن يُجادِلَه أحدٌ من هؤلاءِ المشركين ، فتَضِيعَ حجتُه فيَهْلِكَ .

فلابدَّ أن يكونَ عندَ الإنسانِ علمٌ يَدْفَعُ به الشُّبُهاتِ ، ويُفْحِمُ به الخَصْمَ ؛ لأن المُجادِلَ يَحْتاجُ إلى أَمْرَيْنِ :

الأولُ : إثباتُ دليلِ قولِه .

الثاني : إبطالُ دليلِ خَصْمِه .

ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بمعرفةِ ما هو عليه مِن الحقِّ ، وما عليه خَصْمُه من الباطلِ ؛ ليَتَمَكَّنَ مِن دَحْضِ حُجَّتِه .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ) الذي هو السِّلاحُ كلُّ السلاحِ الأعْظَم . **(الذِي جَعَلَهُ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيءٍ وَهدًى وبُشْرَى للمُسْلِمِين)** .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

مَنَّ اللَّهُ علينا بكتابِه العزيزِ الذي : ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت : ٤٢] ، وجعَلَه سبحانَه وتعالى تِبْيانًا ؛ أي :

. . . .

مُبَيِّنًا لكلِّ شيءٍ يَحْتاجُه الناسُ في مَعاشِهِم ومَعادِهم .

ثم إنَّ تِبيانَ القرآنِ للأشياءِ يَنْقَسِمُ إلى قسمين :

الأولُ : أن يُبَيِّنَ الشيءَ بعينِه ، مثلَ قولِه تبارك وتعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة : ٣] وقولِه تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء : ٢٣ ، ٢٤] .

الثاني : أن يكونَ التِّبْيانُ بالإشارةِ إلى موضعِ البيانِ ، مثلَ قولِه تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء : ١١٣] . فأشار اللَّهُ تعالى إلى الحكمةِ التي هي السُّنَّةُ ؛ فإنها تُبَيِّنُ القرآنَ .

وكذلك قولُه تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧] .

فهذا يُبَيِّنُ أننا نَرْجِعُ في كلِّ شيءٍ إلى أهلِه الذين هم أهلُ الذِّكْرِ به ، ولهذا يُذْكَرُ أن بعضَ أهلِ العلمِ أتاه رجلٌ من النَّصارَى ، يُرِيدُ الطَّعْنَ في القرآنِ الكريمِ ، وكان في مَطْعَمٍ ، فقال له هذا النَّصْرانيُّ : أين بيانُ كيف يُصْنَعُ هذا الطعامُ ؟

فدعا الرجلُ صاحبَ المَطْعَمِ ، وقال له : صِفْ لنا كيف تَصْنَعُ هذا الطعامَ ؟ فوصَفَه ، فقال : هكذا جاء في القرآنِ ، فتَعَجَّبَ النصرانيُّ ، وقال : كيف ذلك ؟

فقال : إن اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

فَلَا يأْتِي صَاحِبُ باطلٍ بِحُجَّةٍ إلَّا وفي القُرآنِ ما يَنْقُضُها ويُبَيِّنُ بُطلانَها ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1] . قال بعْضُ المُفَسِّرين : هذهِ الآيةُ عامَّةٌ في كُلِّ حُجَّةٍ يأتي بها أهْلُ البَاطلِ إلى يَومِ القِيامةِ[2] .

[الأنبياء : ٧] . فبيَّن لنا مِفْتاحَ العلم بالأشياءِ بأن نَسْأَلَ أهلَ الذكرِ بها ؛ أي : أهلَ العلمِ به ، وهذا من بيانِ القرآنِ ، بلا شكٍّ ، فالإحالةُ على مَن يَحْصُلُ بهم العلمُ هي فتحٌ للعلمِ .

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحمه اللَّهُ :**

لا يَأتي مُبْطِلٌ بحُجَّةٍ على باطلِه إلا وفي القرآنِ ما يُبَيِّنُ هذه الحجةَ الباطلةَ ، بل إن كلَّ صاحبِ باطلٍ اسْتَدَلَّ لباطلِه بدليلٍ صحيحٍ من الكتابِ والسنةِ فهذا الدليلُ يكون دليلًا عليه ، كما ذكَر شيخُ الإسلامِ رحِمه اللَّهُ تعالى في مُقَدِّمةِ كتابِه « دَرْءُ تَعارُضِ النقلِ والعقلِ » أنه ما مِن صاحبِ بدعةٍ وباطلٍ يَحْتَجُّ لباطلِه بشيءٍ من الكتابِ أو من السنةِ الصحيحةِ إلا كان ذلك الدليلُ دليلًا عليه ، وليس دليلًا له[1] .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ) كائنةٍ ما كانت إلى يومِ القيامةِ **(إلَّا وفي القُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا ويُبَيِّنُ بُطْلَانَها)** يَعْرِفُ ذَلِكَ من يَعْرِفُهُ ، ويُوَفَّقُ له مَن يُوَفَّقُ ، ويجهَلُ ذَلِكَ من يجْهَلُهُ .

(كَمَا قَالَ تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾) ؛ أي : بُحجَّةٍ أو شُبْهَةٍ ، وهذه نكرةٌ في سياقِ النَّفي ، فشَمِلَ جميعَ ما يُؤْتَى بِهِ .

---

(١) وانظر أيضًا مجموع الفتاوى ٦/ ٢٨٨ .

وَأَنَا أَذْكُرُ لك أشياءَ مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ في كِتابِهِ جَوابًا لِكَلامٍ احْتَجَّ بِهِ المُشْرِكُونَ في زَمَانِنا عَلَيْنا[1].

(﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾) فالقُرْآنُ كَفيلٌ بذلك.

(قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ: هَذِهِ الآيَةُ عامَّةٌ في كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بها أَهْلُ الباطِلِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ) ولكن قَدْ يُؤْتَى الإنْسانُ من عدَمِ الفَهْمِ له، أو عَدَمِ الاعْتِناءِ بِهِ.

وقد الْتَزَمَ بعضُ العُلَماءِ - وهو شيخُ الإسْلام ابنُ تَيمِيَّةَ - أن لَا يَحْتَجَّ مُبْطِلٌ بآيَةٍ أو حديثٍ صحيحٍ على بَاطِلِهِ إلَّا وفي ذلك الدَّليلِ ما يدُلُّ على نقْضِهِ، وذَكَرَ لِذَلِكَ أمْثِلَةً: منها آيَةُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1].

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:

(وَأَنا أَذْكُرُ لكَ أَشْياءَ مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ في كِتَابِهِ جوابًا لِكَلَامٍ احْتَجَّ بهِ المُشْرِكُونَ في زَمَانِنَا عَلَيْنا) هذا فيه بَيانُ مَوضُوعِ الكِتَابِ وَما صُنِّفَ فيهِ؛ فهُو في رَدِّ شُبَهٍ شَبَّهَ بها بَعضُ المُشرِكِينَ على تَوْحيدِ العِبَادَةِ؛ فإنَّ الشَّيخَ رَحِمهُ اللَّهُ لَمَّا تَصَدَّى للدَّعوةِ إلى اللَّهِ وبَيَّنَ ما علَيهِ الكَثيرُ من الشِّرْكِ الأكْبَرِ تَصَدَّى بعضُ الجُهَّالِ بالتَّشْبِيهِ على جُهَّالٍ مِثْلِهم.

وزَعَمُوا أنَّ المُصَنِّفَ رَحِمهُ اللَّهُ يُكَفِّرُ المُسلِمينَ، وحَاشَاهُ ذَلِكَ، بل لا يُكَفِّرُ إلَّا مَن عَمِلَ مُكَفِّرًا، وقامَتْ عليهِ الحُجَّةُ، فإنَّه يُكَفِّرُهُ.

فقصَدَ كشْفَ تلك الشُّبَهِ المُشَبَّهَةِ على الجُهَّالِ ورَدَّها، وإن كانت أوْهَى من خَيْطِ العَنْكَبُوتِ، لكن تُشَوِّشُ عليهم.

وقَدَّمَ المُصنِّفُ رَحِمهُ اللَّهُ مُقَدِّمةً نافعةً في بَيانِ حَقيقَةِ دِينِ المُرسَلين وما دَعَوْا إليهِ وحَقيقةِ دِينِ المُشركينَ وما كانُوا عليهِ؛ لِيعْلَمَ الإنسانُ حقيقَةَ دينِ المُرْسَلينَ عندَ وُرُودِ الشُّبهَةِ، ويعلَمَ مَن هو أولَى بدِينِ المُرسَلينَ من دِينِ المُشْرِكينَ، وبَيَّنَ أن

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٢٨٨، ٢٨٩.

فنقُولُ : جَوابُ أهْلِ الباطلِ من طَريقينِ : مُجْمَلٍ ، ومُفصَّلٍ .

أمَّا المُجْمَلُ : فهُو الأمْرُ العَظيمُ والفائدةُ الكبيرةُ لِمَن عَقَلَها ، وذلك قولُه تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[(١)] .

مُشْركي زَمانِهِ هُم أتْباعُ دِينِ المُشْرِكينَ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قال المؤلفُ رحِمهُ اللَّهُ مُسْتَدِلًّا على أن الرجلَ المُوَحِّدَ ستَكونُ له حُجَّةٌ أبلغُ وأبْيَنُ من حُجَّةِ غيرِ المُوَحِّدِ ، مهما بَلَغَ من الفصاحةِ والبيانِ ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ ؛ أي : لا يأْتُونَك بمَثَلٍ يُجادِلُونك به ، ويَلْبِسُون الحقَّ بالباطلِ إلا جِئْناك بالحقِّ وأحْسَنَ تفسيرًا .

ولهذا تَجِدُ في القرآنِ كثيرًا ما يُجِيبُ اللَّهُ تعالى عن أسئلةِ هؤلاء المشركين وغيرِهم ؛ لِيُبَيِّنَ عزَّ وجلَّ للناسِ الحقَّ ، وسيَكونُ الحقُّ بيِّنًا لكلِّ أحدٍ .

ولكن هاهنا أمرٌ يَجِبُ التَّفَطُّنُ له ، وهو : أنه لا يَنْبَغِي للإنسانِ أن يَدْخُلَ في مُجادلةِ أحدٍ إلا بعدَ أن يَعْرِفَ حُجَّتَه ، ويكونَ مُسْتَعِدًّا لدَحْرِها والجوابِ عنها ؛ لأنه إذا دخَل في غيرِ معرفةٍ صارتِ العاقبةُ عليه ، إلا أن يشاءَ اللَّهُ ، كما أنَّ الإنسانَ لا يَدْخُلُ في مَيْدانِ المعركةِ مع العدوِّ إلا بسلاحٍ وشجاعةٍ .

ثم ذكَر المؤلفُ رحِمه اللَّهُ أنه سيَذْكُرُ في كتابِه هذا كلَّ حُجَّةٍ أتَى بها المشركون ليَحْتَجُّوا بها على شيخِ الإسلام رحِمه اللَّهُ ، ويَكْشِفُ هذه الشُّبُهاتِ ؛ لأنها في الحقيقةِ ليست حُجَجًا ، ولكنها تَشْبِيهٌ وتَلْبِيسٌ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فَنَقُولُ : جَوَابُ أهْلِ البَاطِلِ من طَرِيقَيْنِ) طَرِيقِ **(مُجْمَلٍ)** وطَرِيقِ **(مُفَصَّلٍ)** .

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] .

(أَمَّا المُجْمَل فهو الأَمْرُ العَظِيمُ والفَائِدَةُ الكَبِيرَةُ لِمَنْ عَقَلَها) وفهِمَهَا وعرفَهَا ، أَمَّا من كانت تَجْري على لِسانِهِ فقط فإنَّ هذا الجَوَابَ لا يكونُ له حُجَّةٌ .

وإنما قالَ ذَلِكَ في المُجْمَلِ ؛ لأنَّه في الحَقِيقَةِ يصلُحُ جوابًا لكُلِّ شبهةٍ (وَذَلِكَ قولُه تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾) الآياتُ المحكماتُ تعَبَّدَ اللَّهُ الخَلْقَ بالعلمِ بها ، والعَمَلِ بها والإيمَانِ بهَا . هذا هو حُكمُ المُحْكَمِ .

الأَوَّلُ : الإيمَانُ به أنه من عِندِ اللَّهِ .

الثَّاني : معرفَةُ مَعانِيهِ .

الثَّالثُ : العمَلُ بهِ .

(هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ) أُمُّ الشيءِ أصْلُهُ ، والذي يُرجَعُ إليهِ عندَ الاشْتِبَاهِ والإشْكالِ ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ الدَّلَالَةِ ، ليست دَلَالَتُها واضِحَةً مثلَ المُحْكَمَاتِ .

وحُكمُهَا :

أوَّلًا : الإيمَانُ بها أنَّها من عندِ اللَّهِ ، أنزَلَها على العبَادِ ؛ ليُؤْمِنُوا بها .

والثَّاني : أن لا تُفَسَّرَ بما يُخالِفُ المُحْكَمَ ، بل تُرَدَّ إلى الأُمِّ ، وهو المُحْكَمُ ، وتُفَسَّرَ بهِ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحمه اللَّهُ :**

(﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾) ؛ يعني : مَيْلٌ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ وزاغَت الشمسُ : مالَتْ ، والمُرَادُ أن الذينَ في قلوبِهم مَيْلٌ عن الحَقِّ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ يَطْلُبُون المُتَشَابِهَ في الدَّلَالَةِ ، ويَتْرُكُونَ المُحْكَمَ ، ويَصْدِفُونَ عن الوَاضِحِ ؛ لكَوْنِه يَهدِمُ ما هُم عليهِ من البَاطِلِ ويَفْضَحُهُم .

. . . .

فالجَاهِلُ إذا أدْلَوْا عليهِ بآيةٍ من المُتَشابِهِ رَاجَتْ عليهِ ، وهذا يُفِيدُ أن أهلَ الاهْتِدَاءِ والاسْتقامَةِ يتَّبِعونَ المُحْكَمَ ، ويرُدُّونَ المُتَشابِهَ إلى المُحْكَمِ .

فيقُولُون : لِمَ عَدَلْتَ عن هذه الآيَةِ وهذه الآيَةِ ، التي لَا تحتَمِلُ هذا ، ولَا هذا ، وأنَّهم خِلَافُ أهلِ الزَّيْغِ ؛ لأنَّه خصَّ أولئِكَ باتِّبَاعِ المُتَشَابِهِ ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

بيَّن رحِمهُ اللَّهُ تعالى أنه سيُجيبُ على هذه الشُّبُهاتِ بجَوابَيْنِ :

أحدُهما : مُجْمَلٌ عامٌّ صالِحٌ لكلِّ شُبْهةٍ .

الثاني : مُفَصَّلٌ ، وهكذا يَنْبَغِي لأهلِ العلمِ في بابِ المناظرةِ والمجادلةِ أن يَأْتوا بجوابٍ مُجْمَلٍ حتى يَشْمَلَ ما يَحْتَمِلُ أن يُورِدَه المُلَبِّسون المُشَبِّهون ، ويأتي بجوابٍ مُفَصَّلٍ لكلِّ مسألةٍ بعينِها ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١] .

فذكَر في الجوابِ المُجْمَلِ رحِمه اللَّهُ : أن هؤلاء الذين يَتَّبِعون المُتَشابِهَ هم الذين في قلوبِهم زَيْغٌ ، كما صحَّ ذلك عن النبيِّ ﷺ في قولِه تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾[1] [آل عمران : ٧] .

ولهذا تَجِدُ أهلَ الزَّيْغِ - والعِياذُ باللَّهِ - يَأْتُون بالآياتِ المُتَشابِهاتِ ؛ لِيَلْبِسوا بها على باطِلِهم ، فيقولونَ مثلًا : قال اللَّهُ تعالى كذا ، وقال في مَوْضِعٍ آخرَ كذا ،

---

(١) سيأتي تخريجه

وقَدْ صَحَّ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قال : « إذَا رَأَيْتُم الذينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ فأولَئِكَ الذِينَ سَمَّى اللَّهُ فاحْذَرُوهُمْ »[١] .

فكيف يكونُ ؟

وهذا مثلُ ما حصَل لنافعِ بنِ الأزْرَقِ مع ابنِ عباسٍ رضي اللَّهُ عنهما في مُناظرتِه التي ذكَرَها السيوطيُّ في «الإتقانِ» ، وربَّما يكونُ غيرُه ذكَرَها ، وهي مُفِيدةٌ[١] .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(وَقَدْ صَحَّ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّه قَالَ : « إِذَا رَأَيْتُم الذِينَ يَتَّبِعُون ما تَشَابَه منهُ فأُولِئكَ الذِينَ سَمَّى اللَّهُ »[٢]) عنَى اللَّهَ بقولِه : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ .

(فاحْذَرُوهُم) لا يَزيغُونَ بكم عن سبيلِ الحقِّ ، كما زَاغُوا عن الحقِّ ، حَـذَّر منهُــم ؛ لأَنَّ مُخالَطَتَهُم وسماعَ كلامِهم الدَّاءُ العُضالُ ومرضُ القُلوبِ .

ولَا يَتَّكِلُ الإنسانُ على ما مَعَه من الحقِّ ؛ بل يَبْعُدُ عن أهلِ الزَّيغِ ويُجَانِبُهُم ، ولو معَهُ حقٌّ ؛ فإنَّ السَّلَفَ كان هذا شأنَهُم ، ويستَدِلُّون بالحديثِ .

وهذا حُكمُ أهلِ الباطِلِ ؛ أن يُبْعَدَ عنهُم ، لئلَّا تَدْخُلَ القلبَ شُبهَةٌ يعسُرُ التخَلُّصُ منها ؛ فإنَّ أهلَ الباطِلِ لَا يَألُونَ جُهْدًا أن تكونُوا مثلَهُم في زيغِ القُلُوبِ ، وهُم أضَرُّ على النَّاسِ من أهلِ المعَاصي الشَّهْوانِيَّةِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قال الشيخُ رحِمهُ اللَّهُ : وقد صحَّ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال : «إذا رَأَيْتُمُ الذينِ

---

(١) الإتقان ١/ ٣٤٧، ٢/ ٧٤، وانظر تفسير الطبرى ٦/ ٢٢٨، ١٩/ ١٤٤، ٢١/ ٢٩، وتفسير القرطبى ١/ ٢٥، [illegible] ١٧٨، وتفسير ابن كثير ١/ ٥٠٠، ٣/ ١٣٣، ٤/ ٢٧٥ .

(٢) البخارى (٤٧ [illegible] ٥٣ [illegible] ٢ (٢٦٦٥) .

مِثالُ ذلكَ : إذا قَالَ لَكَ بعْضُ المُشْركين : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ . أو إنَّ الشَّفاعةَ حقٌّ ، وإنَّ الأنْبياءَ لَهُم جَاهٌ عِندَ اللَّهِ ، أو ذَكَرَ كَلامًا للنَّبِيِّ ﷺ ، يَستَدِلُّ بهِ على شيءٍ مِنْ باطِلِهِ ، وَأَنْتَ لا تَفْهَمُ مَعنَى الكَلامِ الذي ذَكَرَهُ[١] .

يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ منه فأولئك الذين سَمَّى اللَّهُ فاحْذَرُوهم »[١] .

استدَل المؤلفُ رحِمه اللَّهُ بهذا الحديثِ على أن الرجلَ الذي يَتَّبِعُ المُتَشابِهَ من القرآنِ ، أو من السنةِ ، وصار يَلْبِسُ به على باطلِه فهؤلاء هم الذين سَمَّاهم اللَّهُ ، ووصَفَهم بقولِه : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران : ٧] الآيةَ .

ثم أمَرَ النبيُّ ﷺ بالحَذَرِ منهم ، فقال : احْذَرُوهم مِن أن يُضِلُّوكم عن سبيلِ اللَّهِ باتِّباعِ هذا المُتَشابِهِ ، واحْذَروا طريقَهم أيضًا ، فالتحذيرُ هنا يَشْمَلُ التحذيرَ عن طريقِهم ، والتحذيرَ منهم أيضًا ،

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(مَثَالُ ذَلِكَ) ؛ يعني : مثالُ احتجاجِ المُشركِينَ بالمُتَشابِهِ ، وللجَوابِ عن ذَلِكَ بالجَوَابِ المُجْمَلِ : (إِذَا قَالَ لَكَ بعْضُ المُشْرِكِينَ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ زَعَمَ أن الآيةَ تدُلُّ على أنهم يُدْعَوْنَ ؛ يعني : فيَطْلُبُونَ له ، وأنهم أهلُ قُربٍ ومنزلَةٍ وجَاهٍ وفضْلٍ .

ومَن كانَ كذلك فقد تَأَهَّلَ .

أو شَبَّهَ بـ **(أَنَّ الشَفَاعَةَ)** التي ذُكِرَتْ في النُّصُوصِ **(حَقٌّ)** ووَاقعَةٌ ، وإذا كانت حقًّا فهي تُطلَبُ من الأَمْوَاتِ ونحوِهِم ، فيَهْتِفُ باسْمِهِ ، ويقُولُ : يا فُلَانُ ، اشْفَعْ لي .

(أو الأَنْبِياءَ لهُم جَاهٌ عندَ اللَّهِ) فهم يُسْأَلُونَ ويُدْعَوْن ؛ ليسأَلُوا لمَن ليسَ لهم الجَاهُ عندَهُ .

---

(١) البخاري (٤٣٨) ، ومسلم ١/ ٣٧٠ (٥٢١) .

فَجَاوِبْهُ بقَولِك : إنَّ اللَّهَ ذَكَرَ في كِتابِهِ أنَّ الذينَ في قُلُوبِهم زَيْغٌ يَتْرُكُون المُحْكَمَ ويَتَّبِعونَ المُتشابِهَ ، وما ذَكَرْتُه لكَ مِن أنَّ اللَّهَ تَعالى ذَكَرَ أنَّ المُشْرِكينَ يُقِرُّونَ بالرُّبُوبيَّةِ ، وأنَّ كُفْرَهُم بتعَلُّقِهم عَلى المَلائِكَةِ والأنْبياءِ والأولياءِ ، مَعَ قَولِهِم : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] .

(أو ذَكَرَ) المُبْطِلُ المُشَبِّهُ **(كلامًا للنَّبيِّ ﷺ يَسْتدِلُّ به على شيْءٍ من بَاطِلِهِ ، وأنْتَ لَا تفهَمُ معْنَى الكَلَامِ الذي ذَكَرَهُ)** ؛ يعْني : لَا تفْهَمُ أنهُ يدُلُّ على مقْصُودِهِ ، وتَفهَمُ وتعتَقِدُ أن هذِه أُمُورٌ باطِلَةٌ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

ثم ضَرَب المؤلفُ لهم مثَلًا بأن يقولَ لك المُشْرِكُ : أليس اللَّهُ يقولُ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ .

أو ليس للأولياءِ جَاهٌ عندَ اللَّهِ سبحانَه وتعالى؟! أو ليست الشفاعةُ ثابتةً بالقرآنِ والسنةِ؟ وما أشْبَهَ ذلك من هذه الأشياءِ .

فقُلْ : نَعَمْ ، كلُّ هذا حقٌّ ، ولكنَّه ليس فيه دليلٌ على أن تُشْرِكَ بهؤلاء الأولياءِ ، أو بهؤلاءِ الرسلِ ، أو بهؤلاء الذين عندَهم شَفاعةٌ عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

ودَعْواكَ أن هذا يَدُلُّ على ذلك دَعْوَى باطلةٌ ، لا يَحْتَجُّ بها إلا مُبْطِلٌ ، وما أنت إلا من الذين قال اللَّهُ فيهم : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ . ولو أنك ردَدْتَ هذا المُتَشابِهَ إلى المُحْكَمِ لَعلِمْتَ أن هذا لا دليلَ لك فيه .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فَجَاوِبْهُ بقولِكَ : إنَّ اللَّهَ ذَكَرَ في كِتَابِهِ أنَّ الذِينَ في قُلُوبِهِم زَيْغٌ يتْرُكُونَ المُحْكَم) ويَعْدِلُونَ عنه .

(ويَتَّبِعُونَ المُتَشَابِهَ) ويميلُونَ إليهِ ويستَدِلُّون به ، وأنتَ ترَكْتَ المحكَمَ ، وهو قولُه :

هذَا أمْرٌ مُحْكَمٌ بيِّنٌ لا يَقْدِرُ أحَدٌ أن يُغَيِّرَ معنَاهُ[١].

﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

وعمَدْتَ إلى المُتَشَابِهِ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ وعَمَدْتَ إلى المُتَشَابِهِ ، وهو أن الشَّفاعَةَ حقٌّ ، وترَكْتَ المُحْكَمَ ، وهو : ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ .

(وَمَا ذَكَرْتُهُ لَكَ) وجَاوِبْهُ بمَا ذَكَرَهُ المُصنِّفُ **(مِن أنَّ المُشْرِكِينَ يُقِرُّونَ بالرُّبُوبيَّةِ)** لم يُنازِعُوا فيها .

وتُبَيِّنُ له أن الدَّاعيَ عبدَ القَادِرِ مثلًا يدَّعي أنه ذُو مكَانَةٍ ، وأنتَ مُقِرٌّ بالرُّبُوبيَّةِ ، والمشركُونَ الأوَّلُون مقِرُّونَ بالرُّبُوبيَّةِ ، ولا نَفَعهُم .

(وأن اللَّهَ كفَّرَهُم بتعلُّقِهِم على المَلائِكَةِ والأنبياءِ والأوْلياءِ مع قولِهِم : ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾) ومع قولِهِم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ما زَادُوا على هذَا .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(هَذَا أمْرٌ مُحْكَمٌ بَيِّنٌ لَا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يُغَيِّرَ معناهُ) كونُ الذِينَ في قُلوبهم زيْغٌ يَحْتَجُّونَ بالمُتشابِهِ ، ويَعْدِلُونَ عن المُحْكَمِ ، وكونُ المشْرِكِينَ الأوَّلِينَ ما ادَّعَوْا فيهم الرُّبُوبيَّةَ وإنْزَالَ المطَرِ ، وأنهُم ما كانُوا مشرِكينَ كفارًا إلَّا بتعلُّقِهم عليهم رجاءَ شَفَاعتِهم وتقريبِهم إلى اللَّهِ زُلْفَى ، هذانِ أمْرَانِ مُحْكَمَانِ :

الأوَّلُ : احْتِجَاجُهُم بالمتشَابِهِ .

والثَّاني : أن المُشرِكينَ مُقِرُّون بالرُّبُوبيَّةِ - كما تقدّم - وأن اللَّهَ كفَّرَهُم بتعلُّقِهم على الملائِكَةِ ونحوِهم ، كونُهُم ما طَلَبُوا إلَّا الشفاعَةَ والقُربَ إلى اللَّهِ بذلك ، ليسَ من الأُمورِ المُتشابِهةِ .

وَما ذَكَرْتَه لي أيُّها المُشْرِكُ من القُرآنِ أوْ كَلامِ رسُولِ اللّهِ ﷺ لا أعْرِفُ مَعناهُ[1] .

كمَا أن من الأُمورِ المُحْكَمةِ أنهم ما أرَادُوا ممَّن دَعَوْهُ وذَبَحُوا له وتعَلَّقُوا عليه إلَّا شفاعتَهُ ، كما قالَ فيه : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

ذكَرَ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ كيف نَرُدُّ المُتَشابِهَ إلى المُحْكَم ؛ أنَّ المشركين كانوا مُقِرِّينَ بتوحيدِ الربوبيةِ ، ويُؤْمِنونَ بذلك إيمانًا لا شكَّ فيه عندَهم ، ولكنهم يَعْبُدونَ الملائكةَ وغيرَهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤُنا عندَ اللَّهِ .

ومع هذا كانوا مشركين اسْتَباح النبيُّ ﷺ دماءَهم وأموالَهم ، وهذا نصٌّ مُحْكَمٌ ، لا اشْتِباهَ فيه ، دالٌّ على أنَّ اللَّهَ لا شَريكَ له في ألوهيتِه ، وفي عبادتِه ، كما أنه لا شريكَ له في ربوبيتِه ومُلْكِه ، وأنَّ مَن أشْرَك باللَّهِ في ألوهيتِه فهو مُشْرِكٌ ، وإن وحَّده في الربوبيةِ .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(وَمَا ذَكَرْتَهُ لي أيُّها المُشْرِكُ من القُرْآنِ) كقولِه : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ فإنه من المُتَشَابِهِ ، وحُكْمُه أن يُرَدَّ إلى المُحْكَمِ .

(أو كَلَامِ النَّبيِّ) ﷺ كقولِه : « وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ »[1] .

(لَا أعْرِفُ معناهُ) لا أعرفُ دَلالَتَهُ على ما قصَدْتَ ، وأرَدْتَ أنهم يُدْعَوْنَ من دونِ اللَّهِ ، نعم ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ ولكن أينَ دَلالَتُهُ على المَقَامِ ؟ ما دَلَّ

(١) البخاري (٨) ، ومسلم ١/ ٤٥ (١٦) .

ولكن أَقْطَعُ أنَّ كَلامَ اللَّهِ لا يَتناقَضُ ، وَأن كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ لا يُخالِفُ كَلَامَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ[١] .

على أَنَّهُم يُدْعَوْنَ .

مَن وَصَّلَهُم إلى هذهِ الدرجَةِ ؟ أأنتَ الذي تقُولُ هذا ؟! وأنا عندِي شيءٌ أقطَعُ به كالشَّمسِ من النُّصُوصِ ؛ كقولِه : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ وقولِه : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

(١) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وَلَكِنْ أقْطَعُ أنَّ كَلَامَ اللَّهِ لا يَتناقَضُ ، وأنَّ كلامَ النَّبِيِّ ﷺ لا يُخَالِفُ كَلَامَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ؛ يعني : فأعرِفُ أن هذه الآيةَ ونَظائِرَها لا تُنافِي هذه النُّصُوصَ ، وما معي من النُّصُوصِ مُحكَمٌ ، فلا أترُكُ المُحْكَمَ البَيِّنَ الدَّلَالَةِ للمُتَشابِهِ .

فالأَدِلَّةُ التي معي لا يُناقِضُها شيءٌ ، هي من المُحْكَماتِ ، وما زَعَمَهُ أنه يُخالِفُها من المُتَشَابِهِ فَلَا يُخالِفُها أبدًا ، ولو ادَّعَى هو أنَّ كَلَامَ اللَّهِ يَتناقَضُ لكانَ كُفْرًا آخرَ .

وكذلَكَ لو ادَّعَى أن كلامَ النَّبِيِّ ﷺ يُخَالِفُ كَلَامَ اللَّهِ لكَانَ كُفْرًا آخَرَ ، سِوَى ماكان عليهِ من الكُفْرِ .

وقال الشيخ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه رحِمه اللَّهُ : ما ذكَرْتَ أيُّها المشركُ من كلامِ اللَّهِ تعالى وكلامِ رسولِه لا أعْرِفُ معناه ، ولكني أعْلَمُ أن كلامَ اللَّهِ لا يَتَناقَضُ ، وأنَّ كلامَ النبيِّ ﷺ لا يُخالِفُ كلامَ اللَّهِ .

يُرِيدُ بقولِه : « لا أعْرِفُ معناه » ؛ أي : لا أعْرِفُ معناه الذي أنت تَدَّعِيه ، وإنني أُنْكِرهُ ، ولا أُقِرُّ به ؛ لأنني أعْلَمُ أن كلامَ اللَّهِ لا يَتَناقَضُ ، وأنَّ كلامَ النبيِّ ﷺ لا يُخالِفُ

وهذا جَوابٌ جيِّدٌ سديدٌ[١] ، ولكن لا يَفْهَمُهُ إلا مَن وفَّقَهُ اللَّهُ تعالى فلَا

كلامَ اللَّهِ .

قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء : ٨٢] .

وقال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل : ٨٩] .

وقال تعالى : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] .

وكلامُ الرسولِ ﷺ لا يُخالِفُ كلامَ اللَّهِ ، وكذلك كلامُ اللَّهِ لا يُناقِضُ بعضُه بعضًا ، وقد أخبَرَ سبحانَه وتعالى أنه لا شَريكَ له ، وقال النبيُّ ﷺ : « بُنِي الإسلامُ على خمسٍ : شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ . . . »[١] إلى آخرِ الحديثِ .

وهذا كلُّه يُؤَيِّدُ بعضُه بعضًا ، ويَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ تعالى ليس له شَريكٌ في الألوهيةِ ، كما أنه ليس له شريكٌ في الربوبيةِ .

(١) **وقال الشيخ ابنُ عُثَيْمِينَ رحمه اللَّهُ :**

قولُه رحِمه اللَّهُ : وهذا جوابٌ جَيِّدٌ سَدِيدٌ ؛ يعني : قولَ الإنسانِ لخَصْمِه : إنَّ كلامَ اللَّهِ تعالى لا يَتناقَضُ ، وإن كلامَ النبيِّ ﷺ لا يُخالِفُ كلامَ اللَّهِ ، وإن الواجبَ رَدُّ المُتَشابِهِ إلى المُحْكَمِ .

فهذا أجابَ بجوابٍ سَديدٍ ؛ أي : سادٌّ لمحَلِّه ، لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يُناقِضَه ، أو يَرُدَّ عليه ما يَنْقُضُه ؛ لأنه كلامٌ مُحْكَمٌ ، مَبْنِيٌّ على الدليلين : السمعيِّ ، والعقليِّ ، وما كان كذلك فإنه جوابٌ لا يُمْكِنُ لأيِّ مُبْطِلٍ أن يَنْقُضَه .

تَسْتَهِنْ به[١] ؛ فإنَّه كما قال تعالى : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾[٢] .

---

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وهذَا جَوابٌ جيِّدٌ سَديدٌ ، ولكن لا يَفْهَمُهُ إلَّا مَن وفَّقَهُ اللَّهُ تعالى فَلَا تَسْتَهِنْ بِهِ) هذا ثَناءٌ من المؤلِّفِ على هذَا الجَوَابِ المجْمَلِ ، وأنهُ أصْلٌ أصِيلٌ في دفْعِ شُبَهِ المُشَبِّهِ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فإنَّهُ) نَظيرُ الخَصلَةِ التي هى الدَّفعُ بالتي هي أحسنُ (كَما قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾) .

فكذَلِكَ هذا الجَوَابُ بهذه الصِّفةِ العَظيمةِ فإنكَ إذا وُفِّقْتَ للجَوَابِ بهذا فقد وُفِّقْتَ لأمرٍ عظيمٍ .

فصَارَ هذا الجَوابُ عن هذه الشُّبَهِ جَوابًا مُركَّبًا من ثلاثةِ أُمُورٍ :

الأوَّلُ : بَيانُ أن الذِينَ في قُلُوبِهم زَيْغٌ يترُكُون المُحْكَمَ ، ويتَّبِعُون المُتشابِهَ .

الثَّاني : أن الأوَّلِين مُقِرُّون بالرُّبُوبيةِ لم يُنازِعُوا فيها ، وأنهُم ما ادَّعَوْا إلا مثْلَما ادَّعى هذه المُشَبِّهُ من طلبِ الشَّفاعةِ ، والقُربِ إلى اللَّهِ بذَلكَ ، وأن اللَّهَ كفَّرَهُم بذلكَ .

الثَّالثُ : أن معي نُصُوصًا لا تَتناقضُ ، وأن كلامَ النَّبيِّ ﷺ لا يُخالِفُ كلامَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، وأن المُبْطِلَ يَحْتَجُّ بشيءٍ هو حقٌّ ، ولا يدُلُّ على الباطِلِ بحَالٍ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : ولكن لا يَفْهَمُه ... إلخ ؛ يعني : أن هذا الجوابَ لا يَفْهَمُه إلا مَن وفَّقَه اللَّهُ ، فكشَفَ عنه فِتنةَ الشُّبُهاتِ ، وفتنةَ الشهواتِ .

ثم اسْتَدَلَّ لذلك بقولِه تعالى : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ ؛ أي : ما يُوَفَّقُ للدفعِ بالتي هي أحسنُ .

وأمَّا الجوابُ المُفَصَّلُ[١] فإن أعْداءَ اللَّهِ لهُم اعْتراضَاتٌ كثيرةٌ علَى دِينِ الرُّسُلِ ، ويصُدُّونَ بها النَّاسَ عنهُ ، مِنها قولُهم : نحن لا نُشْرِكُ باللَّه[٢] .

بل نَشهَدُ أنه لا يَخْلُقُ ولا يرْزُقُ ولا يَنْفَعُ ولا يضُرُّ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ ، وأن مُحمَّدًا ﷺ لا يَملِكُ لنفْسِهِ نفعًا ولا ضرًّا ، فضْلًا عن عبدِ القَادِرِ أو غيْرِه[٣] ، ولكن أنا مُذْنِبٌ . والصَّالحُونَ لهم جاهٌ عنْدَ اللَّهِ ،

---

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

قولُه رحِمه اللَّهُ تعالى : أمَّا الجوابُ المُفَصَّلُ ... إلخ ؛ لأن الجوابَ الأولَ كان مُجْمَلًا ، يَرُدُّ به الإنسانُ على كلِّ شُبْهةٍ ، ثم هناك جوابٌ مُفَصَّلٌ ؛ أي : مُمَيَّزٌ بعضُه عن بعضٍ ، بحيث تُدْفَعُ به شُبْهةُ كلِّ واحدٍ بعينِها .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وَأَمَّا الجَوَابُ المُفَصَّلُ) وهو الذي يُجابُ بِهِ عن كُلِّ شبهةٍ بجَوابٍ يخُصُّها .

(فإنَّ أعدَاءَ اللَّهِ) المشركينَ عَبَدَةَ غيرِ اللَّهِ .

(لَهُمْ اعتِرَاضَاتٌ كثيرَةٌ علي دينِ الرُّسُلِ يصُدُّونَ بها النَّاسَ عنهُ) منها قولُهم مع شركِهِم باللَّهِ : **(نحنُ لَا نُشْرِكُ باللَّهِ شيئًا)** وهم قد وقَعُوا فيهِ ، لكن نفَوْهُ عن أنفسِهِم جهلًا وضلَالًا .

(٣) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ :**

فإذا قال لك المشركُ : أنا لا أُشْرِكُ باللَّهِ ، بل أشْهَدُ أنه لا يَخْلُقُ ، ولا يَرْزُقُ ، ولا يَنْفَعُ ، ولا يَضُرُّ إلا اللَّهُ وحدَه لا شَريكَ له ، وأن محمدًا ﷺ لا يَمْلِكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا ؛ فضلًا عمَّن دونَه ﷺ ، كعبدِ القادرِ - يعني : ابنَ موسى الجيلانيَّ ، على خلافٍ في اسم أبيه - كان من كِبارِ الزُّهَّادِ والمُتَصَوِّفين ، وُلِدَ سنةَ ٤٧١ بجيلانَ ، وتُوُفِّي سنةَ ٥٦١ في بَغْدادَ ، وكان حَنْبليَّ المذهبِ - وهذا هو

وأَطْلُبُ من اللَّهِ بهم[١] .

فجَاوِبْهُ بما تقدَّمَ ، وهُوَ : أن الذينَ قَاتَلُهم رسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بما ذَكَرْتَ ، ومُقِرُّونَ أن أوْثانَهُم لا تُدبِّرُ شيئًا ، وإنما أرادُوا الجَاهَ والشَّفاعَةَ ، واقْرَأْ عليهِ ما ذَكَرَ اللَّهُ في كِتابِهِ ووَضَّحَهُ[٢] .

التوحيدُ ، فهذه شبهةٌ يَلْبِسُ بها ، ولكنها شبهةٌ داحضةٌ لا تُفِيدُه شيئًا .

(١) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

بَلْ نشهدُ أنهُ لا يَخْلُقُ ولا يرزقُ ولا ينفعُ ولا يضُرُّ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، وأن محمدًا ﷺ لَا يَملِكُ لنفسِهِ نفعًا ولا ضرًّا ، فضلًا عن عبدِ القادرِ الجيلانيِّ .

(أو غيرِهِ) ممَّن له جاهٌ ومنزلَةٌ ومقامٌ كبيرٌ .

(ولكن أنا مُذْنِبٌ) ولم أُؤَهَّلْ إلى الطلَبِ من الجانبِ الأعلَى .

(والصَّالحونَ لهم جاهٌ عندَ اللَّهِ ، وأطلُبُ من اللَّهِ بهِم) فأطلُبُ منهم وهم يَسْأَلُونَ ويطلُبُونَ لي ، ويُقَرِّبُونني إلى اللَّهِ زُلْفَى ، لا أطلُبُهم ذَواتِهم .

(٢) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فجاوِبْهُ بما تقدَّم ؛ وهو أن الذينَ قاتلَهُم رسولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بما ذكَرْتَ ، ومقرُّونَ أن أوثانَهُم لا تدَبِّرُ شيئًا) وأن اللَّهَ هو النافِعُ الضارُّ وحدَه .

(وإنمَا أرادُوا الجَاهَ والشَّفاعةَ) فقط ، تعلَّقُوا عليهم لأجلِ جاهِهِم عندَ اللَّهِ ؛ فإنَّ المشركَ الذي نزَلَ فيهِ القُرآنُ هو هذا : دُعاءُ مَن يَشْفَعُ لهم عندَ اللَّهِ ؛ لا أنه يخلُقُ ويرزُقُ .

(واقْرَأْ عليه ما ذكَرَ اللَّهُ في كتَابِهِ ووضَّحَهُ) اقْرأْ عليه الآياتِ الدَّالةَ على هذا وهذا ، فمن الآياتِ الدالَّةِ على إقرارِهم بالرُّبوبيةِ قولُه تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ وقولُه تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن

. . . .

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قولِه : ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ .

وقولُه : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

وقولُه : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ وغيرُ ذلكَ من الآياتِ .

واقرأْ عليهِ الآياتِ الدَّالةَ على أن اللَّهَ كفَّرَهُم بشركِهم في الإلهيَّةِ ، وأنهم ما أرادُوا إلا شفاعتَهُم وتقريبَهُم ، وأن هؤلاء ما زادُوا على ما فعَلَهُ المشركونَ الأولُونَ ، ليتَبيَّنَ أنه في عَمايَةٍ عما جاءتْ بهِ الرُّسُلُ ، ومعاكَسَةٍ لما جاءَ بهِ الرُّسُلُ ، كقولِه تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ .

وقولِه تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ .

وقولِه تعالى : ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ .

وقولِه : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾+ .

ونظائرِها من الآياتِ الدالَّةِ على أنهم ما أرادُوا ممَّن قصَدُوا إلَّا الجَاهَ والشَّفاعَةَ .

. . . .

فحَاصِلُ جَوابِ هذه الشُّبهةِ أنكَ ما زِدْتَ على ما أقرَّ بِهِ المُشركونَ الأولُونَ ، ولا زَادَ فعلُكَ عن فعلِهم ، بل أنتَ وهم سواءٌ .

وقال الشيخ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : « ولكن أنا مُذْنِبٌ ... إلخ» . هذا بقيةُ كلامِ المُشَبِّهِ ، فأَجِبْه بأنَّ ما ذكرْتَ هو ما كان عليه المشركون الذين قاتَلَهم النبيُّ ﷺ ، واسْتَباح دماءَهم ونساءَهم و أموالَهم ، ولم يُغْنِهم هذا التوحيدُ شيئًا .

قولُه : «واقْرَأْ عليه ما ذَكَر اللَّهُ تعالى في كتابِه ووَضَّحَه» . يُرِيدُ بذلك أن تَقْرَأَ عليه ما ذَكَرَ اللَّهُ في كتابِه من توحيدِ الألوهيةِ ؛ فإنه جلَّ وعلا أبْدَأَ فيه ، وأَعَادَ ، وكَرَّرَ ، من أجلِ تَثْبيتِه في قلوبِ الناسِ ، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم ، فقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة : ١٦٣] ، وقال تعالى : ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت : ٥٦] .

إلى غيرِها من الآياتِ الكثيرةِ الدالةِ على وجوبِ توحيدِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في عبادتِه ، وأن لا يُعْبَدَ أحدٌ سواه ، فإذا اقْتَنَع بذلك فهذا هو المطلوبُ ، وإن لم يَقْتَنِعْ فهو مُكابِرٌ مُعانِدٌ ، يَصْدُقُ عليه قولُ اللَّهِ تعالى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل : ١٤] .

فإن قالَ : هؤلاءِ الآياتُ نزَلَتْ فيمَنْ يعبُدُ الأصْنامَ ، كيفَ تجْعَلُونَ الصَّالحينَ مثلَ الأصْنامِ ؟ أم كيْفَ تجْعَلُونُ الأنْبياءَ أصْنامًا ؟ فجاوِبْهُ بمَا تقدَّمَ[1] ؛ فإنَّه إذا[2] أقَرَّ أنَّ الكُفَّارَ يشهَدُونَ بالرُّبُوبيةِ كُلِّها للهِ ، وأنَّهم ما أرَادُوا مِمَّن قصَدُوا إلَّا الشَّفاعةَ ، ولكِن أرَادَ أن يُفَرِّقَ بينَ فِعْلِهِمْ وفِعْلِه بمَا ذَكَرَهُ[3] .

---

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : «فإن قال : هؤلاء» – يعني : أهلُ الشركِ – : هذه الآياتُ نزَلَت في المشركين الذين يَعْبُدون الأصنامَ ، وهؤلاء الأولياءُ ليسوا بأصنامٍ .

فجاوِبْه بما تقدَّم ؛ أي : بأنَّ كلَّ مَن عبَدَ غيرَ اللَّهِ ، فقد جعَل معبودَه وَثَنًا ، فأيُّ فرقٍ بينَ مَن عبَدَ الأصنامَ ، وعَبَد الأنبياءَ والأولياءَ ؟! إذ إن الجميعَ لا يُغْنِي شيئًا عن عابِدِيه .

(٢) قال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

يقولُ : «فإنه» ؛ أي : هذا القائلَ يَعْلَمُ أن المشركين قد أقَرُّوا بالربوبيةِ ، وأنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى هو ربُّ كلِّ شيءٍ ، وخالقُه ، ومالكُه ، ولكنَّهم عَبَدُوا هذه الأصنامَ مِن أجلِ أن تُقَرِّبَهم إلى اللَّهِ زُلْفَى ، وتَشْفَعَ لهم ، فقد أقَرَّ بأن مقصودَهم كمقصودِه ، ومع ذلك لم يَنْفَعْهم هذا الاعتقادُ ، كما سبَق .

(٣) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(فإن قَالَ) المُشَبِّهُ : **(هؤلاءِ الآياتُ)** ؛ يعني : آيةَ : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ونحوَها **(نزلَتْ فيمَن يعبُدُ الأصنَامَ)** إن انتقلَ إلى هذهِ الشُّبهةِ ، وهي حصرُ عبادَةِ غيرِ اللَّهِ في الأصنَامِ ؛ يعني : وما سِوَاهُ فليسَ بعِبادةٍ ، فليسَ مثلَهُم ، هو يدعوُ الصَّالحينَ ، وليسَ بمُشركٍ !

(كيف تجعلون الصالحينَ مثلَ الأصْنام؟!) حصَرَ عبادَةَ غيرِ اللَّهِ في الأصنامِ **(أم كيفَ**

فاذْكُرْ لَهُ أنَّ الكُفارَ منْهُمْ مَن يَدْعُو الأَصْنامَ[١]، ومِنْهُم مَن يَدْعُو الأَوْلياءَ الذين قالَ اللَّهُ فيهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية[٢].

تجعَلُونَ الأنبِياءَ أصْنامًا؟) من شأنِ أهلِ الباطلِ وأشْباهِهم نسبتُهُم مَن نزَّلَ الصالحينَ منازلَهُم أن يقولُوا: تنقَّصُوهُم وهَضَمُوهم.

وفي الحقيقَةِ هُمُ النَّاقِصُونَ المتنقِّصُونَ للرُّسلِ، وأرادُوا أن يُعْطَوا باطلًا، وأهلُ الحقِّ نزَّلُوهُم منازِلَهُم الحقَّ اللَّائِقَةَ بهم، وما جاءُوا بِهِ، ولا زادُوا، ولا نقَصُوا؛ أَعْطَوْهُم حقَّهُم الوَاجِبَ، ونزَّهُوهُم عما لا يصلُحُ لهم من البَاطِلِ.

(فجاوِبْهُ بما تقدَّمَ) وهو أن المشركِينَ الأوَّلينَ مقرُّونَ بالرُّبوبيةِ؛ أن اللَّهَ تعالى الخَالقُ وحدَه لَا شَريكَ له الرَّازِقُ، وإنما كانُوا مشركِينَ باتِّخاذِهِم الوَسائطَ... إلخ.

لكنهم ما أعطَوُا الرُّبوبيَّةَ حقَّهَا فإن توحِيدَ الأُلُوهيَّةِ هو نتيجةُ توحِيدِ الرُّبوبيةِ كما تقدَّمَ.

(فإنَّه إذَا أقرَّ أنَّ الكفَّارَ يشهدُونَ بالرُّبوبيَّةِ كلِّها للهِ، وأنهم ما أرادُوا مِمَّن قَصَدُوا إلَّا الشَّفاعَةَ) والمُشبِّهُ مُقِرٌّ بذلكَ.

(ولَـكِن أرَادَ) المُشَبِّهُ **(أن يُفرِّقَ بيـنَ فعلِهِم وفعلِهِ بما ذَكَرَ)** وهو أن المُشرِكِينَ يعبدُونَ أصْنامًا، وهو لَا يعبُدُ صَنَمًا.

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:

(فاذْكُرْ لهُ أنَّ الكفارَ منهم مَن يعْبُدُ الأَصْنَامَ) والأَوْثانَ كما ذكَرَ اللَّهُ عنهم ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ۝٧١﴾، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾.

(٢) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:

(ومنهُم مَن يَدعُو الأولياءَ الذينَ قَالَ اللَّهُ فيهِم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

. . . .

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآيةَ ، فمعبُوداتُهم مُتنوِّعةٌ ؛ ليستِ الأصنامَ وحدَها ، من دليلِ تنوُّعِهَا هذهِ الآيةُ ؛ فإنها نزلَت في أُناسٍ يعبُدُونَ الجنَّ ، فأسْلَمَ الجنُّ ، وبقِيَ الإنسُ على عِبادتِهم .

وقيلَ : نزَلَت فيمَن يعبُدُ العُزَيْرَ والمسيحَ ، كما هو قولُ أكثرِ المُفسِّرينَ[1] .

ولا مُنافاةَ بينَ القَولينِ فإنها نَزَلَت فيمَن يدعو مَدْعُوًّا وذلكَ المدعوُّ صالحٌ في نفسِهِ يرجُو رحمةَ الربِّ ويخافُ عقابَهُ ، فكأنَّ اللَّهَ سبحانَهُ قال في الرَّدِّ عليهم : إنَّ مَن تدعُونهُ عبيدِي كما أنكم عَبيدِي ، يرجُون رحمتِي ويخافُونَ عذابِي .

فيَنْبَغِي أن تفعلُوا مثلَمَا تفعلُ تلك الآلهةُ ، فصارُوا عبيدَهُ بثلاثَةِ أشياءَ : بعِبادَتِه وحدَهُ ، ورَجائِهِ وحدَهُ ، وخوْفِهِ وحدَهُ .

هذا هو المُوصِلُ لهم والوسيلَةُ والسَّببُ الموصِلُ ، لا عبادَةُ سِواهُ من الأولياءِ ونحوِهم .

فهذهِ الآيةُ من جُملةِ الأدِلَّةِ على أن مِن معبُودَاتِهم الأوْلياءَ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : « **فاذْكُرْ له ... إلخ** » جوابُ قولِه : « فإنه إذا أقَرَّ أنَّ الكفارَ ... إلخ » ؛ يعني : فاذْكُرْ له أنَّ هؤلاءِ المشركين منه مَن يَدْعُو الأصنامَ لطلبِ الشفاعةِ ، كما أنت كذلك موافقٌ لهم في المقصودِ .

ومنهم مَن يَعْبُدُ الأولياءَ ، كما أنت كذلك موافقٌ لهم في المقصودِ والمعبودِ ، ودليلُ أنهم يَدْعُون الأولياءَ : قولُه تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ

(١) رواه الطبرى فى تفسيره ١٥/ ١٠٥، ١٠٦، عن ابن عباس ومجاهد وأبى عاصم، وانظر تفسير القرطبى ١٠/ ٢٧٩، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٨ .

ويَدْعُونَ عيسَى ابنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ ، وقد قالَ تعالَى : ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾[1] .

ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ .

وكذلك يَعْبُدون الأنبياءَ كعبادةِ النصارى المسيحَ ابنَ مَرْيَمَ ، وكذلك يَعْبُدون الملائكةَ ، كقولِه تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾ [سبأ : ٤٠] الآيةَ .

فتَبَيَّن بذلك الجوابُ عن تَلْبيسِه بكونِ المشركين يَعْبُدون الأصنامَ ، وهو يَعْبُدُ الأولياءَ والصالحين من وجهين :

الوجهُ الأولُ : أنه لا صِحَّةَ لتلبيسِه؛ لأنَّ من أولئك المشركين مَن يَعْبُدُ الأولياءَ والصالحين .

الوجهُ الثاني : لو قدَّرْنا أنَّ أولئك المشركين لا يَعْبُدون إلا الأصنامَ ، فلا فرقَ بينه وبينَهم ؛ لأن الكلَّ عبَدَ مَن لا يُغْني عنه شيئًا .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ** :

(وَيدْعُونَ عيسَى ابنَ مريمَ وأُمَّهُ) وهو صَريحٌ في شركِ النصارَى بالرُّسُلِ ؛ عيسَى رسُولٌ .

(وقد قالَ تعالى : ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾) ؛ يعني : عَظيمةَ التصْديقِ بالحقِّ .

(﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ

واذْكُرْ لهُ قولَه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾[١].

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾) فهذا بعضُ أنواعِ شِرْكِ الأوَّلينَ أهلِ الكتابِ.

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:**

(**واذْكُرْ له قولَهُ تعالى:** ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾) هذه الآيةُ دالةٌ على أن مِن المشركينَ مَن يعبُدُ الملائكةَ.

فعرَفْتَ من هذه الآياتِ أن مِن المُشركينَ مَن يَدعُو الأولياءَ والصَّالِحينَ، ومنهم مَن يدعُو الأنْبياءَ، ومنهم مَن يدعُو الملائِكَةَ.

وأن الآياتِ منها ما نزَلَ فيمَن يعبُدُ الأولياءَ، و بعضَها فيمَن يعبُدُ الأنبياءَ، وبعضَها فيمَن يعبُدُ الملائِكَةَ، وأنها ليست مُنْحَصِرَةً فيمَن يعبُدُ الأصنامَ فقط؛ فلا فرقَ بينَ المعبُوداتِ.

بل الكُلُّ تسويةُ المخلُوقِ بالخالِقِ، والكلُّ عدَلَ بهِ تعالى سوَاهُ في العبادَةِ، فالكُلُّ شركٌ، والكُلُّ مشركُونَ. فعرفتَ من الآياتِ أنه مثلُهُم، فبذَلِكَ انكشَفتْ شُبهتُهُ، واندَحَضت حُجَّتُهُ.

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ:

قولُه: «واذْكُرْ له قولَه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ الآيتين، هذه معطوفةٌ على قوله سابقًا: «فاذْكُرْ له أنَّ الكفارَ منهم مَن يَدْعُو الأصنامَ... إلخ».

والمقصودُ من هذا أن يَتَبَيَّنَ له أنَّ مِن الكفارِ مَن يَعْبُدُ الملائكةَ، وهم مِن خِيارِ خَلْقِ اللَّهِ وأوليائِه، فيَبْطُلُ تَلْبِيسُه بأنَّ الفرقَ بينَه وبينَ الكفارِ أنه هو يَدْعُو

وقولَه تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾[1] .

الصالحين والأولياءَ ، والكفارَ يَعْبُدون الأصنامَ من الأحجارِ ونحوِها .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(**وقولُه تعالى** : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾) وهو تعالَى أعلمُ أن عيسَى لم يقُلْ ذلكَ ، ولكنَّ المُرادَ نطقُهُ على رُؤُوسِ الأشهَادِ ، وبَيانُ بُطلانِ عبادَتِهم له ، وأنه لم يَرضَ بذلك .

وهذا الخبَرُ من اللَّهِ ذَمٌّ وعيبٌ لمن اتَّخذَ المسيحَ وأمَّهُ إلهين من دونِ اللَّهِ .

(﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾) ؛ أي : تنزيهًا لك عمَّا لا يليقُ بجلالِكَ وعظمَتِكَ .

(﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾) ؛ يعني : ما ينبغِي لي .

(﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾) أن أجعلَ حقَّ ربِّ العالمينَ الذي لا يَشْرَكُهُ فيه غيرُه لي .

(﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾) وأنت أعلمُ أنه لم يصدُرْ منِّي ذلك .

(﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾) .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : **وقولُه تعالى** : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الآيَةَ) ؛ أي : واذْكُرْ له قولَه تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى...﴾ . لتُلْقِمَه حَجَرًا في أنَّ الكفارَ كانوا يَعْبُدُون الأولياءَ والصالحين ، فلا فرقَ بينَه وبينَ أولئك الكفارِ .

فقُلْ لهُ : أعَرَفْتَ أن اللَّهَ كفَّرَ مَن قَصَدَ الأصْنامَ ، وكَفَّرَ أيضًا مَن قَصَدَ الصَّالحينَ ، وقاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ولم يُفرِّقْ بيْنَهُم[١] .

فإن قَالَ : الكُفَّارُ يُرِيدُونَ منهُم ، وأَنا أشْهَدُ أنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافعُ الضَّارُّ المُدَبِّرُ ، لا أُرِيدُ إلَّا منهُ ، والصَّالِحُونَ ليسَ لهُمْ مِن الأمْرِ شيءٌ ، ولكِنْ أَقْصِدُهُم ، أرْجُو مِن اللَّهِ شَفَاعَتَهُم[٢] .

---

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فَقُلْ) للمُشبِّهِ الشُّبهةَ السابقَةَ **(عرفتَ أن اللَّهَ كفَّرَ مَن قصَدَ الأصْنامَ ، وكفَّرَ أيضًا مَن قصَدَ الصالحينَ)** بل لابُدَّ أن ينضَمَّ إلى ذلكَ تكفِيرُهُم واعتقَادُ ذلكَ .

فمَن لم يُكفِّرْهُم دليلٌ على أنه لَا يَرَى عملَهُم كفرًا .

(وقاتَلُهم رسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ولم يُفرِّق بينَهُم) بل جعلَ سبيلَهُم واحدًا ، وإن تفرَّقَت معبُودَاتُهُم ، فكلُّها راجعَةٌ إلى شيءٍ واحدٍ ، وهو عبادَةُ غيرِ اللَّهِ معَ اللَّهِ .

وبذَلِكَ انكشَفَتْ شبهَتُهُ ، واندَحَضَت حُجَّتُهُ ، وأنه في غَايةِ الجَهالَةِ عما جاءَ بهِ الرسُولُ ﷺ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (فقُلْ له... إلخ) ؛ أي : قُلْ ذلك مُبَيِّنًا له أنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى كفَّر مَن عبَدَ الصالحين ، ومَن عبَدَ الأصنامَ ، والنبيُّ ﷺ قاتَلَهم على هذا الشركِ ، ولم يَنْفَعْهم أن كان المَعْبودون مِن أولياءِ اللَّهِ وأنبيائِه .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فإن قَالَ الكفَّارُ) الذين نَزلَ فيهم القُرآنُ ؛ أبو جهلٍ وأضرَابُهُ : **(يُرِيدُونَ منهُم)** يريدُونَ من الآلهةِ التي يَدْعُون ويطلُبُون منهُم ؛ لأنهم أبوابُ حوائِجِهم إلى اللَّهِ ؛ فهُم يُباشِرُونهُم بالعبَاداتِ .

فالجَوابُ : أنَّ هذَا قوْلُ الكُفَّارِ سَواءً بسَواءٍ ، واقْرَأْ عليه قولَه تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ . وقولَه تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[1] .

(وأنا أشهَدُ أن اللَّهَ هو النافِعُ الضَّارُّ ، لا أُريدُ إلَّا منه ، والصَّالحونَ ليسَ لهم من الأمرِ شيءٌ ، و لكن أَقْصِدُهُم أرجُو من اللَّهِ شفَاعَتَهُم) والمالِكُ لهم و المطلُوبُ هو اللَّهُ ، وأقصدُهُم ليطلُبُوا لي من اللَّهِ الشَّفاعَةَ .

إذا انتقَلَ بعدَ كشْفِ الشبهتين الأُولَيَيْنِ ، وشبَّهَ بهذِهِ الشُّبهَةِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : **(فإن قال)** ؛ يعني : هذا المشركُ : الكفارُ يُريدون منهم ؛ أي : يُريدون أن يَنْفَعوهم ، أو يَضُرُّوهم ، وأنا لا أُريدُ إلا مِن اللَّهِ ، والصالحون ليس لهم من الأمرِ شيءٌ ، وأنا لا أعْتَقِدُ فيهم ، ولكن أتَقَرَّبُ بهم إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ؛ ليكونوا شُفَعاءَ .

فقلْ له : وكذلك المشركون الذين بُعِثَ فيهم رسولُ اللَّهِ ﷺ ، هم لا يَعْبُدون هؤلاء الأصنامَ ؛ لاعتقادِهم أنها تَنْفَعُ وتَضُرُّ ، ولكنهم يَعْبُدُونها ؛ لتُقَرِّبَهم إلى اللَّهِ زُلْفَى ، كما قال تعالى عنهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ .

وقال : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ . فتكونُ حالُهُ كحالِ هؤلاء المشركين ، سواءً بسواءٍ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فالجَوَابُ) عن هذِهِ الشُّبهَةِ **(أن هذا قولُ الكُفَّارِ)** بعينِه حرفًا بحرفٍ **(سواءٌ بسواءٍ)** ما وُجِدَ شيءٌ مُخَفَّفٌ ، بل وُجِدَ منه شيءٌ أعظمُ منهم ؛ فإنهم مقِرُّونَ بالرُّبُوبيةِ ؛ أن اللَّهَ هو المُدَبِّرُ وحدَهُ لا شَريكَ له ، كما تقدَّمتِ الإشَارَةُ إليه أوَّلَ الكِتابِ .

اقْرَأْ عليهِ الآياتِ الدَّالةَ على إقرارِهم بالرُّبوبيةِ المتقدِّمةِ .

واعْلَمْ أنَّ هذهِ الشُّبَهَ الثَّلاثَ هِي أكْبَرُ ما عندَهُمْ ، فإذَا عَرَفْتَ أنَّ اللَّهَ وضَّحَها لَنَا في كِتَابِهِ وفهِمْتَها فهمًا جيِّدًا فمَا بَعْدَها أيْسَرُ مِنها[1] .

(واقْرَأْ عليهِ) الآياتِ الدَّالةَ على أنهم ما أرادُوا إلا الشَّفاعةَ .

منها قولُه تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ؛ فإن في هذهِ الآيةِ حصرَ مطلوبِهم ، وهو شيءٌ واحدٌ ؛ يقولُونَ : ليس لَنا صلاحِيَةُ السُّؤالِ من اللَّهِ ، فنطلُبَ منهم ، وهم يطلُبُونَ لنا مِن اللَّهِ ليقُرِّبُونا إلى اللَّهِ زُلْفَى .

وقولُه تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ . ففِي هذهِ الآيةِ بيانُ أنه ليسَ لهم قصدٌ إلَّا شيءٌ واحِدٌ ، وهو طلبُ الشَّفاعَةِ إلى رَبِّ الجَمِيعِ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(واعلَمْ أن هذِه الشُّبَهَ الثَّلاثَ هي أكبرُ ما عندَهُم) هذه والشُّبهَتانِ قبلَها : شُبهةُ انتفَاءِ الشِّرْكِ معَ الإقْرارِ بتوحِيدِ الرُّبُوبيةِ ، وشبهَةُ حصرِ الشِّرْكِ في عبادَةِ الأصنامِ ، وشُبهةُ أن الكفَّارَ يُريدُونَ منهم ، وأنه لا يُريدُ منهم إلَّا الشَّفاعَةَ .

(فإذَا عرفتَ أن اللَّهَ وضَّحَها في كِتَابِهِ ، وفهِمْتَهَا فهمًا جيِّدًا فما بعدَها أيسَرُ منها) ؛ يعني : إذَا صَارَ هذه سهولةَ رَدِّ أعظمِ شبهِهم فغيرُهَا بطَريقِ الأولَى ، أسهَلُ وأسهَلُ ؛ تجدُ في النُّصُوصِ أسهلَ شيءٍ الرَّدَّ عليهِم .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه رحِمه اللَّهُ تعالى : **(هذه الشُّبَهُ الثلاثُ)** :

الشبهةُ الأولَى : قولُهم : إننا لا نَعْبُدُ الأصنامَ ، إنما نَعْبُدُ الأولياءَ .

الشُّبْهةُ الثانيةُ : قولُهم : إننا ما قصَدْناهم ، وإنما قصَدْنا اللَّهَ عزَّ وجلَّ في العبادةِ .

الشبهةُ الثالثةُ : قولُهم : إننا ما عبَدْناهم ؛ ليَنْفَعونا ، أو يَضُرُّونا ؛ فإنَّ النَّفْعَ والضَّرَرَ بيدِ

فإن قَالَ : أنَا لَا أعْبُدُ إلَّا اللَّهَ ، وهذَا الالْتِجَاءُ إلى الصَّالحينَ ودُعاؤُهم ليسَ بعِبادَةٍ . فقُلْ لهُ : أنْتَ تُقِرُّ أنَّ اللَّهَ افْترضَ عليكَ إخْلاصَ العِبادَةِ للهِ[١] ، وهُو حَقُّهُ عليكَ ، فإذَا قَالَ : نعمْ . فقُلْ لهُ : بيِّنْ لي هَذَا الذي فُرِضَ عليكَ ، وهو إخْلاصُ العِبادَةِ للهِ وحْدَه ، وهُوَ حقُّهُ عليكَ ، فإنْ كانَ لا يَعْرِفُ العِبادَةَ ولا أنْوَاعَهَا ، فبَيِّنْها لهُ بقَوْلِكَ : قالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾[٢] .

اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، ولكن ليُقَرِّبونا إلى اللَّهِ زُلْفَى ، فنحن قصَدْنا شفاعتَهم بذلك ؛ يعني : فنحن لا نُشْرِكُ باللَّهِ سبحانَه وتعالى .

فإذا تبيَّن لك انكشافُ هذه الشُّبَهِ فانكشافُ ما بعدَها من الشبهِ أهْوَنُ وأيْسَرُ ؛ لأنَّ هذه من أقوى الشُّبَهِ ، التي يَلْبِسُون بها .

(١) **وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

إذا قال هذا الرجلُ المُشَبِّهُ : أنا لَسْتُ أعْبُدُهم ، كما أعْبُدُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ، والالتجاءُ إليهم ودعاؤُهم ليس بعبادةٍ فهذه شُبْهةٌ .

وجوابُها أن تقولَ : إنَّ اللَّهَ فَرَضَ عليك إخلاصَ العبادةِ له وحدَه . فإذا قال : نعم ، فاسْأَلْه ما معنى إخلاصِ العبادةِ له ؟ فإمَّا أن يَعْرِفَ ذلك ، وإمَّا أن لا يَعْرِفَ ، فإن كان لا يَعْرِفُ ، فبَيِّنْ له ذلك ؛ ليَعْلَمَ أن دعاءَه للصالحين وتعلُّقَه بهم عبادةٌ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فإن قَالَ : أنا لَا أعبدُ إلَّا اللَّهَ ، وهذَا الالْتِجاءُ إليهم ودُعاؤُهم ليسَ بعِبَادَةٍ) جَحَدَ أنه صَادِرٌ منهُ شِرْكٌ .

(فقُلْ لَه) مُجيبًا : **(أنت تُقِرُّ أن اللَّهَ افترَضَ عليكَ إخلاصَ العِبادَةِ للهِ؟)** فلا يُمكِنُهُ جحدُ ذلكَ ، وإن جَحَدَ ذلك كفانَا مَؤُونَةَ الرَّدِّ عليه .

فإذا أعْلَمْتَهُ بِهَذا ، فقُلْ لَهُ : هلْ عَلِمْتَ هذا عِبَادَةً للهِ ؟ فَلابُدَّ أن يقُولَ : نَعَمْ ، والدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ[١] . . . .

(فإذا قالَ : نعم . فقُل له : بيِّـنْ لي هذا الذي فرضَهُ عليكَ ، وهو إخلاصُ العِبادَةِ للهِ ، وهو حقُّهُ عليكَ) فإن سأَلْتَهُ عن حَقيقَةِ ما فرضَهُ اللَّهُ عليهِ ، وهو يعلمُ ويُقِرُّ أن اللَّهَ افترَضَ عليهِ إخلاصَهَا .

(فإنَّه لا يَعْرِفُ العِبادَةَ ولا أنْواعَهَا) إذْ لو عرَفَها وأنوَاعَها لمَا نَفَاها عن نفسِهِ ، ولما قدَّم على عِبادَةِ اللَّهِ غيرَهُ ؟ لكنَّه من أجهَلِ الجاهِلينَ وأضلِّ الضَّالِّينَ ؛ فإن الجهلَ أنواعٌ ، أعظمُهَا الجهلُ باللَّهِ تعالى وأسمائِه وصفاتِهِ ، وهو أعظَمُ من الجهْلِ بشَرْعِهِ ودينِهِ .

فهو مُتَغَلِّظٌ جهلُهُ بأمْرَيْنِ :

أحدُهُما : أنهُ جَهِلَ بالتَّوحِيدِ الذي هو أساسُ المِلَّةِ .

والثَّاني : أنه جَهِلَ بشيءٍ مُستفيضٍ واضحٍ عندَ كلِّ أحدٍ ، والجهْلُ بالشيءِ المَعْلُومِ الواضِحِ أعظَمُ من الجهْلِ بالشيءِ الخفِيِّ .

(فبيِّنْهَا لَهُ) ؛ يعني : بيِّنْ له أن الدُّعاءَ والطَّلَبَ عبادَةٌ ، وأحدُ تَعاريفِ العِبادَةِ : أنه ما أُمِرَ به شرعًا من غيرِ اطِّرادٍ عرفيٍّ ، ولَا اقتضاءٍ عقليٍّ ، وقد أمَرَنا اللَّهُ تعالَى بدُعائِهِ وحدَهُ بقولِه : قَالَ اللَّهُ تعالَى : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

وهذِه الآيةُ تُفِيدُ ذلكَ ؛ أنه يُحِبُّه ويرضَاهُ ، والأمْرُ عِبادَةٌ .

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

قولُه : (فبيِّنْها له) ؛ أي : بَيِّنْ له أنواعَ العبادةِ ، فقُلْ له : إنَّ اللَّهَ يقولُ : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ والدعاءُ عبادةٌ ، وإذا كان عبادةً فإنَّ دعاءَ غيرِ اللَّهِ يكونُ إشراكًا باللَّهِ عزَّ وجلَّ ، وعلى هذا فالذي يَسْتَحِقُّ أن يُدْعَى ويُعْبَدَ ويُرْجَى هو اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له .

فقُلْ لَهُ[1] إذا أقْرَرْتَ أنَّه عِبادَةٌ ، ودَعَوْتَ اللَّهَ لَيْلًا ونَهارًا ، خوفًا وطَمعًا ، ثم دَعَوْتَ في تِلْكَ الحَاجَةِ نَبِيًّا أو غَيْرَهُ هلْ أَشْرَكْتَ في عِبادَةِ اللَّهِ غيْرَهُ ؟ فلابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ[2] . فقُلْ له : فإذَا عَلِمْتَ بقولِ اللَّهِ تَعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾[3] وأطَعْتَ اللَّهَ ونَحَرْتَ له ، هلْ هذا عِبادَةٌ ؟ فلابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ .

---

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

قولُه : (فقُلْ له... إلخ) ؛ يعني : إذا بيَّنْتَ أن الدعاءَ عبادةٌ ، وأقَرَّ به ، فقُلْ له : ألسْتَ تَدْعُو اللَّهَ تعالى في حاجةٍ ، ثم تَدْعو في تلك الحاجةِ نفسِها نبيًّا أو غيرَه ، فهل أشْرَكْتَ في عبادةِ اللَّهِ غيرَه ؟ فلابدَّ أن يَقولَ : نعم ؛ لأنَّ هذا لازمٌ لا مَحالَةَ ، هذا بالنسبةِ للدعاءِ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فإذا أعْلَمْتَهُ بهذا) إذا أعلَمْتَه أن الآيَةَ تدُلُّ على أنهُ عِبادَةٌ ، **(فقُلْ له : هلْ عَلِمْتَ هذا عبادَةً للهِ ، فلابُدَّ أن يقُولَ نعَم)** لا يُمْكِنُهُ أن يَجْحَدَ ، فإن جَحَد سَقَطَ الكلامُ معهُ ، وعُرِفَ أنه مُكابِرٌ ، وانْتَقِلْ مَعَهُ إلى الجَلَّادِ ، إن أمْكَنَ .

(والدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ) كما في الحديثِ : «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[1] ،

(فقُل له : إذا أقرَرْتَ أنها عِبادَةٌ ودعَوْتَ اللَّهَ ليلًا ونهارًا ، خوفًا وطَمَعًا ، ثم دعوْتَ في تلكَ الحاجَةِ نبيًّا أو غيرَهُ) ؛ يعنى : بعِبَادَةِ الدُّعاءِ **(هل أشْركتَ في عبادةِ اللَّهِ غيرَهُ ؟ فلابُدَّ أن يقُولَ نعَم)** إن كَانَ عندَه التِفَاتٌ إلى الدَّليلِ ؛ فإنَّ من لازِمِ إقرَارِهِ بالأُولَى إقرَارَه بالثَّانيةِ فبذَلكَ انكَشفَتْ شُبهَتُهُ .

(٣) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

ثم انْتَقَلَ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ إلى نوعٍ آخرَ من العبادةِ ، وهو النحرُ ، قال : (فقُلْ

---

(١) الترمذى (٣٣٧١) .

وقال الألبانى فى تعليقه على جامع الترمذى : ضعيف .

فقُلْ له : إذَا نَحَرْتَ لمخْلُوقَ نَبِيٍّ ، أو جِنِّيٍّ ، أو غيْرِهِما ، هل أشْرَكْتَ في هذِهِ العِبَادَةِ غيرَ اللَّهِ ؟ فلَابُدَّ أنْ يُقِرَّ ويقُولَ : نَعمْ[١] . وقُل له أيضًا[٢] :

له : إذا علِمْتَ بقولِ اللَّهِ تعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ وأطَعْتَ اللَّهَ ونحَرْتَ له ، أهذا عبادةٌ ؟ فلابدَّ أن يقولَ : نعم) .

فقد اعْتَرفَ أن النحرَ للهِ تعالى عبادةٌ ، وعلى هذا يكونُ صرفُه لغيرِ اللَّهِ شركًا .

قال المؤلفُ رحِمه اللَّهُ مُقَرِّرًا ذلك : (فقُلْ له إذا نحَرْتَ لمخلوقٍ... إلخ) وهذا إلزامٌ واضحٌ ، لا مَحِيدَ عنه .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(فقُلْ له: فإذا علِمْتَ بقوْلِ اللَّهِ تعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ وأطعْتَ اللَّهَ ونحَرْتَ له ، هلْ هذا عِبادَةٌ؟) ودليلُهُ واضحٌ وبرْهَانُه قاطِعٌ **(فلابُدَّ أن يقُولَ نَعَم)** لا يُمكِنُهُ أن يجحَدَهُ .

(فقُلْ له : فإن نحَرْتَ لمخلُوقٍ نَبيٍّ أو جِنِّيٍّ أو غيرِهِمَا هل أشْرَكْتَ في هذِه العِبَادَةِ) ؛ يعني : عِبادَةَ النَّحرِ **(غيرَ اللَّهِ؟ فلابُدَّ أن يُقِرَّ ويقُولَ نَعَم)** ما يُمكِنُ أن يجحَدَ الثانِيَ بعدَ الأوَّلِ ، بل إقرارُهُ بالأوَّلِ يُلْزِمُهُ الإقرارَ بالثَّاني .

يعني : وكذَلِكَ سائرُ العباداتِ إما أن يُقِرَّ أنها عبادةٌ أو لا ، فإن أنكَرَ كونَها عِبادةً ، أُقِيمَتْ عليهِ الحُجَّةُ ، فإن أقَرَّ خُصِمَ .

فبهذَا ظَهَرَ واتَّضَحَ جهلُهُ وضلَالُهُ وانكشَفَتْ شُبهَتُهُ ، وأن قولَهُ : أنا لَا أعبُدُ إلَّا اللَّهَ . . . إلخ ، مَحْضُ جهلٍ منهُ ، وأن هذَا عبَادَةٌ لغيرِ اللَّهِ ، وتَبَيَّنَ أنهُ عابِدٌ غيرَ اللَّهِ ، وأن ما يَصْنَعُهُ معهم عِبادَةٌ لهم ، وأنه عابِدٌ اللَّهَ وعابِدٌ معَهُ غيرَهُ .

(٢) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(وَقُلْ له أيضًا) تقدَّمَ الجوَابُ الأوَّلُ ، وهو جوَابٌ كافٍ وافٍ ، وأرْدِفْهُ بهذَا الجوَابِ الثَّاني

المُشرِكُونَ الذينَ نزَلَ فيهِمُ القُرآنُ ، هل كانُوا يعْبُدُونَ الملائِكَةَ والصَّالِحِينَ واللَّاتَ وغيرَ ذلكَ ؟ فلَابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ[١] ، فقُل له : وهل كَانتْ عِبَادَتُهُمْ

عن شبهَتِه السَّابقةِ - كما هو شأنُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ يذْكُرُ جَوَابَ الشبهَةِ وافيًا ، ثُمَّ يَزِيدُهُ الجَوَابَ والجَوَابينِ والثَّلاثَةَ - وهي قولُهُ : أنَا لا أعبُدُ إلَّا اللَّهَ ، وهذَا الالْتِجَاءُ إليهِم ، ودُعاؤُهُم ليسَ بعِبادَةٍ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(المُشركُونَ الذين نزَلَ فيهم القُرآنُ هل كانُوا يعبُدُونَ الملائِكَةَ والصَّالحينَ واللَّاتَ وغيرَ ذَلكَ؟ فلابُدَّ أن يَقُولَ نَعَم) لا يمكِنُهُ أن ينكِرَ شيئًا أثْبَتَهُ القُرآنُ .

واذكُرْ له النُّصُوصَ الدَّالةَ على أنهُم كانُوا يدْعُونَ الملائِكَةَ والصَّالِحِينَ واللَّاتَ ؛ كقولِه : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾ الآيتين .

وقولِه تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآيةَ . وقولِه تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ الآياتِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (وقلْ له أيضًا : المشركون... إلخ) انْتَقَلَ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى إلى إلزامٍ آخرَ ، سبقَت الإشارةُ إليه ، وهو أن يَسْأَلَ هذا المُشَبِّهَ : هل كان المشركون يَعْبُدون الملائكةَ والصالحين واللاتَ وغيرَ ذلك ؟

فلابدَّ أن يقولَ : نعم . فيَسْأَلُ مرةً أخرى : هل كانت عبادتُهم إلا في الدعاءِ والذبحِ والالتجاءِ ونحوِ ذلك ، مع إقرارِهم بأنهم عبيدُ اللَّهِ ، وتحتَ قَهْرِه ، وأنَّ اللَّهَ هو الذي يُدَبِّرُ الأمرَ ، لكن دَعَوْهم والْتَجَؤُوا إليهم للجاهِ والشفاعةِ ، كما سَبَقَ ، وهذا ما وقَع فيه المُشَبِّهُ تمامًا .

إيَّاهُم إلَّا في الدُّعَاءِ والذَّبحِ والالْتِجَاءِ ونحوِ ذَلِكَ[١] ؟ وإلَّا فهُمْ مُقِرُّونَ أنهُم عبِيدُهُ وتحتَ قَهْرِهِ ، وأن اللَّهَ هوَ الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ ، ولكن دَعَوْهم والْتَجأُوا إليهم لِلْجَاهِ والشَّفاعَةِ ، وهذَا ظَاهِرٌ جِدًّا .

فإن قَالَ : أتُنْكِرُ شَفاعَةَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وتَبْرَأُ منها ؟ فقُل : لا أُنْكِرُها ، ولَا أَتَبَرَّأُ منها ؛ بل هُوَ ﷺ الشَّافِعُ المُشَفَّعُ ، وأرْجُو شَفَاعَتَهُ ، ولكنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّها للهِ تعالى ، كما قَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾[٢] .

---

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمهُ اللَّهُ :

(فقُلْ له : وهل كانت عبادَتُهم إيَّاهُم إلَّا في الدُّعاءِ والذبحِ والالْتجاءِ ونحوِ ذلكَ؟) ؛ يعني : أنها ما كانت عبادتُهم إلَّا هكذَا ، هل هو هذا أو غيرُه ؟ فإنهُ لا يَجِدُ دليلًا غيرَ هذا ، فقُلْ له : أنا عندِي دليلٌ ، وهو أنَّ عبادَتَهُم هي هذِه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ .

(وإلَّا فهُم مُقِرُّون أنهم عبيدُهُ وتحتَ قهرِهِ ، وأن اللَّهَ هو الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ ، ولكن دَعَوْهُم ، والْتَجأُوا إليهم للجَاهِ والشَّفاعَةِ ، وهذا ظاهِرٌ جدًّا) في كَشْفِ شُبهَتِهِ .

(٢) قال الشيخُ ابنُ عُثيمينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (فإن قال) ؛ يعنى : إذا قال لك المشركُ المُشَبِّهُ : هل تُنْكِرُ شفاعةَ النبيِّ ﷺ ، هو يقولُ هذا مِن أجلِ أن يُلزِمَكَ بجَوازِ دُعاءِ النبيِّ ﷺ ، عسَى أن يَشْفَعَ لك عندَ اللَّهِ إذا دَعَوْتَه .

فقلْ له : لا أُنْكِرُ هذه الشفاعةَ ، ولا أَتَبَرَّأُ منها ، ولكني أقولُ : إنَّ الشفاعةَ للهِ ، ومَرْجِعُها كلُّها إليه ، وهو الذي يَأْذَنُ فيها إذا شاء ، ولمن شاء ؛ لقولِ اللَّهِ تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الزمر : ٤٤] .

ولَا تَكُونُ إِلَّا من بعْدِ إذنِ اللَّهِ(١) ، كمَا قَالَ تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾(٢) .

---

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

قولُه : (ولا تكونَ إلا من بعدِ إذنِ اللَّهِ ... إلخ) . بيَّنَ رحِمه اللَّهُ أن الشفاعةَ لا تكونُ إلا بشرطَيْنِ :

الشرطُ الأولُ : أن يَأْذَنَ اللَّهُ بها ؛ لقولِه تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

الشرطُ الثاني : أن يَرْضَى اللَّهُ عزَّ وجلَّ عن الشافعِ والمشفوعِ له ؛ لقولِه تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه : ١٠٩] .

ولقولِ اللَّهِ تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

ومِن المعلوم أنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى إلا بالتوحيدِ ، ولا يُمْكِنُ أن يَرْضَى الكفرَ ؛ لقولِه تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر : ٧] ، فإذا كان لا يَرْضَى الكفرَ فإنه لا يَأْذَنُ بالشفاعةِ للكافرِ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فإن) انتقَلَ المُشَبِّهُ إلى هذهِ الشُّبهةِ الأخرى ، **و(قَالَ : أَتُنكِرُ شفاعَةَ رسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وتَتَبَرَّأُ منها ؟)** هذا شأْنُ أعداءِ اللَّهِ القُبوريِّينَ ؛ إذا أُنْكِرَ عليهم الباطِلُ قالُوا : هذا إنكارٌ للحقِّ ، وإذا أُنكِرَ عليهم دُعَاءُ غيرِ اللَّهِ قالُوا : هذا إنكارٌ للشفاعةِ .

من شأْنِ أهلِ الباطِلِ المُشَبِّهينَ ؛ أهلِ الشِّركِ : المباهَتَةُ وإلباسُهُم أهلَ الحقِّ الشُّبَهَ الباطَلَةَ ، إذا أُنكِرَ عليهم دُعاءُ غيرِ اللَّهِ وشركيَّاتُهُم وضلالَاتُهُم أخَذُوا في الطعنِ على أهلِ التوحيدِ ، وقالوا : إنكم تُنْكِرُونَ الشَّفاعَةَ ، وأنتُم تَنْتَقِصُونَ الأولياءَ والصَّالحينَ .

ولا يَشْفَعُ النَّبيُّ ﷺ في أحدٍ إلَّا من بعدِ أن يأْذَنَ اللَّهُ فيهِ ، كما قَالَ تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ . وهو سُبحانَهُ لَا يَرْضَى إلَّا التَّوحِيدَ ، كما قالَ تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ . فإذا كانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا للهِ[١] ، ولَا تَكُونُ إلَّا من بَعدِ إذْنِهِ ، وَلا يَشْفَعُ النَّبيُّ

وليسَ كذلكَ ، خالفُوا طريقَةَ الرُّسلِ وألْزَمُوهُم أن يكونُوا راضِينَ بذلكَ ، وهذا عكسُ ما دَعَوْهُم إليهِ .

(فقُلْ : لَا أُنْكِرُهَا) وأوْلَى من ذَلكَ أن لا أتبَرَّأَ منها ، وهي أصلٌ لأهلِ التوحيدِ دونَ غيرِهم ، بل أنا وأمثَالِي أرجَى لشفَاعَتِهِ ؛ لكونِي مُتمسِّكًا بسُنَّتِه ، بل هم المحرُومونَ لكونِهم تعلَّقُوا بأذيَالٍ لا تُوصِلُهُم ، بل هم تركوا سببَ شَفاعَتِهِ ﷺ .

(بَلْ هو ﷺ الشَّافعُ المُشَفَّعُ ، وأرجُو شفاعَتَهُ ، ولكنَّ الشَّفاعَةَ كلَّها للهِ) فإن النَّبيَّ ﷺ لا يَمْلِكُها استقلَالًا ، بل لا يشفَعُ إلَّا في أُناسٍ مخصُوصِينَ ، قائِم بهم التَّأَهُّلُ لأن يُشْفَعَ لهم ، كمَا قالَ تعالَى : ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ .

وهذا في سياقِ قولِه تعالَى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فاللَّامُ عندَ جميعِ العلماءِ للملْكِ ، بيَّنَتِ الآيةُ أن الشَّفاعَةَ ملكٌ للهِ وحدَهُ .

وكونُ النَّبيِّ ﷺ أُعْطِيَها لَا استقْلَالًا مِن دونِ اللَّهِ ، بل أكرَمَهُ المالِكُ لها لأُناسٍ مخصُوصِينَ في مقدَارٍ مخصُوصٍ ، فهي شيءٌ محدُودٌ لشيءٍ محدُودٍ ، ولا تكُونُ إلَّا مِن بعدِ إذْنِ اللَّهِ ، كمَا قَالَ تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ . فأيُّ قائلٍ أو أيُّ إنسانٍ يُخْرِجُ النَّبيَّ ﷺ من هذَا العُمُومِ ؟!

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

قولُه : (فإذا كانَتِ الشفاعةُ كلُّها للهِ... إلخ) أراد المؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى أنه إذا كانت الشفاعةُ للهِ ، ولا تكونُ إلا بإذنِه ، ولا تكونُ إلا لمن ارْتَضَى ، ولا يَرْضَى إلا

ﷺ ، ولَا غَيْرُهُ فِي أحَدٍ حتى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ ، ولَا يَأذَنُ اللَّهُ تعالى إلّا لأَهْلِ التَّوحِيدِ ، تَبَيَّنَ لَكَ أن الشَّفَاعَةَ كُلَّها للهِ ، فأَطْلُبُهَا منهُ ، فأَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْني شَفَاعَتَهُ ، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ ، وأَمْثَالَ هَذَا[١] .

التوحيدَ ، لزِمَ مِن ذلك أن لا تُطْلَبَ الشفاعةُ إلا مِن اللَّهِ تعالى ، لا من النبيِّ ﷺ .

فيقولَ : اللَّهمَّ شَفِّعْ فيَّ نبيَّك ، اللَّهمَّ لا تَحْرِمْني شفاعته . وأمثالَ ذلك .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ولَا يشفَعُ فِي أحَدٍ إلا بعدَ أن يأذَنَ اللَّهُ فيهِ ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾) ؛ يعني : من رَضِيَ اللَّهُ قولَه وعملَهُ .

(وهو سُبحانَهُ لا يَرْضَى) من عبادِهِ إلَّا عملًا واحدًا هو الإسلامُ ، والذي يدُورُ عليهِ هو التَّوحِيدُ ؛ فالتَّوحيدُ منزِلَتُهُ من الإسلامِ كمنزلةِ الأَساسِ من البُنيانِ .

فالمحوَرُ هو التَّوحيدُ ، والرَّبُّ لا يرضَى إلَّا التوحِيدَ ، كما قالَ تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ .

وقالَ عنِ المشركينَ : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ .

(فإذَا كانتِ الشَّفاعَةُ كلُّها للهِ) كَما في الآيةِ الأولَى **(ولا تكُونُ إلا من بعدِ إذنِه)** كمَا في الآيةِ الثانيةِ **(ولا يشفَعُ النَّبيُّ ﷺ ، ولا غيرُهُ في أحَدٍ حتَّى يأذَنَ اللَّهُ فِيه)** كمَا في الآيةِ الثَّالثةِ .

(ولا يأذَنُ اللَّهُ إلَّا لأهلِ التَّوحِيدِ) كما في الآيةِ الرَّابعةِ ، **(تبيَّـنَ لكَ)** بذَلِكَ كلِّه ، بل بعضُهُ كافٍ **(أن الشّفاعةَ كلَّها للهِ)** مُلْكٌ له وحدَهُ ، وأنها لا تُطْلَبُ من غيرِ اللَّهِ ، بل تُطْلَبُ من اللَّهِ .

(وأطلُبُها منهُ) فأطلُبُها بما هو دُعاءٌ لربِّ العالمِينَ المالِكِ لها وحدَه ، لا دُعاءٌ للنَّبيِّ .

(فأقولُ : اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْني شفاعتَهُ ، اللَّهُمَّ شفِّعْهُ فيَّ ، وأمثَالَ هذا) فإنك إذا قلتَ

فإن قَالَ : النَّبيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ[1] تَعالى .

ذلكَ نلْتَهَا ، ومُرادُهُ أنك تطلُبُهُ باالمعنى ، ولو ما لفَظْتَ .

فإذا عمِلْتَ بالتَّوحِيدِ فأنتَ تطلُبُ أسبابًا فيها نيلُ الشَّفاعَةِ ، سواءٌ قلتَ باللَّفظِ ، أو لا ، أو ما هذَا معنَاهُ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فإن قَالَ) المُشَبِّهُ : **(النَّبيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفاعَةَ ، وأنا أطلُبُه ممَّا أعطَاهُ اللَّهُ)** إن انتقلَ لهذِه الشُّبهةِ في زَعمِهِ : أنه كَمَا أن مَن أُعطِيَ المَالَ يُعْطِي مَن شاءَ فكذَلِكَ من أُعطِيَ الشَّفَاعَةَ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (فإن قال) ؛ أي : المشركُ الذي يَدْعُو رسولَ اللَّهِ ﷺ : إنَّ اللَّهَ أعْطَى محمدًا ﷺ الشفاعةَ ، فأنا أَطْلُبُها منه .

فالجوابُ : من ثلاثةِ أوجهٍ :

الأولُ : أنَّ اللَّهَ أعْطَاه الشفاعةَ ، ونهاك أن تُشْرِكَ به في دعائِه ، فقال : ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ .

الثاني : أن اللَّهَ سبحانَه وتعالى أعْطاه الشفاعةَ ، ولكنَّه ﷺ لا يَشْفَعُ إلا بإذنِ اللَّهِ ، ولا يَشْفَعُ إلا لمن ارْتَضاه اللَّهُ ، ومَن كان مُشْرِكًا فإنَّ اللَّهَ لا يَرْتَضِيه ، فلا يَأْذَنُ أن يَشْفَعَ له ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

الثالثُ : أنَّ اللَّهَ تعالى أعْطَى الشفاعةَ غيرَ محمدٍ ﷺ ، فالملائكةُ يَشْفَعون ، والأَفْراطُ يَشْفَعون ، والأولياءُ يَشْفَعون[1] .

فقلْ له : هل تَطْلُبُ الشفاعةَ من كلِّ هؤلاءِ؟

---

(١) سيأتي - إن شاء الله تعالى - ذكر الأدلة على شفاعة هذه الأصناف الثلاثة .

فالجَوابُ : أن اللَّهَ أعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ ونَهَاكَ عن هَذَا ، فقال تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فإذا كنتَ تَدْعُو اللَّهَ أن يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ فأَطِعْهُ في قولِهِ : ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾(١) .

فإن قال : لا . فقد خُصِم ، وبَطَلَ قولُه .

وإن قال : نعم ، رجَعَ إلى القولِ بعبادةِ الصالحين .

ثم إنَّ هذا المُشْرِكَ المُشَبِّهَ ليس يُريدُ من رسولِ اللَّهِ ﷺ أن يَشْفَعَ له ، ولو كان يُريدُ ذلك لَقال : اللّهمَّ شَفِّعْ فيَّ نبيَّك محمدًا رسولَ اللَّهِ ﷺ .

ولكنه يَدْعو الرسولَ ﷺ مباشرةً ، ودُعاءُ غيرِ اللَّهِ شركٌ أكبرُ مُخْرِجٌ مِن المِلَّةِ ، فكيف يُريدُ هذا الرجلُ الذي يَدْعُو مع اللَّهِ غيرَه أن يَشْفَعَ له أحدٌ عندَ اللَّهِ سبحانه وتعالى؟!

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فالجَوَابُ) نعم **(أن اللَّهَ أعطَاهُ الشَّفاعَةَ)** وهو سيِّدُ الشفعَاءِ ، لكن الذي أعطَاهُ الشفاعَةَ هو اللَّهُ **(ونَهَاكَ عن هذَا)** نَهاكَ أن تطلُبَها منه ، فهذا من جهلِهِ يطلُبُ شيئًا مَنْهيًّا عنه ، مع أن إعطاءَهُ الشفاعَةَ إعطاءٌ مقيَّدٌ ، لا مطلقٌ .

كما أن إعطاءَهُ المَالَ ﷺ لا يُعطِيهِ مَن شاءَ ، إنَّما يُعْطِيه مَن أُمِرَ أن يُعْطِيَهُ ، فقالَ تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ .

فهذَا نهيٌ عن دعوَةِ غيرِ اللَّهِ ، ودعوةُ غيرِ اللَّهِ أنواعٌ : منها دعوةُ غيرِ اللَّهِ فيما يرجُونَه من شفاعتِهم ، ومنها دعوةُ غيرِ اللَّهِ لكشفِ الكُرُباتِ ونحوِ ذَلِكَ .

وهذا منهيٌّ عنه ، بل هو حقيقةُ دينِ المشركِينَ الأوَّلينَ ، إنما كانت عبادَتُهم آلهتَهُم بالدُّعاءِ وطلَبِ الشفاعَةِ ونحوِ ذلَكَ كما تقدَّمَ .

(فإذَا كنتَ تدعُو اللَّهَ) الظَّاهرُ أن مُرادَهُ ترجُو اللَّهَ أن يُشَفِّعَ نبيَّهُ فيكَ .

وأيضًا فإنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَها غيرُ النَّبيِّ ﷺ ، فَصَحَّ أنَّ الملائِكَةَ يَشْفَعونَ ، والأَولِيَاءَ يَشْفَعُونَ[1] ، . . . .

(فأَطِعْهُ في قولِه : ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾) إذا كنتَ ترجُو أن تكونَ أهلًا لشفاعَةِ سيِّدِ الشفعاءِ فوحِّدِ اللَّهَ ، وأخلِصْ له العمَلَ تَنَلْ شفاعَةَ المُصْطَفى ﷺ ؛ فإنَّ الشفاعَةَ التي هي حقٌّ ، وأُعْطِيَها ﷺ مشرُوطَةٌ بشُرُوطٍ كما تقدَّمَ ، وبَيَّنَتِ الشريعَةُ أن سَبَبَ نيلِهَا اتِّباعُ الرُّسُلِ وإخلاصُ العَمَلِ ، فبذَلِكَ يكونُ من أهلِ الشَّفاعةِ . فالمُشركُونَ ضيَّعُوا سببَ الشَّفَاعَةِ ، وضادُّوهُ ، وخالَفُوهُ .

الشَّريعةُ بيَّنَتْ أن سببَ إعطائِه إياها غيرُ طَلبِهَا منه ﷺ ، وإنما سببُها الإيمانُ به ﷺ ، والإيمانُ بما جاءَ به ؛ قالَ تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ .

وما لَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ فهُو باطلٌ ؛ يعني : لا يعلمُ أن مِن دُونِهِ شُفعاءَ .

وسُئِلَ ﷺ : مَن أسعدُ الناسِ بشفاعَتِكَ ؟ فقالَ : «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خالِصًا مِن قَلْبِهِ»[1] .

وقالَ : «فهي نَائِلَةٌ إن شَاءَ اللَّهُ مَن مَاتَ لَا يُشْرِكُ باللَّهِ شَيْئًا»[2] .

فالشَّفاعَةُ للعُصَاةِ ، أمَّا المُشركُونَ فلَا شَفَاعَةَ لَهُم .

(١) **قال الشيخ ابنُ عُثَيمِينَ رحمه اللَّهُ :**

وقال المؤلفُ : (**إن الملائكةَ يَشْفَعون ، والأولياءَ يَشْفَعون**) . سندُه حديثُ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضِي اللَّهُ عنه ، عن النبيِّ ﷺ ، الذي رواه مسلمٌ مُطَوَّلًا ، وفيه : «فيقولُ اللَّهُ

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٧٣ (٨٨٤٤) ، والبخارى (٩٩) ، (٦٥٧٠) .

(٢) رواه مسلم ١/ ١٨٩ (١٩٩) ، والترمذى (٣٦٠٢) ، وابن ماجه (٤٣٠٧) .

والأفْرَاطَ يَشْفَعُونَ[١]، أَتَقُولُ: إنَّ اللَّهَ أعْطاهُمُ الشَّفَاعَةَ فأَطْلُبُها منهُم[٢]؟ فإن قُلْتَ هذا رَجَعْتَ إلى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ التي ذَكَرَ اللَّهُ في

عزَّ وجلَّ: «شَفَعَتِ الملائكةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّون، وشَفَعَ المؤمنون»[١] الحديثَ.

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ:**

وقولُه: (والأفْراطُ يَشفَعون). الأفراطُ: هم الذين ماتوا قبلَ البلوغ، وسَنَدُه حديثُ أبي هريرةَ رضِي اللَّهُ عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «لا يَموتُ لمُسْلِمٍ ثلاثةٌ من الوَلَدِ، فيَلِجَ النارَ إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ». أخْرَجه البخاريُّ[٢].

وله عنه وعن أبي سعيدٍ مِن حديثٍ آخرَ: «لم يَبْلُغوا الحِنْثَ»[٣].

وقال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:

(وأَيضًا فإنَّ الشفاعةَ أُعْطِيَها غيرُ النَّبيِّ ﷺ). هذَا جوَابٌ ثانٍ لكشفِ الشُّبهةِ السَّابقَةِ، تقدَّمَ الأولُ، وهو كافٍ شافٍ في كشفِ شبهَتِه، وهذَا الثَّاني **(فصَحَّ أن الملائِكَةَ يشفعُونَ والأفراطَ يَشْفَعُونَ)** فجِنْسُ الشفاعَةِ أُعْطِيَها غيرُ النبيِّ ﷺ، ولكنَّ هذا الإعطاءَ مُقَيَّدٌ.

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:**

(أتَقُولُ: إن اللَّهَ أعطاهُمُ الشَّفاعَةَ فأطلُبُها منهُم)؛ يعني: مُقتَضَى قولِه: النَّبيُّ ﷺ أُعطِيَ الشفَاعَةَ، وأنا أطلُبُها منهُ، يُدَلِّلُ على ذلكَ.

(فإن قلتَ هذَا رجعتَ إلى عبادَةِ الصَّالحينَ التي ذكَرَهَا اللَّهُ في كِتابِهِ) فإنَّها ليستْ أكثرَ من طلَبِهِم منهم الشفَاعَةَ، والذبحِ لهم لقصدِ تقريبِهِم إلى اللَّهِ وطلبِ شفاعتِهِم،

---

(١) رواه أحمد ٣/ ٩٤ (١١٨٣٧)، والبخاري (٧٤٣٩)، ومسلم ١/ ١٦٧ (١٨٣).

(٢) البخاري (١٢٥١)، ومسلم ٤/ ٢٠٢٨ (٢٦٣٢).

(٣) البخاري (١٢٥٨)، ومسلم ٤/ ٢٠٢٩ (٢٦٣٤).

كِتَابِهِ ، وإن قُلْتَ : لَا . بَطَلَ قَوْلُكَ : أَعْطاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ[1] .

فإن قَالَ : أنا لَا أُشْرِكُ باللَّهِ شَيئًا ، حَاشَا وَكلَّا ، ولكنَّ الالْتِجَاءَ إلى الصَّالِحِينَ ليسَ بشِرْكٍ .

فقُل لَهُ : إذَا كُنْتَ تُقِرُّ أنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِن تَحْرِيمِ الزِّنى ، وَتُقِرُّ أن اللَّهَ

لَا غيرُ ، كمَا قالَ تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ الآيةَ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وإن قُلتَ لَا) أطلُبُها منهم ولو أَعْطَوْهَا **(بطَلَ قولُكَ : أعطاهُ اللَّهُ الشَّفاعَةَ ، وأنا أطلُبُهُ ممَّا أعطَاهُ اللَّهُ)** واتَّضحَ لكَ أن كونَ شخصٍ أُعْطِيَهَا لا يَدُلُّ على أنه يُعْطِيهَا من سألَها ، ولَلَزِمَ من ذلكَ أن يكونَ كُلُّ مَن طَلَبَ الشفاعَةَ يُعْطِي إياهَا مَن سألَهُ ، ولَفَسَدَتِ الشَّرائعُ .

فدَلَّ على أن إعطاءَهُ الشفاعَةَ مُقَيَّدٌ ، وليس دَالًّا على أنها تُطْلَبُ منهُ ، ولو كانتِ تُطْلَبُ منه لكَانَ الصحَابَةُ أوَّلَ مَن يطلُبُها منهُ ؛ بل أنكَرَ زينُ العابِدِينَ على مَن أتَى إلى فرجَةٍ كانتْ عِندَ قبرِ النَّبيِّ ﷺ ، فيدخُلُ فيها فيدْعُو[1] .

وحينَئذٍ انكشَفَت شبهَتُهُ ، واندَحَضت حُجَّتُهُ ، وتبَيَّنَ لكَ بذَلِكَ جهْلُهُ وضَلَالُهُ .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ ١٥٠ ، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/ ١٨٦ (٢١٤٠) ، وأبو يَعْلَى في مسنده ١/ ٣٦١ (٤٦٩) ، والضياء المقدسي في المختارة ٢/ ٤٩ .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٣ : رواه أبو يعلى ، وفيه حفص بن إبراهيم الجعفري ، وذكره ابن أبي حاتم ، ولم يذكر فيه جرحًا ، وبقية رجاله ثقات . اهـ .

وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر رحمه الله في تخريج الأذكار .

لا يَغْفِرُهُ ، فَمَا هذا الأَمْرُ الذي حَرَّمَهُ اللَّهُ وذَكَرَ أَنَّهُ لا يَغْفِرُهُ ؟ فإنَّه لا يَدْرِي[١] .

فقُل له : كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِن الشِّرْكِ ، وَأَنْتَ لا تَعْرِفُهُ ؟ أَمْ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هذَا ، ويَذْكُرُ أنَّه لا يَغْفِرُهُ ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ ، ولا تَعْرِفُهُ ؟ أَتَظُنُّ أن اللَّهَ يُحَرِّمُهُ ، وَلا يُبَيِّنُهُ لنا؟[٢] .

---

(١) **قال الشيخ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

إذا قال هذا المشركُ : أنا لا أُشْرِكُ باللَّهِ شيئًا ، والالتجاءُ إلى الصالحين ليس بشركٍ .

فجوابُه أن يُقالَ له : ألسْتَ تُقِرُّ أنَّ اللَّهَ حرَّم الشركَ أعظمَ من تحريمِ الزِّنى ، وأنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُه ، فما هذا الشركُ ؟

فإنه سوف لا يَدْرِي ، ولا يُجِيبُ بالصوابِ ما دام يَعْتَقِدُ أن طلبَ الشفاعةِ من رسولِ اللَّهِ ﷺ ليس بشركٍ ، فهو دليلٌ على أنه لا يَعْرِفُ الشركَ الذي عظَّمه اللَّهُ تعالى ، وقال فيه : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فإن قالَ : أنا لَا أُشْرِكُ باللَّهِ شيئًا ، حاشَا وكلَّا ، ولكنَّ الالْتِجاءَ إلى الصَّالحينَ ليسَ بشرْكٍ) ؛ يعني : نفَى عن نفسِهِ الشِّركَ **(فقُلْ لَهُ)** مُجيبًا بالاستفصَالِ والتَّحدِّي حتي تنكَشِفَ شبهَتُهُ :

(إذَا كنتَ تُقِرَّ أن اللَّهَ حرَّمَ الشِّركَ أعظَمَ من تحرِيمِ الزِّنَى ، وتقرُّ أن اللَّهَ لا يَغْفِرُهُ) وهو لا يمكنُ أن يَجْحَدَهُ **(فما هذا الأمرُ الذي حرَّمهُ اللَّهُ وذَكَرَ أنه لا يغفِرُهُ؟)** .

يعني : فسِّرْ لي حقيقةَ الشِّركِ باللَّهِ ؛ يعني : وما معنى عبادَةِ اللَّهِ ؟ **(فإنَّه لا يَدْرى)** عن الشِّركِ ، ولا عن التوحِيدِ ، إذا طلبتَ منهُ بيانَ هذَا وهذَا وقَفَ ، فأينَ هذَا من التوحِيدِ ؟

. . . .

(فقُلْ له : كيفَ تُبَرِّئُ نفسَكَ من الشِّركِ ، وأنتَ لا تَعْرِفُهُ؟) فإن الحُكمَ على الشيءِ نفيًا وإثباتًا لابُدَّ أن يكونَ بعدَ العلمِ والتَّصوُّرِ ؛ فلا عرفتَ الشِّركَ حتى تنفيَهُ ، ولا عرفتَ التوحِيدَ حتى تُثْبِتَهُ .

(كيفَ يُحرِّمُ اللَّهُ عليكَ هذا ، ويذكُرُ أنه لا يَغْفِرُهُ ، ولا تسألُ عنهُ ، ولا تعرِفُهُ؟) عدمُ معرفتِكَ له وعدَمُ مُبالَاتِكَ بهِ يدُلُّ على أنكَ لا تعرِفُ دينَكَ ، وأنكَ لستَ من التديُّنِ في شيءٍ ، صادٌّ غافلٌ مُعْرِضٌ عن الدِّينِ ومعرفَتِهِ ، فحقُّكَ السكُوتُ ، ولأيِّ شيءٍ تتكَلَّمُ .

(أتَظُنُّ أن اللَّهَ يُحرِّمُهُ ولَا يُبَيِّنُه لنا) فإن ظَنَّ ذلكَ فقدَ ضَلَّ ضلَالًا أعظمَ من ضَلَالِهِ الأوَّلِ ، وأضَافَ إلى ذلكَ كفرًا آخرَ .

وإنما صدَرَ منهُ ذَلكَ ؛ لأنَّهُ كانَ فيه ، وغمَرَهُ واستحْكَمَ عليهِ ، ولَا دَرَى أنهُ في الشِّركِ ؛ فإنَّ اللَّهَ قد بيَّنَ لنَا الدَّقيقَ والجَليلَ ، وأكمَلَ لنَا الدِّينَ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (فقلْ له : كيف تُبَرِّئُ نفسَك... إلخ) ؛ يعني : إذا برَّأ نفسَه من الشركِ بلُجوئِه إلى الصالحين ، فجوابُه من وجهين :

الوجهُ الأولُ : أن يُقالَ : كيف تُبَرِّئُ نفسَك من الشركِ ، وأنت لا تَعْرِفُه ، وهل الحكمُ على الشيءِ إلا بعدَ تصوُّرِه ؟ فحكمُك ببراءةِ نفسِك من الشركِ ، وأنت لا تَعْلَمُه حكمٌ بلا علمٍ ، فيكونُ مردودًا .

الوجهُ الثاني : أن يقالَ : لماذا لا تَسْأَلُ عن الشركِ الذي حرَّمه اللَّهُ تعالى أعْظَمَ من تحريمِ قتلِ النفسِ والزنى ، وأوْجَب لفاعلِه النارَ ، وحرَّم عليه الجنةَ ، أتَظُنُّ أنَّ اللَّهَ حرَّمه على عبادِه ، ولم يُبَيِّنْه لهم ؟ حاشاه من ذلك .

فإن قَالَ : الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ ، ونحنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ .

فقُل له الجَوَابَ الأَوَّلَ :

ما مَعنَى عِبَادَةِ الأَصْنَام ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهم يَعْتَقِدُونَ أن تِلْكَ الأَخْشَابَ والأَحْجَارَ تَخْلُقُ ، وتَرْزُقُ ، وتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها ؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ القُرآنُ[١] .

وإن قالَ : هُوَ مَن قَصَدَ خَشَبةً ، أو حَجَرًا ، أو بِنْيَةً على قَبْرٍ ، أو غَيْرِه ، يَدْعُونَ ذلكَ ، ويَذْبَحُونَ له ، يَقُولُونَ : إنَّه يُقَرِّبُنا إلى اللَّهِ زُلْفَى ، وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بِبَرَكَتِه ، أو يُعْطِينا بِبَرَكَتِهِ .

فقُل : صَدَقْتَ ، وهذا هو فِعْلُكُمْ عندَ الأَحْجَارِ والأَبْنِيَةِ التي علَى القُبُورِ وغيرِها ، فهذَا أَقَرَّ أنَّ فِعْلَهُم هذَا هو عِبَادَةُ الأَصْنَامِ ؛ فَهُوَ المَطْلُوبُ[٢] .

---

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

يعني : إذا قال لك المُشْرِكُ المُشَبِّهُ : الشركُ عبادةُ الأصنامِ ، ونحن لا نَعْبُدُ الأصنامَ . فأَجِبْه بجَوابَيْنِ :

الأولُ : قلْ له : ما هي عبادةُ الأصنامِ ؟ أَتَظُنُّ أنَّ مَن عبَدَها يَعْتَقِدُ أنها تَخْلُقُ وتَرْزُقُ وتُدَبِّرُ أَمْرَ مَن دعاها ؟ فإن زعَم ذلك فقد كذَّب القرآنَ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(**فإن قَالَ : الشِّرْكُ عبادَةُ الأصنَامِ ، ونحنُ لا نعبُدُ الأصنامَ**) فإن انتقَلَ إلى هذهِ الشُّبهَةِ ؛ زعَمَ أن الشِّركَ عبادَةُ الأصنامِ بخصوصِه ، وهو في زَعمِه أنه لا يَعبُدُ الأصنامَ ، بل وليٌّ ، فجاوِبْهُ بالاستفسارِ والتَّحدِّي ، فبه يَنْدَحِضُ وتنكشفُ شبهتُهُ ، ويظهرُ جهلُهُ وضلالُهُ ، وأنه أجنبيٌّ مما عليه المرسَلُونَ ، وما هو دِينُ المشركِينَ ؟

(**فقل لَه : ما معنَى عبادَةِ الأصنَامِ؟**) التي حصَرْتَ الشِّركَ فيها (**أتظُنُّ أنهم يعتقدُونَ**

الجَوَابُ الثَّاني :

ويُقالُ له أيضًا : قوْلُكَ : الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأصْنَام ، هل مُرَادُكَ أن الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بهذَا ، وأن الاعْتِمَادَ على الصَّالِحِينَ وَدُعاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ في ذَلِك ؟

أن تلك الأخشابَ والأحجارَ تخلُقُ وتزرقُ وتدبِّرُ أمْرَ من دَعاهَا؟) فإن قالَ : نعم **(فهذا يُكذِّبُهُ القرآنُ)** ويَرُدُّهُ ؛ فإن القرآنَ دالٌّ على أنهم لا يعتقدُونَ فيها ذلك أصلًا .

(وإن قالَ : هو مَن قصَدَ خشبةً أو حجرًا أو بِنيةً على قبرٍ أو غيره ، يَدْعُونَ ذلك ويَذْبَحُونَ له ، ويقولونَ : إنه يقرِّبُنَا إلى اللَّهِ زلفَى ، ويدفعُ اللَّهُ عنَّا ببركَتِهِ ، أو يُعْطِينَا ببرَكَتِهِ) فهذا تفسيرٌ لعبادَةِ الأصنامِ صحيحٌ .

(فقل : صدقتَ و) لكن **(هذا هو)** بعينِهِ **(فعلُكُم)** الذي وقعتُم فيه **(عندَ الأحجَارِ والأبنيَةِ التي على القُبُورِ وغيرِها)** وهذا المُطابِقُ هو حقيقةُ تفسيرِها .

(فهذا أقَرَّ أن فعلَهُم هذا هو عبادَةُ الأصنامِ ، فهو المطلُوبُ) المطلُوبُ إقرارُهُ بالحقِّ وكشفُ شبهَتِهِ ، وقد انكشَفَت شبهتُهُ ، واندحضَت حجَّتُهُ ، وتبيَّنَت جَهالتُهُ وضَلالَتُهُ .

وحاصلُهُ أنكَ تقولُ : هل همْ يعتقدُونَ أنها تخلُقُ ؟ فإن قالَ : نعم . فبيِّنْ لهم الآياتِ الواردَةَ ... إلخ ، وإن قالَ : هو مَن قصَدَ ... إلخ . فقُل : نعم ، وهذا هو فعلُكُم ، فهو إما أن يفسِّرَهُ بباطلٍ ، فيُبَيَّنُ له باطلُهُ ، وإما أن يُقِرَّ أن فعلَهُم موافقٌ له .

وقال الشيخ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (وإن قال... إلخ) . هذا مقابلُ قولِنا : **(إن زعَم ذلك فقد كذَّب القرآنَ)** ؛ يعني : إن قال : عبادةُ الأصنامِ أن يَقْصِدَ خشَبةً ، أو حجرًا ، أو بِنْيةً على قبرٍ ، أو غيره ، يَدْعُون ذلك ، ويَذْبَحُون له ، ويقولون : إنه يُقَرِّبُنا إلى اللَّهِ زُلْفَى .

قلنا : صدَقْتَ ، وهذا هو فعلُك سواءً بسَواءٍ ، وعليه فتكونُ مُشْرِكًا بإقرارِك على نفسِك ، وهذا هو المطلوبُ .

فهَذا يَرُدُّ ما ذكَرَهُ اللَّهُ في كِتابِهِ مِن كُفرِ مَن تَعَلَّقَ على المَلائِكَةِ أو عيسَى أو الصَّالِحِينَ ، فلابُدَّ أن يُقِرَّ لَكَ أن مَن أشْرَكَ في عِبَادَةِ اللَّهِ أحَدًا من الصَّالِحِينِ فهذا هُوَ الشِّرْكُ المَذْكُورُ في القُرآنِ ، وهذا هو المَطْلُوبُ[١] .

وَسِرُّ المَسْأَلَةِ[٢] : أنَّه إذا قالَ : أنَا لا أُشْرِكُ باللَّهِ .

---

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ويُقالُ له أيضًا) هذا جَوابٌ ثانٍ له **(قولُكَ : الشِّركُ عبادَةُ الأصنامِ ، هل مُرادُكَ أن الشِّركَ مخصُوصٌ بهذا؟)** محصورٌ دونَ عبادَةِ مَن سواهُم **(وأن الاعتِمادَ على الصالحِينَ)** والأنبياءِ والأولياءِ والملائكةِ **(ودعاءَهُم لا يدخُلُ في ذلِكَ)** لا يكُونُ شركًا .

(فهذَا) أمرٌ باطلٌ **(يرُدُّهُ ما ذكَرَهُ اللَّهُ في كتابِه)** ويُبْطِلُهُ **(مِن كُفْرِ مَن تعلَّقَ على الملائكةِ أو عيسَى أو الصالحِينَ)** فإن القرآنَ العزيزَ بيَّنَ كفرَ مَن تعلَّقَ على هؤلاءِ ، وكفرَ مَن تعلَّقَ على هؤلاءِ ، كما تقدَّم ، وأن عبادةَ الأصنامِ قسمٌ من أقسامِ الشِّركِ .

(فلابُدَّ) حينَئذٍ **(أن يُقِرَّ لكَ أن مَن أشرَكَ في عبادَةِ اللَّهِ أحدًا من الصَّالحينَ فهذَا هو الشِّركُ المذكورُ في القُرآنِ ، وهذَا هو المطلُوبُ)** وتَبَيَّنَ أنَّ مَن عبَدَ صنمًا أو وثَنًا أو غيرَ ذلكَ فهو مُشركٌ ، وبهذَا تنكشِفُ شبهَتُهُ ، وتندَحِضُ حُجتُهُ .

وقال الشيخ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (ويقالُ له أيضًا : قولُك : الشركُ عبادةُ الأصنامِ) إلى قولِه : **(وهذا هو المطلوبُ)** . هذا هو الجوابُ الثاني أن يقالَ : هل مرادُك أن الشركَ مخصوصٌ بهذا ، وأن الاعتمادَ على الصالحين ودعاءَ الصالحينِ لا يَدْخُلُ في ذلك ، فهذا يَرُدُّه القرآنُ ، فلابدَّ أن يُقِرَّ لك بأنَّ مَن أشْرَكَ في عبادةِ أحدٍ من الصالحين فهو الشركُ المذكورُ في القرآنِ ، وهذا هو المطلوبُ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وسرُّ المسألَةِ) ؛ يعني : خالصُ وحاصلُ الأجوبَةِ عن الشُّبَهِ الثلاثِ .

فقُل له : وَمَا الشِّرْكُ باللَّهِ ؟ فَسِّرْهُ لِي ؟

فَإن قالَ : هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَام[١] .

ذكَرَ المُصنِّفُ رحِمه اللَّهُ أولًا جوَابَ الشُّبهِ ؛ خصَّ كلَّ شبهةٍ بجوابٍ ، وبعضَها بجوَابينِ ، ثمَّ ذكَرَ جوابَها هنا علَى سبيلِ اللَّفِّ بعدَ النَّشْرِ[١] .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : **(وسِرُّ المسألةِ)** ؛ يعني : لُبُّها أنه إذا قال : أنا لا أُشْرِكُ باللَّهِ ؟ فاسْأَلْه : ما معنى الشركِ ؟ فإن قال : هو عبادةُ الأصنامِ ، فاسألْه : ما معنى عبادةِ الأصنامِ ؟ ثم جادِلْه على ما سبَقَ بيانُه .

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (فإن قال... إلخ) ؛ يعني : إذا ادَّعَى هذا المشركُ أنه لا يَعْبُدُ إلا اللَّهَ وحدَه

---

(١) قال الشيخ محمد محيى الدين فى حاشيته على أوضح المسالك ٢/ ٢٩٦ : أسلوب اللف والنشر فى علم البديع هو أن تذكر متعدِّدًا ، ثم تذكر ما لكل واحد منهما ، وقد ذكر علماء البلاغة أن جَعْل الأول للأول ، وجعل الثانى للثانى أحسن من جعل الأول للثانى ، وجعل الثانى للأول .

ومن أمثلة ذلك عندهم : قوله تعالى : ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ .

فقوله سبحانه : ﴿لتسكنوا فيه﴾ . هو أول الأمور المنشورة ، وهو راجع إلى الليل الذى هو أول الأمور الملفوفة .

وقوله سبحانه : ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ . هو ثانى الأمور المنشورة ، وهو راجع لثانى الأمور الملفوفة ، وهو النهار

فلعلك تسأل : لماذا اختلف نظر النحاة ، ونظر علماء البلاغة فى تفضيل رد الأول والثانى من الرديفين على هذا الوجه ؟

والجواب عن هذا أن نقول لك : إن النحاة يفضلون رد أول الحالين لثانى الصاحبين عند انعدام القرينة التى ترد كل حالٍ إلى صاحبها ؛ لأن هذا يُقَلِّل الفصل بين الحال وصاحبه بأجنبى ؛ فإنه يترتب عليه أن يفصل بين حال واحد وصاحبه .

فأما الوجه الآخر فيترتب عليه الفصل بين حالين ، وصاحبيْهما ، ولا شك أن فَصْلًا واحدًا أخف من فصلين .

فأما إذا قامت قرينة تعين على رد كل حال إلى صاحبها فأنت بالخيار ، بين أن تجعل الحالين على ترتيب =

فقُل : ومَا مَعْنَى عِبَادَةِ الأصْنَامِ ؟ فَسِّرْهَا لِي .

فإن قَالَ : أنا لا أَعْبُدُ إلَّا اللَّهَ وحْدَهُ . فقُل : ما مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَه ؟ فَسِّرْهَا لِي . فإن فَسَّرَها بِمَا بَيَّنَهُ القُرْآنُ فهوَ المَطْلُوبُ ، وإن لم يَعْرِفْهُ فكيفَ يَدَّعِي شَيئًا ، وهُوَ لا يَعْرِفُهُ ؟

وإن فَسَّرَ ذلك بغَيرِ مَعناهُ بَيَّنْتَ له الآيَاتِ الوَاضِحَاتِ في معْنَى الشِّركِ باللَّهِ وَعِبادَةِ الأوْثَانِ ، وأنهُ الذي يَفْعَلُونَهُ في هذا الزَّمانِ بعَيْنِهِ ، وأن عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هِيَ التي يُنْكِرُونَ علَيْنَا ، وَيَصِيحُونَ فيهِ ، كمَا صَاحَ إخْوانُهُم حَيثُ قَالُوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾[1] .

فاسْأَلْه : ما معنى عبادةِ اللَّهِ وحدَه ؟ وحينئذٍ لا يخْلُو من ثلاثِ حالاتٍ :

الأولى : أن يُفَسِّرَها بما دَلَّ عليه القرآنُ ، فهذا هو المطلوبُ والمقبولُ ، وبه يَتَبَيَّنُ أنه لم يُحَقِّقْ عبادةَ اللَّهِ وحدَه حيث أشْرَك به .

الثانيةُ : أن لا يَعْرِفَ معناها ، فيقالُ : كيف تَدَّعِي شيئًا ، وأنت لا تَعْرِفُه ؟ أم كيف تَحْكُمُ به لنفسِك ، والحكمُ على الشيءِ فرعٌ عن تصَوُّرِه ؟

الثالثةُ : أن يُفَسِّرَ عبادةَ اللَّهِ بغيرِ معناها ، وحينئذٍ يُبَيَّنُ له خطؤُه ببيانِ المعنى الشرعيِّ للشركِ وعبادةِ الأوثانِ ، وأنه الذي يفعَلونه بعينِه ، ويَدَّعون أنهم مُوَحِّدون غيرُ مُشْرِكين .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ** :

(أنَّه إذا قالَ : أنا لَا أُشْرِكُ باللَّهِ ، فقُل له : ما معنَى الشِّركِ باللَّهِ ؟ فسِّرْهُ لي . فإن قالَ : هو عبادَةُ الأصنام ، فقلْ : وما معنَى عبادَةِ الأصنام ، فسِّرْها لي . فإن قالَ : أنا لَا أعبُدُ إلا اللَّهَ وَحدَهُ . فقُلْ : ما معنَى عبادَةِ اللَّهِ وَحدَهُ ؟ فسِّرْها لي .

= الصاحبين ، أو على عكس ترتيبهما .

وهذا هو ما رآه علماء البلاغة فى اللف والنشر ، فاستوى نظر النحويين مع نظرهم . اهـ

. . . .

فإن فسَّرَها بمَا بيَّنهُ القرآنُ فهو المطلُوبُ ، وإن لم يَعْرِفْهُ فكيفَ يَدَّعِي شيئًا ، وهو لَا يعرِفُهُ ؟ وإن فسَّرَ ذلكَ بغيرِ معناهُ بيَّنْتَ له الآياتِ الواضحَاتِ في معنَى الشِّركِ باللَّهِ وعبادَةِ الأوثانِ أنه الذي يفعلُونَه في هذَا الزَّمانِ بعينِه) .

يعني : وحاصِلُ الجَوابِ عنِ الشُّبَهِ الثلاثِ أنكَ تتحَدّاهُ ؛ فلَهُ ثلاثةُ أحوالٍ ؛ أحدُها : أن يتوقفَ ، فقُلْ له : أنتَ لا تعرفُ الحقَّ من الباطِلِ ، فإذا حادَ ولا دَرَى ووقَفَ فهو كافٍ في ردِّ شبهِهِ ، وحينئذٍ كفانَا مؤُونةَ جوابِهِ ؛ فإن هذا حالُ كثيرٍ ممن يعبُدُ الأصنامَ ، لا يدرِي عن الشِّركِ ولا أهلِهِ ، ولا دَرَى عن عبادَةِ الأصنامِ ، ولا ميَّزَ عبادَةَ الأصنامِ من غيرِهَا .

وإن فسَّرها بما فسَّرهُ القرآنُ ، فهذا أيضًا كفانَا مؤُونتَهُ ، وهدَمَ أصلَهُ الذي بَنَى عليهِ ، وإن فسَّرهُ بالباطِلِ المخالِفِ لتفسيرِ القرآنِ بيَّنْتَ له الآياتِ الواضِحَاتِ في معنَى الشِّركِ باللَّهِ وعبادَةِ الأوثَانِ .

فالحاصِلُ أنه يَتَحصَّلُ منهُ تسعُ صُوَرٍ من ضَرْبِ ثلاثِ الشُّبَهِ في جوَابِهِ .

(وأنَّ عبادَةَ اللَّهِ وحدَهُ لا شَرِيكَ له) وهو توحِيدُه **(هي التي يُنكِرُونَ علينا ويَصِيحُونَ فيه كمَا صاحَ إخوانُهُم حيثُ قالُوا)** في إنكارِهِم التوحِيدَ على الرّسولِ لما دعاهُم : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ . استنكَرُوا أن يجعلَ الآلهَةَ إلهًا واحدًا .

وبه تعرفُ أن كثيرًا ممن ينتسِبُ إلى الإسلام من هذه الأمَّةِ ليسُوا على الدِّينِ ، إنمَا معهُم اسْمُه فقطْ ، ولَا يعرفُونَ ما هو شركُ الأوَّلينَ .

فلو عرَفَ أحدُهُم شركَ الأوَّلين وشركَ أهلِ هذَا الزّمانِ لوجَدَهُ هو هو ، بل مشركُو هذِه الأزمنَةِ أعظمُ من شركِ أولئك بكثيرٍ ؛ لما يأتيكَ من كلامِ المصنِّفِ .

شركُ الأوَّلين ليسَ أكثرَ من اعتقادِهِم أن أحَدَهُم يطلُبُ ممن يعتقدُ فيه أن يطلُبَ له من اللَّهِ ، وأنَّهُ بابُ وسائِطِهم وحَوَائِجِهم إلى اللَّهِ ، كمَا قالَ اللَّهُ عنهُم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ .

فإذا عَرَفْتَ أن هذا الذي يُسَمِّيهِ المُشْرِكُونَ في زَمَانِنا «كَبِيرَ الاعتِقَادِ» هو الشِّرْكُ الذي نَزَلَ فيهِ القُرْآنُ، وقَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ عَليهِ، فاعْلَمْ أن شِرْكَ الأوَّلِينَ أخَفُّ من شِرْكِ أهْلِ زَمَانِنَا بأمْرَيْنِ:

أحَدُهُمَا[(١)]: أن الأوَّلِينَ لا يُشْرِكونَ، وَلا يَدْعُونَ الملائِكَةَ والأَوْلِياءَ

وقال الشيخ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ:

يعني: ويُبَيِّنُ له أيضًا أن عبادةَ اللَّهِ وحدَه هي التي يُنْكِرُونها علينا، ويَصْرُخون بها علينا، كما فعَل ذلك أسلافُهم، حينَ قالوا للرسولِ ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٥ - ٧].

(١) قال الشيخ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ:

قولُه: «**إذا عرَفْتَ**»؛ يعني: علِمْتَ معنى العبادةِ، وأنَّ ما عليه أولئك المشركون في زمنِه هو ما كان المشركون عليه في عهدِ النبيِّ ﷺ عرَفْتَ أن شركَ هؤلاء أعظمُ من شركِ الذين قاتَلَهم النبيُّ ﷺ من وَجْهَيْنِ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ هؤلاء يُشْرِكون باللَّهِ في الشدةِ والرخاءِ، وأما أولئك المشركون الذين بُعِثَ فيهم رسولُ اللَّهِ ﷺ فإنما يُشْرِكون في الرخاءِ، ويُخْلِصون في حالِ الشدةِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾ الآيةَ.

فكانوا إذا ركِبوا في الفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصين له الدينَ، لا يَدْعُون غيرَه، ولا يَسْألُون سِواه، ثم إذا أنجاهم إلى البرِّ إذا هم يُشْرِكون، أو فريقٌ منهم بربِّهم يُشْرِكون، فهذا هو وجهٌ[(١)].

---

(١) سيأتى فى كلام الشيخ رحمه الله ذكر الوجه الثانى.

وَالأَوْثَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَّا فِي الرَّخَاءِ ، وَأَمَّا فِي الشِّدَّةِ فَيُخْلِصُونَ للهِ الدِّينَ ، كَما قَالَ تَعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾[1] .

---

(١) قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللّهُ :

(فإذَا عرفْتَ أن هذَا الذي يُسَمِّيه المُشركُونَ في زَمانِنا الاعتقَادَ) وقد يُسمُّونَه التوسُّلَ **(هو الشِّرْكُ)** الأكبرُ الذي كانَ عليه قُريشٌ وأضرابُهُم .

(الذى نزَل فيه القُرآنُ ، وقاتلَ رسُولُ اللّهِ ﷺ النَّاسَ عليهِ) وتحقَّقْتَ ما قدمتُهُ لكَ من كشفِ الشُّبهِ المتقدمَةِ .

(فاعلَمْ أنَّ شركَ الأوَّلِينَ أخفُّ من شركِ أهلِ زمانَنا بأمرَيْنِ) فشركُ أهلِ زمانِنا أعظَمُ وأكبرُ .

وكونُ شركِ أهلِ زَمانِنا أغلَظَ وأكبرَ بهذينِ الأمرَينِ ليسَ دليلًا على أنه لا يَتَغَلَّظُ إلا بهذينِ الأمرَينِ ، بَل يُريدُ أنهُ تغَلَّظَ بهذينِ الأمرينِ .

(أحدُهُما : أن الأوَّلِينَ لا يشركُونَ ولا يدعُون الملائكةَ والأولياءَ والأوثانَ معَ اللّهِ إلا في الرخاءِ ، وأمَّا في الشدَّةِ فيُخْلِصُونَ للهِ الدُّعاءَ) وإنما كانَ هذا حالَ ا لمشركينَ الأولينَ ؛ لأنهم أصحُّ عقولًا ، وأفهمُ في هذهِ الأُمورِ ؛ لعلمِهم أنه لا يُنجي في المضَايقِ والكُروبِ إلا اللّهُ ، فيُخْلِصُون للهِ الدِّينَ .

ولهذا لمَّا سألَ النبيُّ ﷺ حُصَيْنًا : «كَمْ إلهًا تَعْبُدُ ؟» .

قالَ : سَبعَةً ؛ ستَّةً في الأرْضِ ، وواحِدًا في السَّماءِ .

قالَ : « فَمَن الذِي تُعِدُّ لرَغْبَتِكَ ورَهْبَتِك ؟ » .

قالَ : الذي في السَّماءِ[1] .

---

(١) رواه أبو بكر الروياني في مسنده ١/ ١٠٥ ، والترمذي (٣٤٨٣) ، والبزار في مسنده ٩/ ٥٣ ، =

وقال تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ .[١] ، وقَالَ تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾[٢] إلى قولِه : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ . وقولِهِ تعالى : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣] .

كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ؛ يعني : ذهَبَ عنكُم مَن تدعُون سِواهُ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن إفرادِه بالعبَادَةِ واللَّجْأِ إليه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ .

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

وهذه أيضًا تَدُلُّ على أنهم كانوا يُشْرِكون في حالِ الرَّخاءِ ، وأنهم إذا أتاهم عذابٌ ، أو أتَتْهم الساعةُ فإنهم لا يَدْعُون غيرَ اللَّهِ ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ .

فهم في هذه الحالِ يَنْسَوْن ما يُشْرِكون ، ولا يَدْعُون سوى اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

(٢) قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

وهذه أيضًا كالآيتين اللتين قبلَها ، تَدُلُّ على أن الإنسانَ إذا مسَّه الضُّرُّ دعا ربَّه ، مُنِيبًا إليه ، ولكنه إذا خوَّله نعمةً منه نسيَ ما كان يَدْعُو إليه من قبلُ ، وجعَل للهِ أندادًا ليُضِلَّ عن سبيلِه ، فيُشْرِكُ في حالِ الرخاءِ ، ويُخْلِصُ في حالِ الشدةِ .

(٣) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(وَقَالَ تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ

= وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني ٤/ ٣٢٣، والطبراني في الأوسط ٢/ ٢٨٠، والكبير ١٨/ ١٧٤، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٤/ ٦٥٢ (١١٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٨١ .

وضعفه الشيخ الألباني في تعليقه على سنن الترمذي .

. . . .

تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إلى قولِه : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ وقولِه تعالى : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) .

هذهِ الآياتُ ونظائرُها دالةٌ على أنهم في الرخاءِ يُشْرِكون ؛ وفي الشدةِ يُخْلِصون ؛ في الشدةِ لا يَدْعُون إلا اللَّهَ وحدَه لا شريكَ له ، وأما في زمانِنَا فشِرْكُهُمْ في الحالتينِ جميعًا .

بل إذا كانوا في الشدةِ نسُوا اللَّهَ بالكليَّةِ ، ولهِجُوا بمعبُودَاتِهم مِن دونِ اللَّهِ ، والعياذُ باللَّهِ .

فأهلُ زمانِنَا إذا ركِبُوا في البحرِ ، وتلاطَمَت عليهم الأموَاجُ لهِجُوا بمَن يَدْعُونَه مِن دونِ اللَّهِ ؛ سواءٌ كانَ مِن الأمواتِ أو غيرِهم ، هذا يقُولُ : يا متبولي ، يا عيدروسُ ، يا بدَويُّ ، يا عبدَ القادرِ ، يا عليُّ ، يا حُسينُ ، يا فلانُ ، أين شركُ هؤلاءِ من شركِ الأوَّلينِ ؟!

بينَ الشِّركينِ فرقٌ بعيدٌ ، بل مُشركُو زمانِنَا زادُوا في شركِهم بفُنونٍ زادُوهَا ، وضُروبٍ جدَّدُوها .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

هذه أيضًا كالآياتِ السابقةِ تدُلُّ على أن هؤلاء المشركين إنما يُشْرِكون باللَّهِ في حالِ الرخاءِ ، أما في حالِ الشدةِ ، فيَلْجَأون للهِ وحدَه .

فَمَنْ فَهِمَ هذهِ المَسْأَلَةَ التي وَضَّحَها اللَّهُ في كِتَابِهِ ، وهِي أنَّ المُشْرِكِينَ الذينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَ اللَّهَ تعالى ، ويَدْعُونَ غَيْرَهُ في الرَّخَاءِ ، وأَمَّا في الضَّرَّاءِ والشِّدَّةِ فَلَا يَدْعُونَ إلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، ويَنْسَوْنَ سَادَاتِهِم[١] ، تَبَيَّنَ لَهُ الفَرْقُ بَيْنَ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا وشِرْكِ الأَوَّلِينَ ، ولكن أيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هذِهِ المَسْأَلَةَ فَهْمًا رَاسِخًا ؟! واللَّهُ المُسْتَعانُ[٢] .

---

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

يُبَيِّنُ رحِمه اللَّهُ أن المشركين في زمانِه أشدُّ شركًا مِن مُشْركي زمانِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ؛ لأن مشركي زمانِه يَدْعُون غيرَ اللَّهِ في الرخاءِ ، وفي الشدةِ ، وأما المشركون في عهدِ الرسولِ ﷺ ، فإنهم يَدْعُون اللَّهَ ، ويَدْعُون غيرَه في حالِ الرخاءِ .

وأما في حالِ الشدةِ فلا يَدْعُون إلا اللَّهَ عزَّ وجلَّ ، وهذا يَدُلُّ على أن شركَ المشركين في زمانِه رحِمه اللَّهُ أعظمُ مِن شركِ المشركين في عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فمَن فَهِمَ هذهِ المسألَةَ التي وضَّحَها اللَّهُ في كتابِهِ) حقيقةَ الفهمِ ، وفهِمَ عن اللَّهِ ورسُولِه ، وسلِمَ من التعصُّبِ والهوَى ، وسلِمَ من الجهلِ .

(وهي أن المُشركِينَ الذينَ قاتَلَهُم رسولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعونَ اللَّهَ تعالى ، ويدعونَ غيرَهُ في الرَّخاءِ ، وأما في الضرِّ والشدَّةِ فلا يَدعُونَ إلَّا اللَّهَ وحدَهُ لا شريكَ له ، ويَنْسَوْنَ سادَاتِهم ، تبيَّنَ له الفرقُ بينَ شركِ أهلِ زمانِنا وشركِ الأوَّلِين) .

يعني : أن شركَ أهلِ زمانِنا أعظمُ وأكبرُ وأطمُّ ، وإنما ضلُّوا بتركِهم القرآنَ والإعراضِ عنه والتَّفهُّمَ والتَّدبُّرَ .

(ولكِن أينَ مَن يفهَمُ قلبُهُ هذهِ المسألةَ فهمًا جيِّدًا راسِخًا؟!) لينجُوَ من الجهلِ ، ولا يُظَنَّ أن المرادَ أنهم قومٌ كانوا فبانُوا ، وفي الحقيقةِ إن كانُوا وبانُوا فقد أعْقَبُوا مَن هو شرٌّ منهم بكثيرٍ **(واللَّهُ المستَعانُ)** .

والأَمْرُ الثَّاني : أنَّ الأَوَّلِينَ يَدْعُونَ معَ اللَّهِ أُنَاسًا مُقَرَّبِينَ عِندَ اللَّهِ إمَّا أَنْبياءُ ، وَإمَّا أَوْلِيَاءُ ، وإمَّا مَلائِكةٌ ، أو يَدْعُونَ أَحْجارًا ، أو أَشْجَارًا مُطِيعةً للهِ ، لَيْسَت عَاصِيَةً ، وأَهْلُ زَمانِنَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أُناسًا من أَفْسَقِ النَّاسِ ، والَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمُ الذينَ يَحْكُونَ عنهُمُ الفُجُورَ ؛ مِنَ الزِّنَى ، والسَّرِقَةِ ، وَتَرْكِ الصَّلاةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، والذي يَعْتَقِدُ في الصَّالحِ ، أو الذي لا يَعْصِي مِثْلَ الخَشَبِ وَالحَجَرِ أَهْوَنُ مِمَّن يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشاهِدُ فِسْقَهُ وفَسَادَهُ ، ويَشْهَدُ بِهِ[١] .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : **(تَبَيَّنَ له الفرقُ... إلخ)**. هذا جوابُ قولِه : **(فمَن فهِم هذه المسألةَ... إلخ)** أي : تبيَّن له الفرقُ ، بينَ مُشْركي زمانِه رحِمه اللَّهُ والمشركين في عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأنَّ شركَ الأولين أخَفُّ من شركِ أهلِ زمانِه ، ولكن أين مَن يَفْهَمُ قلبُه ذلك ؟!

أكثرُ الناسِ في غَفْلةٍ عن هذا ، وأكثرُ الناسِ يُلْبَسُ عليهم الحقُّ بالباطلِ ، فيَظُنُّون الباطلَ حقًّا ، كما يَظُنُّونَ الحقَّ باطلًا .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(الأَمْرُ الثَّاني) تقدمَ الأمرُ الأولُ الذي صارَ بهِ المشركونَ الأوَّلونَ أعظمَ شركًا من أهلِ زَمَانِنا **(أنَّ)** المشركِينَ **(الأوَّلِينَ يَدْعُونَ مع اللَّهِ أُناسًا مُقَرَّبِينَ عندَ اللَّهِ : إما أنبياءَ وإما أولياءَ وإما ملائكَةً)** أو صالحِينَ .

(أو يدعونَ أحجارًا أو أشجارًا مُطيعةً للهِ ، ليستْ عاصيةً) الكائناتُ كلُّها مُطيعةٌ للهِ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ .

(وأهلُ زمانِنَا يدعُونَ مع اللَّهِ أُناسًا من أفسَقِ الناسِ) بل منهُم مَن يدعُو أُناسًا من أكفَرِ الناسِ ، بل بعضُهُم أكفرُ من اليهُودِ والنصارَى .

. . . .

كالذينَ يدعُونَ إمامَ أهلِ وَحْدَةِ الوُجودِ ابنَ عربيٍّ ، فإن عليهِ الآن قُبَّةً في الشامِ .

(والذين يَدْعُونَهم هم الذينَ يَحْكُونَ عنهم الفُجورَ من الزِّنى والسرقَةِ وتركِ الصلاةِ وغيرِ ذلك ، والذي يعتقدُ في الصَّالحِ أو الذي لا يعصِي مثلِ الخَشَبِ والحجَرِ أهونُ ممن يعتقدُ فيمَن يُشاهِدُ فسقَهُ وفسادَهُ ويشهَدُ بِهِ) .

فإنه معلومٌ أن مَن دعَا معَ اللَّهِ غيرَهُ من أيِّ شيءٍ كانَ فهو كافرٌ ، وصارِفٌ حقَّ ربِّ العالمينَ لغيرِهِ ؛ وكونُ ذلكَ المصرُوفِ لنبيٍّ أو غيرِه لا يُنْجِيهِ من الشركِ ، ولكنهُ أهونُ من الثَّاني ؛ فإنه عظَّم مَن لا يُعَظَّمُ بوجهٍ ، وهو كالمُعانِدِ أيضًا ؛ النصوصُ الشرعيَّةُ دلَّت على نقصِ هذا ، وأنهُ مرذُولٌ ومَهينٌ ، وهذا عاكَسَ الشرعَ وجعَلَهُ معظَّمًا ، فصارَ شركُهُ أعظمَ ، وإن كان الكلُّ شركًا وكفرًا وضلالًا .

فظهَرَ بذلكَ صحَّةُ ما قالهُ المصنِّفُ ، وأن شركَ مُشركي زمانِنَا أعظمُ وأغلظُ من شركِ المشركينَ الأوَّلين ؛ لكنَّ الأولينَ عندَهُم شُبهةُ أهلِ الجاهليةِ ، وهو أنه مُعَظَّمٌ في الجملَةِ ، والذي يدعُو فاسقًا أو كافرًا يطلُبُ ممن كانَ ممقُوتًا مذمُومًا في الشرعِ ويعبُدُهُ ، فكانَ معانِدًا للشرعِ .

فاستويَا في أن الكُلَّ شركٌ ، وافترقا فيمن هو معظَّمٌ في الجملَةِ ، والثاني عظَّمَ مَن ليسَ مُعَظَّمًا بحالٍ فصارَ أعظمَ شركًا ؛ فإن الأولِينَ لو عظَّمُوهُم بغيرِ الشركِ لكان سائغًا ، والفاسقُ ونحوُه لو عُظِّمَ بدونِ عبادَةٍ له لكانَ المعظِّمُ له عاصيًا ، إذا كانَ معبودُهُ تُقامُ عليه الحُدُودُ أو فاسِقًا .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (الأمرُ الثانى) ؛ أي : في بيانِ أن شركَ الأوَّلين أخفُّ من شركِ أهلِ زمانِه رحِمه اللَّهُ : أن المشركين في عهدِ الرسولِ ﷺ ، يَدْعُون أناسًا مُقَرَّبين مِن أولياءِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، أو

إذا تَحَقَّقْتَ أنَّ الذين قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولًا ، وأَخَفُّ شِرْكًا من هَؤُلاءِ ، فاعْلَمْ أنَّ لِهَؤُلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَى ما ذَكَرْنا ، وهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوابِهَا ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُون : إنَّ الذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ القُرْآنُ لا يَشْهَدونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ويُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ ﷺ ، وَيُنْكِرونَ البَعْثَ ، ويُكَذِّبُونَ القُرْآنَ ويَجْعَلُونَهُ سِحْرًا ، وَنحنُ نَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَنُصَدِّقُ القُرْآنَ ، وَنُؤمِنُ بالْبَعْثِ ، وَنُصَلِّي ، وَنَصُومُ ، فكَيْفَ تَجْعَلُونَنا مِثْلَ أُولَئِكَ[1] .

يَدْعُون أحجارًا ، أو أشجارًا مُطيعةً للهِ ، ذليلةً له .

أما هؤلاء - أعني : المشركين في زمانِه - فإنهم يَدْعُون مَن يَحْكُون عنهم الفجورَ والزنى والسرقةَ وغيرَ ذلك مِن معاصي اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، ومعلومٌ أنَّ مَن يَعْتَقِدُ في الصالحِ ، أو الجمادِ الذي لا يَعْصِي اللَّهَ تَعالى ، أهْوَنُ ممَّن يعتَقِدُ فيمَن يُشاهِدُ فسقَه ، ويَشهَدُ به ، وهذا ظاهرٌ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وإذا تَحَقَّقْتَ) مما تقدَّمَ **(أن الذينَ قاتَلَهُم رسولُ اللَّهِ ﷺ أصَحُّ عقولًا وأخفُّ شركًا من هؤلاءِ)** ؛ يعني : من شركِ مُشركِي زمانِنَا **(فاعْلَمْ أن لهؤلاءِ شبهةً يُورِدُونَها على مَا ذَكَرْنَا)** يُدْلِي بها بعضُ مَن في زمَنِ المؤلفِ من كونِ ما عليهِ مُشركُو زمانِنَا من الشِّركِ كشركِ الأوَّلِينَ .

بل يقولُونَ : إنكم ما اقتَصَرْتُم على أن جعَلْتُمُونا مثلَهُم ، بل زدتُم .

يريدُ صاحِبُ هذهِ الشبهَةِ مما اعترَضَ بهِ مِن الفُرُوقِ نفيَ ما قرَّرهُ المُصنِّفُ في هذهِ الترجَمَةِ **(وهي من أعظَمِ شبهِهِم فأصْغِ سمعَكَ لجَوابِهَا)** وقد أجابَ عنها المُصنِّفُ رحِمهُ اللَّهُ بتسعَةِ أجوبَةٍ ، كلُّ واحِدٍ منها كافٍ شافٍ في ردِّهَا ، لكن كثَّرها لمزيدِ كشفٍ وإيضاحٍ .

. . . .

(وهي أنهُم يقولُونَ : إن الذينَ نزَلَ فيهم القُرآنُ لا يشهَدُونَ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ يعني : لا يَنْطِقُونَ بالشَّهادتينِ **(ويُكَذِّبونَ الرَّسُولَ)** ويمتنعُونَ عن طاعَتِه **(ويُنكرُونَ البعثَ)** ولا يصدِّقُون بهِ .

(ويُكذِّبُون القُرآنَ ويجعلُونَهُ سحرًا) ولا يصلُّونَ ولا يصُومُونَ .

(ونحنُ نشهَدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأنَّ محمَّدًا رسُولُ اللَّهِ ، ونُصدِّقُ القُرآنَ ، ونؤمنُ بالبعثِ ، ونُصلِّي ونصُومُ ، فكيفَ تجعلُونَنا مثلَ أُولئكَ؟!) فكيفَ تُسَوُّون بينَ من يُقِرُّ بهذهِ الأُمُورِ العظيمَةِ ، وبينَ مَن يجهَلُها ؛ يعني : وأنكُم سوَّيْتُم بينَ المُتفارقينِ وجمعتُم بينَ المختلفَينِ ؛ بل ما اقتصَرْتُم ، بل جعلتُمُونا أعظَمَ جهلًا وضلالًا منهم .

فعرَفْتَ أنهُم يعارضُونَ ما قرَّرهُ المصنِّفُ ، ويقُولُونَ : لسنا منهم ، وأنتُم جعلتُمُونا أعظَمَ منهم ، كيفَ تجعلُونَ مَن كانتْ فيه هذهِ الخصَالُ والفُروقُ كمن ليسَ فيهِ منهَا شيءٌ ؟!

ويأتِيكَ جَوابُ المؤلِّفِ لهم ، وأنَّ هذهِ الفُروقَ غيرُ مؤثِّرةٍ بالكتابِ والسنَّةِ والإجماعِ ، بل هذهِ الفُروقُ مما يتغلَّظُ كفرُهُم بها ؛ فإن الكافرَ الأصليَّ الذي ما أقرَّ بشيءٍ من ذلكَ أهونُ كفرًا ممن أقرَّ بالحقِّ وجحَدَهُ ، ولذلك المرتدُّ أعظمُ كفرًا من الكافرِ الأصليِّ في أحكَامِهِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحمه اللَّهُ :

في هذه الجملةِ يُبَيِّنُ رحِمه اللَّهُ شُبهةً مِن أعظمِ شُبَهِهم ، ويُجيبُ عنها ، فيقولُ : إذا تحَقَّقْتَ أن المشركين في عهدِه عليه الصلاةُ والسلامُ أصَحُّ عقولًا ، وأخفُّ شرْكًا من هؤلاء ، فاعلَمْ أنهم يُورِدُون شُبهةً حيث يقولون : إن المشركين في عهدِ الرسولِ ﷺ ، لا يَشْهَدون أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ولا يُؤْمِنون بالبعثِ ، ولا الحسابِ ، ويُكَذِّبون القرآنَ .

فالجَوَابُ : أنْ لَا خِلافَ بَيْنَ العُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أن الرَّجُلَ إذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في شَيءٍ ، وَكَذَّبَهُ في شَيءٍ ، فإنَّهُ كَافِرٌ ، لَمْ يَدْخُلْ في الإسْلامِ ، وَكَذَلِكَ إذَا آمَنَ بِبَعْضِ القُرْآنِ ، وجَحَدَ بَعْضَهُ ، كَمنْ أقَرَّ بالتَّوحِيدِ ، وجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ ، أَوْ أقَرَّ بالتَّوْحِيدِ والصَّلاةِ ، وجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ ، أَوْ أقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ ، وَجَحَدَ الصَّوْمَ ، أو أقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ ، وجَحَدَ الحَجَّ(١) .

ونحن – يعني : مشركي زمانِه – نشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ونُصَدِّقُ القرآنَ ، ونُؤْمِنُ بالبعثِ ، ونُقيمُ الصلاةَ ، ونُؤْتي الزكاةَ ، ونَصومُ رمضانَ ، فكيف تجعَلوننا مثلَهم ؟! وهذه شبهةٌ عظيمةٌ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فالجَوَابُ) عما اعترضُوا بهِ مِن هذهِ الفُروقِ التي زعَمُوا أنها تؤثِّرُ ؛ أن الفُروقَ منقسمةٌ إلى قسمين : فرقٍ يؤثِّرُ ، وفرقٍ لا يُؤثِّرُ ، فإنه إجماعٌ أن هذهِ الفُروقَ لا تؤثرُ .

(أن) مخففةٌ **(لا خِلافَ بينَ العُلماءِ كلِّهم أن الرجُلَ إذا صدَّق رسُولَ اللَّهِ ﷺ في شيءٍ ، وكذَّبَهُ في شيءٍ أنه كافِرٌ لم يدخُلْ في الإسْلامِ)** بالإجماعِ .

يعني : أنه ليسَ بمسلمٍ ، ولا عندَه من الإسلامِ شعرَةٌ .

فإذا كذَّبهُ في واحدٍ ، وصدَّقهُ في الألُوفِ من الصلاةِ والصدقَةِ ونحوِ ذلكَ فهو قاضٍ على تلكَ الألُوفِ .

فإذا كانَ مَن صدقَهُ في شيءٍ وكذبَهُ في شيءٍ فهو كافرٌ ، فكيفَ بالتوحِيدِ الذي هو أعظمُ فريضَةٍ جاءَ بها النبيُّ ﷺ ؟!

عمَدَ إلى زُبدَةِ الرسَالَةِ ، وجعَلَ لفاطِرِ الأرضِ والسماوَاتِ شريكًا في العبادَةِ ، فصَرْفُهُ له الدُّعاءَ الذي هو مخُّ العبادَةِ وخالصُهَا ، إما أن يدعُوَ غيرَه وحدَهُ أو يجعلَهُ شريكًا له .

. . . .

فإذا كانت تلكَ الفُروقُ لا تؤثرُ فكيفَ بالتوحِيدِ ؟ لكن والعياذُ باللَّهِ طَمَسَ على قُلوبِهم الشركُ ، وامتزَجَت بهِ ؛ فإن أهلَ هذهِ الشبهَةِ من أهلِ الجهالَاتِ والضلالَاتِ ؛ فإن صاحِبَ النظَرِ المنصِفَ إذا نَظرَ في أهلِ هذهِ الشُّبَهِ لقِيَهُم مفاليسَ من العلمِ بالمرَّةِ .

(وكَذلكَ إذا آمنَ بالقرآنِ وجَحَدَ بعضَهُ) ولو حرفًا واحدًا ، أنكرَهُ وجحَدَهُ ، أو جحَدَ شيئًا مما ثَبَت عن النبيِّ ﷺ ، فهو كفرٌ ظاهرٌ ؛ أي : كفرٌ فوقَ كفرِ تكذيبِ اللَّهِ ورسُولِه .

(كمَن أقرَّ بالتَّوحِيدِ) لفظًا ومعنًى **(وجحَدَ)** فرعًا من فُروعِ الشريعةِ ، معلومًا أن الرسُولَ جاءَ بهِ **(وُجوبَ الصلاةِ)** الذي يجحَدُ الصلوَاتِ الخمسَ كافرٌ بالإجماعِ[1] ، ولو أنه يفعلُهَا ، وجاءَ بالتَّوحِيدِ .

(أو أقرَّ بالتوحيدِ والصلاةِ وجحَدَ وُجوبَ الزكاةِ) ولو كانَ يُؤَدِّيها ، فهو كافرٌ بإجماعِ الأمَّةِ[2] .

(أو أقرَّ بهذَا كلِّه وجَحَدَ الصومَ) ولو أنهُ يفعلُهُ ، فإنه كافرٌ بإجماعِ الأمَّةِ لتكذيبِه اللَّهَ ورسُولَهُ[3] .

(أو أقرَّ بهذَا كُلِّه وجَحَدَ الحَجَّ) إلى البيتِ ، وإن كان يَحُجُّ ، فهو كافرٌ بالإجماعِ لتكذيبِه اللَّهَ ورسُولَهُ ورَدِّه إجمَاعَ الأمَّةِ[4] .

(ولمَّا لم ينقَدْ أُناسٌ في زَمنِ النبيِّ ﷺ ، للحَجِّ) إلى البيتِ أنزَلَ اللَّهُ في حقِّهم :

---

(١) انظر المنهج القويم ١/ ٤٢٠ ، وروضة الطالبين ٢/ ١٦٤ .

(٢) روضة الطالبين ٢/ ١٦٤ .

(٣) روضة الطالبين ٢/ ١٦٤ .

(٤) روضة الطالبين ٢/ ١٦٤ .

. . . .

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ؛ يعني : واجبٌ للهِ على المستطيعِ من الناسِ أن يحُجَّ .

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ؛ يعني : ترَكَ ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . فدَلَّ على أن تركَ ذلكَ كفرٌ ؛ فمَن جحَدَ ذلكَ فقد كفَرَ ؛ فدلَّ على فرضيَّةِ حجِّ البيتِ ؛ فدلَّ على أنَّ الذي لا يعتقِدُ ذلكَ كافرٌ ، وهذا بخلافِ العاجزِ .

وكذلكَ منعُ الزكَاةِ بُخْلًا بخلافِ الجاحِدِ ، فأما تركُ الصلاةِ تهاونًا ، فاختيارُ أحمدَ(١) ، وحكَى إسحاقُ بنُ راهويَه كفرَهُ بالإجماعِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

يقولُ رحِمه اللَّهُ : إنهم إذا قالوا هذا ؛ يعني : أنهم يَشْهَدون أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ . . . إلخ ؛ يعني : فكيف يكونون كفارًا ؟

وجوابُه أن يقالَ :

إن العلماءَ أجْمَعوا على أنَّ مَن كفَر ببعضِ ما جاء به الرسولُ ﷺ وكذَّب به ، فهو كمَن كَذَّب بالجميعِ ، وكفرَ به ، ومَن كفَر بنبيٍّ من الأنبياءِ فهو كمَن كفَر بجميعِ الأنبياءِ ؛ لقولِ اللَّهِ تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء : ١٥٠، ١٥١] .

وقولِه تعالى في بني إسرائيلَ : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥] .

---

(١) المغنى ٣/ ٣٥٥ .

ولَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أُناسٌ في زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ للحَجِّ أَنْزَلَ اللَّهُ في حَقِّهِمْ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وَمَنْ أقَرَّ بهذا كُلِّه(١)، وجَحَدَ البَعْثَ كَفَرَ بالإجْمَاعِ، وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ،

ثم ضرَبَ المؤلفُ لذلك أمثلةً:

المثالُ الأولُ: الصلاةُ، فمَن أقَرَّ بالتوحيدِ، وأنْكرَ وجوبَ الصلاةِ فهو كافرٌ.

قولُه: (أو أقرَّ بالتوحيدِ... إلخ). هذا هو المثالُ الثاني، وهو مَن أقَرَّ بالتوحيدِ والصلاةِ، وجحَدَ وجوبَ الزكاةِ فإنه يكونُ كافرًا.

المثالُ الثالثُ: مَن أقَرَّ بوجوبِ ما سبَق، وجَحَد وجوبَ الصومِ، فإنه يكونُ كافرًا.

المثالُ الرابعُ: مَن أقَرَّ بذلك كلِّه، وجَحَد وجوبَ الحجِّ فإنه كافرٌ.

واستَدَلَّ المؤلفُ على ذلك بقولِه تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر﴾ - يعني: مَن كَفرَ بكونِ الحجِّ واجبًا أوْجَبه اللَّهُ على عبادِه - ﴿فإن اللَّه غني عن العالمين﴾ [آل عمران: ٩٧].

قولُ المؤلفِ رحِمه اللَّهُ: (ولما لم يَنْقَدْ... إلخ). ظاهرُه أن للآيةِ سببَ نزولٍ هو هذا، ولم أَعْلَمْ لما ذكَرَه الشيخُ دليلًا.

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ:

قولُه: (ومَن أقرَّ بهذا كلِّه)؛ أي: بشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ ﷺ، ووجوبِ الصلاةِ، والزكاةِ، والصيامِ، والحجِّ، لكنه كذَّب بالبعثِ فإنه كافرٌ باللَّهِ؛ لقولِ اللَّهِ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

كَمَا قَالَ تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾[1] .

وقد حكَى المؤلفُ رحِمه اللَّهُ الإجماعَ على ذلك .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ومَن أقرَّ بهذَا كلِّهِ وجَحَدَ البعثَ) ؛ أي : جحَدَ بعثَ هذهِ الأجسَامِ بعدَ بلائِهَا ، وإعادَةَ أرواحِهَا إليهَا يومَ القِيامةِ **(كفَرَ بالإجمَاعِ)** بإجمَاعِ أهلِ العلمِ .

(وحَلَّ دمُهُ ومالُهُ) ولم يَنْفَعْهُ الإقرَارُ بما أقَرَّ بهِ ، كمَا قالَ تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ الآيَةَ .

فصرَّحَ اللَّهُ تعالَى في هذه الآيةِ أنه الكافرُ حقًّا ؛ فدلَّ على أنه لا يُشْتَرَطُ أن لا يكُونَ كفرًا إلا إذا كفَرَ بجميعِ ذلكَ كُلِّه ؛ بل هذا كفرٌ نوعيٌّ ؛ فإن الكفرَ كفرَانِ : كفرٌ كلِّيٌّ ، وكفرٌ نوعيٌّ .

ولا فرقَ بينَهُمَا ؛ مَن كفَرَ ببعضٍ فكمَن كفَرَ بالكُلِّ ، لا فرقَ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآيَةَ) ، سبَقَ الكلامُ على هذه الآيةِ[1] ، وقد ساقها المؤلفُ مُستدِلًّا بها على أن الإيمانَ ببعضِ الحقِّ دونَ بعضٍ كفرٌ بالجميعِ ، كما قرَّره بقولِه .

---

(١) تقدم .

فإذَا كان اللَّهُ قَدْ صَرَّحَ في كِتَابِه ، أنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ ، وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ الكَافِرُ حَقًّا ، زَالَتْ هذِهِ الشُّبْهَةُ ، وَهَذِهِ هي التي ذَكَرَهاَ بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ في كِتَابِهِ[1] الذِي أَرْسَلَهُ إلَيْنَا[2] .

وَيُقالُ أيضًا : إذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ في كُلِّ شيءٍ ، وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ ، فهو كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالمَالِ بالإجْمَاعِ ، وَكَذَلِكَ إذَا أَقَرَّ بكُلِّ شَيءٍ إلّا بالبَعْثِ ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وُجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ ، وَصَدَّق بالباقِ ، وهنا لَا تَخْتَلِفُ المَذَاهِبُ فِيهِ ، وقَدْ نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا .

فَمَعْلُومٌ أنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِها النَّبيُّ ﷺ ، هُوَ أَعْظَمُ مِن

---

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

لا أعلَمُ عن هذا الكتابِ شيئًا ، فليُبْحَثْ عنه .

(٢) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(فإذَا كانَ اللَّهُ قد صرَّحَ في كتابِهِ أن مَن آمَنَ ببعضٍ ، وكفَرَ ببعضٍ فهو الكافرُ حقًّا زالَت هذه الشبهَةُ ، وهذهِ هي التي ذكَرَها بعضُ أهلِ الأحسَاءِ في كتابِهِ الذي أرسَلهُ إلينَا) .

وبهذَا ظهَر واتضَحَ أنه يُوجَدُ فُروقٌ ، ولكن لا تؤثرُ ؛ فإن الرِّدَّةَ ردَّتانِ : ردَّةٌ مطلقَةٌ : وهي الرجُوعُ عما جَاءَ به الرسُولُ جملةً .

والثانيةُ : أن يكفُرَ ببعضِ ما جاءَ بهِ ، فإنه إجمَاعٌ بينَ أهلِ العلم أن الذي يرتَدُّ عن بعضِ الدِّينِ كافرٌ ؛ بل يَرَوْنَ أن الاعتقادَ الواحِدَ والكلمةَ الواحدَةَ قد تُخْرِجُ صاحبَهَا عن جملَةِ الدِّينِ .

وبهذَا انكشَفَت الشبهَةُ ، وعُرِفَ أن التفريقَ بالفُروقِ التي ذُكِرَت من الفُروقِ التي هي غيرُ مؤثِّرَةٍ .

الصَّلاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، والصَّوْمِ ، والحَجِّ[١] .

فكَيْفَ إذَا جَحَدَ الإنْسَانُ شَيْئًا مِن هَذِهِ الأُمُورِ كَفَرَ ، وَلَوْ عَمِلَ بكُلِّ ما جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَإذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الذِي هُو دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لا يَكْفُرُ ؟! سُبْحَانَ اللَّهِ ، ما أَعْجَبَ هَذَا الجَهْلَ[٢] .

---

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ويُقَالُ أيضًا) هذَا جوابٌ ثانٍ للشبهَةِ السابقَةِ **(إذا كُنتَ تُقرُّ أن مَن صدَّقَ الرسُولَ في كلِّ شيءٍ ، وجحَدَ وجُوبَ الصلاةِ فهو كافرٌ حلالُ الدمِ والمالِ بالإجمَاعِ ، وكذلكَ إذَا أقرَّ بكلِّ شيءٍ إلا البعثَ ، وكذلكَ لو جَحَدَ صومَ رمضَانَ وصدَّقَ بذلكَ كلِّه لا يجحَدُ)** الخَصْمُ **(هذا)** لا ينكِرُ ما قُرِّر من وُجوبِ هذهِ المذكوراتِ ، ولا يستقيمُ الإسلامُ ، بل ينتقلُ الإسلامُ كلُّهُ ويزُولُ من أسَاسِهِ .

(ولاتختلِفُ المذَاهِبُ فيهِ) لا تختلفُ المذاهِبُ في أن جَحدَ وجُوبِ واحدٍ منها كافٍ في انتكَاسِ العبدِ ، وأنه كافرٌ بالإجمَاعِ **(وقد نَطَقَ به القُرآنُ كمَا قدَّمْنا)** أن مَن آمَن ببعضٍ وكفَر ببعضٍ فهو الكافِرُ حقًّا .

(فمعلومٌ أن التوحيدَ هو أعظَمُ فريضَةٍ جاءَ بها النبيُّ ﷺ وهو أعظَمُ) من فريضَةِ **(الصلاةِ والزكاةِ والصومِ والحجِّ)** وتصديقُهُ بكُلِّ ما جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ لا ينفعُهُ ولا يُجْدِي عليهِ .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فكيفَ إذا جَحَد الإنسانُ شيئًا مِن هذه الأُمورِ كفَر ، ولو عمِلَ بكُلِّ ما جاءَ بهِ الرسُولُ ﷺ ، وإذا جحَدَ التوحِيدَ الذي هو دِينُ الرسُلِ كلِّهم لا يكفُرُ؟!) .

فإذا كَانَ هذا فيمَن جحَدَ واحدًا من أركَانِ الإسلام فكيفَ بمَن جَحَدَ التوحِيدَ الذي هو أسَاسُ الملَّةِ والدِّينِ؟! فإنهُ أعظَمُ ، فلا ينفَعُهُ تصديقُهُ بكلِّ ما جاءَ بهِ الرسُولُ ﷺ حيثُ جَحَد الأصلَ .

. . . .

إذا صَارَ جحدُ فرعٍ من فُروعِ الدِّينِ كفرًا فكيفَ بجحدِ الأصلِ وهو التوحِيدُ ؟! فلو قُدِّرَ - وهو لا يكُونُ - أنَ هذه الفُروعَ كلَّها من الصلاةِ وما بعدَها ليسَ بمعصيةٍ ، ولا عظيمةٍ لكانَ جحدُ التوحِيدِ كفرًا برأْسِهِ ، فكيفَ وهو الأصلُ ؟

فإن هذَا الجهلَ بمكانٍ ، لا يَجْحَدُ هذا الخصمُ أنه يُخْرِجُ من الإسلام بمفرَدِهِ ؛ يجعلُونَ مَن يَهْدِمُ أسَاسَ الدِّينِ صباحًا ومساءً أنه مُسلمٌ ؛ لكونِهِ يدَّعي الإسلامَ ، والذي يجحَدُ وجُوبَ الزكاةِ ، ولو كانَ يؤدِّيها كافرٌ بالإجماعِ!

(سُبْحانَ اللَّهِ ، ما أعجَبَ هذا الجهلَ!) فإن جهلَ هؤلاءِ من أعجَبِ الجهلِ ، كونُ الواحِدِ منهم يُقِرُّ أن جحْدَ الصلاةِ كفرٌ بالإجماعِ ، أو جحْدَ غيرِها من أركانِ السلامِ كفرٌ ، وجحدَ التوحِيدِ ليسَ بكُفرٍ؟!

فلو قُدِّرَ أنها لا تُكفِّرُ - وهو لا يُقَدَّرُ - فالتوحِيدُ وحدَهُ يكفِّرُ ؛ والدليلُ أن الأصلَ لا يزُولُ بزوالِ الفرعِ ، بخلافِ الفرعِ فإنه يزُولُ بزوالِ أصلِه ؛ كالحائطِ والشجرَةِ إذا زَالَ أصلُهُ زالَ فرعُهُ .

فالحاصِلُ أن لو قُدِّرَ أن التوحِيدَ بعضُ المذكُورَاتِ لكانَ جحدُه كفرًا ، فكيفَ وهو أساسُ ذلكَ كلِّه ؟! بل التوحِيدُ قد يكفي وحدَهُ في إسلامِ العبدِ ودُخُولِه الجَنَّةَ ؛ فإنه إذا تكلَّمَ بكلمَةِ التوحِيدِ ، ثم تُوُفِّيَ قبلَ وُجُوبِ شيءٍ من الفُروعِ عليهِ كفَى التوحِيدُ وحدَهُ .

فالتوحِيدُ ليسَ فقيرًا إليها ، بل هي الفقيرةُ إليه في صحتِهَا .

فلَا أعجَبَ ولا أقبحَ ولا أعظَمَ ممَّن جهلَ هذا ، فإذا كانَ مقرًّا أن من جَحَدَ شيئًا من هذه الفُروعِ فهو كافرٌ ، وهو لا يجحَدُ هذا ، وإذا جحَدَ التوحِيدَ الذي هو الأصلُ وما بعدَهُ فرعٌ عنه لا يكفُرُ ، فلا أعجَبَ مِن جهلِ مَن جهِلَ هذا .

وَيُقَالُ أيضًا : هَؤلاءِ أصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ ، وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَيُؤَذِّنُونَ وَيُصَلُّونَ .

فإنَّ قَالَ : إنَّهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ .

قُلْنَا : هَذا هُوَ المَطْلُوبُ ، إذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا إلى رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ ،

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِين رحِمه اللَّهُ :

قولُه : **(ويقالُ أيضًا : إذا كنتَ تُقِرُّ أنَّ مَن صدَّق الرسولَ... إلخ)** هذا جوابٌ ثانٍ ؛ فإنَّ مضمونَه أنك إذا عرَفْتَ وأقرَرْتَ بأن مَن جَحَد الصلاةَ والزكاةَ والصيامَ والحجَّ والبعثَ كافرٌ باللَّهِ العظيمِ ، ولو أقرَّ بكلِّ ما جاء به الرسولُ ﷺ سِوَى ذلك فكيف تُنْكِرُ أن يكونَ مَن جَحَد التوحيدَ وأشْرَكَ باللَّهِ تعالى كافرًا؟!

إن هذا لَشيءٌ عَجيبٌ ، أن تَجْعَلَ مَن جَحَدَ التوحيدَ مُسلمًا ، ومَن جَحَد وجوبَ هذه الأشياءِ كافرًا ، مع أنَّ التوحيدَ هو أعظمُ ما جاءَت به الرسلُ عليهم الصلاةُ والسلامُ .

وهو أعَمُّ ما جاءت به الرسلُ ، فجميعُ الرسلِ قد أُرْسِلَت به ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وهو أصلُ هذه الواجباتِ التي يَكْفُرُ مَن أنكر وجوبَها ؛ إذ لا تصِحُّ إلا به ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر : ٦] .

فإذا كان مَن أنْكَر وجوبَ الصلاةِ ، أو الزكاةِ ، أو الصوم ، أو الحجِّ ، أو أنكَر البعثَ كافرًا ، فمُنكِرُ التوحيدِ أشَدُّ كفرًا ، وأبينُ ، وأظهرُ .

وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهادَتَانِ ، وَلَا الصَّلَاةُ ، فكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شمسانَ أوْ يُوسُفَ أوْ صَحابِيًّا أو نَبِيًّا إلى مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ ؟! سُبْحَانَ اللَّهِ ، ما أعْظَمَ شَأْنَهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1] .

---

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحمه اللَّهُ :

(ويُقالُ أيضًا) هذا جوابٌ ثالثٌ : **(هؤلاءِ أصحابُ رسُولِ اللَّهِ ﷺ)** كفَّرُوا و **(قاتلُوا بَني حَنيفَةَ)** ورأَوْا أنه من أفضَلِ قتالِ أهلِ الردَّةِ ، واسْتَحَلُّوا دماءَهُم ، وسبَوْا ذَرارِيَّهُم ، وهم يَدَّعُون الإسلامَ **(وقد أسلَمُوا مع النبيِّ ﷺ ، وهم يشهَدُونَ أن لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسُولُ اللَّهِ ويُؤذِّنُون ويصلُّون .**

(فإن قالَ) المُشبِّهُ : **(إنهم يقُولُونَ : إن مُسيلِمَةَ نَبيٌّ)** ؛ يعني : كفَّرُوهُم لقولِهم : مُسيلِمَةُ نبيٌّ .

(قُلنا) : نعم **(هذا هو المطلُوبُ)** هذا هو مطلُوبُنا ، فهؤلاءِ ما صدَرَ منهم إلا أنهم قالُوا : إنه نبيٌّ ، فجَنَوْا على الرِّسالةِ ، وصارَ مُبْطِلًا توحيدَهُم ودينَهُم .

(إذا كانَ من رفَعَ رجُلًا إلى رُتبةِ النبيِّ ﷺ كفَرَ وحلَّ دمُهُ ومالُهُ ولم تنفعْه الشهادَتَانِ ولَا الصلاةُ) ولا الصيامُ ولا الأذانُ ؛ وأنت تقرُّ بهذا ، وهذهِ جريمةُ رفعِ مخلوقٍ إلى رتبةِ مخلُوقٍ .

(فكيفَ بمَن) جنَى على الأُلُوهيَّةِ فرفَعَ مخلُوقًا إلى رتبةِ خالقٍ ، فالعلماءُ كفَّرُوا مَن جَنَى على الرسالَةِ فكيفَ بمَن جنَى على الأُلُوهيَّةِ ؟!

فالذي يعبُدُ معَ اللَّهِ غيرَه قد جنَى ، بل لا أعظَمَ من جنايَتِه **(رفَعَ شمسَانَ أو يُوسُفَ أو صحابِيًّا أو نبيًّا في رُتبةِ جبَّارِ السماوَاتِ والأرضِ)** .

يعني : هذا أولَى بالكفرِ والضلالِ ؛ لأنهُ صرَفَ للمخلُوقِ من أنواعِ العبادَةِ ما

وَيُقَالُ أيضًا : الذِين حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أبِي طَالِبٍ بالنارِ رضِيَ اللَّهُ عَنهُ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الإسْلامَ ، وَهُمْ مِنْ أصْحابِ عليٍّ رَضيَ اللَّهُ عنهُ ، وَتَعَلَّمُوا العِلْمَ مِن الصَّحَابةِ ، ولكن اعْتَقَدُوا في عَلِيٍّ مِثلَ الاعْتِقَادِ في يُوسُفَ وشمسانَ

لا يستحقُّهُ إلا الخالِقُ ، وهذا من قِياسِ الأولَى ؛ يعني : إذا كان جنسُ ما احتجُّوا به كفرًا فبطَريقِ الأولَى هذا .

فهذا ردٌّ عليهم من نفسِ ما احتجُّوا بهِ ، وإلا فالأدِلَّةُ في ذلكَ معلومةٌ ، سبحانَه ، ما أعظَمَ شأنَهُ ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ، كهَذا الطَّبعِ على قلبِ هذا الجاهلِ ، كيفَ يَتَصَوَّرُ أن مَن رفَعَ رجلًا إلى رُتبةِ رجُلٍ فهو كافرٌ ، وإذا رفَعَ رجُلًا إلى رتبةِ جبَّارِ السماوَاتِ والأرضِ لا يكفُرُ؟!

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (ويقالُ أيضًا : هؤلاء أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ... إلخ) . هذا جوابٌ ثالثٌ ، ومضمونُه أن الصحابةَ رضِي اللَّهُ عنهم قاتَلُوا مُسَيْلِمةَ وأصحابَه[1] ، واسْتَحَلوا دماءَهم وأموالَهم ، مع أنهم يَشْهَدُون أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه ، ويُؤَذِّنون ، ويُصلُّون .

وهم إنما رَفَعوا رجلًا إلى مرتبةِ النبيِّ ﷺ ، فكيف بمَن رفَع مخلوقًا إلى مرتبةِ جبَّارِ السماواتِ والأرضِ ، أفلا يكونُ أحقَّ بالكفرِ ممَّن رفَع مخلوقًا إلى منزلةِ مخلوقٍ آخرَ؟!

وهذا أمرٌ واضحٌ ، ولكن كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الروم : ٥٩] .

---

(١) أحمد ٣/ ٥٠١ (١٦٠٢٢) ، والبخارى (٤٠٧٢) ، وانظر تاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٥ - ٢٨٤، وفتوح البلدان ١/ ٩٨، والبداية والنهاية ٤/ ١٩، ٦/ ٣٢٣ .

وَأَمْثَالِهِمَا ، فكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ على قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرونَ المُسْلِمينَ ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الاعْتِقَادَ في تاجٍ وأَمْثَالِه لا يَضُرُّ ، وَالاعْتِقَادَ في عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللَّهُ عنهُ يُكَفِّرُ؟[1] .

---

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ويُقَالُ أيضًا) هذا جوَابٌ رابعٌ للشبهَةِ السابقَةِ في قولِه : إن الذين نزَلَ فيهم القرآنُ لا يَشْهَدونَ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ... إلخ .

(الذينَ حرَّقَهُم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضِي اللَّهُ عنه بالنارِ) وهم من الشِّيعةِ الغاليةِ من أصحابِ عليٍّ ، زادُوا في محبَّتِهِ وتَعَدَّوُا الحدَّ ، وذلكَ بدَسِيسَةِ ناسٍ من أصحابِهِ منافقِينَ ، دسُّوها ليُفْسِدُوا على الناسِ دينَهُم ؛ أتباعِ عبدِ اللَّهِ بنِ سَبَأ ؛ ادَّعَى الإسلامَ ، وأرادَ أن يَفْتِكَ بأهلِ الإسلامِ ويُدْخِلَهُم في الشِّرْكِ .

تعدَّوُا الحدَّ في محبَّةِ عليٍّ وتعظيمِه حتى ادَّعَوْا فيه الإلهيَّةَ .

(كلُّهم يدَّعُونَ الإسلامَ) ويعملونَ أعمالَ الإسلامِ **(وهم مِن أصحابِ عليٍّ رضِي اللَّهُ عنه ، وتعَلَّمُوا العلمَ من الصحابَةِ ، ولكِن)** ظهرَت منهُم المقالَةُ الرَّدِيَّةُ .

(اعتقَدُوا في عليٍّ) الاعتقادَ الباطِلَ ؛ اعتقدُوا فيه السِّرَّ ؛ يعني : الألُوهيَّةَ **(مثلَ الاعتِقادِ في يُوسُفَ وشمسَانَ وأمثَالِهمَا)** كعبدِ القادرِ والعيدرُوسِ ؛ كاعتقادِ أهلِ زمانِنَا في غيرِهم .

فلمَّا رأى ذلكَ منهم عليٌّ رضي اللَّهُ عنه خدَّ لهم أخادِيدَ عندَ بابِ كِنْدَةَ ، وأضرَمَ فيها النِّيرانَ وقذَفَهُم فيها مِن أجلِ مقالَتِهِم فيهِ ، وقال :

لَمَّا رَأَيْتُ الأمْرَ أمْرًا مُنْكَرًا ... أجَّجْتَ نارِي ودَعَوْتُ قَنْبَرَا[1]

---

(١) قَنْبَر : مَوْلَى لعَلِيّ رضى الله عنه ، وإليه يُنْسَب المُحَدِّثان العباس بن الحسن ، وأحمد بن بِشْر القَنْبَرِيَّان . القاموس المحيط (ق ن ب ر) .

وأثر تحريق عليّ للسبئية سيأتى تخريجه ، مع أثر ابن عباس رضى الله عنهم .

. . . .

فهذَا الأمرُ من عليٍّ رضي اللَّهُ عنه وافَقَهُ عليهِ جميعُ الصَّحابةِ ، ورَأَوْا أنهم مُرْتدُّونَ ، وأن قتلَهُم حقٌّ ، وابنُ عباسٍ كغيرِه في ذلك إلَّا أنه قالَ : لو قتلَهُم بالسَّيفِ . وقالَ : لا يُعَذِّبُ بالنارِ إلَّا ربُّ النارِ[١] .

وعليٌّ رضي اللَّهُ عنه فِعْلُهُ مزيدُ اجتهادٍ منه ، رأى تحريقَهم لغلظِ كفرِهم ، كما حرَّقَ أبو بكرٍ بعضَ المُرتدِّينَ[٢] .

(فكيفَ أجمَعَ الصحابَةُ على قتلِهِم وكفرِهِم؟ أتظُنُّونَ أن الصحابةَ يُكَفِّرُونَ المسلمينَ؟ أم أتظُنُّونَ أن الاعتقادَ في تاجٍ وأمثالِهِ لا يضُرُّ ، والاعتقادَ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ يُكَفِّرُ؟ فحينَئذٍ إذا تحقَّقْتَ وعلِمْتَ أن هذا صَدَرَ من عليٍّ على وقتِ الصحابةِ ، فيلْزَمُ أهلَ هذهِ الشبهَةِ أحدُ ثلاثَةِ أمُورٍ :

إما أن يقولُوا : إن الصحابةَ غلِطُوا وأخطؤوا وكفَّرُوا المسلمينَ ، وقتَلُوا مَن لا يستحقُّ الكفرَ والقتلَ ، وهم على ضلالَةٍ ، وهم لا يقُولُونَ ذلك لوُضُوحِهِ في السِّيَرِ والتاريخِ .

وإن قالُوه في الصحابةِ فهو كافٍ في الردِّ عليهم ؛ لأنهم صارُوا من الخَوارجِ الذين يكفِّرُونَ الصحابَةَ ويسُبُّونَهُم ، أو يقُولُونَ حاشاهُم من تكفيرِ المسلمينَ ومِن قصدِ ظلمِهِم أو الاجتماعِ على غلَطٍ .

---

(١) البخارى (٣٠١٧، ٦٩٢٢) ، وأبو داود (٢٥٣٥) ، والنسائى (٤٠٦٠) ، والبيهقى فى السنن ٥/ ٦٧، ٢٠٢، ٨/ ١٩٥، وابن حبان (٤٤٧٦، ٥٦٠٦) ، والحميدى فى مسنده (٥٣٣) ، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٥٣٨، وانظر طبقات المحدثين = بأصبهان ٢/ ٣٤٣، والبدء والتاريخ ٥/ ١٢٥ .

(٢) أخرج عبد الرزاق فى مصنفه ٥/ ٢١٢ عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : حرَّق خالد ابن الوليد ناسًا من أهل الردة ، فقال عمر لأبى بكر : أتدع هذا الذى يعذب بعذاب الله ؟ فقال أبو بكر : لا أشِيم سيفًا سله الله على المشركين .

. . . .

وإما أن يقُولُوا : إن الاعتقادَ في تاجٍ وأمثالِهِ والتوسُّلَ بالصالِحِينَ وسؤالَهم قضاءَ الحاجاتِ وتفريجَ الكُرُباتِ وإغاثَةَ اللَّهَفاتِ لا يضُرُّ ، والاعتقادَ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ يكفِّرُ ، و هم لا يقُولُون ذلك .

فإن قالُوا : إنه لا يُكَفِّرُ كفَى أنه كفرٌ وشركٌ ، وظهَرَ عظيمُ جهلِهم لفضلِ عليٍّ على هؤلاءِ بما لا نسبَةَ فيه . فلو كان مُسامحةٌ في دعوةِ غيرِ اللَّهِ ، أو يكونُ أسهلَ لكانت دعوةَ عليٍّ .

فحينَئذٍ يلزَمُ الأمرُ الثالثُ ، وهو أن يُذْعِنُوا ويُسَلِّمُوا أن مَن تعَلَّقَ على غيرِ اللَّهِ بأيِّ نوعٍ من أنواعِ العبادَةِ فهو كافرٌ خارجٌ من الملَّةِ مرتَدٌّ ، أغلظُ كفرًا ممن ليس معهُ هذهِ الأعمالُ ، وأن إقرارَه بالشهادَتينِ والصلاةِ والزكاةِ ونحوِ ذلك فرقٌ غيرُ مُؤثرٍ وغيرُ نافعٍ .

فظهَرَ بذلك أنهم ضُلَّالٌ في تشبيهِهم وترويجِهم ؛ فإن الغاليَةَ في عليٍّ ما اعتقدُوا فيه إلَّا مثلَ الاعتقادِ في تاجٍ وأمثالِهِ من هذه الأصنامِ .

وإن قالُوا : ليسَ من الغلُوِّ ففي أولِ الكتابِ ما يُبيِّنُ أنه من الغُلُوِّ بعبادَةِ المخلُوقِ معَ اللَّهِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (ويقالُ أيضًا : إن الذين حرَّقَهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ بالنارِ....إلخ)، هذا جوابٌ رابعٌ فقد كان هؤلاء يَدَّعُون الإسلامَ ، وتعلَّموا مِن الصحابةِ ، ومع ذلك لم يَمْنَعْهم هذا من الحكمِ بكفرِهم ، وتحريقِهم بالنارِ ؛ لأنهم قالوا في عليِّ بنِ أبي طالبٍ : إنه إلهٌ ، مثلَ ما يَدَّعِي هؤلاء بمَن يُؤَلِّهونهم ، كشمسانَ وغيرِه .

فكيف أجمَع الصحابةُ رضِي اللَّهُ عنهم على قتلِ هؤلاء ، أتظُنُّون أن الصحابة

ويقالُ أيضًا : بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحُ الذِينَ مَلَكُوا المَغْرِبَ ومِصْرَ في زَمَانِ بَني العَبَّاسِ ، كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، ويَدَّعُونَ الإسْلامَ ، ويُصَلُّونَ الجُمُعَةَ والجَمَاعةَ ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ في أشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ علَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ ، وَأَنَّ بِلادَهُمْ بِلادُ حَرْبٍ ، وَغَزَاهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا ما بَأَيْدِيهم مِنْ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ[(١)] .

رضي اللَّهُ عنهم يُجمِعون على قتلِ مَن لا يَحِلُّ قتلُه ، وتكفيرِ مَن ليس بكافرٍ؟! ذلك لا يُمْكِنُ .

أم تظُنُّون أن الاعتقادَ في تاجٍ وأمثالِه لا يضُرُّ ، والاعتقادَ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ يضُرُّ ؟!

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(ويُقَالُ أيضًا) هذا جوابٌ خامسٌ للشبهَةِ السابِقَةِ **(بنُو عُبَيْدِ القَدَّاحُ)** الذين ادَّعَوْا أنهم فاطميُّونَ ، وساعدَهُم على ذلكَ مَن ساعدَهُم ، وهم أدعياءُ ، ليسوا بفاطميِّينَ ، أبوهُم وقصةُ تزوُّجِهِ المرأةَ وتاريخُهُم معروفٌ[(١)] .

---

(١) قال الشيخ مشهور بن حسن فى تحقيقه لكتاب الاعتصام ٢/ ٣٥٢ - ٣٥٦ : وهم بنو عبيد ، أظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون ، فملكوا البلاد ، وقهروا العباد ، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلًا ، ولا نسبهم صحيحًا . وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديًّا من أهل سَلَمْية من بلاد الشام ، وكان حدادًا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدًا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمى ، وادعى نسبًا ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب العَلَويَّة ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه ، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وبنى المهديَّة بالمغرب ونسبت إليه ، وكان زنديقًا خبيثًا عدوًّا للإسلام ، متظاهرًا بالتشيع متسترًا به ، حريصًا على إزالة الملة الإسلامية ؛ قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده إعدامهم من الوجود ، ليبقى العالم كالبهائم ، فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف : ٨] ، ونشأت ذريته على =

. . . .

(الذينَ ملَكُوا المغربَ ومصرَ في زمَنِ بني العبَّاسِ) وطالت لهم يدٌ أيضًا على

= ذلك منطوين ، يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسروه ، والدعاة لهم منبثون في البلاد ، يضلون من أمكنهم إضلاله من العباد ، وبقى هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها . وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومئتين إلى سنة سبع وستين وخمس مئة .

وفى أيامهم كثرت الرافضة واستحكم أمرهم ، ووضعت المكوس على الناس ، واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، والحشيشية نوع منهم ، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم ، وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة ، إلى أن مَنَّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكى ، وتقدمه مثل صلاح الدين ، فاستردوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد .

وكانوا أربعة عشر مستخلفًا ، ثلاثة منهم بإفريقية ، وهم الملقبون : بالمهدى والقائم والمنصور ، وأحد عشر بمصر ، وهم الملقبون : بالمعز ، والعزيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلى ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد .

يدَّعون الشرف ، ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي ، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام ، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة العلوية ، وإنما هى الدولة اليهودية أو المجوسية الباطنية الملحدة ، ومن قِحَتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ، ويكتبونه على جُدران المساجد وغيرها .

وخطب عبدهم جوهر ـ الذى أخذ لهم الديار المصرية ، وبنى لهم القاهرة المعزية ـ بنفسه خطبة طويلة قال فيها : «اللهم صَلِّ على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة وسليل العترة الهادية المهدية ، معد أبى تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين ، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين» .

كذب عدوُّ الله اللعين ، فلا خير فيه ولا فى سلفه أجمعين ، ولا فى ذريته الباقين ، والعِترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل ، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الأول .

وقد بين نسبهم هذا ، وأوضح مُحالهم وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الإسلام جماعة ممن سلف من الأئمة والعلماء ، وكل متورع منهم لا يسميهم إلا بنى عبيد الأدعياء ، أى يدعون من النسب ما ليس لهم ، ورحمة الله على القاضى أبى بكر محمد بن الطيب ، فإنه كشف فى أول كتابه ، المسمى بـ«كشف أسرار الباطنية» ، عن بطلان نسب هؤلاء إلى على رضى الله عنه ، وأن القداح الذى انتسبوا إليه دَعِيٌّ من الأدعياء ممخرق كذاب ، وهو أصل دعاء القرامطة ، لعنهم الله .

. . . .

الحرَمَين ؛ ملوكُهُم يُسَمَّوْن الحاكميِّين ؛ الحاكمُ فلانٌ والحاكمُ فلانٌ .

= وأما القاضى عبد الجبار البصرى ، فإنه استقصى الكلام فى أصولهم ، وبينها بيانًا شافيًا فى أواخر كتاب «تثبيت النبوَّة» له - وهو مطبوع فى مجلدين -، وقد نقل أبو شامة كلامهما فى ذلك ، وكلام غيرهما فى «مختصر تاريخ دمشق» فى ترجمة (عبد الرحيم بن إلياس) ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس .

وأظهر عبد الجبار القاضى فى كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التى يقف الشعر عند سماعها ، ولكن لابد من ذكر شىء من ذلك ؛ تنفيرًا لمن لعله يعتقد إمامتهم ، وخفى عنه محالهم ، ولم يعلم قحتهم ومكابرتهم ، وليعذر من أزال دولتهم ، وأمات بدعتهم ، وقلل عدتهم ، وأفنى أمتهم ، وأطفأ جمرتهم .

ذكر عبد الجبار القاضى أن الملقب بالمهدى - لعنه الله - كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل ، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون فى فرشهم ، وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين ؛ وأكثر من الجور واستصفاء الأموال وقتل الرجال ، وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم ، فيقولون لبعضهم : هو المهدى ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه .

ويقولون لآخرين : هو رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه ، ويقولون لطائفة أخرى : هو الله الخالق الرازق . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه ، وزاد شره على شر أبيه أضعافًا مضاعفة ، وجاهر بشتم الأنبياء ، فكان ينادى فى أسواق المهدية وغيرها : العنوا عائشة وبعلها ، العنوا الغار ومن حوى . اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين ، والعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين ، وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم ، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم ؛ وأَصْلِهم سعيرًا ، ولَقِّهم ثُبُورًا ، وأسكنهم النار جميعًا ، واجعلهم ممن قلت فيهم : ﴿الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ [الكهف : ١٠٤] .

وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور ، فقتل من خرج على أبيه ، ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذكره ، وسلخه وصلبه ، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم ، خوفًا من أن يثور عليه ثائر .

وقام بعده ابنه المسمى بالمعز ، فبث دعاته ، فكانوا يقولون : هو المهدى الذى يملك ، وهو الشمس التى تطلع من مغربها ، وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم ، واحتجب عن الناس أيامًا ، ثم ظهر ، وأوهم أن الله رفعه إليه ، وأنه كان غائبًا فى السماء ، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه .

وهذا أول خلفائهم بمصر ، وهو الذى تنسب إليه القاهرة ، واستدعى بفقيه الشام أبى بكر =

. . . .

(كلُّهُم يشهدُونَ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسُولُ اللَّهِ ، ويدَّعونَ الإسلامَ ، ويصلُّونَ

= محمد بن أحمد ابن سهل الرملى ، ويعرف بابن النابلسى ، فحمل إليه فى قفص خشب ، فأمر بسلخه ، فسلخ حيًّا ، وحشى جلده تبنًا وصلب ، رحمه الله تعالى . قال أبو ذر الهروى : سمعت أبا الحسن الدارقطنى يذكره ، ويبكى ، ويقول : كان يقول وهو يسلخ : ﴿كان ذلك فى الكتاب مسطورًا﴾ [الإسراء : ٥٨] .

قلت : وفى أيام الملقَّب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضى الله عنهم على حيطان الجوامع ، والقياسر والشوارع ، والطرقات ، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب ، ثم أمر بقلع ذلك .

وفى أيامه طوف بدمشق رجل مغربى ، ونودى عليه : هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ، ثم ضربت عنقه ، وكان يجرى فى أيامهم من نحو هذا أشياء ؛ مثل قطع لسان أبى القاسم الواسطى ، أحد الصالحين ، وكان أذَّن ببيت المقدس ، وقال فى أذانه :«حى على الفلاح» فأخذ وقطع لسانه ، ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربى وأبى بكر النابلسى الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى «تاريخه» (١٤/ ق٣٤٤) ، وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلا محنة من الله تعالى ، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عدتهم ، فإن عدتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر ، وأولئك بقوا نيفًا وتسعين سنة ، وهؤلاء بقوا مئتى سنة وثمانيًا وستين سنة ، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم ، وإبادة ملكهم ، ورضى الله عمن سعى فى ذلك وأزالهم ، ورحم من بين مخرقتهم وكذبهم ومُحالهم .

وقد كشف حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن على بن أبى نصر الشاشى فى كتاب «الرد على الباطنية» ، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش فى أيام نزار ، وكان المستنصر قد عهد فى حياته بالخلافة لابنه نزار ، فخلعه الأفضل ، وبايع المستعلى بالله . انظر «الكامل» : (١٠/ ٢٣٧-٢٣٨) وما بعده .

ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه فى قصيدة سماها : «الإيضاح عن دعوة القداح» أولها :

حىَّ على مصر إلى خلع الرسن ... فثم تعطيل فروض وسنن

وقال : لو وفق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين ، فإنهم من شر أعداء دين الإسلام ، وقد خرجت من حد المنافقين إلى حد المجاهرين ، لما ظهر فى ممالك الإسلام من كفرها وفسادها ، وتعين على الكافة فرض جهادها ، وضرر هؤلاء أشد على =

. . . .

الجُمُعةَ والجَماعَةَ) ويُنَصِّبُونَ القضَاةَ والمفتينَ .

(فلمَّا أظهرُوا مخالفَةَ الشريعَةِ في أشياءَ دونَ ما نحنُ فيه) كاستحلالِ بعضِ المحرَّماتِ مثلَ تجويزِهم الجمعَ بينَ الأختينِ **(أجمَعَ العلمَاءُ)** في وقتِهِم **(على كفرِهم وقتالِهم)** .

ولا جعلُوا الشهادتينِ والصلاةَ والزكاةَ والجمعةَ والجماعَةَ فرقًا مؤثِّرًا ، بل رأَوْه لاغِيًا ، وذلك أنه وُجِدَ مكفِّرٌ ، فلم ينفعْهم ما هم فيهِ **(و)** **أجمعُوا في** وقتِهم علَى **(أن بلادَهُم بلادُ حربٍ)** وأن جهادَهُم أفضَلُ جهادٍ .

= الإسلام وأهله من ضرر الكفار ؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية ، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها فى الأرض ، والله الموفق .

قاله أبو شامة فى «الروضتين» (٢/ ٢١٤ - وما بعد) ، وزاد : «ثم إنى لم يقنعنى هذا من بيان أحوالهم ، فأفردت كتابًا لذلك سميته «كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد» ، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به ، فإنى بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم ، ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمى رحمه الله ، وكان فى أيام الملقب بالعزيز ثانى خلفاء مصر ، فبين فيه أصولهم أتم بيان ، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد ، وتتبع ذكر فضائحهم ، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة ، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة ، وبالله التوفيق .

وما أحسن ما قال فيهم من مدح بعض بنى أيوب بقصيدة ، منها :

ألستم مزيلى دولة الكفر من بنى	عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية	مجوس وما فى الصالحين لهم أصل
يسرون كفرًا يظهرون تشيعًا	ليستتروا شيئًا وعمهم الجهل

وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى على رضوان الله عليه ، والتستر بالتشيع قد فعله جماعة القرامطة ، وصاحب الزنج الخارج بالبصرة ، وغيرهم من المفسدين فى الأرض على ما عرف من سيرهم من وقف على أخبار الناس ، وكلهم كذبة فى ذلك ، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال ، واستتباعهم لهم ، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، ولا يغتر بأبيات الشريف الرضى فى «ديوانه» (٢/ ٩٧٢-٩٧٣) فى ذلك ، فقد حصل الجواب عنها فى كتاب «الكشف» بوجوه حسنة ، وبالله التوفيق» انتهى .

وَيُقَالُ أيضًا : إذَا كَانَ الأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إلَّا أَنَّهُم جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وتَكْذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ وَالقُرْآنِ ، وإنْكَارِ البَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فما مَعْنَى البَابِ الذِي ذَكَرَه العُلَمَاءُ في كُلِّ مَذْهَبٍ : (بَابُ حُكْمِ المُرْتَدِّ) وَهُوَ المُسْلِمُ يَكْفُرُ بَعْدَ إسْلامِهِ ، ثُمَّ ذَكَرُوا أنواعًا كَثِيرَةً ، كُلُّ نُوْعٍ منها يُكَفِّرُ ، وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ ، حَتَّى إنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا ، مِثْلَ كَلِمةٍ يَذْكُرُها

(وغَزَاهم المسلمونَ حتى استنقَذُوا ما بأيديهم من بلدَانِ المسلمينَ) وصنَّفَ ابنُ الجوزيِّ كتابًا سمَّاهُ : «النَّصرُ علَى مِصرَ» ، فكيفَ بما نحنُ فيه من التظاهرِ بدينِ الإسلامِ مع نقضِ أساسِ الملةِ بعبادَةِ غيرِ اللَّهِ ؟

ولا فرقَ بينَ مَن يكُونُ كفرُه عنادًا أو جهلًا ، الكفرُ منه عنادٌ ومنه جهلٌ ، وليسَ من شرطِ قيامِ الحُجةِ على الكافرِ أن يَفْهَمَها ، بل مَن أُقِيمَت عليهِ الحجةُ مثلَ ما يَفْهَمُها مثلُه فهو كافرٌ ، سواءٌ فهِمَها أو لم يَفْهَمْها .

ولو كان فَهْمُها شرطًا لَمَا كان الكفرُ إلا قسمًا واحدًا ، وهو كفرُ الجُحودِ ؛ بل الكفرُ أنواعٌ ، منها الجهلُ وغيرُه .

المقصودُ أن العلماءَ أجمعُوا على قتالِهم وكفرِهم ، والأمةُ لا تجتمِعُ على ضلالةٍ ، و بذلك عرفتَ انكشافَ هذه الشبهةِ ؛ وهو أن النطقَ بالشهادتينِ لا يكفِي معَ ما انضمَّ إليهِ من فعلِ الطاعاتِ إذا وُجِدَ أحدُ المكفِّرَاتِ .

وقال الشيخ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : **(ويقالُ أيضًا : بنو عُبيدٍ القدَّاحُ ... إلخ)** . هذا جوابٌ خامسٌ ، وهو إجماعُ العلماءِ على كفرِ بني عُبَيدٍ القدَّاحِ الذين ملَكُوا المغْرِبَ ومصرَ ، وكانوا يَشْهدون أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ويُصلُّون الجُمعةَ والجَماعاتِ ، ويدَّعون أنهم مسلمون .

ولكنَّ ذلك لم يَمْنَعْهم من حكمِ المسلمين عليهم بالرِّدَّةِ حينَ أظهَروا مخالفةَ

بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ ، أو يَذْكُرُها عَلَى وَجْهِ المَزْحِ واللَّعِبِ[١] .

المسلمين في أشياءَ دونَ التوحيدِ ، حتى قاتَلُوهم ، واستَنْقَذُوا ما بأيدِيهم .

(١) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحمه اللَّهُ :**

(ويُقَالُ أيضًا) هذا جوابٌ سادسٌ على الشبهَةِ السابقةِ : **(إذَا كانَ الأوَلُونَ لم يكفُرُوا إلا لأنهم جمَعُوا بين الشِّركِ وتكذيبِ الرسولِ ﷺ والقُرآنِ)** ؛ يعني : وتكذيبِهِ **(وإنكارِ البعثِ وغيرِ ذلكَ فما معنَى البابِ الذي ذَكَرَهُ العُلماءُ في كلِّ مذهَبٍ)** المذَاهبِ الأربعَةِ وغيرِهَا **(بابُ حُكْمِ المُرتَدِّ)** .

وعرَّفُوهُ بتعاريفَ **(وهو المسلِمُ الذي يكفُرُ بعدَ إسلامِهِ)** فهذَا المذكورُ في هذا البَابِ إجماعٌ منهم أنه يخرُجُ من الملةِ ، ولو معه الشهادَتَانِ ؛ لأجلِ اعتقادٍ واحدٍ ، أو عملٍ واحدٍ ، أو قولٍ واحدٍ يكفِي بإجماعِ أهلِ العلمِ لا يختلِفُونَ فيه .

وأنه ليسَ المرتدُّ الذي يخرُجُ عن الإسلامِ بالمرَّةِ ، بل هو قسمٌ ، والقسمُ الآخَرُ هو ما تقدَّمَ .

(ثم ذكَرُوا أنواعًا كثيرةً) ومثَّلُوا له أمثلةً **(كلُّ نوعٍ منها يكفِّرُ ، ويُحِلُّ دمَ الرجُلِ ومالَهُ)** وقالُوا : مَن قالَ كذَا أو اعتقدَ كذا فهو كافرٌ ، وأنه لا ينفعُه جميعُ ما عمِلَ بهِ .

(حتَّى إنهم ذكَرُوا أشياءَ يسيرَةً عندَ مَن فعَلَها مثلَ كلمةٍ يقولُها بلسانِهِ دونَ قلبِهِ أو كلمةٍ يقولُها على وجهِ المَزْحِ واللعبِ) حتى إنَ بعضَ أهلِ المذاهبِ يكفِّرونَ مَن صغَّرَ اسمَ المسجِدِ أو المصحَفِ[١] .

---

(١) وهو مذهب الأحناف ، انظر إعلام الموقعين ٢/ ٣٣٦، ٣/ ١٧٩ ، ٣٢٧، ونقل الذهبى فى السير ٤/ ٢٣٨ عن سعيد بن المسيب رحمه الله قال : لا تقولوا مُصَيْحف ولا مُسَيْجد ، ما كان لله فهو عظيم حسن جميل ، ورُوى أن النبى ﷺ قال : «لا يقولن أحدكم المسجد مسيجد فإنه بيت الله يذكر فيه ، ولا يقولن أحدكم مصيحف فإنه كتاب الله أعظم من أن يصغر . . .» الحديث .

. . . .

وما ذكَرُوه وعرَّفُوه هو في الجملةِ : يُوجِدُ أشياءَ يكونُ بها الإنسانُ مرتدًّا ، ولو نطَقَ بالشهادتينِ وصلَّى ، بل ولو أضافَ إلى ذلك تركَ المُحرَّماتِ ، وأتى بمكفِّرٍ هدَمَ جميعَ ما معَهُ من الإسلامِ ؛ فإن وجودَ المكفِّراتِ التي يصيرُ بها الرجُلُ مرتدًّا كثيرةٌ لا تُحصَرُ .

والواحِدُ من أسبابِ الردَّةِ كونُه يجعلُ له واحدًا من حقِّ ربِّ العالمينَ كافٍ في كفرِهِ ، وكونُه اتخذَهُ إلهًا ، ولو ليسَ من كلِّ وجهٍ ، بل يكفِي كونُه جعلَهُ يصْلُحُ لحقِّ ربِّ العالمينَ .

فليسَ من شرطِ المرتدِّ أن يجمَعَ بينَ أطرافِ الردَّةِ ، أو يجمَعَ الشِّركيَّاتِ ، أو أن ربَّ العالمينَ ومعبُودَه واحدٌ في جميعِ ما يَسْتَحِقُّ .

وبهذَا تَنْكَشِفُ شبهتُهُ ؛ وهو أنه ولو نطَقَ بالشهادتينِ وصلَّى وصامَ فإنه يصيرُ به مرتدًّا ويصيرُ أسوأَ حالًا ممن لم يكُنْ معَهُ أصلُ الإسلامِ عندَ جميعِ العلمَاءِ .

والصَّحيحُ من قولَيِ العلماءِ أن كفَّارَ هذهِ الأزمانِ مرتدُّونَ ؛ فكونُهم يَنْطِقُونَ بـ«لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» صباحًا ومساءً ، ويَنْقُضُونَها صباحًا ومساءً ، فـ«لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» يدخُلُ بها في الإسلامِ في الجملةِ .

والقولُ الثَّاني أنهم كفارٌ أصليُّونَ ؛ فإنهُم لم يوحِّدُوا في يومٍ من الأيامِ حتى يُحْكَمَ بإسلامِهم .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (ويقالُ أيضًا : إذا كان الأوَّلون لم يَكفُروا إلا أنهم... إلخ). هذا جوابٌ سادسٌ ، مضمُونُه أنه إذا كان الأوَّلون لم يكفُروا إلا حينَ جمَعُوا جميعَ أنواعِ الكفرِ من

قال الذهبي في السير ١٤/ ٥٤٦ : كذا حديث منكر شبه موضوع .

ويُقَالُ أيضًا : الذِين قَالَ اللَّهُ فِيهم : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة : ٧٤] . أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ كَفَّرَهُمْ بكَلِمَةٍ ؟ مَعَ كَوْنِهِمْ في زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ ، وَيُصَلُّونَ معه ، ويُزَكُّونَ ، وَيَحُجُّونَ ، وَيُوحِّدُونَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ قالَ اللَّهُ فيهم : فيهم : ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾(١) .

الشركِ والتكذيبِ والاستكبارِ ، فما معنى ذكرِ أنواعِ مِن الكفرِ في **(بابِ حكمِ المرتدِّ)** .

كلُّ نوعٍ منها يكفِّرُ حتى ذكَرُوا أشياءَ يسيرةً عندَ مَن فعلَها ، مثلَ كلمةٍ يذكُرُها بلسانِه دونَ قلبِه ، أو كلمةٍ يذكُرُها على وجهِ المَزْحِ واللَّعِبِ .

فلولا أن الكفرَ يحْصُلُ بفعلِ نوعٍ منهِ ، وإن كان الفاعلُ مستقيمًا في جانبٍ آخرَ ، لم يكُنْ لذكرِ الأنواعِ فائدةٌ .

يقولُ رحِمه اللَّهُ تعالى : ومما يَدْفَعُ شُبَهَ هؤلاء ، هم الفقهاءُ في كلِّ مذهبٍ ، ذكَرُوا في كُتُبِهِم **(بابَ حُكْمِ المُرْتَدِّ)** ، وذكَرُوا أنواعًا كثيرةً ، حتى ذكروا الكلمةَ يذكُرُها الإنسانُ بلسانِه ، ولا يَعْتَقِدُها بقلبِه ، أو يذكُرُها على سبيلِ المَزحِ ، ومع ذلك كفَّروهم ، وأخْرَجوهم من الإسلامِ بها ، وسيأتي لذلك مزيدُ بيانٍ وإيضاحٍ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ويُقَالُ أيضًا) هذا جوابٌ سابعٌ عن شبهتِهم السابقةِ ، والأجوبةُ السابقةُ ظاهرةٌ لكَ في كشفِ تلكَ الشبهَةِ : **(الذينَ قالَ اللَّهُ فيهم : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أَمَا سمِعْتَ اللَّهَ كفَّرهُم بكلمةٍ معَ كونِهم في زمَنِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ويجاهدُونَ معَهُ ، ويصلُّونَ معَهُ ، ويزكُّون ويحُجُّونَ ويوحِّدُون)** وينطقُون بالشهادتين ، ويدينُونَ دينَ المسلمينَ في الظاهرِ .

فكيفَ بمَن جعلَ الأندادَ مَعاذَهُ ومَلاذَهُ وملجأَهُ في الرغَباتِ ، كما هو الواقِعُ

فَهَؤُلاءِ الذِينَ صَرَّحَ اللَّهُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ - وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ ، قَالُوا كلمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُم قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ المَزْحِ .

فتَأَمَّلْ هذِهِ الشُّبْهَةَ ، وَهِيَ قَوْلُهُم : تُكَفِّرُونَ المُسْلمينَ ، أُناسًا يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ ، ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَها ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ ما في هذِهِ الأَوْراقِ[1] .

من القبوريِّين والعياذُ باللَّهِ ، فلسانُه يقولُ : لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، وعملُهُ يقولُ : لا إلهَ إلا فلانٌ .

(وكذلك الذينَ قالَ اللَّهُ فيهم : فيهم : ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فهؤلاء الذين صرَّحَ اللَّهُ أنهم كفرُوا بعدَ إيمانِهم ، وهم معَ رسُولِ اللَّهِ ﷺ في غزوةِ تبُوكَ ، قالُوا كلمةً ذكَرُوا أنهم قالوها على وجهِ المَزْحِ) كفرُوا بسبَبِ كلمةٍ واحدَةٍ ، وهم يعملُون الأعمالَ الشرعيَّةَ ، ويعملون أعمالَ المسلمينَ ، فصارُوا بها كفَّارًا بعدَ إيمانِهم ؛ لَمَّا صدَرَ منهم شيءٌ واحدٌ صارُوا كفارًا مرتدِّينَ . فبهذا تَنْكَشِفُ شبهةُ المشبِّهِ بهذِه الشبهَةِ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فتأمَّلْ هذهِ الشبهةَ ، وهي قولُهم : تكفِّرُونَ من المسلمينَ أناسًا يشهدُونَ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، ويصلُّونَ ، ويصومُونَ ، ثم تأمَّلْ جوابَها) ؛ يعني : ما ذكَره المصنِّفُ عليها من الأجوبَةِ **(فإنه من أنفعِ ما في هذهِ الأورَاقِ)** فإنه من أنفعِ ما ذكَرَهُ المصنِّفُ في هذَا المؤلَّفِ .

وذلكَ لأنها شبهةٌ قد تروجُ على مَن لا يعرفُ ولا يفهمُ ، فيظُنُّ أن ما ذكَرَهُ المشبِّهُ فروقٌ مؤثرةٌ ؛ وبما ذكَرَهُ المؤلِّفُ رحِمهُ اللَّهُ يتَبيَّنُ لكَ أنها فُروقٌ غيرُ مؤثرةٍ ؛ فإن أهلَ العلمِ مُجمِعُونَ على أن هذهِ فُروقٌ لا تؤثرُ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (ويقالُ أيضًا : الذين قال اللَّهُ فيهم : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ **... إلخ)**

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أيضًا ما حَكَى اللَّهُ تعالى عَنْ بَنِي إسْرائِيلَ مَعَ إسْلامِهِم وَعِلْمِهِم وَصَلاحِهِم أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف : ١٣٨] . وَقَوْلُ أُنَاسٍ مِن الصَّحَابَةِ : «اجْعَلْ لَنا ذاتَ أَنْواطٍ» فَحَلَفَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ هَذا نَظِيرُ قَوْلِ بَنِي إسْرائِيلَ لِمُوسَى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾[1] .

هذا جوابٌ سابعٌ ، مَضمونُه واقِعَتانِ :

الأولى : أنَّ اللَّهَ تعالى حكَم بكفرِ المنافقين الذين قالوا كلمةَ الكفرِ ، مع أنهم كانوا مع النبيِّ ﷺ يُصَلُّونَ ، ويُزكُّون ، ويحُجُّون ويُجاهِدون ، ويُوَحِّدون .

الثانيةُ : أنه حكَم بكفرِ المنافقين الذين استَهْزَؤا باللَّهِ وآياتِه ورسولِه ، وقالوا : «ما رَأَيْنا مثلَ قُرَّائِنا هؤلاء أرغبَ بُطونًا ، ولا أكذبَ ألسُنًا ، ولا أجبَنَ عندَ اللقاءِ»[1] ؛ يعني : رسولَ اللَّهِ ﷺ وأصحابَه القُرَّاءَ .

فأنْزَل اللَّهُ فيهم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ .

فحكَم بكفرِهم بعدَ إيمانِهم ، مع أنهم ذكَرُوا أنهم كانوا يستهْزِءون ، ولم يقولوا ذلك على سبيلِ الجِدِّ ، وكانوا يُصَلُّون ويتصَدَّقون .

ثم ذكَر المؤلفُ رحِمه اللَّهُ أنَّ الجوابَ على هذه الشُّبهةِ مِن أنفعِ ما في هذه الأوراقِ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ومن الدليلِ على ذلكَ أيضًا) هذا زيادَةٌ على الأجوبةِ السبعةِ السابقَةِ في كشفِ شبهَتِهِ ، وهي قولُه : **(تكفِّرونَ من المسلمينَ أُناسًا يشهدُون أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ...)** إلخ .

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ١٠/ ١٧٢ .

وَلَكن لِلْمُشْرِكينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِها عِنْدَ هَذِهِ القَصَّةِ ، وهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ بَنِي إسْرائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ قَالُوا للنَّبِيِّ ﷺ : اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْواطٍ . لَمْ يَكْفُرُوا .

فَالجَوَابُ : أَنْ نقُولَ : إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ، وَلَا خِلافَ أَنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا ، وَكَذَلِكَ لا خِلَافَ فِي أَنَّ الذِينَ نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ ، واتَّخَذُوا ذاتَ أَنْواطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لكَفَرُوا . وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ[(١)] .

(ما حكَى اللَّهُ عن بَني إسرائيلَ مع إسلامِهم وعلمِهم وصلاحِهم) والمُرادُ بعلمِهم بالنِّسبةِ إلى غيرِهم في زمَنِهم ؛ يعني : أنهم أتباعُ مُوسَى ويَقْتَبِسُونَ من علمِه ومما جاءَ بِه .

ولا يُنافِي ذلكَ قولَه : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فإنه دالٌّ على أن صُدورَ ذلك منهم عن جهلٍ ، أنهم قالُوا لمُوسَى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ كأنه أعجَبَ مَن أعجَبهُ منهم ، واسْتَحْسَنُوه ، فقالَ مُوسَى مُنْكِرًا عليهم : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ .

(وقوْلُ أُناسٍ من الصحابَةِ) لما مرُّوا بقوم يعلِّقونَ أسلحَتَهُم على شجرَةٍ ، ويسمُّونها بهذَا الاسم : **(اجعَل لنَا ذاتَ أنوَاطٍ)** فأنكرَ عليهم النبيُّ ﷺ ، وغلَّظَ هذا الإنكارَ بأنواعِ التغليظِ **(فحَلَفَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ أن هذا مثلُ قولِ بَني إسرائيلَ ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾)** الآياتِ[(١)] .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(ولَـكن للمُشرِكِينَ) عندَ كشفِ شبهتِهم السابقَةِ **(شبهةٌ يُدْلُونَ بها[(٢)] عندَ هذهِ القصَّةِ)**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٥/ ٢١٨ (٢١٧٩٧) ، والترمذي (٢١٨٠) ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) يقال : أدلى بحجته : أحضرها واحتج بها . اللسان (د ل ى) .

. . . .

يشبّهونَ ويُمانِعونَ في كونِ ذلكَ دليلًا ، قالُوا : فلا يصلُحُ احتجاجُكم بالقصتينِ علينا فإنكم احتججتُم بقصتين على تكفيرنا ، وهم لم يكفُرُوا بذلكَ .

(فالجَوابُ أن نقُولَ : إن بَني إسرائيلَ لم يفعلُوا) فعدَمُ كفرِهم لا من قُصورِ أن يكونَ كفرًا **(وكذلك الذينَ سأَلُوا النبيَّ ﷺ لم يفعلُوا)** بل استحسنُوا شيئًا وطلَبُوهُ ؛ لو عكَفُوا على القُبورِ ، وكذلكَ لو اتخذُوا إلهًا لكفرُوا ؛ هذا لا ينازِعُ فيه أحدٌ ، ولا ينفعُ اتِّباعُ الرسُولِ والأعمالُ الأُخَرُ .

فعدَمُ كفرِهم ليسَ من قُصُورِ العمَلِ عن أن يصلَ إلى التكفيرِ . يعني : أن وجهَ احتجاجِنَا هو بتقديرِ الفعلِ ؛ لو صدَرَ لكانَ كفرًا ، فكانَ احتجاجًا في مَحَلِّه ، ولكنهُم لم يفعلُوه ، وإلَّا لو فعلُوهُ لكانَ كفرًا . فسلِمَ لنا الاحتجَاجُ بالقصتينِ عليكُم .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (ومن الدليلِ على ذلك)؛ أي : على أنَّ الإنسانَ قد يقولُ ، أو يفعَلُ ما هو كفرٌ من حيثُ لا يشعُرُ ، قولُ بني إسرائيلَ مع إسلامِهم وعلمِهم وصَلاحِهم لموسى عليه الصلاةُ والسلامُ : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ، وقولُ أصحابِ النبيِّ ﷺ : **(اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ ، كما لهم ذاتُ أنواطٍ)** .

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «اللَّهُ أكْبَرُ ، إنها السَّنَنُ ، قلتُم والذي نفسي بيدِه كما قالت بَنو إسرائيلَ لموسى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٨] . لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم»[١] .

وهذا يدُلُّ على أن موسى ومحمدًا عليهما الصلاةُ والسلامُ قد أنكَرا ذلك غايةَ

---

(١) تقدم تخريجه .

وَلَكن هَذِه القِصَّةُ تُفِيدُ أَنَّ المُسْلِمَ - بَلِ العَالِمَ - قَدْ يَقَعُ فِي أَنْواعٍ مِنَ الشِّرْكِ لا يَدْرِي عَنْها، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ والتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الجَاهِلِ: (التَّوْحِيدَ فَهِمْنَاهُ) أَنَّ هذا مِنْ أَكْبَرِ الجَهْلِ وَمَكايِدِ الشَّيْطانِ[1].

الإنكارِ، وهذا هو المطلوبُ؛ فإنَّ هذين النَّبِيِّين الكريمَين لم يُقِرَّا أقوامَهما على هذا الطلبِ الذي طلبُوه، بل أنكَراه.

وقد شبَّهَ بعضُ المشركين في هذا الدليلِ، فقال: إنَّ الصحابةَ وبني إسرائيلَ لم يكفُروا بذلك.

وجوابُ هذه الشبهةِ: أن الصحابةَ وبني إسرائيلَ لم يفعَلوا ذلك حينَ لقُوا مِن الرسولَيْن الكريمَين إنكارَ ذلك.

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحِمه اللَّهُ**:

هذا شروعٌ في بيانِ ما تُفيدُه هذه القصَّةُ؛ أعني: قصةَ الأنواطِ وبنى إسرائيلَ مِن الفوائدِ:

الفائدةُ الأولى: أن الإنسانَ، وإن كان عالمًا، قد يَخْفَى عليه بعضُ أنواعِ الشركِ، وهذا يُوجِبُ على الإنسانِ أن يتعلَّمَ، ويَعْرِفَ حتى لا يَقَعَ في الشركِ، وهو لا يدري.

وأنه إذا قال: أنا أعرِفُ الشركَ، وهو لا يعرِفُه كان ذلك من أخطرِ ما يكونُ على العبدِ؛ لأن هذا جهلٌ مُرَكَّبٌ.

والجهلُ المُرَكَّبُ شرٌّ مِن الجهلِ البسيطِ؛ لأن الجاهلَ جهلًا بسيطًا يتعلَّمُ وينْتَفِعُ بعلمِه، وأما الجاهلُ جهلًا مركَّبًا فإنه يظُنُّ نفسَه عالمًا، وهو جاهلٌ، فيستَمِرُّ فيما هو عليه من العملِ المخالفِ للشريعةِ[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فى كتابه شرح نظم الورقات ص ٣٤- ٣٥:
الجَهْل البَسِيط عَدَمُ الإدْرَاكِ بالكليةِ والجهل المُرَكَّب إدْرَاكُ الشيءِ على خلافِ ما هو عليه، =

. . . .

. . . .

= فالبسيطُ هو ألا تُدْرِكَ الشيء إطْلاقًا ، والمُرَكَّبُ هو أنْ تُدْرِكَهُ على غيرِ ما هو عليه ، ويَظْهَرُ بالمثالِ .

المثالُ الأولُ : أنَّ يَقُولَ قَائِلٌ : متى كانت غزوةُ بدرٍ ؟

فيقولُ القائلُ : لا أَدْرِى . فهذا بسيطٌ .

الثانى : أن يُقالَ : متى كانت غزوةُ بَدْرٍ ؟

فَيَقُولُ : فى السَّنَةِ الثالثةِ . هذا جهلٌ مُرَكَّبٌ ؛ لأنَّه إدْرَاكُ الشىءِ على خلافِ ما هو عليه ؛ إذْ إنْ غَزْوَةَ بَدْرٍ كَانَتْ فى السَّنَةِ الثانيةِ .

ولماذا كان الأولُ بسيطًا ؟ لأنَّه جَهْلُ واحدٍ لا يَعْلَمُ شيئًا . ولماذا كان الثانى مركبًا ؟= =لأنَّه جَهْلٌ بالواقعِ وجهلٌ بالحالِ ، هذا المتكلمُ جَاهِلٌ حالَهُ ، يَحْسَبُ أنَّه على عِلْمٍ وليس على علمٍ ، فلهذا كانَ مُرَكَّبًا مِن جهلين ؛ لَا يَدْرِى ، ولا يَدْرِى أنَّه لَا يَدْرِى .

وأيُّهما أقبحُ الجهلُ البسيطُ أو المركبُ ؟

طبعًا المركبُ لاشكَّ أنَّه أَقْبَحُ .

ويُذْكَرُ أنَّ رجلًا يُسَمَّى تَوْمَةَ ، رجلٌ حكيمٌ ، يَتَعَاطَى الحكمةَ ، ولكنه يُفْتِى بغيرِ علمٍ ، من جملةِ ما يُفْتِى به يَقُولُ : تَصَدَّقُوا ببناتِكُم على مَن لم يَتَزَوَّجْ . يَظُنُّ أنَّ هذا خيرٌ ، وفى هذا قَالَ الشاعرُ :

ومَن نالَ العلومَ بغيرِ شيخٍ ... يَضِلُّ عن الصراطِ المستقيمِ
وتَلْتَبِسُ العلومُ عليه حتى ... يكونَ أضلَّ من تَوْمَةَ الحكيمِ
تَصَدَّقَ بالبناتِ على رجالٍ ... يُرِيدُ بِذاكَ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

وله حمارٌ قيل فيه :

قالَ حمارُ الحكيمِ تَوْمَهْ ... لو أنصفَ الدهرُ كنتُ أَرْكَبُ
لأنَّنى جاهلٌ بسيطٌ ... وصاحبى جاهلٌ مُرَكَّبُ

على كلِّ حالٍ الجاهلُ المركبُ شَرٌّ مِن الجاهلِ البسيطِ لاشكَّ ؛ لأنَّ الجَاهِلَ البسيطَ عرَف نفسَه وعرَف أنَّه ليس أهلًا للعلم ، فقال : لا أدْرى . وأما هذا فادَّعَى أنَّه عَالِمٌ ، وليس بعالم فكانَ جاهلًا بِنَفْسِه وجاهلًا بالحَكَم .

وتُفِيدُ أيضًا أنَّ المُسْلِمَ المُجْتَهِدَ إذا تَكَلَّمَ بِكَلامِ كُفْرٍ ، وَهُوَ لا يَدْرِي ، فَنُبِّهَ عَلَى ذَلِكَ ، فَتابَ مِن ساعَتِهِ أنَّه لا يَكْفُرُ ، كَمَا فَعَلَ بَنُو إسْرائِيلَ ، وَالذِين سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ(١) .

وَتُفِيدُ أيضًا أنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الكَلامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(٢) .

---

(١) **قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :**

قولُه : (ويفيدُ أيضًا أن المسلمَ المُجتهِدَ ... إلخ) . هذه هي الفائدةُ الثانيةُ ؛ أن المسلمَ إذا قال ما يقْتَضِي الكفرَ جاهلًا بذلك ، ثم نُبِّه فانْتَبَه ، وتاب في الحالِ فإنَّ ذلك لا يَضُرُّه ؛ لأنه معذورٌ بجهلِه ، ولا يُكَلِّفُ اللَّهُ نفسًا إلا وُسْعَها ، أما لو اسْتَمرَّ على ما عَلِمَه مِن الكفرِ فإنه يُحْكَمُ بما تقْتَضِيه حالُه .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ولكَنَّ هذهِ القصةَ) قصةَ بني إسرائيلَ وقصةَ الذينَ سأَلُوا النبيَّ ﷺ **(تُفِيدُ أن المسلمَ ، بلَ العالِمَ قد يقعُ في أنواعِ من الشِّركِ لا يدري عنها)** إذ كانَ السائلُ في القصةِ مع نبيٍّ ، وهو مُوسَى ، وهم أوسَعُ علمًا منه ، والسائلُ في القصةِ الثانيةِ مع نبيٍّ ، وهم أعلمُ ، وأقدَمُ فضيلَةً .

اسْتَحْسَنُوا ذلك ظنًّا منهم أن اللَّهَ يُحِبُّهُ ، وأنه مِن العبادَاتِ التي يُتَقَرَّبُ بها إلى اللَّهِ ، فكيفَ بمَن دُونَهم؟!

(فتُفيدُ التعلُّمَ) تعلُّمَ أسبابِ النجَاةِ ؛ فإنه لا نجاةَ إلا بالعلمِ ومعرفَةِ الضِّدِّ والشَّرِّ لغيرِه ؛ يعرفُ الشركَ وأقسَامَه ووسَائلَه وذرائعَه ليسلمَ من الوقُوعِ فيه ، كما قالَ تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ .

وقالَ حذيفةُ رضِي اللَّهُ عنه : كانَ أصحابُ رسُولِ اللَّهِ ﷺ يسألونَهُ عن الخيرِ ،

. . . .

وكنتُ أسألُهُ عن الشرِّ مخافَةَ أن يُدْرِكَني[1].

تَعَلَّمْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لِكِنْ لِتَوَقِّيهِ
ومَنْ لَا يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ الخَيْرِ يَقَعْ فِيهِ

(والتَّحَرُّزَ) ؛ يعني : اتِّهامَ العمَلِ أن يكُونَ دخَلَهُ شيءٌ مِن الشِّركِ ؛ بل يجعلُ علَى بَالِه هل أخلَصَ قبلَ دُخُولِه فيه؟ وتفقُّدَ النفسِ ولحظَاتِكَ فيمَن هي .

(ومعرفَةَ أن قولَ الجاهلِ : التَّوحِيدُ فهِمْنَاهُ ، أنَّ هذَا مِن أكبَرِ الجهلِ ومكائدِ الشيطَانِ) وهذِه الكلمَةُ قد صدَرَت من بعضِ الطلبَةِ لما كثُرَ التدريسُ في التوحِيدِ ؛ متنِه أو كتُبٍ نحوِه سئِمُوا ، وأرادُوا القراءَةَ في كتبٍ أخرَى .

وقيلَ : إنه مِن المُراسِلينَ ؛ فنَقَم عليه المصنِّفُ في هذا القولِ ؛ يعني : أنكَ ما فهِمْتَهُ حتى الآن ، فقالَ الشيخُ رحِمه اللَّهُ ذلك ليُنَبِّهَهم .

ففي هذه القصةِ الردُّ عليهم ؛ فإن هؤلاء أهلُ علم ، وصدَرَ منهم ما صدَرَ ، فلا يُزْهَدُ في التوحِيدِ فإنه بالزُّهدِ فيه يقعُ في ضدِّه ، وما هلَكَ مَن هلَكَ ممن يدَّعِي الإسلامَ إلا بعدَمِ إعطائِه حقَّهُ ، ومعرفَتِه حقَّ المعرفَةِ .

وظنُّوا أنه يكفِي الاسمُ والشهادَتانِ ، ولم ينظُرُوا ما ينافِيهِ ، وما يُنافِي كمالَهُ هل هو موجُودٌ أو مفقُودٌ؟

وهذا كلُّه من عدَمِ التحرُّزِ ومعرفَةِ ألفاظِ التوحِيدِ لفظةً لفظةً .

مَن الذي عرَفَ التوحيدَ كلَّ المعرفَةِ؟

أصلُهُ - وللهِ الحمدُ - معروفٌ ، لكن له أقسامٌ وفروعٌ وشُعَبٌ ، وضدُّهُ الشِّركُ له فروعٌ ..

(١) البخارى (٧٠٨٤) ، ومسلم ٣/ ١٤٧٥ (١٨٤٧) .

. . . .

ومما يُذْكَرُ عن المؤلفِ أنه يومًا قالَ : يُذْكَرُ البارحَةَ أنه وُجِدَ رجلٌ على أمِّه يُجامِعُها ، فاستعظَمَ المَحْضَرُ[1] ذلك ، وضجُّوا منه ، رأَوْا أنه منكرٌ كبيرٌ ، وهو كبيرٌ .

ثم قال مرَّةً أخرى : إن واحدًا أُصِيبَ بمرَضٍ شديدٍ ، فقيلَ لهُ : اذْبَحْ (**دِيكَكَ**) لفُلانٍ - وليٍّ - فلم يَسْتَعْظِمُوه .

ثم بيَّنَ لهم أن الأوَّلَ فاحشةٌ يبقَى معها التوحيدُ ، والآخَرَ يُنافِي التوحيدَ كلَّهُ ، وهذا لم تستعظِمُوهُ مثلَ هذا!

وهذا هو الواقعُ من أكثرِ الناسِ فإن النفُوسَ تَسْتَبْشِعُ أشياءَ أعظَمَ من استبشاعِها ما هو مِن أمرِ التوحيدِ .

(**وتُفِيدُ أيضًا أن المسلمَ المجتهِدَ إذا تكلَّمَ بكلامِ كفرٍ ، وهو لا يدري ، فنُبِّه على ذلكَ ، وتابَ من ساعتِهِ أنه لا يكفُرُ**) فإن مِن الأشياءِ ما قد يخفَى ، ويكُونُ مجتهدًا ، وبعدَمَا يُبيَّنُ له يَرْجِعُ كما فعَل بنُو إسرائيلَ والذين سألُوا النبيَّ ﷺ .

(**وتفيدُ أيضًا أنه لو لم يكفُرْ فإنه يُغَلَّظُ عليه الكلامُ تغليظًا شديدًا ، كمَا فعَلَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ**) في إنكارِه على أولئكَ في قولِهم : اجعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ ، كما لهم ذاتُ أنواطٍ . كما تقدَّم .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (وتُفيدُ أيضًا أنه لو لم يكفُرْ... إلخ) . هذه هي الفائدةُ الثالثةُ ، أنَّ الإنسانَ ، وإن كان لا يَدْرِي عن الشيءِ إذا طلَبَ ما يكونُ به الكفرُ فإنَّه يُغلَّظُ عليه تغليظًا شديدًا ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال لأصحابِه : «اللَّهُ أكبرُ ، إنها السَّنَنُ ، لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم حَذْوَ

(١) المَحْضَرُ : القومُ الحُضُور . القاموس المحيط (ح ض ر) .

وَلِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ أُخْرَى يَقُولُونَ : إنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ عَلَى أُسَامَةَ قَتْلَ مَنْ قَالَ : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، وَقَالَ : «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَأَحادِيثُ أُخَرُ فِي الكَفِّ عَمَّنْ قَالَهَا ، وَمُرَادُ هُؤلاءِ الجَهَلَةِ أَنَّ مَنْ قَالَهَا لا يَكْفُرُ ، وَلا يُقْتَلُ ، وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ[1] .

القُذَّةِ بالقُذَّةِ[1]»[2] . وهذا إنكارٌ ظاهرٌ .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

ولهُم **(شبهةٌ أخرى ؛ يقولُون : إن النبيَّ ﷺ أنكرَ على أسامةَ قتلَ مَن قالَ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وقالَ : «أقتَلْتَهُ بعدَمَا قالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»[3] . وكذَلِكَ قولُه ﷺ : «أُمِرتُ أن أُقَاتِلَ النّاسَ حتَّى يقولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»[4] . وأَحَادِيثُ أُخرَى في الكَفِّ عمَّن قالَها)** .

(ومُرادُ هؤُلاءِ الجهَلَةِ) من إيرَادِ هذه الأحاديثِ والتَّشبيهِ بهَا **(أن مَن قالَ لا إلَهَ إلا اللَّهُ لا يُكَفَّرُ ، ولا يُقْتَلُ ، ولو فعَلَ ما فعَلَ!)** ؛ يعني : أن النطْقَ بها كافٍ في إسلامِ العبدِ .

ومرادُهُم أنكم معشرَ الموحِّدين تُكَفِّرُونَ مَن يشهَدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . . . إلخ . وهذا من عظيمِ جهلِهم وعَمايتِهم ؛ يَرَوْنَ أن الدِّينَ رسومٌ فقط ، ما دَرَوْا أن لها أرواحًا ومعانيَ ؛ لها معانٍ هي المُرادةُ ، الألفاظُ قوالبُ جُثَّةٍ ، والمعاني رُوحٌ .

ويأتيكَ كشفُها .

ومُرادُ النبيِّ ﷺ من هذهِ الأحاديثِ ، وأنهُ لا كَما ظنُّوا وزعَمُوا .

---

(١) قال ابن الأثير فى النهاية ٢/٤٢٧ (ق ذ ذ) : أى : كما تُقَدَّر كلُّ واحدة منهما على قَدْر صاحبتها ، وتُقْطَع ، يُضْرَب مثلًا للشيئين يَسْتويان ، ولا يتفاوتان . اهـ

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) البخارى (٤٢٦٩ ، ٦٨٧٢) ، ومسلم ١/٩٦ (٩٦) .

(٤) البخارى (١٣٩٩ ، ٦٩٢٤ ، ٧٢٨٤) ، ومسلم ١/٥٠ (٢٠ ، ٢١) .

فَيُقَالُ لِهَؤُلاءِ الجُهَّالِ : مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَ اليَهُودَ وَسَبَاهُمْ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُصَلُّونَ ، ويَدَّعُونَ الإِسْلامَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ حَرَّقَهُم عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ بِالنَّارِ(١) .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحمه اللَّهُ :

قولُه : (وللمشركينَ شُبهةٌ أخرى... إلخ) ؛ يعني : للمشركين المُشبِّهين شُبهةٌ أخرى مع ما سبَقَ من الشُّبهاتِ ، وهي : أن النبيَّ ﷺ أنْكَر على أُسامَةَ بنِ زيدٍ رضِي اللَّهُ عنه قتلَ الرجلِ بعدَ أن قال لا إِلَهَ إلا اللَّهُ ، فقال : «أقتَلْتَه بعدَ أن قالَ لا إلهَ إلا اللَّهُ ؟» .

وما زال يُكَرِّرُها عليه الصلاةُ والسلامُ على أسامةَ حتى قال أسامةُ : تَمَنَّيْتُ أن لم أكُنْ أسْلَمْتُ بعدُ .

وكذلك قولُه ﷺ : «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يَقُولوا لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» .

وأمثالُ ذلك من الأحاديثِ التي يَستَدِلُّون بها على أنَّ مَن قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ . لا يُكَفَّرُ ، ولا يُقْتَلُ ، وإن كان على الشركِ من جهةٍ أخرى .

وهذا من الجهلِ العظيمِ ، فليس قولُ : لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ . مُنَجِّيًا مِن عذابِ النارِ ، ومُخَلِّصًا للإنسانِ من الشركِ ، إذا كان يُشْرِكُ مِن جهةٍ أخرى .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(فيُقالُ لهؤلاءِ المشركينَ الجُهَّالِ) في الجوَابِ عن ذلكَ : **(معلُومٌ أن رسُولَ اللَّهِ ﷺ قاتَلَ اليهُودَ)** في عدةِ مواطنَ(١) .

---

(١) ومن ذلك غزو النبى ﷺ لخيبر ، رواه البخارى (٤١٩٥ - ٤٢٠١ ، ٤٢٠٥) ، وغزوه ﷺ لبنى قريظة ، رواه البخارى (٤١١٧ - ٤١١٩) ، وكذلك غزوه ﷺ لبنى المُصْطَلِق ، رواه البخارى (٢٥٤١ ، ٤١٣٨) ، ومسلم ٣/١٣٥٦ (١٧٣٠) .

وأيضًا غزوه ﷺ لبنى النضير ، رواه البخارى (٤٠٢٨ ، ٤٠٣٠ - ٤٠٣٢) ، ومسلم ٣/١٣٦٥ (١٧٤٦) .

. . . .

(وسبَاهُم) أخَذَ نساءَهم مماليكَ وعبيدًا كالصَّنيعِ بسائرِ الكفَّارِ **(وهم يقُولُون لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ)** فلا مَنَعَ قولُ لا إلهَ إلا اللَّهُ من قتالِهم وسَبْيِهم .

فدلَّ على أن مجرَّدَ قولِ لا إلَهَ إلا اللَّهُ لا يمنعُ من التكفيرِ ، بل يقولُها ناسٌ كثيرٌ ويكونُون كفارًا ؛ إما لعدَمِ العلمِ بها ، أو العملِ بها ، أو وُجودِ ما يُنافِيهَا .

فلابُدَّ مع النطقِ بها من أشياءَ أُخَرَ ؛ أكبرُها معرفَةُ معناها ، والعملُ بهِ .

(وأنَّ أصحابَ رسُولِ اللَّهِ ﷺ قاتلُوا بني حَنيفَةَ ، وهم يشهَدُونَ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وأنَّ محمدًا رسُولُ اللَّهِ ، ويصلُّون ، ويَدَّعونَ الإسلامَ)[١] .

ومعَ ذلكَ قاتلُوهُم ، وسبَوْا حريمَهُم وذراريَّهُم ، مع قولِهم : لا إلهَ إلا اللَّهُ . . . إلخ ؛ لأجلِ مكفِّراتٍ أُخَرَ .

(وكذلكَ الذينَ حرَّقهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضِي اللَّهُ عنهُ) مع صلاتِهم وادِّعائِهم الإسلامَ ، وهم من أصحابِ عليٍّ رضِي اللَّهُ عنه ، ولكن وقَعَ منهم الغلوُّ في عليٍّ ، وتجاوَزُ الحدِّ في تعظيمِه حتى ادَّعَوْا فيه الإلهيَّةَ[٢] .

فإنه ليس المُرادُ اللفظَ ، بل اللفظُ وإقرارٌ وعملٌ ؛ فإن حصَلَ فهو معَهُ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وإلا فإنه ما جاءَ إلَّا بلفظِها فقط ؛ ورُوحُها وحقيقتُها مفقودٌ .

فـ «لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» يَنْقُضُها أشياءُ ليست هي من ذاتِها .

مما يَنفِي لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مَسَبَّةُ الرسُولِ ، ورَمْيُ أزواجِه بالإفكِ[٣] .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد فى «التنبيهات السَّنِية على العقيدة الواسطية» ص ٢٩٤ : ويحرُم الطعن فى أزواج النبى ﷺ وقذفهن ، لاسيَّما عائشةُ أمُ المؤمنين ، فمن قذفها مما =

. . . .

كلُّ واحدٍ منها يَنْقُضُ هذهِ الكلمةَ العظيمةَ ، فكيفَ بنفيِها نفسِها من عبادَةِ غيرِ اللَّهِ ، وجعلِ الأوثانِ قبلةَ قلبِ صاحبِهَا؟!

بل هذَا أسوأُ حالًا ممن يمتنعُ عن النطقِ بها ؛ لأنه يُؤْخَذُ بأنه دخَلَ الإسلامَ ، ثم ما يُوجَدُ منه يُفيدُ أنه انتكَسَ عما تَسَمَّى بهِ ؛ فيكُونُ مرتدًّا ، والمرتدُّ أعظمُ حكمًا مِن الكافرِ الأصليِّ :

منها : أن مالَهُ فَيْءٌ ؛ إلى آخرِ أحكامِ المرتدِّينَ ؛ بخلافِ اليهوديِّ والنصرانيِّ والمجُوسيِّ فإنهُم يَتوارَثُون بينَهُم . هذا من تغليظِ كفرِه ؛ لأنه عرَفَ ، ثم أنكَرَ ، وأبصَرَ ، ثُم عَمِيَ ، فصارَ أغلَظَ ممن لم يُقِرَّ أصلًا .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (فيقالُ لهؤلاء المشركين الجُهَّالِ... إلخ) . هذا جوابُ الشُّبهةِ التي أورَدَها هؤلاء الجُهَّالُ فيما سبَقَ ، وجوابُها بما يلي :

أولًا : أن النبيَّ ﷺ قاتَلَ اليهودَ ، وسَبَاهم ، وهم يقولون : لا إلهَ إلا اللَّهُ .

ثانيًا : أن الصحابةَ قاتَلوا بني حَنيفةَ ، وهم يشهَدون أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ويُصلُّونَ ، ويدَّعُون أنهم مسلمون .

ثالثًا : أنَّ الذين حرَّقهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ كانوا يَشهَدون أن لا إلهَ إلا اللَّهُ .

= برَّأها اللهُ فهو كافر ، وأما من قذف غيرها من نساء النبى ﷺ ففيه قولان ، قال ابن كثير : والأصح أنهن كعائشة رضى الله عنهن أجمعين . اهـ

وقال أيضًا رحمه اللهُ ص ٢٩٧ : أنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات ، واتفقت الأُمَّةُ على كفر قاذفها ، وأفتى غير واحد بقتل سابِّها رضى الله عنها . اهـ

وكذا نقل الاتفاق على كفر قاذفها الشيخ زيد بن عبد العزيز فى «الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية» ص ٤٤٦ .

وَهَؤُلاء الجَهَلةُ مُقِرُّونَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ كَفَرَ وَقُتِلَ ، وَلَوْ قَال لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ شَيئًا مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ كَفَرَ وَقُتِلَ ، وَلَوْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فكَيْفَ لا تَنْفَعُهُ إذا جَحَدَ فَرْعًا مِن الفُرُوعِ ، وتَنْفَعُهُ إذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الذِي هُوَ أَصْلُ دِينِ الرُّسُلِ وَرَأْسُهُ[1] ؟!

وَلَكِنَّ أَعْداءَ اللَّهِ ما فَهِمُوا مَعنَى الأَحَادِيثِ[2] .

---

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وهؤلاءِ الجهلَةُ) المشركونَ **(مُقِرُّون أن مَن أنكَرَ البعثَ كفرَ وقُتِلَ ، ولو قالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** ولم تَنْفَعْه الشهادَتَان .

(و) هم مُقِرُّون أيضًا **(أن مَن جحَدَ شيئًا من أركَانِ الإسلامِ)** كوُجوبِ الصلاةِ ، أو وجوبِ الصِّيامِ **(كفرَ وقُتِلَ ، ولو قالَها ، فكيفَ لا تَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ شيئًا من الفُروعِ ، وتَنفَعَهُ إذا جَحَدَ التوحِيدَ الذي هو أصلُ دِينِ الرُّسُلِ ورأسُهُ؟!)** .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (وهؤلاء الجَهَلةُ مُقِرُّون أنَّ مَن أنكَرَ البعثَ... إلخ) . هذا إلزامٌ لهؤلاء الجُهَّالِ ، واحتجاجٌ عليهم بمثلِ ما قالوا به ، فقد قالوا : إنَّ مَن أنكَر البعثَ فإنه يُقتَلُ كافرًا ، ويقولون : مَن جحَدَ وجوبَ شيءٍ من أركانِ الإسلامِ ، فإنه يُحكَمُ بكفرِه ، ويُقتَلُ ، وإن قال لا إلهَ إلا اللَّهُ ، فكيف لا يُكَفَّرُ ، ولا يُقْتَلُ مَن يَجحَدُ التوحيدَ الذي هو أساسُ الدينِ ، وإن قال لا إلهَ إلا اللَّهُ ؟!

أفلا يكونُ هذا أحقَّ بالتفكيرِ ممن جحَدَ وجوبَ الصلاةِ ، أو وجوبَ الزكاةِ؟! وهذا إلزامٌ صحيحٌ ، لا مَحِيدَ عنه .

(٢) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ولكنَّ أعداءَ اللَّهِ ما فهِمُوا معنَى الأحادِيثِ) ولا حامُوا حولَها ، وعشَا على أبصَارِهم

فَأَمَّا حَدِيثُ أُسَامَةَ فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ادَّعَى الإِسْلامَ بِسَبَبِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ ما ادَّعَى الإِسْلامَ إِلَّا خَوْفًا على دَمِهِ وَمَالِه ، والرَّجُلُ إذا أَظْهَرَ الإِسْلامَ وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنْهُ ما يُخَالِفُ ذَلِكَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالى فِي ذَلِكَ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء : ٩٤] ؛ أَيْ : فتَثَبَّتُوا ، فالآيَةُ تَدُلُّ علىٰ أَنَّهُ يَجِبُ الكَفُّ عَنْهُ والتَّثَبُّتُ ، فَإِذا تَبَيَّنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ ما يُخَالِفُ الإِسْلَامَ قُتِلَ ؛ لقولِهِ : ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ وَلَوْ كَانَ لا يُقْتَلُ إِذَا قَالَهَا لَمْ يَكُنْ لِلتَّثَبُّتِ مَعْنًى(١) .

التقليدُ الأعمَى والجمُودُ وإحسانُ الظنِّ بأناسٍ أعْرَضُوا كلَّ الإعراضِ عن التوحيدِ ، وقلَّدُوا مَن ظنَّ أن قولَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ في هذهِ الأحاديثِ كافٍ معَ الجهلِ بمدلُولِ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ .

والإنسانُ إذا أرَادَ أن يُطالِعَ في كلامِ الفقهَاءِ فإنه يَجِدُ أن الإنسانَ إذا أتَى بمكفِّرٍ قوليٍّ أو اعتقاديٍّ فإنه يكفُرُ ، ولا ينفعُه جميعُ مَا تَسَمَّى بهِ وعمِلَهُ .

والمشركُونَ في هذهِ الأزمانِ زعَمُوا أنه لا يكفُرُ إلا مَن تعلَّقَ عليها ، وزعَمَ أنها تَسْتَقِلُّ بجلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ ، وهذا من كبيرِ جهلِهم .

وهذا بعينِه دينُ المشركينَ الذينَ ما أُنْزِلَت جميعُ الكُتبِ ، ولا أُرْسِلَتِ الرسُلُ إلا لردِّهِ وإبطالِه ؛ فإن المشركينَ الأولينَ قلَّ منهُم مَن يزعُمُ أن مَن يُلْجَأُ إليهِ يستقلُّ بجلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فأما حديثُ أُسامَةَ) ؛ يعني : وقصتَهُ حينَ قتَلَ الرجلَ الذي قالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ **(فإنه قتَلَ رجلًا ادَّعى الإسلامَ بسبَبِ أنه ظنَّ أنه ما ادَّعاهُ إلَّا خوفًا على دمِه ومالِه ، والرجُلُ إذا أظهَرَ الإسلامَ وجَبَ الكفُّ عنهُ حتى يتبيَّنَ منه مَا يُخالِفُ ذلكَ)** .

يعني : والحكمُ الشرعيُّ أنه لا يُقْتَلُ ويَجِبُ الكفُّ عنه ما دامَ في حالَةٍ يحتملُ أن يكونَ صادقًا ، ويحتملُ أن يكونَ كاذبًا حتى يتبيَّنَ منه ما يُخالِفُ ذلكَ .

. . . .

(وأنزلَ اللّهُ في ذلكَ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ ؛ أي : فتَثَبَّتُوا ، فالآيةُ تدُلُّ على أنه يجبُ الكفُّ عنه والتثبُّتُ) وهو التأنّي والنظرُ إلى ما يصيرُ إليه آخرُ الأمرِ .

(فإن تبينَّ منهُ بعدَ ذلكَ ما يخالِفُ الإسلامَ قُتِل لقولِه : ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ ، ولو كانَ لا يُقْتَلُ إذا قالَها لم يَكُنْ للتثُّبتِ معنًى) وليس المُرادُ أنه يُكَفُّ عنه مطلقًا .

الناطقُ بالإسلامِ إن قامَت القرائنُ أنه إنما قالَ ذلكَ ليَسْلَمَ من القتلِ فإنها تدُومُ عِصْمتُهُ حتى يتبيَّنَ منه ما يُخالِفُ ذلكَ ، فإن تبيَّنَ منه ما يُخالِفُ ذلك قُتِلَ .

وقال الشيخ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللّهُ :

قولُه : (ولكنَّ أعداءَ اللّهِ ما فهِموا معنى الأحاديثِ . . . إلخ) ؛ يعني : الأحاديثَ التي شبَّهوا بها ، ثم أخَذَ رحِمه اللّهُ يُبيِّنُ معناها ، فقال :

فأمَّا حديثُ أسامةَ ؛ يعني : الحديثَ الذي قتَلَ فيه أسامةُ رضي اللّهُ عنه مَن قال : لا إلهَ إلا اللّهُ . حينَ لحِقه أسامةُ ليَقْتُلَه ، وكان مُشْرِكًا ، فقال : لا إِلَهَ إلا اللّهُ ، فقتَلَه أسامةُ ؛ لظَنِّه أنه لم يكُنْ مخلِصًا في قولِه ، وإنما قالَه تخلُّصًا .

فليس فيه دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن قال : لا إِلَهَ إلا اللّهُ . فهو مسلمٌ ومَعصومُ الدم ، ولكن فيه دليلٌ على أنه يجِبُ الكفُّ عمَّن قال : لا إِلَهَ إلا اللّهُ . ثم بعدَ ذلك يُنْظَرُ في حالِه حتى يَتبيَّنَ .

واستدَلَّ المؤلفُ لذلك بقولِه تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء : ٩٤] . الآيةَ ، فأمَرَ اللّهُ تبارَك وتعالى بالتبيُّنِ ؛ أي : التثبُّتِ .

وهذا يدلُّ على أنه إذا تبيَّن أنَّ الأمرَ كان خلافَ ما كان عليه فإنه يَجِبُ أن

وَكَذَلِكَ الحَدِيث الآخَرُ وَأَمْثَالُه مَعْنَاهُ ما ذَكَرْنَاهُ ، أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ والتَّوحِيدَ وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُ إِلَّا إِنْ تَبَيَّنَ مِنْهُ ما يُنَاقِضُ ذَلِكَ[1] .

يُعامَلَ بما يَتَبيَّنُ مِن حالِه ، فإذا بان منه ما يُخالِفُ الإسلامَ قُتِل ، ولو كان لا يُقْتَلُ مطلقًا إذا قالها ، لم يَكُنْ فائدةٌ للأمرِ بالتثبُّتِ .

وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ حديثَ أسامةَ رضي اللَّهُ عنه ليس فيه دليلٌ على أنَّ مَن قال : «لا إلَهَ إلا اللَّهُ» . وهو مشرِكٌ يعبُدُ الأصنامَ والأمواتَ والملائكةَ والجنَّ وغيرَ ذلك يكونُ مسلمًا .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وكذلكَ الحديثُ الآخَرُ) «أُمِرْتُ أن أُقَاتِلَ النَّاسَ» **(وأمثالُهُ معناهُ ما ذكرْناهُ)** ما ذكَره المُصنِّفُ **(أنَ مَن أظهَرَ الإسلامَ والتوحيدَ وَجَبَ الكفُّ عنهُ)** سواءٌ احتملَ الحالُ أنه متعوِّذٌ حقًّا ، أو يحتمِلُ أنه صادقٌ **(إلى أن يتبيَّنَ منهُ مَا يُناقِضُ ذلكَ)** فإن تبيَّنَ منه ما يناقِضُ ذلكَ فإنهُ يُقاتَلُ شرعًا حتى يَدِينَ بالإسلامِ .

فصارَ الذي لا يقولُ : لا إلَهَ إلا اللَّهُ أصلًا يعتبرُ قولُه : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وإذا قالَها وهو قبلُ يقولُها وهو على ما هو عليه من عبادَةِ غيرِ اللَّهِ فإنه ما غيَّرَ شيئًا ، فكأنه قالَ : أنا على ما أنا عليهِ قبلُ ، وهو قولُ : لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ .

فيقالُ له : أنتَ تُقاتَلُ قبلُ ، وأنت تقولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فهو مَا خلَعَ ولبِسَ ، بل هو على ما هو عليه ، وأهلُ الكتابِ أيضًا حتى لو قالُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فإنهم ما غيَّرُوا شيئًا .

فصَارَ هنا ثلاثُ صُوَرٍ :

الأولَى : أن يُعْرَفَ أنه حينَما نطَقَ بها عَمِلَ بها فهذَا لا يُقْتَلُ .

الثانيةُ : أن يُشَكَّ في حالِه ، ولو يُظَنُّ أنه مُتَعوِّذٌ فقط ، فهذا أيضًا لا يُقْتَلُ .

الثالثةُ : أن يقولَها ، ولكن يَنْقُضُها ، فهذا يُقْتَلُ ؛ لقولِه : ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ لأنه

والدَّلِيلُ على هَذا[١] أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الذي قال : «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» . وَقَالَ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، هُو الذِي قَالَ في الخَوَارِجِ : «أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُم» ، «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» . مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَةً وتَهْلِيلًا وتَسْبِيحًا ، حَتَّى إِنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَهُمْ ، وَهُمْ تَعَلَّمُوا العِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَلَمْ تَنْفَعْهُم لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا كَثْرَةُ العِبَادَةِ ، وَلَا ادِّعَاءُ الإِسْلامِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُخَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ .

تبيَّنَ منه ما يخالِفُ الإسلامَ ، فحلَّ دمُه ومالُه . وكذلكَ إذَا كانَ مِن قبلُ يقولُها ، ولا يعملُ بها ، ومتكرِّرٌ منه ذلك ، فلا لها حُكمٌ .

(١) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(والدليلُ علَى هذا) على أن هذا هو مرادُ النبيِّ ﷺ (أن رسُولَ اللَّهِ ﷺ الذي قالَ : «أقتَلْتَهُ بعدَمَا قالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» . وقالَ : «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» هو الذي قالَ في الخوارجِ : «أينَمَا لَقِيتُمُوهُم فاقتُلُوهُم»[١] ، «لَئِنْ أدرَكْتُهُم لأَقْتُلَنَّهُمْ قتلَ عادٍ»[٢] .

مع كونِهم من أكثرِ الناسِ عبادَةً وتهليلًا ، حتى إن الصحابةَ يَحْقِرونَ صلاتَهُم عندَهم ، وهم تعَلَّمُوا العلمَ مِن الصحابةِ) فالخوارجُ يقُولُونَ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، ويزيدُونَ على قولِ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ **(فلم تنفعْهم لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، ولا كثرَةُ العبادَةِ ، ولا ادِّعاءُ الإسلامِ ، لمَّا ظهَرَ منهم مُخالَفةُ الشَّريعَةِ)** .

فتبيَّنَ أن مُرادَ النبيِّ ﷺ بقولِه : «أقَتَلْتَهُ بعدَمَا قَالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» . أنهُ ليسَ كلُّ مَن قالَ : لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ لا يُكَفَّرُ ولا يُقْتَلُ .

فقولُهم : إن مَن قالَ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ لا يُكَفَّرُ ، ولا يُقْتَلُ ، ولو فعَلَ ما

---

(١) البخاري (٦٩٣٠) ، ومسلم ٢/ ٧٤٦ (١٠٦٦) .

(٢) البخاري (٣٣٤٤، ٧٤٣٢) ، ومسلم ٢/ ٧٤١ - ٧٤٣ (١٠٦٤) .

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِن قِتَالِ اليَهُودِ ، وَقِتَالِ الصَّحَابَةِ بَنِي حَنِيفَةَ[١] ،

فعَلَ ، من عظيمِ جهلِهم ، فكلُّ إنسانٍ يَنْظُرُ في نصُوصِ الشرعِ فإنه موجودٌ كثيرٌ ممن يُقْتَلُ ، وهو يقولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ومَن قالَ خلافَ ذلكَ فليسَ من أهلِ العلمِ بوجهٍ .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وكذلكَ ما ذكَرْناهُ من قتالِ اليهودِ وقتالِ الصحابَةِ بَني حَنيفَةَ) فلو أن مُجردَ قولِ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَعْصِمُ الدمَ والمالَ لَما قاتَلَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وقاتَلَ الصحابةُ بني حنيفةَ .

فليس مُرادُه مِن : «أَقَتَلْتَهُ بعدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» وقولِه : «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وأحاديثَ أُخرَ ، في الكفِّ عمَّن قالَها ، كمَا استدلُّوا بهِ هُنا ؛ بل مُرادُه ﷺ أن مَن كانَ قبلُ علىَ الكفرِ ، ثم أسلَمَ فإنه يُكَفُّ عنه كفَّ انتِظَارٍ .

ولو أنه يَحْتَمِلُ ، فالحكمُ الشرعيُّ أنه يُكَفُّ عنه ويُنْتَظَرُ ؛ إن استقامَ على الإسلامِ استمَرَّ بهِ ، وإلَّا قُتِلَ قتلًا أشدَّ من الأوَّلِ وأسوأَ حالًا وأحكامًا مِن الأصليِّ ، كما عُلِمَ مِن الكتابِ و السّنةِ وإجْمَاعِ الأمةِ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (وكذلك الحديثُ الآخَرُ وأمثالُه) . يُريدُ بالحديثِ الآخَرِ قولَه ﷺ : «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ... إلخ» .

فبيَّن رحِمه اللَّهُ تعالى أن معنى الحديثِ أنَّ مَن أظْهَرَ الإسلامَ وجَبَ الكفُّ عنه ؛ حتى يَتَبيَّنَ أمرُه ؛ لقولِه تعالى : ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ ؛ لأنَّ الأمرَ بالتبيُّنِ يُحْتاجُ إليه إذا كنا في شَكٍّ مِن ذلك .

أمَّا لو كان قولُه : «لا إلهَ إلَّا اللَّهُ» بمُجرَّدِه عاصمًا مِن القتلِ فإنَّه لا حاجةَ

وَكَذَلِكَ أَرَادَ ﷺ أَنْ يَغْزُوَ بني المُصْطَلِقِ لَمَّا أَخْبَرَهُ رَجُلٌ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات : ٦] . وَكَانَ الرَّجُلُ كَاذِبًا عَلَيْهِم ، وكلُّ هَذَا يَدُلُّ على أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ في الأَحَادِيثِ التي احْتَجُّوا بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ[(١)] .

إلى التبيُّنِ .

ثم استَدَلَّ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ لمَا ذهَب إليه بأنَّ الذي قال لأُسامةَ : «أقتَلْتَه بعدَ أن قالَ لا إلهَ إلَّا اللَّهُ» . وقال : «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ . . .» هو الذي أمَرَ بقتالِ الخوارجِ ، وقال : «أينَمَا لَقِيتُموهم فاقْتُلُوهم» .

مع أن الخوارجَ يُصَلُّون ويَذْكُرون اللَّهَ ، ويَقْرَؤون القرآنَ ، وهم قد تعَلَّموا من الصحابةِ رضي اللَّهُ عنهم ، ومع ذلك لم يَنْفَعْهم ذلك شيئًا ؛ لأن الإيمانَ لم يَصِلْ إلى قلوبِهم ، كما قال النبيُّ ﷺ : «إنه لا يُجاوِزُ حَناجرَهم»[(١)] .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(وكذلكَ أراد ﷺ أن يغزُوَ بني المُصْطَلِقِ) وأمَرَ بالغزوِ (لمَّا أخبَرهُ رجلٌ أنهم منَعُوا الزكاةَ حتَّى أنزلَ اللَّهُ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ . وكانَ الرجُلُ كاذبًا عليهم[(٢)] .

وكلُّ هذا يدلُّ على أن مرادَ النبيِّ ﷺ في الأحاديثِ التي احتجُّوا بها ما ذكَرْناهُ) وكذلكَ الأمرُ بقتلِ الخوارجِ .

---

(١) البخاري (٦٩٣١) ، (٧٤٣٢) ، ومسلم ٢/٧٤٦ (١٠٦٦) .

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره ٢٦/ ١٢٣ ، ١٢٤ .

. . . .

فتبيَّن مما تقدَّمَ أن قولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لا يكفِي في عصمَةِ الدمِ والمالِ ، بل إذا تبيَّنَ منهُ ما يُناقِضُ الإسلامَ قُتِلَ ، ولو قالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

س : ما الفرقُ بينَ هذهِ الشبهَةِ والتي قبلَها ؟

ج : أما الأُولَى فلمَّا ذكَرَ المصنِّفُ أن مشركي زمانِنَا أغلظُ شركًا من الأولينَ بأمرين ، اعترضُوا عليه بهذهِ الشبهةِ وهذهِ الفُروقِ ، وقالُوا : نحنُ نشهدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فكيفَ تجعلونَنا مثلَ أُولئكَ الذين لا يشهدُونَ . . . إلخ ، بل ما قصَرْتُمُونا عليهم ، بل زِدْتُمُونَا بهذينِ الأمرينِ .

فأجابَهُم المصنِّفُ بقولِه في جميعِ الشبَهِ : إن مَن وُجِدَ منه مكفِّرٌ بأن كانَ مصدِّقًا الرسُولَ في شيءٍ ومكذِّبَه في شيءٍ ، أو وُجِدَ منه مكفِّرٌ بأن رفَعَ المخلوقَ في رتبةِ الخالقِ ، أو وُجِدَ منه مكفِّرٌ بأن غلا في أحدٍ من الصالحينَ فادَّعَى فيه الألوهيَّةَ .

أو وُجِدَ منه مخالفَةُ الشريعةِ في أشياءَ ، مثلَ إباحتِهِ نكاحَ الأختينِ جميعًا ، أو وُجِدَ منه مكفِّرٌ بأيِّ نوعٍ كانَ من أنواعِ الرِّدةِ ، أو وُجِدَ منه مكفِّرٌ بأن استهزأَ باللَّهِ أو آياتِه .

وحاصلُها أن مَن وُجِدَ منه مكفِّرٌ فهو مثلُهم ، وهو معهُ هذهِ الفُروقُ يشهدُ أن لا إلهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ إلى آخرِ ما ذُكِر .

وأما الثانيةُ فهي أنهم يقولونَ : إن مَن قالَ : لا إِلَهَ إلا اللَّهُ فهو مسلمٌ حرامُ الدمِ والمالِ بدليلِ قصةِ أسامَةَ . . . إلخ .

فأجابهم المصنِّفُ بأن مَن أظهرَ الإسلامَ والتوحيدَ وجَبَ الكفُّ عنه إلى أن يتبيَّنَ منه ما يخالِفُ ذلكَ ، فإن تبيَّن منه مَا يخالِفُ ذلك قُوتِلَ ، ولو قالَها ، حتى يَعْمَلَ بما دلَّت عليهِ .

ولَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى : وَهِي ما ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بآدَمَ ، ثُمَّ بنُوحٍ ، ثُمَّ بإِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ بمُوسَى ، ثُمَّ بعِيسَى ، فكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُ حَتَّى يَنْتَهُوا إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قالُوا : فَهَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ الاسْتِغَاثَةَ بغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَتْ شِرْكًا[1] .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

وهو أن مُجَرَّدَ قولِ : «لا إلهَ إلا اللَّهُ» ليس مانعًا مِن القتلِ ، بل يَجوزُ قتالُ مَن قالها إذا وُجِد سببٌ يَقْتَضِي قتالَه .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(ولهم شبهةٌ أخرَى) ؛ يعني : مشركي هذه الأزمانِ غيرَ ما تقدَّم **(وهو ما ذكَرَ النبيُّ ﷺ)** وثبَتَ **(أن الناسَ يومَ القيامةِ يَسْتَغِيثون بآدمَ ، ثم بنوحٍ ، ثم بإبراهيمَ ، ثم بمُوسَى ، ثم بعيسى)** إذ اشتدَّ وطالَ بهم الموقفُ عمَدوا إلى الاستغاثةِ بهؤلاء .

(فكلُّهم يَعْتَذِرونَ حتى ينتهُوا إلى رسُولِ اللَّهِ ﷺ) فيقُولُ : «أنَا لها»[1] .

(قالُوا) قالَ المشبِّهُونَ بهذَا الحديثِ : **(فهذا يدُلُّ على أنَّ الاستغاثَةَ بغيرِ اللَّهِ ليست شركًا)** وهذا مِن جهلِهم ، ما عرَفُوا الفرقَ بينَ الاستغاثتين ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ حياتُه معَهُم في القيامَةِ أكمَلُ ، والاستغاثةُ الشركيَّةُ التي أنْكَرْناها هي ما يأتي بيانُه ، وهي الاستغاثةُ بالغائبِ ، أو الميِّتِ ، أو الحيِّ الحاضرِ الذي لا يَقْدِرُ .

وأما الجائزةُ فهي طلبُ الحيِّ الحاضِرِ .

وجنسُ سؤالِ النبيِّ موجُودٌ في اليوم الآخِرِ ، وإن كانَ قد انقطَعَ العملُ ، موجودٌ في النصُوصِ أنَّ النبيَّ ﷺ يَشْفَعُ لمَن أُذِنَ له فيهِ ، ففرقٌ بينَ ما هو معلومُ الجوازِ ، وبينَ ما هو معلومُ الحُرْمةِ والشِّركِ .

---

(١) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم ١/ ١٨٠ (١٩٣) .

وَالجَوَابُ : أَنْ نَقُولَ : سُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ على قُلُوبِ أَعْدَائِه ؛ فَإِنَّ الاسْتِغَاثَةَ بالمَخْلُوقِ فِيْمَا يَقْدِرُ عَلَيْه لا نُنْكِرُها ، كَمَا قَالَ تعالى في قصَّةِ مُوسى : ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص : ١٥] ، وَكَمَا يَسْتَغيثُ الإِنْسَانُ بأَصْحَابِهِ في الحَرْبِ أَوْ غَيْرِها في أَشْيَاءَ يَقْدِرُ عَلَيْها المَخْلُوقُ ، وَنحْنُ أَنْكَرْنَا اسْتِغَاثَةَ العِبَادَةِ التي يَفْعَلُونَها عِندَ قُبُورِ الأَوْلِيَاءِ ، أَو في غَيْبَتِهم في الأَشْياءِ التي لا يَقْدِرُ علَيْها إِلَّا اللَّهُ[1] .

---

(١) قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحمه اللَّهُ :

(فالجوَابُ أن نقُولَ : سبحانَ مَن طبَعَ على قُلوبِ أعدائِه) فحالَ بينَهم وبينَ معرفةِ الفرقِ بينَ هذهِ الاستغاثةِ وهذه الاستغاثةِ ، فصارُوا لا يُبْصِرونَ الشمسَ في رابعةِ النهارِ ، فلم يفرِّقُوا بينَ الشركِ والتوحيدِ ، فهذهِ شيءٌ ، وهذهِ شيءٌ آخرُ .

وبينَهُما فرقٌ في الكتابِ والسنةِ ، وفرقٌ في الحكمِ والحدِّ **(فإن الاستغاثةَ بالمخلوقِ على ما يَقْدِرُ عليهِ لا نُنْكِرُها)** يستغيثُ إنسانٌ إنسانًا في شيءٍ يقدرُ عليهِ .

(كما قالَ تعالى في قصةِ موسَى : ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ ، وكما يستغيثُ الإنسانُ بأصحابِه في الحربِ ، أو غيرِها من الأشياءِ التي يقدرُ عليها المخلوقُ ، ونحنُ أنكَرْنا استغاثةَ العبادَةِ التي يَفْعَلُونها عندَ قبورِ الأولياءِ) الأمواتِ مطلقًا **(أو في غيبتِهم)** والغائبين مطلقًا .

وقولُه : **(عند قُبورِ الأولياءِ في غيبتِهم)** خرَجَ مخرجَ الواقعِ والغالبِ ؛ وإلَّا فالأصنامُ ونحوُها كذلك ، والحيُّ الحاضرُ .

(في الأشياءِ التي لا يقدرُ عليها إلَّا اللَّهُ) كالسؤالِ منه هدايةَ القلوبِ ، أو رفعَ جبلٍ ، ونحوَه ، وهذا كلُّه استغاثةٌ شركيةٌ ، وكلُّها أنكَرْناها .

فمَن سوَّى بينَهما فقد سوَّى بين المتضادَّيْنِ ، وسوَّى بينَ المختلفينِ ، فهو نظيرُ

. . . .

التفريقِ بينَ المتماثلينِ ؛ فإنَّ الاستغاثةَ بالميتِ شركٌ أصلًا ، لكونِه فاقدَ الحَرَاكِ ، ولا يدري ، ولا يقدرُ .

والاستغاثةُ بالغائبِ أيضًا شركٌ ؛ لكونِه لا يسمعُ ، ولا يدرِي .

والاستغاثةُ بالحيِّ الحاضرِ فيها تفصيلٌ ؛ فإن كانَ فيما لا يقدرُ عليه كردِّ البصَرِ بغيرِ أمرِ طبيٍّ ، أو هدايةِ القلبِ بغيرِ الإرشادِ والحجَّةِ ، أو نحوِ ذلك ، فهذا كلُّه شركٌ أن يفعَلَ بسرِّه – أي : بألُوهيَّتِه – شيئًا من ذلكَ ؛ فإن هذا لا يقدرُ عليه إلّا اللَّهُ .

والاستغاثةُ بالحيِّ الحاضرِ القادرِ أمرٌ فطريٌّ ضروريٌّ معلومٌ بالشرعِ والحسِّ والاستعمالِ ؛ فإن الإنسانَ مدنيٌّ محتاجٌ إلى بَني جنسِه ومساعدتِهم في جميعِ معاشِه واتِّصالاتِه ، وهكذا كلُّ حياةِ العالَمِ على هذَا .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (ولهم شُبهةٌ أخرى) . يعني : في أنَّ الاستغاثةَ بغيرِ اللَّهِ ليست شركًا ، وقد أجاب عنها بجوابَين :

الأولُ : أنَّ هذه استغاثةٌ بمخلوقٍ فيما يَقْدِرُ عليه ، وهذا لا يُنكَرُ ؛ لقولِه تعالى في قصةِ موسى : ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ .

الجوابُ الثاني : أنَّ الناسَ لم يَستغِيثوا بهؤلاء الأنبياءِ الكِرامِ ؛ ليُزِيلوا عنهم الشدةَ ، ولكنهم يَستَشفِعون بهم عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ؛ ليُزيلُ هذه الشدةَ .

وهناك فرقٌ بينَ مَن يستغيثُ بالمخلوقِ ؛ ليَكْشِفَ عنه الضرَرَ والسُّوءَ ، ومَن يستَشْفِعُ بالمخلوقِ إلى اللَّهِ ؛ ليُزِيلَ اللَّهُ عنه ذلك .

إذا ثبَتَ ذَلِكَ فالاسْتِغَاثَةُ بالأَنْبِيَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ أن يَدْعُوا اللَّهَ أن يُحَاسِبَ النَّاسَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ أَهْلُ الجَنَّةِ مِنْ كَرْبِ المَوْقِفِ ، وَهَذَا جَائِزٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْتِيَ عِندَ رَجُلٍ صَالِحٍ حيٍّ يُجَالِسُكَ ، وَيَسْمَعُ كَلامَكَ ، وتَقُولُ لَهُ : ادْعُ اللَّهَ لِي ، كَمَا كانَ أَصْحابُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ ، وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِه فَحَاشَا وَكَلَّا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِهِ ، بَلْ أَنْكَرَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَلَى مَنْ قَصَدَ دُعَاءَ اللَّهِ عِنْد قَبْرِهِ فَكَيْفَ بِدُعَائِهِ نَفْسِهِ؟[1] .

---

(١) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(إذَا ثَبتَ ذلك) ؛ أي : إذا تقرَّرَ ما تقدمَ ، وهو الفرقُ بينَ الاستغاثتينِ ؛ الاستغاثةِ الشركيَّةِ التي أنْكَرْناها ، والجائزةِ ، أن التي أنْكَرْناها استغاثةُ العبادَةِ... إلخ ، لا الاستغاثةُ بالحيِّ الحاضرِ فيما يقدرُ عليه .

(فالاستغاثةُ بالأنبياءِ يومَ القيامَةِ) من الثانيةِ ؛ فإنها استغاثةٌ بحيٍّ حاضرٍ قادرٍ ، هم مع الناسِ حاضرونَ قادرونَ في حياةٍ أكمَلَ من هذهِ الحياةِ الدنيا .

(يريدُونَ منهم أن يَدْعُوا اللَّهَ أن يُحاسِبَ الناسَ حتى يَسْتَرِيحَ أهلُ الجنَّةِ من كرْبِ الموقفِ) فحقيقتُها أن يَرْغَبُوا إليهم أن يسألُوا اللَّهَ ويدعُوه **(وهذا جائزٌ في الدنيا)** ولا محذُورَ فيه (و) جائزٌ في **(الآخرةِ أن تأتيَ عندَ رجُلٍ صالحٍ حيٍّ يُجالِسُكَ ويسمَعُ كلامَكَ)** قادرٍ على الكلامِ **(وتقُولَ : ادعُ اللَّهَ لي)** لأنه متمكِّنٌ .

وكذلكَ الأنبياءُ مع الناسِ يومَ القيامةِ متمكِّنُونَ أن يسألُوا اللَّهَ ويدعُوه **(كَما كانَ أصحابُ رسُولِ اللَّهِ ﷺ يسألُونه)** ذلكَ **(في حيَاتِه)** كمَا قالت أُمُّ أنسٍ : يا رسُولَ اللَّهِ ، خُوَيْدِمُكَ أنَسٌ ادعُ اللَّهَ له[1] . وكما قالَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ : ادعُ اللَّهَ أن يَجْعَلَنِي منهُم[2] .

---

(١) رواه أحمد ٣/١٩٤ (١٢٩٤٧) ، ومسلم ١/٤٥٧ (٦٦٠) ، وفى البخارى (١٩٨٢) بلفظ «خادمك» بالتكبير ، لا بالتصغير .

(٢) البخارى (٦٥٤٢) ، ومسلم ١/ ١٩٩ ، ٢٠٠ (٢٢٠) .

. . . .

(**وأما بعدَ موتِهِ فحاشَا وكلَّا أنهم سأَلُوه ذلكَ عندَ قبرِه**) بل جاءتْهم الكروبُ ، ولم يأتِ أحدٌ زَمنَ الحَرَّةِ[١] ، ولا غيرِها ، بل يَعُدُّونه من أعظمِ المُنْكَراتِ ؛ فإن هذا هو الشركُ الأكبرُ ، ولعلمِهم أن ذلكَ مختصٌّ به في حياتِهِ ، وأنه انقطعَ بعدَ مماتِه ، فلا يَسْتَغِيثُونَه ، ولا يسأَلُونه أن يَدْعُوَ اللَّهَ لهم ، أو يدعُوا له .

(**بل أنكرَ السلفُ على مَن قصَدَ دُعاءَ اللَّهِ**) وحدَه مُخْلِصًا (**عندَ قبرِه**)؛ قبرِ النبيِّ يَظُنُّه أجْوَبَ ، كما أنكرَ عليُّ بنُ الحسينِ – وهو أعلمُ أهلِ البيتِ في زمانِه – على مَن أتى

---

(١) يعنى رحمه الله : وقعة الحرة ، وهذه الوقعة وقعت فى سنة ثلاث وستين من الهجرة ، وسببها أن يزيد بن معاوية بلغه أن أهل المدينة خرجوا عليه وخلعوه ، فأرسل إليهم جيشًا كثيفًا ، وأمرهم بقتالهم ، ثم المسير إلى مكة لقتال ابن الزبير ، فجاءوا وكانت وقعة الحرة ، على باب طَيْبَة ، وما أدراك ما وقعة الحرة ، ذكرها الحسن مرة فقال : والله ما كاد ينجو منهم أحد ، قتل فيها خلق من الصحابة ، رضى الله عنهم ومن غيرهم ، ونهبت المدينة ، وافتض فيها ألف عذراء ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، قال ﷺ : «من أخاف أهل المدينة أخافه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» . رواه مسلم ، وكان سبب خلع أهل المدينة له أن يزيد أسرف فى المعاصى .

وأخرج الواقدى من طرق أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل قال : والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ؛ إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ، ويشرب الخمر ويدع الصلاة .

قال الذهبى : ولما فعل يزيد بأهل المدينة ما فعل مع شربه الخمر وإتيانه المنكرات ، اشتد عليه الناس ، وخرج عليه غير واحد ، ولم يبارك الله فى عمره ، وصار جيش الحرة إلى مكة لقتال ابن الزبير ، فمات أمير الجيش بالطريق ، فاستخلف عليهم أميرًا ، وأتوا مكة ، فحاصروا ابن الزبير وقاتلوه ، ورموه بالمنجنيق ، وذلك فى صفر سنة أربع وستين ، واحترقت من شرارة نيرانهم أستار الكعبة سقفها وقرن الكبش الذى فدى الله به إسماعيل ، وكان فى السقف ، وأهلك الله يزيد فى نصف شهر ربيع الأول من هذا العام ، فجاء الخبر بوفاته ، والقتال مستمر ، فنادى ابن الزبير يا أهل الشام : إن طاغيتكم قد هلك .

وانظر تاريخ الخلفاء ١/ ٢٠٩ ، وتاريخ الطبرى ٣/ ٣٥٤ ، وتاريخ خليفة بن خياط ١/ ٢٣٦ ، والبداية والنهاية ٦/ ٢٣٣ .

. . . .

قبرَ النبيِّ ﷺ يدعُو اللَّهَ ، فنهاهُ ، وقال : ألا أحدِّثُكُ حديثًا سمِعْتُهُ من أبي ، عن جدِّي ، عن رسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قالَ : «لَا تتَّخذُوا قبري عيدًا ، ولا بُيُوتَكُم قُبُورًا ، وصلُّوا عليَّ ؛ فإنَّ صلاتَكُمْ تَبْلُغُني حيثُ كنتُم»[1] .

(فكيفَ دُعاؤُهُ) النبيِّ **(نفسَهُ)** إذا كانَ هذا إنكارَ السلَفِ على مَن قصَدَ دعاءَ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له عند قبرِ النبيِّ ، فكيفَ دعاؤُه نفسِهِ ؟ كيفَ لو وجَدُوهُ يدعوُ النبيَّ نفسَه ؟ فإنهُم يكونُون أشدَّ إنكارًا ؛ فإن الأولَ بدعةٌ ، ولا يجُوزُ .

وأما **الثانى** فهُو الشركُ الأكبرُ ؛ لأنه صَدَر منهُ مُخُّ العبادَةِ ، وهو دُعاءُ غيرِ اللَّهِ ، فما ظَنُّكَ لو سمِعُوا مَن يقُولُ : انْصُرْني أو ارْزُقْني ؟

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : (إذا ثبَت ذلك فاسْتغاثَتُهم بالأنبياءِ... إلخ) . هذا هو الجوابُ الثاني ، وهو أنَّ استغاثَتَهم بالأنبياءِ مِن بابِ طلبِ دعائِهم إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُرِيحَ الخلقَ من هذا الموقفِ العظيمِ ، وليس دعاءً لهم ، بل طَلَبَ دعائِهم لربِّهم عزَّ وجلَّ .

وهذا أمرٌ جائزٌ ، كما أن الصحابةَ رضي اللَّهُ عنهم يسألُون النبيَّ ﷺ أن يَدْعُوَ اللَّهَ لهم ، ففي الصحيحَيْن من حديثِ أنسٍ رضي اللَّهُ عنه أن رجلًا دخَلَ المسجدَ يومَ الجمعةِ ، والنبيُّ ﷺ يخْطُبُ ، فقال : يا رسولَ اللَّهِ ، هلَكَتِ الأموالُ ، وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ ، فادْعُ اللَّهَ يُغِثْنا . ولم يَقُلْ : فأَغِثْنا يا رسولَ اللَّهِ ، بل قال : فادْعُ اللَّهَ يُغِثْنا .

فرفَعَ النبيُّ ﷺ يديه ، وقال : «اللَّهمَّ أغِثْنا» . ثلاثَ مراتٍ ، فأنْشَأَ اللَّهُ سبحانَه وتعالى سَحابةً ، فأمْطَرَت ، ولم يَرَوُا الشمسَ أسْبوعًا كاملًا ، والمطرُ يَنْهَمِرُ .

---

(١) تقدم تخريجه .

. . . .

وفي الجمعةِ التاليةِ دخَل رجلٌ، أو الرجلُ الأولُ، فقال: يا رسولَ اللَّهِ، غرِق المالُ، وتَهَدَّمَ البناءُ، فادْعُ اللَّهَ تعالى يُمْسِكُها عنا.

فدعا النبيُّ ﷺ ربَّه، وقال: «اللَّهمَّ حَوَالَيْنا، ولا علينا، اللَّهمَّ على الآكامِ والظِّرابِ[1] وبطونِ الأوديةِ، ومنابتِ الشجرِ».

فانفَرَجَت السماءُ، وخرَج الصحابةُ يَمْشُون في الشمسِ[2].

فهذا طلبُ دعاءٍ مِن رسولِ اللَّهِ ﷺ للهِ عزَّ وجلَّ، وليس دعاءً لرسولِ اللَّهِ ﷺ، ولا استغاثةً به.

وبهذا يُعْرَفُ أن هذه الشُّبهةَ التي لبَّس بها هؤلاء شبهةٌ لا تنفعُهم، بل هي حجةٌ داحضةٌ عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

ثم ذكَرَ المؤلفُ رحِمهُ اللَّهُ أنه لا بأسَ أن تَأْتِيَ لرجلٍ صالحٍ، تَعْرِفُه، وتعرِفُ صلاحَه، فتسْأَلَه أن يدْعُوَ اللَّهَ لك، وهذا حقٌّ إلا أنه لا يَنبَغِي للإنسانِ أن يتَّخِذَ ذلك دَيْدَنًا له، كلما رأَى رجلًا صالحًا قال: ادْعُ اللَّهَ لي؛ فإنَّ هذا ليس مِن عادةِ السلفِ رضِي اللَّهُ عنهم، وفيه اتِّكالٌ على دعاءِ الغيرِ.

ومن المعلومِ أن الإنسانَ إذا دعا ربَّه بنفسِه كان خيرًا له؛ لأنه يفعَلُ عبادةً يتقَرَّبُ بها إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الدعاءَ مِن العبادةِ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] الآيةَ.

---

(١) الظِّراب، بكسر الظاء المعجمة، واحدها: ظَرِب ـ بفتح الظاء، وكسر الراء، بوزنِ «كَتِف» ـ وهى الجبال الصغار، وقد يُجْمَع فى القِلَّة على «أظْرُب». وانظر شرح مسلم للنووى ٣/ ٤٦٢، والنهاية لابن الأثير (ظ ر ب).

(٢) البخارى (١٠١٤، ١٠١٥)، ومسلم ٢/ ٦١٢ (٨٩٧).

وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى[١]، وَهِيَ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ اعْتَرَضَ لَهُ جِبْرِيلُ فِي الهواءِ فَقَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا. قَالُوا: فَلَوْ كَانَتِ الاسْتِغَاثَةُ بِجِبْرِيلَ شِرْكًا لَمْ يَعْرِضْها عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

والإنسانُ إذا دعا ربَّه بنفسِه فإنه يَنالُ أجرَ العبادةِ، ثم يعتَمِدُ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ في حُصولِ المنفعةِ ودَفعِ المضَرَّةِ، بخلافِ ما إذا طَلَب مِن غيرِه أن يدعُوَ اللَّهَ له فإنه يعتمِدُ على ذلك الغيرِ، وربما يكونُ تعلُّقُه بهذا الغيرِ أكثرَ مِن تعلُّقِه باللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وهذا الأمرُ فيه خطورةٌ، وقد قال شيخُ الإسلام رحِمه اللَّهُ: إذا طلَبَ الإنسانُ مِن شخصٍ أن يَدْعُوَ له فإنَّ هذا من المسألةِ المذمومةِ[١].

فيَنْبَغي للإنسانِ إذا طلَبَ من شخصٍ أن يدعُوَ له أن يَنْوِيَ بذلك نفعَ ذلك الغيرِ بدعائِه له، فإنه يُؤْجَرُ على هذا، وربما يَنالُ ما جاء به الحديثُ أَنَّ الرجلَ إذا دعا لأخيه بظَهْرِ الغيبِ قالت الملائكةُ: آمينَ، ولك بمثلِها[٢].

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ:

(ولهم شبهةٌ أخرى وهي قصةُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ لما أُلقِيَ في النارِ) حينَما أمَر عدوُّ اللَّهِ النُّمْرُودُ بجمعِ حطبٍ عظيمٍ، ثم أَضْرَمَ فيه النارَ، وأَمَرَ بإلقاءِ إبراهيمَ فيها **(اعترضَ له جبريلُ في الهواءِ)** حين أُلقِيَ من المَنْجنِيقِ.

(فقالَ: أَلَكَ حاجةٌ؟) في هذهِ الضِّيقَةِ[٣] والشدَّةِ أنفعُكَ بها **(فقالَ: أمّا إليكَ فلا)**[٤]

---

(١) الفتاوى ١/ ١٨٥.

(٢) رواه أحمد ٥/ ١٩٥ (٢١٦٠٤)، ٦/ ٤٥٢ (٢٧٤٣٠)، ومسلم ٤/ ٢٠٩٤ (٢٧٣٢، ٢٧٣٣)، وأبو داود (١٥٣٤)، وابن ماجه (٢٨٩٥).

(٣) الضِّيقة - بالكسر -: سوء الحال. القاموس المحيط (ض ى ق).

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره ١٧/ ٤٥، والبخارى فى التاريخ ١/ ١٤٨، وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٠، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠٧٧).

فالجَوَابُ : أنَّ هَذا مِن جِنْسِ الشُّبْهَةِ الأُولى ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَرَضَ عَلَيْه أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْه ؛ فَإِنَّهُ كَما قالَ اللَّهُ تَعالى فِيهِ : ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فَلَوْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَارَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَوْلَها من الأَرْضِ وَالجِبَالِ وَيُلْقِيَها في المَشْرِقِ أَوْ المَغْرِبِ لَفَعَلَ ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْه السَّلَامُ في مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنهُم لَفَعَلَ ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَرفَعَهُ إلى السَّمَاءِ لَفَعَلَ ، وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيٍّ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ يَرَى رَجُلًا مُحْتَاجًا فَيَعْرِضُ عَلَيْه أَنْ يُقْرِضَهُ ، أَوْ أَنْ يَهَبَهُ شَيئًا يَقْضِي بِهِ حَاجَتَهُ ، فَيَأْبَى ذَلِكَ الرَّجُلُ المُحْتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ ، ويَصْبِرُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ ، لا مِنَّةَ فِيهِ لأَحَدٍ ، فأَيْنَ هَذَا مِن اسْتِغَاثَةِ العِبَادَةِ والشِّرْكِ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ؟!(١) .

فصَبَرَ في شدةِ هذهِ الحاجةِ ، ثم قال إبراهيمُ عليه السلامُ : حسبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيلُ(١) . أي : كافينَا اللَّهُ وحدَه ، ونِعْمَ الموكُولُ إليه أمرُ عبادِهِ . فقالَ اللَّهُ تعالَى للنارِ : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانت بردًا وسلامًا عليهِ .

فالمقصُودُ أن هؤلاء المشركينَ شبَّهُوا بهذهِ القصةِ **(قالُوا : فلو كانت الاستغاثةُ بجبريلَ شركًا لم يَعْرِضْهَا على إبراهيمَ)** . وأصلُ ضلالِهم في هذهِ الشبهةِ عدمُ التفريقِ بينَ الجائزِ والحرامِ ، وعدمُ العلمِ والاطِّلاعِ على ما في الكتابِ والسنَّةِ والإجماعِ من بيَانِ ذلكَ .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(فالجَوابُ أن هذَا من جنسِ الشبهَةِ الأولَى ؛ فإن جبريلَ عرَضَ عليهِ أن ينفعَهُ بأمرٍ يَقْدِرُ عليهِ) وهو حيٌّ حاضرٌ قادرٌ ؛ فإن هذَا من جنسِ الاستغاثةِ بالحيِّ الحاضرِ القادرِ .

(فإنه كَما قالَ اللَّهُ تعالَى فيه : ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فلو أذِنَ اللَّهُ له أن يأخُذَ نارَ إبراهيمَ وما حولَها من الأرضِ والجبالِ ، ويُلْقِيَها في المشرقِ أو المغربِ لفعَلَ) كما صنَعَ حينَ أُمِرَ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣، ٤٥٦٤) .

. . . .

بقلعِ ديارِ قومِ لوطٍ وما حولَها من القرَى حتى بلَغَ بها عَنانَ[١] السماءِ[٢] .

(ولو أمرَهُ أن يضعَ إبراهيمَ عليهِ السلامُ في مكانٍ بعيدٍ عنهُم لفعلَ ، ولو أمرَهُ أن يرفعَهُ إلى السماءِ لفعلَ)

ثم مثلَ المصنِّفُ بحالَةِ إبراهيمَ وجبريلَ ، فقالَ : **(وهذا كرجُلٍ غنيٍّ له مالٌ كثيرٌ يرَى رجُلًا محتاجًا ، فيعرضُ عليه أن يُقْرِضَهُ أو أن يَهَبَ له شيئًا يقضي بهِ حاجَتَهُ)** هذا مَثَلُ جبريلَ **(فيأْبَى ذلكَ الرجُلُ المحتاجُ أن يأخُذَ ويصبرَ حتى يأتيَه اللَّهُ برزقٍ ، لا منةَ فيه لأحَدٍ)**.

هذا مَثَلُ إبراهيمَ عليه السلامُ ، فكما أن الفقيرَ لو قبِلَ من الغنيِّ لم يكنْ مشركًا فكذلكَ هذه .

(فأين هذَا من استغاثةِ العبادَةِ والشركِ) التي يفعلونها مع الأمواتِ والغائبينَ ، وهي عينُ شركِ المشركينَ الأولينَ من هذهِ الاستغاثةِ المذكورةِ **في قصةِ إبراهيمَ (لو كانُوا يَفْقَهون)**.

---

(١) العَنَان ـ بالفتح ـ : السَّحاب ، وبالكسر : سَيْر اللِّجام الذى تُمْسَك به الدابة . المعجم الوسيط (ع ن ن) .

(٢) روى ابن جرير رحمه الله فى تفسيره ١٢/ ٩٧ ، عن السدى رحمه الله أنه قال : لما أصبحوا ـ يعنى : قوم لوط ـ نزل جَبْرائيل ، فاقتلع الأرض من سبع أرَضِين ، فحملها حتى بلغ السماء الدنيا ، حتى سمع أهل السماء نُباح كلابهم وأصوات ديوكهم ، ثم قلبها فقتلهم ، فذلك حين يقول : ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ المنقلبة ، حين أهوى بها جَبْرائيل الأرض فاقتلعها بجناحه ، فمن لم يمت حين أسقط الأرض أمطر الله عليه ـ وهو تحت الأرض ـ الحجارة .
ومن كان منهم شاذًا فى الأرض .
وهو قول الله ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ ، ثم تتبعهم فى القرى فكان الرجل يأتيه الحجر فيقتله ، وذلك قول الله تعالى : ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ .

وَلْنَخْتِمِ الكَلامَ - إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالى - بِمَسْأَلةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا تُفْهَمُ مِمَّا تَقَدَّمَ ، وَلَكِنْ نُفْرِدُ لَهَا الكَلامَ ، لعِظَم شَأْنِها ، ولكثرَةِ الغَلَطِ فيها ، فنَقُولُ : لا خِلَافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ بالقَلْبِ واللِّسَانِ وَالعَمَلِ ، فَإِنِ اخْتَلَّ شيءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُسْلِمًا[1] .

فهذا جنسٌ وهذا جنسٌ ، فمَن سوَّى بينَهما فقد سوَّى بينَ المتباينَيْنِ من كلِّ وجهٍ ، وفي الحقيقةِ أن مَن قالَ هذا ، أَوْلَى ما له مراجعةُ عقلِه ؛ فمن قالَ : إن هذهِ مثلُ هذهِ ، أو توَقَّفَ فيها فهو مُصابٌ في عقلِه .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : ولهم شُبهةٌ أخرى ، وهي قصةُ إبراهيمَ عليه السلامُ لما أُلْقِي في النارِ . . . إلخ . والجوابُ عن هذه الشبهةِ .

أن جبريلَ إنما عرَضَ عليه أمرًا ممكنًا ، يُمكِنُ أن يقومَ به ، فلو أذِنَ اللَّهُ لجبريلَ لأنْقَذَ إبراهيمَ بما أعطاه اللَّهُ تعالى مِن القوةِ ؛ فإنَّ جبريلَ ، كما وصَفَه اللَّهُ تعالى : ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم : ٥] .

فلو أمَرَه اللَّهُ أن يأخُذَ نارَ إبراهيمَ وما حولَها ، ويُلْقِيها في المشرقِ ، أو المغربِ لفعَلَ ، ولو أمَرَه أن يَحْمِلَ إبراهيمَ إلى مكانٍ بعيدٍ عنهم لفعَل ، ولو أمَرَه أن يَرْفَعَه إلى السماءِ لفعَلَ .

ثم ضرَبَ المؤلفُ بهذا مثلًا : رجلٌ غنيٌّ أتَى إلى فقيرٍ ، فقال : هل لك حاجةٌ في المالِ ؟ مِن قرْضٍ ، أو هِبَةٍ ، أو غيرِ ذلك ؟ فإنما هذا مما يَقْدِرُ عليه ، ولا يُعَدُّ هذا شِركًا ، لو قالَ : نَعَمْ لي حاجةٌ ، أَقْرِضْني ، أو هَبْني . لم يَكُنْ مُشرِكًا .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(ولَنَختم الكلامَ ـ إن شاءَ اللَّهُ تعالى ـ بمسألةٍ عظيمةٍ مهمَّةٍ جدًّا تُفْهَمُ مما تقدَّم) من أجوبةِ الشُّبهاتِ السابقَةِ ؛ مجموعُ جوابِ الشبهاتِ السابقةِ يكفِي ، لكن متفرِّقٌ فيها ،

فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ ، مُعَانِدٌ ، كَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ ، وَأَمْثَالِهِمَا(١) .

وإفرادُها يكونُ أوعَى لها وأحفظَ .

ذُكِرَت في الأجوبةِ عمومًا ، وههنا خصوصًا **(ولكن نُفْرِدُ لها الكلامَ لعظمِ شأنِها ولكثرةِ الغلطِ فيها)** وما كانَ كذلكَ كانَ حقيقًا أن يحفظَهُ الطالبُ ، وأن يُثنىَ عليه الخاصِرُ .

(فنقولُ : لا خلافَ) بل إجمَاعٌ بين أهلِ العلمِ **(أن التوحيدَ لابُدَّ أن يكونَ بالقلبِ واللسانِ والعملِ)** فلابُدَّ من الثلاثةِ ؛ لابُدَّ أن يكونَ هو المعتقِدِ في قلبِه ، ولابُدَّ أن يكونَ هو الذي يَنْطِقُ به لسانُه ، ولابُدَّ أن يكونَ هو الذي تعمَلُ به جوارحُهُ .

(فإن اختلَّ شيءٌ من هذا) لو وحَّدَ بلسانِه دونَ قلبه ما نفَعَه توحيدُهُ ، ولو وحَّدَ بقلبِه وأركانِه دونَ لسانِه ما نفَعَه ذلكَ .

ولو وحَّدَ بأركانِه دونَ الباقي **(لم يكنِ الرجُلُ مسلمًا)** هذا إجماعٌ ، أن الإنسانَ لابُدَّ أن يكونَ موحِّدًا باعتقادِهِ ولسانِه وعملِه . وهذه أمثلَةُ اختلالِ واحدٍ من هذهِ الثلاثةِ .

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(فإن عرَف التوحيدَ ، ولم يعملْ بهِ فهو كافرٌ معاندٌ) إذا اعتقدَ ، ولا نطَقَ ، ولا عمِلَ بالحقِّ بأركانِه فهذا كافرٌ عندَ جميعِ الأمةِ **(كفرعونَ)** كما في آية : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ .

(وإبليسَ) وكذلك إبليسُ يعرفُ الحقَّ ، كما قالَ : ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ ، ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ فكفرُهما كفرُ عنادٍ ؛ فإن فرعونَ وإبليسَ يَعْرفان الحقَّ في الجملةِ ، وقد يَنْطِقون به ، وبعضُ الكفرِ يكونُ عن جهلٍ وعدَم بصيرةٍ .

(وأمثالِهما) كعلماءِ اليهودِ أمةِ الغضبِ ، وأمثالِهم ممن يَعْلَمُ الحقَّ ، ولا يعملُ به

وهَذا يَغْلَطُ فِيهِ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، يَقُولُونَ : هَذَا حَقٌّ ، ونَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا ، ونَشْهَدُ أَنَّهُ الحَقُّ ، وَلَكِنْ لا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ ، ولا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنا إِلَّا مَنْ وَافَقَهُم ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ[1] .

(وهذا) المقامُ مقامُ التوحيدِ ، وأنه لابُدَّ أن يكونَ بالقلبِ واللسانِ و العمَلِ .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه اللَّهُ :

ختَمَ المؤلفُ هذه الشُّبهاتِ بمسألةٍ عظيمةٍ هي :

أنه لابدَّ أن يكونَ الإنسانُ موحِّدًا بقلبِه وقولِه وعملِه ، فإن كان مُوحِّدًا بقلبِه ، ولكنه لم يوحِّدْ بقولِه أو بعملِه فإنه غيرُ صادقٍ في دعواه ؛ لأن توحيدَ القلبِ يتبَعُه توحيدُ القولِ والعملِ ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ : «ألَا وإنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه ، وإذا فسَدَت فَسَدَ الجسدُ كلُّه ، إلا وهي القلبُ»[1] .

فإذا وحَّد اللَّهَ ، كما زعَمَ بقلبِه ، ولكنه لم يوحِّدْه بقولِه أو فعلِه ، فإنه من جنسِ فرعونَ الذي كان مُستَيْقِنًا بالحقِّ ، عالمًا به ، لكنه أصرَّ ، وعانَدَ وبقِي على ما كان عليه من دعوَى الربوبيةِ .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] . وقال تعالى عن موسى أنه قال لفرعونَ : ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ [الإسراء : ١٠٢] .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه اللَّهُ:**

قولُه : **(وهذا يَغْلَطُ فيه كثيرٌ من الناسِ ... إلخ)**. يعني : أن كثيرًا من الناس يَعْرِفُ الحقَّ في هذا ، ويقولون : نحن نعرفُ أن هذا هو الحقُّ ، ولكننا لا نقدِرُ عليه لمخالفتِه أهلَ بلدِنا ، ونحوِ ذلك من الأعذارِ .

---

(١) البخارى (٥٢) ، ومسلم ٣/١٢١٩ (١٥٩٩) .

وَلَمْ يَدْرِ المسْكِينُ أنَّ غَالِبَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ يَعْرِفُونَ الحَقَّ ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ إلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الأَعْذَارِ ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِن الآياتِ ، كَقولِه : ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[1] .

وهذا العذرُ لا ينفعُهم عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ؛ لأن الواجبَ على المرءِ أن يلتمِسَ رضا اللَّهِ عزَّ وجلَّ ولو سخِط الناسُ ، وأن لا يَتَّبِعَ رضا الناسِ بسخَطِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ[1] .

وهذا يُشْبِهُ مَن يَحْتَجُّون بما كان عليه أباؤُهم ، وهم الذين حَكَى اللَّهُ عنهم : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ [الزخرف : ٢٢] والآيةُ الأخرى : ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(يَغْلَطُ فيه كثيرٌ من الناسِ) منهم مَن إذا نُعِتَ له التوحيدُ **(يقولون : هذا حقٌّ)** وهذا الذي نَدِينُ اللَّهَ به **(ولكن)** يعتذُرون ، يقولون : **(لانقدرُ أن نفعلَه ، ولا يجوزُ عندَ أهلِ بلدِنا إلا مَن وافَقَهم)** ؛ يعني : ما يوافقونَ أهلَ بلدِهِ .

(وغيرَ ذلكَ مِن الأعذارِ) التي اعتذَرَ بها ؛ يعني : ليس عَن جهلٍ بها ، ما جحَدُوها ، لكن آثروا العاجلَ والحُطامَ على الآجلِ .

(ولم يَدْرِ المسكينُ أن غالبَ أئمةِ الكفرِ يعرفونَ الحقَّ ، ولم يَتْرُكوه إلا لشيءٍ من الأعذارِ) التي هي مثلُ هذهِ الأعذارِ ، كما قال تعالى :﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ .

ففي هذا أنهم عرَفوا الحقَّ ، وإنما آفتُهم شهوتُهم ، وإيثارُ عاجلِهم على آجلِهم ، وغيرِ ذلك من الآياتِ كقولِه : ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ .

---

(١) روى ابن حبان رحمه الله في صحيحه (٢٧٦) ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «من التمس رضا الله بسَخَط الناس رضِي الله عنه ، وأرْضَى الناس عنه ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخِط الله عليه ، وأسخط الناس عليه» .

. . . .

فعلماءُ اليهود يعرفونَ الحقَّ ، ويعرفون أنه الحقُّ ، ولكن رِياساتُهم منعَتْهم من الانقيادِ له .

فمعرفتُهم وإقرارُهم بالحقِّ ما نفعَهم حيث ترَكوا العملَ به ، والانقيادَ ، كما كان اليهودُ قبلَ مَبْعَثِ النبيِّ ﷺ يقولون : إنه أظلَّ زمنُ الأنبياءِ[١]، وواللَّهِ لئن بُعِثَ نبيٌّ لنُقاتِلَنَّكم معه[٢] .

قال تعالى : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآيةَ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

قولُه : **(ولم يَدْرِ المسكين)** ؛ أي : المُعْدِمُ من الفقهِ والبصيرةِ أن غالبَ أئمةِ الكفرِ كانوا يعرِفون الحقَّ ، لكنهم عاندوا ، فخالَفُوا الحقَّ ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ وقال : ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ .

فكانوا يَعتذرون بأعذارٍ لا تنفَعهم ؛ كخوفِ بعضِهم من فواتِ الرئاسةِ ، وتصدُّرِ المجالسِ ، ونحوِ ذلك .

فكثيرٌ من أئمةِ الكفارِ يعرفون الحقَّ ، ولكنهم يَكْرَهُونه ، ولا يتَّبِعُونه ، ومعرفةُ الحقِّ دونَ العملِ به أشدُّ من الجهلِ بالحقِّ ؛ لأن الجاهلَ بالحقِّ يُعْذَرُ ، وقد يُعَلَّمُ فيَنْتَبِهُ ويتعلَّمُ ، بخلافِ المعانِدِ المستكبِرِ .

ولهذا كان اليهودُ مغضوبًا عليهم ؛ لعلمِهم بالحقِّ وتركِهم إياه ، وكان النصارَى ضالِّين ؛ لأنهم لم يعرفوا الحقَّ ، لكن بعدَ بِعْثةِ الرسولِ ﷺ كان

---

(١) يقال : أَظَلَّكَ فلانٌ : إذا دَنَا منك ، كأنه ألْقَى عليك ظِلَّه ، مُخْتار الصِّحاح (ظ ل ل) .

(٢) رواه الطبرى فى التفسير ١/ ٤١٠ ، ٤/ ٣٥، وعزاه فى الدر المنثور ١/ ٢١٥، ٢١٦ إلى ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبى نعيم ، والبيهقى ، كليهما فى الدلائل .

فَإِنْ عَمِلَ بالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا ، وَهُوَ لا يَفْهَمُهُ ولا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ ، فَهُوَ مُنافِقٌ ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الكَافِرِ الخَالِصِ : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[١] .

النصارى عالمين ، فكانوا مثلَ اليهودِ في كونِهم مغضوبًا عليهم .

(١) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(فإن عمِلَ بالتوحيدِ عملًا ظاهرًا) جرَى على لسانِه ، وعمِلَت بهِ أركانُه **(وهو لا يفهمُهُ ، أو لا يعتقدُه بقلبِه)** أو فهِمَهُ ، ولكن لم يَنْقَدْ بجَنانِه **(فهو منافقٌ ، وهو شرٌّ من الكافرِ الخالصِ)** فإن الكافرَ الخالصَ أتَى الشرَّ من وجهِه ، ولا خادَعَ ولا دلَّسَ ، ولا لبَّس وخانَ .

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ؛ يعني : تحتَ الكفارِ ، فهم أشرُّ من الكفارِ في الآخرةِ .

والنفاقُ مشتقٌّ من نافِقاءِ اليَرْبوعِ[١] إذا خالَفَ بابَ جُحْرِه .

وفي الشرعِ مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ : إما في الاعتقادِ كمن يقولُ باللسانِ ويعملُ بالأركانِ ، ولكن مخالفٌ بالجنانِ . فهذا نفاقٌ أكبرُ ، ناقلٌ عن الملةِ .

وقد ذكَرَ اللَّهُ المنافقينَ في ثلاثَ عشرةَ آيةً من سورةِ البقرةِ ، بخلافِ الكافرِ الأصليِّ فإنه أهونُ كفرًا من المنافقِ ، والكفارُ الأصليونَ ذُكِرُوا في آيتين من سورةِ البقرةِ .

والقسمُ الثاني : نفاقٌ عمليٌّ ، وهو ما ذُكِرَ في الحديثِ : «إذا حدَّثَ كَذَبَ ، وإذَا وَعَدَ أخْلَفَ ، وإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[٢] وصاحبُهُ لَا يكونُ مثلَ الأوَّلِ ، وهو أعظمُ

---

(١) نَافِقاء اليَرْبوع : إحْدَى جِحَرَةِ اليربوع ، يَكْتُمها ، ويُظْهِر غيرَها ، فإذا طُلِب من واحد ، هرَب إلى الآخَر ، وخرَج منه .

النهاية لابن الاثير ، والقاموس المحيط (ن ف ق) .

(٢) البخاري (٣٣ ، ٢٦٨٢ ، ٢٧٤٩ ، ٦٠٩٥) ، ومسلم ١/ ٧٨ (٥٩) .

وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةٌ كَبِيرةٌ طَويلَةٌ تُبَيِّنُ لَكَ إِذَا تَأَمَّلْتَها في أَلْسِنَةِ النَّاسِ ، تَرَى مَنْ يَعْرِفُ الحَقَّ ، ويَتْرُكُ العَمَلَ بِهِ لِخَوْفِ نَقْصِ دُنْيا ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ مُدَاراةً لأَحَدٍ ، وتَرَى مَنْ يَعْمَلُ بِهِ ظاهِرًا لا بَاطِنًا ، فَإِذَا سَأَلْتَهُ عَمَّا يَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ فَإذا هُوَ لَا يَعْرِفُهُ[1] .

من الكبائرِ ؛ فإن جنسَ ما أتَى في النصوصِ بتسميتِهِ كفرًا أو نفاقًا ، فهو أعظمُ مما أتَى أنه معصيةٌ مُتَوَعَّدٌ عليها بوعيدٍ ؛ لأن ذنبَ الشركِ والنفاقِ أعظمُ من غيرِه وأقبحُ .

وقال الشيخ ابنُ عُثَيمِينَ رحمه اللَّهُ :

يقولُ رحمه اللَّهُ : فإن عمِل بالتوحيدِ ظاهرًا ؛ أي : باللسانِ والجوارحِ ، ولكنه لم يعتقِدْه بقلبِه ، ولم يَفْهَمْه فإنه منافقٌ ، وهو شرٌّ من الكافرِ المُصَرِّحِ بكفرِه ؛ لقولِه تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .

وهذا ظاهرٌ فيمَن كان مُعانِدًا يعلَمُ الحقَّ ، ولكنه كرِهَه بقلبِه ، ولم يطمئِنَّ إليه ، ولم يستقرَّ به ، ولكنه أظهرَ الالتزامَ بالشريعةِ ؛ خداعًا للهِ ولرسولِه وللمؤمنين .

وأما مَن كان لا يفهمُهُ بالكلِّيةِ ، ولا يدرِي ، ولكنه يعملُ ، كما يعملُ الناسُ ، ولم يتبيَّن له ذلك الشيءُ الذي يعملونه ، والمقصودُ منه ؛ فإنَّ الواجبَ أن يُبَلَّغَ ويُعَلَّمَ ، فإن أصَرَّ على ما هو عليه من إنكارِه بقلبِه فهو منافقٌ .

(١) **قال الشيخ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحمه اللَّهُ :**

(وهذه المسألةُ) مسألةُ أن التوحيدَ لابُدَّ أن يكونَ بالقلبِ واللسانِ والعملِ **(مسألةٌ كبيرةٌ طويلةٌ)** جدًّا .**(تَبيَّنُ لكَ إذا تأملتَها في ألسنةِ الناسِ)** في أحوالِ الناسِ ، وأردتَ تحصيلَ ثلاثةِ الأمورِ : كونُهُم اعتقدُوه ، ونطقُوا به بألسنتِهم ، وكمَّلُوه بأعمالِهم ؛ فإنكَ تجدُ الأكثرَ لم يُكَمِّلُوا هذه الثلاثةَ ، بل إما هذا وإما هذا وإما اثنانِ .

وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِفَهْمِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ :

أُوْلاهُمَا : مَا تَقَدَّمَ مِن قَوْلِهِ : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة : ٩٦] ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ غَزَوُا الرُّومَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَفَرُوا بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ وَاللَّعِبِ ، تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الذِي يَتَكَلَّمُ بِالْكُفْرِ ، أَوْ يَعْمَلُ بِهِ ؛ خَوْفًا مِن نَقْصِ مَالٍ ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ مُدَارَاةً لأَحَدٍ أَعْظَمُ مِمَّن يَتَكَلَّمُ بِكَلِمةٍ يَمْزَحُ بِهَا(١) .

(ترى مَن يعرفُ الحقَّ) لكن **(يتركُ العملَ بِه)** وهذا مثلُ علماءِ اليهودِ ، ومثلُ فرعونَ ، ومثلُ إبليسَ **(لخوفِ نقصِ دنيا أو جاهٍ أو مداراةً)** هذا قسمٌ .

(و) القسمُ الثاني **(ترى مَن يعملُ بهِ ظاهرًا)** أما قلبُه فلا يصلُ إليه حقيقةُ الاعتقادِ .

(فإذا سألتَه عما يعتقدُه بقلبِه فإذا هو لا يعرفُه) فالأوَّلُ كثيرٌ ، والثاني دونَه ، والثالثُ قليلٌ ، فالذي يعرفُه وينطقُ به كثيرٌ ، وكذلكَ الذي يعتقدُه ويتكلمُ به كثيرٌ ، والثالثُ الذي يعتقدُ ويعملُ ، ولا ينطقُ ، وهو قليلٌ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحمه اللَّهُ :

بيَّن رحِمه اللَّهُ أن هذه المسألةَ مسألةٌ كبيرةٌ طويلةٌ ؛ يعني : أنَّ تتبُّعَهَا يَطولُ بواسطةِ أنَّ كثيرًا من الناسِ قد يأبَى الحقَّ ؛ خوفًا من أن يُلامَ عليه ، أو رجاءً لجاهٍ أو دنيا ، فيحتاجُ أن يتتبَّعَ أحوالَ الناسِ ، ويعرفَها تمامًا حتى يعلمَ مَن هو مُنافقٌ ، ومَن هو مؤمنٌ إيمانًا خالصًا .

(١) **قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :**

(ولكن عليكَ بفهمِ آيتين مِن كتابِ اللَّهِ) فإن بفهمِهما يتبيَّنُ لكَ ما قرَّرهُ المصنِّفُ من أن التوحيدَ لابُدَّ أن يكونَ بالقلبِ واللسانِ والعملِ ... إلخ.

(أولاهُما ما تقدَّم من قولِه : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ . فإذا تحققتَ

. . . .

أن بعضَ الصحابةِ الذينَ غزَوُا الرومَ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ كفرُوا بسببِ كلمةٍ) واحدةٍ .

(قالُوها على وجهِ المَزْحِ واللعبِ ، تبيَّنَ لكَ أن الذي يتكلمُ بالكفرِ ، أو يعملُ به ؛ خوفًا من نقصِ مالٍ ، أو جاهٍ ، أو مداراةً لأحدٍ أعظمُ ممن تكلَّمَ بكلمةٍ يَمْزَحُ بها) وأَوْلَى وأحقُّ بالكفرِ ممن تكلمَ بكلمةٍ يمزحُ بها ، وهو من الصحابةِ ، أفالصحابةُ الذين قالوها يصيرونَ كفارًا ، وهؤلاء لا يصيرونَ كفارًا؟!

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيمِينَ رحِمه اللَّهُ :

يحُثُّ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى على تدبُّرِ آيتين مِن كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ :

أولاهما : قولُه تعالى : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ . وهذه الآيةُ نزَلَت في المنافقين الذين سبُّوا رسولَ اللَّهِ ﷺ وأصحابَه القُرَّاءَ[1] .

فالمؤلفُ رحِمه اللَّهُ يقولُ : إذا كان هؤلاء المنافقون الذين غزَوْا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ في غزوةِ تبوكَ كفَرُوا بكلمةٍ قالوها على سبيلِ المِزاحِ ، لا على سبيلِ الجِدِّ ، فما بالُك بمَن يكفرُ كفرًا جِدِّيًّا ، يُريدُه بقلبِه من أجلِ خوفِ فواتِ مركزٍ ، أو جاهٍ ، أو ما أشْبَه ذلك ؛ فإنه يكونُ أعظمَ وأعظمَ .

فالواقعُ أن كلَّهم كفَروا بعدَ إيمانِهم ، سواءٌ فعلُوا ذلك استهزاءً ، أو فعلُوه على سبيلِ الجِدِّ والكفرِ ؛ خوفًا أو رجاءً ، فإنَّ كلَّ إنسانٍ يُظْهِرُ الإسلامَ ، ويُبْطِنُ الكفرَ فهو منافقٌ ، على أيِّ وجهٍ كان .

---

(١) تقدم تخريجه .

والآيَةُ الثَّانيةُ : قَولُه تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل : ١٠٦] . فَلَمْ يَعْذُرِ اللَّهُ مِن هؤلاءِ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئِنًّا بالإيمانِ ، وأَمَّا غَيْرُ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بعْدَ إيمانِهِ ، سَواءٌ فَعَلَهُ خَوْفًا ، أو مُداراةً ، أو مَشَحَّةً بِوَطَنِهِ أَوْ أَهْلِهِ ، أو عَشِيرَتِه أو مَالِهِ ، أو فَعَلَهُ عَلى وَجْهِ المَزْحِ ، أو لغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأغْرَاضِ ، إلَّا المُكْرَهَ[1] .

---

(١) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(والآيةُ الثانيةُ) من الآيتين الدالتين على مرادِ المصنِّفِ أن التوحيدَ لابُدَّ أن يكونَ بالقلبِ واللسانِ والعملِ ... إلخ . قولُه تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ ؛ أي : مَن صدرَ منه الكفرُ ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ . أي : إلا مَن كانَ في حقِّهِ شرطان :

الأولُ : الإكراهُ ، فلابُدَّ أن يكونَ مُكْرَهًا .

والثاني : كونُ قلبِه مطمئنًّا ساكنًا بالإيمانِ .

(فلم يَعْذُرِ اللَّهُ) لم يَستثْنِ اللَّهُ **(من هؤلاءِ إلا مَن أُكْرِه معَ كونِ قلبِه مطمئنًّا بالإيمانِ)** .

والإكراهُ كونُه وصَلَ إلى حدٍّ يَخْشَى على نفسِه القتلَ أو ولدِه ، فهذا يجوزُ أن ينطقَ بكلمةِ الكفرِ التي أكْرِهَ عليها بشرطِ كونِ قلبِه مطمئنًّا بالإيمانِ ؛ أي : معتقدَ الحقِّ بجَنانِه ، لكن إن كان لَمَّا أُكْرِهَ طاوعَ بقلبِه ، ولم يكنْ مطمئنًّا فهو من أهلِ الكُفْرانِ .

وأما غيرُ هذا فقد كفَرَ بعدَ إيمانِه ، سواءٌ فعَلَهُ خوفًا ، أو مداراة ، أو مُشَاحَّةً بوطنِه ، أو أهلِه ، أو عشيرتِه ، أو مالِه ، أو فعَلَهُ على وجهِ المزحِ ، أو لغيرِ ذلكَ من الأغراضِ ، إلا المُكْرَهَ .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

هذه هي الآيةُ الثانيةُ التي حَثَّ المؤلفُ رحِمه اللَّهُ تعالى على تدبُّرِها ، وهذه تَدُلُّ على أنه لا يُعْذَرُ أحدٌ كفَرَ بعدَ إيمانِه إلا مَن كانَ مُكْرَهًا .

فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلى هذا[1] مِن جِهَتَيْن :

الأُولى : قولُه : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فَلَمْ يَسْتَثْنِ اللَّهُ تعالى إِلَّا المُكْرَهَ ، ومَعْلُومٌ أنَّ الإنْسانَ لا يُكْرَهُ إِلَّا عَلى العَمَلِ أو الكَلامِ ، وَأَمَّا عَقِيدَةُ القَلْبِ فَلَا يُكْرَهُ أَحَدٌ عَليها .

والثَّانِيةُ : قَولُه تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ . فصَرَّحَ أنَّ هذَا الكُفْرَ والعَذَابَ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ الاعْتقَادِ ، أو الجَهْلِ ، أو البُغْضِ للدِّينِ ، أو مَحَبَّةِ الكُفْرِ ، وَإِنَّما سَبَبُهُ أَنَّ لَهُ في ذَلِكَ حَظًّا من حُظُوظِ الدُّنيا ، فَآثَرَهُ عَلَى الدِّينِ[2] .

وأما مَن كفَرَ على سبيلِ الاختيارِ لأيِّ غرضٍ من الأغراضِ ، سواءً كان مِزاحًا ، أو مُشاحَّةً في وظيفةٍ ، أو دفاعًا عن وطنٍ ، أو ما أشبَهَ ذلك فإنه يكونُ كافرًا .

فاللَّهُ عزَّ وجلَّ لم يَعْذُرْ مَن كفَرَ إلا مَن كان مُكرَهًا بشرطِ أن يكونَ قلبُه مطمئنًّا بالإيمانِ .

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيمِين رحِمه اللَّهُ :

أي : أنَّ اللَّهَ تعالى لم يستثنِ في الآيةِ من الكافرين إلا مَن أُكرِهَ ، والإكراهُ لا يكونُ إلا على القولِ أو الفعلِ .

أما عقيدةُ القلبِ فلا يَطَّلِعُ عليها إلا اللَّهُ ، ولا يُتَصَوَّرُ فيها الإكراهُ ؛ لأنه لا يمكِنُ لأحدٍ أن يُكْرِهَ شخصًا ، فيقولَ : لابدَّ أن تعتقدَ كذا وكذا ؛ لأنه أمرٌ باطنٌ ، لا يُعْلَمُ به ، وإنما الإكراهُ على ما ظهَرَ فقط بالقولِ أو الفعلِ .

(٢) قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ رحِمه اللَّهُ :

(والآيةُ تدلُّ على هذا) أن التوحيدَ لابُدَّ أن يكونَ بالقلبِ واللسانِ والعملِ **(من جهتين : الأولَى قولُه :﴿إلا من أكره﴾ فلم يَسْتَثْنِ اللَّهُ إلا المكرهَ ، ومعلومٌ أن الإنسانَ لا**

. . . .

يُكْرَهُ) لا يُتَصَوَّرُ في حقِّهِ الإكراهُ إلا بهذين الأمرينِ : **(إلا على العملِ أو الكلامِ ، وأما عقيدةُ القلبِ فلا يُكْرَهُ أحدٌ عليه)** .

فإذا فعَلَ وصدَرَ منه الكفرُ فإنه كافرٌ بعدَ إيمانِه .

(والثانيةُ) تقدمَ قولُ المصنِّفِ أنها تَدلُّ على ما قررَه من جهتين ، وتقدمت الجهةُ الأولَى ، وهذه الثانيةُ قولُه تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ الباءُ للسببِ ؛ يعني : ذلك بسببِ محبتِهِم ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ؛ يعني : الجنَّةَ .

(فصرَّحَ أن هذا الكفرَ والعذابَ) المحكومَ به عليهم في هذه الآيةِ والمُتَرَتِّبَ على ما صدَرَ منهم **(لم يَكُنْ بسببِ الاعتقادِ أو الجهلِ أو البغضِ للدينِ ومحبةِ الكفرِ ، وإنما سببُه)** ؛ أي : صدورُ الكفرِ منه ، أنه تكَلَّم بالكفرِ لسببٍ ، وهو أن له في التكلمِ بالكفرِ شيئًا واحدًا .

وهو **(أن له في ذلك حظًّا من حظوظِ الدنيا)** يحصلُ له فيرتكبُ هذا المحظورَ ؛ لأجلِ أنه لا يحصلُ له مطلوبُه إلا - والعياذُ باللَّهِ - بإيثارِ الحياةِ الدنيا .

(فآثره على الدينِ) على الآخرةِ .

فالإنسانُ الذي يُلْجِئُه مَن يُلْجِئُه إلى أن يَصْدُرَ منه الكفرُ ، له حالاتٌ :

أحدُها : أن يَمْتَنِعَ ويَصْبِرَ عليها ، فهذه أفضلُ الحالاتِ .

الثانيةُ : أن ينطقَ بلسانِه مع اعتقادِ جنانِه الإيمانَ ، فهذا جائزٌ له تخفيفًا ورحمةً .

الثالثةُ : أن يُكْرَهَ فيجيبَ ، ولا يَطْمَئِنَّ قلبُه بالإيمانِ ؛ فهذا غيرُ معذورٍ ، وهو كافرٌ .

الرابعةُ : أن يُطْلَبَ منه ولا يُلْجَأَ ؛ فيُجِيبَ ما وصلَ إلى حدِّ الإكراهِ ، ولكن يُوافِقُ بلسانِه ، وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمانِ ، فهذا كافرٌ .

الخامسةُ : أن يُذْكَرَ له ، ولا يَصِلَ إلى حدِّ الإكراهِ ، فيُوافِقُ بقلبِه ولسانِه فهذا كافرٌ .

واللَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى أعْلَمُ وَأَعَزُّ وأَكْرَمُ ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ ، وصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ[١] .

* * *

(واللَّهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وصلىَّ اللَّهُ على محمدٍ وآلِه وصحبِه آجمعين . آميـنَ) .

وقال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

الوجهُ الثاني : أنهم استحَبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ، فكان كفرُهم سببُه أنهم استحَبُّوا الدنيا على الآخرةِ ، ويعني بالدنيا : كلَّ ما يتعلَّقُ بها مِن جاهٍ ، أو مالٍ ، أو رئاسةٍ ، أو غيرِ ذلك ممن آثَرَ الدنيا بما فيها على الآخرةِ .

وكفرُه من أجلِ إيثارِ الدنيا ، فإنه يكونُ كافرًا ، وإن لم يكُنْ مُسْتَحِبًّا للكفرِ ، ولكنه مستحبٌّ لحياةِ الدنيا فإنه يَكْفُرُ .

وذلك أن بعضَ الناسِ يكفُرُ ؛ لأنه يحبُّ الكفرَ ويعجِبُه ، وبعضُ الناسِ يكفرُ لمالٍ ، أو جاهٍ ، أو رئاسةٍ ، وبعضُ الناسِ يكفُرُ لينالَ بذلك شيئًا مِن السلطانِ ، وما أشْبَهَ ذلك ، فالأغراضُ كثيرةٌ .

نسألُ اللَّهَ تعالى أن يَهْدِيَنا الصراطَ المستقيمَ ، وأن لا يُزِيغَ قلوبَنا بعدَ إذ هدانا .

(١) قال الشيخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رحِمه اللَّهُ :

ختَم شيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحِمه اللَّهُ تعالى كتابَه هذا بردِّ العلمِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، والصلاةِ والسلامِ على نبيِّه محمدٍ ﷺ .

وبهذا انتَهَى كتابُ كشفِ الشُّبُهاتِ ، فنسألُ اللَّهَ تعالى أن يُثيبَ مؤلِّفَه أحسنَ ثوابٍ ، وأن يجعَلَ لنا نَصيبًا من أجرِه وثوابِه ، وأن يَجْمَعَنا وإياه في دارِ كرامتِه ، إنه جَوَادٌ كريمٌ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وصلىَّ اللَّهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ .

الفهارس

أولًا : فهرس الأحاديث القولية والفعلية والآثار

* * *

ثانيًا : فهرس الفرق المترجم لهم في الحاشية

* * *

ثالثًا : فهرس الموضوعات

* * *



للأعلام

محمد بن إبراهيم آل الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

ضبط نصه وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه

أبو أنس أشرف بن يوسف

دار العقيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا



الطبعة الأولى

٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

رقم الإيداع : ٧٧١٢ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: 8 - 062 - 347 -977

دار العقيدة

الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٣/٥٧٦٥٦٢١

القاهرة : ٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت : ٠٠٢٠٢/٥١٤٣١٧٤



للأعلام

محمد بن إبراهيم آل الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

ضبط نصه وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه

أبو أنس أشرف بن يوسف

دار العقيدة



وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

الطبعة الأولى

٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

دار العقيدة

طبع * نشر * توزيع

رقم الإيداع : ٧٧١٢ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: 8 - 062 - 347 -977

دار العقيدة

الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٣/٥٧٦٥٦٢١

القاهرة: ٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٠٠٢٠٢/٥١٤٣١٧٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمةُ التحقيقِ

إنَّ الحمدَ للَّهِ نَحْمَدُه، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِه اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له.

وأشْهَدُ ألَّا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشْهَدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

أما بعدُ فهذا شرحٌ لكتابِ كَشْفِ الشُّبُهاتِ الذى أَلَّفَه الإمامُ المُجَدِّدُ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ رحِمه اللَّهُ.

وهذا الشرحُ هو للشيخِ الفاضِلِ: الشيخِ صالحِ بنِ فوزانَ بنِ عبدِ اللَّهِ الفوزانِ.

وقد قمتُ بتخريجِ الأحاديثِ والآثارِ وأقوالِ أهلِ العلمِ رحِمَهم اللَّهُ الواردةِ فى هذا الشرحِ المباركِ.

وقد قُمْتُ أيضًا بضبطِ هذا الشرحِ مع المتنِ ضبطًا إعرابيًّا، مع ضبطِ ما يُشْكِلُ من بِنْيةِ الكلمةِ، مُتَحَرِّيًا فى ذلك الدِّقَّةَ عن طريقِ البحثِ فى قواميسِ اللغةِ

المُعْتَمَدَةِ لَدَى أهلِ العلمِ رحِمَهم اللَّهُ ؛ كاللسانِ لابنِ مَنْظُورٍ ، والقاموسِ المحيطِ للفيروزآبادى ، ومُخْتارِ الصِّحاحِ للرازىِّ ، إلى غيرِ ذلك من القواميسِ .

فالحمدُ للَّهِ على تيسيرِه إتمامَ هذا العملِ ، واللَّهَ أَسْأَلُ أن يكونَ ما بُذِلَ فى هذا الكتابِ من الجُهْدِ لوجهِه خالصًا ، وأن يَجْعَلَه فيما يَتَقَبَّلُه من صالحِ أعمالِ عبادِه ، وصلَّى اللَّهُ وسَلَّم وبارَكَ على نَبِيِّنا محمدٍ ، وآلِه وصَحابتِه أجمعين ، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمِينَ .

أبو أَنَس أَشْرَفُ بنُ يُوسُف

٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ

تليفون : ٧١٤٢٥٨٣ - ٧١٢١٣٩١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمِينَ ، وصَلَّى اللَّهُ وسَلَّم على نبيِّنا محمدٍ ، وعلى آلِه وصَحْبِه أجْمَعِين ، أما بعدُ :

فهذه رسالةُ كَشْفِ الشُّبُهاتِ للإمامِ المُجَدِّدِ الشيخِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ رحِمه اللَّهُ تعالى .

وقبلَ أن نَدْخُلَ في موضوعِ الرسالةِ نَتَكَلَّمُ عن المؤلفِ والتعريفِ به مِن أجلِ أن يَكونَ عندَ طالبِ العلمِ معرفةٌ بهذا المؤلِّفِ وطريقتِه في دعوتِه ؛ لأنَّ هذا من الأمورِ المُهِمَّةِ في معرفةِ الأئمةِ ، والدُّعاةِ إلى اللَّهِ ومعرفةِ نشأتِهم ودعوتِهم من أجلِ أن يَسِيرَ طُلَّابُ العلمِ على نَهْجِهم ويَقْتَبِسوا من سِيرتِهم ، ويَقْتَدُوا بهم .

فهو الشيخُ الإمامُ المُجَدِّدُ شيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ بنِ سُلَيْمانَ بنِ عليِّ بنِ مشرفٍ التَّمِيميُّ النَّجْديُّ ، وُلِد رَحِمه اللَّهُ في بلدةِ العيينةِ[1] ، وهي قريةٌ في شمالِ الرياضِ ، وكانت مَحِلَّ أُسْرتِه .

نَشَأَ في بيتِ عِلْمٍ ، فأبوه كان القاضيَ في البلدِ ، وجَدُّه الشيخُ سُلَيْمانُ كان هو المُفْتِيَ والمَرْجِعَ للعُلَماءِ ، وأعمامُه كلُّهم عُلَماءُ ، فنَشَأَ في بيتِ علمٍ .

ودَرَسَ على يدِ أبيه عبدِ الوَهَّابِ ، وعلى أعمامِه منذُ صِغَرِه ، فقد حفِظَ القرآنَ الكريمَ قبلَ أن يَبْلُغَ سَنَّ العاشرةِ ، فاشْتَغَل في طلبِ العلمِ ، وحفِظ القرآنَ على أبيه ، وقرَأ كتبَ التفسيرِ والحديثِ ، حتى برَع في العلمِ ، وهو صغيرٌ .

---

(١) عام ١١١٥هـ ، وتُوفي رحمه الله ١٢٠٦هـ ، انظر الأعلام للزركلي ٢٧٥/٦ ، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة ٤٧٢/٣ (١٤٤٦٣) .

وأُعْجِبَ أبوه والعلماءُ مِن حولِه بذكائِه ونُبوغِه ، وكان يُناقِشُ فى المسائلِ العلميةِ ، حتى إنهم اسْتفادوا من مناقشتِه ، فاعْتَرَفوا له بالفضلِ .

ثم إنه لم يَكْتَفِ بهذا القَدْرِ من العلمِ ، وإن كان فيه الخيرُ إلا أن العلمَ لا يُشْبَعُ منه .

فرحَلَ لطلبِ العلمِ ، وترَكَ أهلَه ووطنَه ، وسافَرَ إلى الحجِّ ، وبعدَ الحجِّ ذَهَبَ إلى المدينةِ ، والْتَقَى بعلمائِها فى المسجدِ النَّبوىِّ ، خصوصًا الشيخَ عبدَ اللَّهِ بنَ إبراهيمَ بنِ سيفٍ ، وكان إمامًا فى الفقهِ وأصولِه ، وهو من أهلِ نجدٍ ، مِن أهلِ المجمعةِ فى سدير .

وكذلك ابنُه إبراهيمُ بنُ عبدِ اللَّهِ مؤلِّفُ كتابِ «العَذْبُ الفائضِ شرحُ ألفيةِ الفَرائضِ» .

والْتَقَى كذلك بالمُحَدِّثِ الشيخِ محمدِ حياةَ السِّنديِّ ، وأخَذَ منه إجازةً فى مَرْويَّاتِه من كتبِ الحديثِ ، ثم رجَعَ إلى بلادِه .

ولم يَكْتَفِ بهذا ، بل سار إلى بلادِ الأحساءِ فى شرقِ بلادِ نجدٍ ، وفيها العلماءُ من حنابلةٍ وشافعيةٍ ومالكيةٍ وحَنَفيةٍ ، وأخَذَ عنهم ، خصوصًا عن الحنابلةِ ، ومنهم محمدُ ابنُ فيروز ، وعبدُ الوَهَّابِ بنُ فيروز ، أخَذَ عنهم الفقهَ ، وأخَذَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللطيفِ الأحسائيِّ .

ولم يَكْتَفِ بهذا ، بل ذَهَبَ أيضًا إلى العراقِ - إلى البصرةِ خاصَّةً - وكانت آنَ ذاك آهِلةً بالعلماءِ فى الحديثِ ، والفقهِ ، فأخَذَ من علمائِها ، خصوصًا الشيخَ محمدًا المجموعيَّ وغيرَه .

وكان فى كلِّ تَنَقُّلاتِه إذا ظفِر بكتابٍ مِن كتبِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ ، ومن كتبِ تلميذِه ابنِ القيمِ نَسَخَه بقلمِه ، ونَسَخَ كثيرًا من الكتبِ فى الأحساءِ ، وفى البصرةِ ، فتجَمَّعَت لديه مجموعةٌ عظيمةٌ من الكتبِ .

ثم إنه هَمَّ بالسفرِ إلى بلادِ الشامِ لِمَا فيها من أهلِ العلمِ ، خصوصًا من الحنابلةِ وأهلِ الحديثِ ، ولكنه بعدَما سار إليها شقَّ عليه الطريقُ ، وحَصَلَ عليه جُوعٌ وعطشٌ ، وكاد أن يَهْلِكَ في الطريقِ ، وأنتم تَعْلَمون الإمكاناتِ في ذلك الوقتِ ، وبُعْدَ المسافةِ .

فرجَعَ إلى البصرةِ ، وعَدَل عن السفرِ إلى الشامِ ، ثم رَجَعَ إلى نجدٍ ، بعدَ ما تسَلَّح بالعلمِ ، وبعدَما حصَلَ على مجموعةٍ كبيرةٍ من الكتبِ ، إضافةً إلى الكتبِ التي كانت عندَ أهلِه ، وعندَ أهلِ بلدِه .

ثم اتَّجَه إلى الدعوةِ والإصلاحِ ونشرِ العلمِ النَّافعِ ، ولم يَرْضَ بأن يَسْكُتَ ، ويَتْرُكَ النَّاسَ على ما هم عليه ، بل أراد أن يَنْتَشِرَ علمُه ، وأن يَدْعُوَ إلى اللَّهِ ، فنَظَرَ في مُجْتَمَعِه ، فوَجَد فيه مِن الشرِّ والشركِ الأمورَ الكثيرةَ ، فأَخَذَته الغَيْرةُ على دينِ اللَّهِ ، والرحمةُ للمسلمين ، ورأَى أنه لا يَسَعُه السكوتُ على هذا الوَضْعِ .

وكان علماءُ نجدٍ يَعْنَوْن بالفقهِ ، وهم في العقيدةِ على عقيدةِ المُتَكَلِّمين من أشاعرةٍ ، وغيرِهم ، ليس لهم عنايةٌ بعقيدةِ السَّلَفِ ، كما هو في الشامِ ، وفي مصرَ ، وغيرِها من الأقطارِ ، وكانت العقيدةُ المُنْتَشِرةُ فيها هي عقيدةَ الأشاعرةِ ، مع ما عندَ كثيرٍ منهم من الإخلالِ بتوحيدِ الأُلوهيةِ .

وأمَّا عقيدةُ السَّلفِ ، فقَلَّ مَن يَعْنَى بها ، وطَغَت على الكثيرِ منهم الخُرافاتُ والبدعُ والشركُ في العبادةِ المُتَمَثِّلُ بعبادةِ القبورِ ، هذا من النَّاحيةِ العلميةِ .

وأما من النَّاحيةِ السياسيةِ ، فكانوا مُتَفَرِّقين ، ليس لهم دولةٌ تَجْمَعُهم ، بل كلُّ قريةٍ لها أميرٌ مُسْتَقِلٌّ بها ، فالعيينةُ فيها حاكمٌ ، والدرعيةُ فيها حاكمٌ ، والرياضُ فيها حاكمٌ ، وكلُّ قريةٍ صغيرةٍ فيها حاكمٌ ، وكانت بينَهم حروبٌ وسَلْبٌ ونَهْبٌ ، فيما بينَهم وبينَ القرى والباديةِ .

فمن الناحيةِ السياسيةِ كانتِ البلادُ في قَلَقٍ وتفرّقٍ ، وفي تناحرٍ وضَياعٍ ،

حتى إن أهلَ البلدِ الواحدِ يُقاتِلُ بعضُهم بعضًا .

وفى بلادِ نجدٍ عبادةُ القبورِ ، والاستغاثةُ بالأمواتِ ، فقد كانت عندَهم قُبورٌ للصَّحابةِ كقبرِ زيدِ بنِ الخطابِ رضِى اللَّهُ عنه ، الذى اسْتُشْهِد مع جماعةٍ من الصحابةِ فى حربِ مُسَيْلِمةَ الكَذَّابِ ، وكانوا يَسْتَنْجِدون بها ، ويَسْتَغِيثون بها ، وعلى قبرِ زيدٍ قُبَّةٌ ، وكانوا يَأْتُون إليها من بعيدٍ ، وهى مشهورةٌ عندَهم .

وعندَهم أشجارٌ ونَخيلٌ يَعْتَقِدون فيها ، ويَتَبَرَّكون بها ، بل كانت عندَهم النِّحَلُ الباطلةُ ، مثلَ الصوفيةِ ، ووَحْدةِ الوجودِ فى الرياضِ والخرجِ .

هكذا كانت حالتُهم الدينيةُ ، والعلماءُ ساكِتون عن هذا الوضعِ ، بل إنَّ بعضَ العلماءِ يُشَجِّعون على هذه الخُرافاتِ ، ويُؤَيِّدُونها .

فلمَّا رأَى رحِمه اللَّهُ حالَ المسلمين تحَرَّك للدعوةِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، وقام يَدْعُو إلى اللَّهِ ، ويُدَرِّسُ التوحيدَ ، ويُنْكِرُ هذه الشِّرْكياتِ والخُرافاتِ ، ويُقَرِّرُ منهجَ السلفِ الصالحِ ، فتكَوَّنَ عندَه تلاميذُ من الدرعيةِ والعيينةِ ممَّن أراد اللَّهُ له الخيرَ .

ثم إنه اتَّصَل بأميرِ العيينةِ ، وعرَضَ عليه الدعوةَ ، فقَبِل منه الأميرُ ، ووَعَدَه بالمُناصَرةِ فى أولِ الأمرِ ، وهَدَم قُبَّةَ زيدِ بنِ الخَطَّابِ ، حيث طَلَب من الأميرِ هَدْمَها ؛ لأنه لا يُمْكِنُ أن يَهْدِمَها إلا مَن له سلطةٌ ، أما الفردُ فلا يَسْتَطِيعُ ذلك .

فاسْتَجاب له الأميرُ ، وجاء إلى الشيخِ امرأةٌ اعْتَرَفَت بالزِّنَى ، وطلَبَت منه أن يُقِيمَ عليها الحدَّ ، فرَدَّها حتى كرَّرَتْ عليه الطَّلَبَ ، مثلَ ما فعَلَتِ الغَامِدِيَّةُ[1] رضِى اللَّهُ عنها فى عهدِ النبيِّ ﷺ ، فأقام عليها الحدَّ ، ورَجَمَها .

فلمَّا بَلَغَ أميرَ الأحساءِ هَدْمُ القبةِ ، وأنه رَجَم المرأةَ أرْسَل إلى أميرِ العيينةِ ، وقال : إمَّا أن تَطْرُدَ هذا المُطَّوِّعَ ، وإلَّا قطَعْتُ عنك المساعدةَ التى أُرْسِلُها إليك .

---

(١) انظر قصة الغامدية مسلم ١٣٢٢/٣ (١٦٩٥) ، وأبو داود (٤٤٤٠) .

فجاء الأميرُ إلى الشيخِ ، وعرَضَ عليه الأمرَ ، وقال : أنَا لا أَقْدِرُ أن أُقاوِمَ هؤلاء ، فهدَّأَه الشيخُ ، ووَعَدَه بالخيرِ ، وأن يَتَوَكَّلَ على اللَّهِ ، وأن الرزقَ بيدِ اللَّهِ ، وأنَّ هذه عقيدةُ التوحيدِ ، مَن قام بها فإن اللَّهَ يُعِينُه ويَنْصُرُه .

لكنَّ الأميرَ أصَرَّ على خروجِ الشيخِ من بلدِه ، فخَرَجَ الشيخُ مِن العيينةِ فى وقتِ القَيْلُولةِ ، وذَهَب إلى الدرعيةِ ، وكان له فيها تلميذٌ من خيارِ التلاميذِ ، يقالُ له : ابنُ سويلم .

فذَهَبَ الشيخُ من العيينةِ إلى الدرعيةِ ، ليس معَه إلَّا المِرْوَحَةُ اليَدَوِيَّةُ ، يُهَوِّى بها على وجهِه ، وهو يَمْشِى ، ويقولُ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

يُرَدِّدُ هذه الآيةَ ، وهو يَمْشِى ، فلمَّا وصَلَ إلى تلميذِه فى الدرعيةِ أصاب التلميذَ خوفٌ وقَلَقٌ من مَجِيءِ الشيخِ ؛ لأنه يَخْشَى على نفسِه ، وعلى الشيخِ من أهلِ البلدِ ؛ لأنهم مُتَحاذِرُون من هذا الشيخِ .

فهدَّأَه الشيخُ ، وقال : لا يَخْطِرْ فى بالِك شىءٌ أبدًا ، توَكَّلْ على اللَّهِ جلَّ وعلا ، فهو يَنْصُرُ مَن نَصَرَه .

وفيما هم كذلك علِمَت زوجةُ أميرِ الدرعيةِ ، وكانت امرأةً صالحةً ، فعرَضَت على زوجِها الأميرِ محمدِ بنِ سُعودٍ أن يُناصِرَ هذا الشيخَ الذى جاء ، وأنه نعمةٌ من اللَّهِ ساقها إليه ، فالبِدارَ باغتنامِه .

فأدْخَلَت عليه الطُّمَأْنِينةَ ، وحُبَّ الدعوةِ ، وحبَّ هذا العالمِ ، فقال الأميرُ : يَأْتِينى .

فقالت زوجتُه : بل اذْهَبْ أنت إليه ؛ لأنك إذا أرْسَلْتَ إليه ، وقلتَ : يَأْتِينى رُبَّما يقولُ الناسُ : طَلَبَه مِن أجلِ أن يَبْطِشَ به ، لكنك إذا ذهَبْتَ إليه يَكونُ هذا عِزًّا له ولك .

فذهَبَ إليه الأميرُ فى بيتِ التلميذِ ، وسلَّم عليه ، وسأَلَه عن قدومِه ، فشرَحَ له الشيخُ ، وبيَّنَ له أنه ليس عندَه إلَّا دعوةُ الرسلِ ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم ، وهى الدعوةُ إلى كلمةِ التوحيدِ ، وهى لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وشرَحَ معناها ، وبيَّنَ له أنها عقيدةُ الرسلِ .

فقال الأميرُ : أَبْشِرْ بالنصرِ والتأييدِ ، وقال له الشيخُ : وأَبْشِرْ بالعِزِّ والتمكينِ ؛ لأنَّ هذه الكلمةَ «لا إلهَ إلا اللَّهُ» مَن قام بها فإنَّ اللَّهَ يُمَكِّنُ له .

فقال له الأميرُ : لكنِّى أَشْتَرِطُ عليك شرطًا .

قال : وما هو ؟

قال : أن تَتْرُكَنى وما آخُذُ من الناسِ .

قال الشيخُ : لعَلَّ اللَّهَ يُغْنِيك عن هذا ، ويَفْتَحُ لك بابَ رزقٍ مِن عندِه .

فتفَرَّقا على هذا ، وقام الشيخُ بالدعوةِ ، وقام الأميرُ بالمُناصَرَةِ ، ثم تَوافَدَ الطُّلَّابُ على الدرعيةِ ، وصار للشيخِ مكانةٌ فيها ، فكان هو الإمامَ فى الصَّلاةِ والمُفْتِىَ والقاضىَ .

فتكَوَّنَت إمارةٌ للتوحيدِ فى بلادِ الدرعيةِ ، من ذلك الوقتِ ، وأرْسَل الشيخُ رسائلَ إلى أهلِ البُلْدانِ والقُرَى يَدْعُوهم إلى اللَّهِ والدخولِ فى عقيدةِ التوحيدِ ، وتَرْكِ البدعِ والخُرافاتِ .

فمنهم مَن اسْتَجاب وانْضَمَّ إلى الدعوةِ بدونِ جهادٍ ، وبدونِ قتالٍ ، ومنهم مَن مانَعَه ، وعانَدَه ، فقاتَلَ جنودُ التوحيدِ بقيادةِ الأميرِ محمدِ بنِ سُعودٍ ، وريادةِ الشيخِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ ، قاتَلُوا مَن عانَدَ وعارَضَ .

وامْتَدَّتِ الدعوةُ فى بلادِ نَجْدٍ ، وسلَّمَتِ البلادُ ومَن حولَها ، حتى أميرُ العيينةِ الذى كان له مَوْقِفٌ مع الشيخِ دَخَلَ فى وِلايةِ محمدِ بنِ سعودٍ .

وكذلك دخَلَت الرياضُ بعدَ قتالٍ شديدٍ ، وامْتَدَّت إلى الخرجِ ، وما وراءَ الخرجِ ، وإلى الشمالِ والجنوبِ ، حتى عمَّتْ من حدودِ الشامِ شمالاً إلى حدودِ اليمنِ جنوبًا ، ومن البحرِ الأحمرِ إلى الخليجِ العربيِّ شرقًا .

كلُّها صارَتْ تحتَ وِلايةِ الدرعيةِ ، باديةً وحاضرةً ، وأفاء اللَّهُ على الناسِ فى الدرعيةِ الخيرَ والرزقَ والغِنَى والثروةَ ، وقامت بها أسواقٌ تجاريةٌ ، واسْتَنَارَت بالعلمِ والقوةِ ببركةِ هذه الدعوةِ السَّلفيةِ التى هى دعوةُ الرسلِ ، عليهم السَّلامُ .

مؤلَّفـاته :

ألَّف الشيخُ الكتبَ ، وأعظُمها كتابُ التوحيدِ الذى هو حقُّ اللَّهِ على العبيدِ .

ومن مؤلَّفاتِه هذه الرسالةُ «كَشْفُ الشُّبُهاتِ» التى نحن بصَدَدِ شرحِها - إن شاءَ اللَّهُ تعالى - وهى عبارةٌ عن ردِّ الشُّبُهاتِ التى أُثِيرَت حولَ دَعْوةِ التوحيدِ التى قام بها الشيخُ .

والمرادُ بالكشفِ إزالةُ الغِطاءِ عن الشىءِ ، قال تعالى : ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق : ٢٢] .

والشُّبُهاتُ جمعُ شُبْهةٍ ، وهى الأمرُ المُشْتَبِهُ المُخْتَلِفُ ، الذى لا يُدْرَى ، هل هو حقٌّ أم باطلٌ ؟

ومنه قولُ الرسولِ ﷺ : «إن الحلالَ بيِّنٌ ، والحرامَ بيِّنٌ ، وبينَهما أمورٌ مُشْتَبِهاتٌ ، لا يَعْلَمُها كثيرٌ من الناسِ ، فمَن اتَّقَى الشُّبُهاتِ فقد اسْتَبْرَأَ لدينِه وعِرْضِه»[1] .

المُشْتَبِهاتُ هنا المرادُ بها الأمورُ التى لا يُدْرَى هل هى من الحلالِ أو من الحرامِ لسببِ تَجاذُبِ الأدلةِ فيها ، ولا يَعْلَمُها إلا الخواصُّ من أهلِ العلمِ .

فالشُّبُهاتُ هنا المرادُ بها الأمورُ المُشْتَبِهةُ التى فيها تَلْبِيسٌ وتَغْطِيةٌ وتَمْويهٌ على

(١) البخارى (٥٢ ، ٢٠٥١) ، ومسلم ١٢١٩/٣ (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

النَّاسِ ، يَظُنُّونها حقًّا ، وهى ليست بحقٍّ ، وكشفُها هو الإيضاحُ لبطلانِها .

والمرادُ هنا كشفُ ما كان عندَ الناسِ مِن شُبُهاتٍ حولَ عبادةِ القبورِ ، والاستغاثةِ بها ، التى عَمَّت كثيرًا من بلادِ الإسلامِ مِن بعدِ القرونِ المُفَضَّلةِ ، حيث أُدْخِلَ فى الإسلامِ ما ليس منه .

وذلك عن طريقِ الشِّيعةِ(١) والمُتَصَوِّفةِ(٢) ، فهم الذين تسَبَّبوا فى نشرِ هذه الشُّبُهاتِ ، وهذه الشِّرْكياتِ التى انْتَشَرَت فى بلادِ الإسلامِ بحُجَجٍ واهيةٍ ، والجُهَّالُ يَظُنُّونها حقًّا .

فيقولون : إن هؤلاء المَوْتَى عبادٌ صالِحون ، ولهم مَكانةٌ عندَ اللَّهِ ، ونحن أُناسٌ مُذْنِبون ، فهم يَتَوَسَّلون بهم ، ويَجْعَلونهم وسائطَ بينَهم وبينَ اللَّهِ فى غُفْرانِ الذنوبِ ، ويَتَقَرَّبون إليهم .

---

(١) الشيعة هم الروافض ، وسُمَّوا بذلك لرفضهم زيد بن على حينما توجه لقتال هشام ابن عبد الملك ، فقال أصحابه : تبرأ من الشيخين حتى نكون معك ، فقال : لا ، بل أتولاهما ، وأتبرأ ممن تبرأ منهما ، فقالوا : إذًا نرفضك ، فسميت الرافضة ، وهم يثبتون الإمامة عقلًا ، وأن أمامة على وتقديمه ثابت نصًّا ، وأن الأئمة معصومون ، وقالوا بتفضيل عليٍّ على سائر الصحابة ، وتبرأوا من أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة ، ويقولون برجعة الأموات وأن الأمة ارتدت بتركها إمامة على رضى الله عنه .

انظر تفاصيل مذهبهم فى : البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ، ص ٣٦، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ص ٧٧، ٧٨، رسالة فى الرد على الرافضة ، ص ٦٥، ٦٧.

(٢) الصوفية : سُمُّوا بذلك نسبة إلى اللِّبسة الظاهرة ، وهى الصوف غالبًا ، وهم طوائف متعددة ، أصولها متقاربة ، إن لم تكن واحدة .

ولقد مر التصوف بعدم مراحل ، فقد كان فى أوله زهدًا فى الدنيا وانقطاعًا لعبادة الله عز وجل ، ثم صار حركاتٍ ومظاهرَ خالية من الرُّوح والعبادة ، ثم صار إلحادًا وزندقة ، وهذا ما عبر عنه الواسطى بقوله : كان للقوم إشارات ، ثم صارت حركات ، ثم لم يبق إلا حسرات ، ثم صار إلحادًا وخروجًا عن دين الله ؛ فقالوا بالحلول ووَحْدة الوجود وإباحة المحرمات وترك الواجبات وعلم الباطن .

وفى عصرنا الحاضر نجد المتصوفة الزهاد ، وهم قليل ، ومتصوفة المظاهر وحب الشهرة والجاه والمال ، ومتصوفة الزندقة والانحلال ، وما أكثرهم . وانظر تفاصيل مذهبهم : مجموع الفتاوى ١١/ ١٩، ٢٠، كشف المحجوب ١/ ٢٣١، المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١١٢، ١٣٠.

وبسببِ ذلك تغَيَّرَت عقيدةُ التوحيدِ عندَ كثيرٍ من النَّاسِ من عهدٍ بعيدٍ بعدَ المائةِ الرابعةِ ، ومُضِيِّ القرونِ المُفَضَّلةِ ، حتى قَيَّضَ اللَّهُ لهذه الأمةِ علماءَ ، يَكْشِفون هذه الشُّبُهاتِ .

ومِن أبرزِهم شيخُ الإسلامِ أحمدُ ابنُ تيميةَ ، الذى قام ودَحَضَ هذه الشُّبُهاتِ ، ووضَّحَ للناسِ عقيدةَ التوحيدِ ، وكَتَبَ فى ذلك الكتبَ النافعةَ ، وبيَّن عقيدةَ السَّلفِ الصَّالحِ ، وسجَّلَها فى كتبِه مُدَعِّمًا مسائلَها بالأدلةِ القاطعةِ والبراهينِ الساطعةِ ، ودَحَضَ هذه الشُّبُهاتِ .

ثم تلاه تلاميذُه كالإمامِ ابنِ القيمِ فى كتبِه ، والإمامِ ابنِ كثيرٍ ، والإمامِ الذهبيِّ ، والإمامِ المِزِّيِّ ، وجاء بعدَهم الحافظُ ابنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رحِمه اللَّهُ .

إلى أن وَصَلَ الأمرُ للشيخِ الإمامِ المُجَدِّدِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ ، فتَلَقَّى هذه العقيدةَ بقوةٍ ، وقام بالدعوةِ إليها ، والجهادِ فى سبيلِها ، حتى اسْتَنارَت بها هذه البلادُ ، وللهِ الحمدُ .

وامْتَدَّت إلى البلادِ المجاورةِ فى مِصْرَ والشامِ والعراقِ ، وحتى فى بلادِ فارسَ عندَ أهلِ السنةِ .

وامْتَدَّت إلى الهندِ ، وإلى المغربِ ، وإلى كثيرٍ من البلادِ ، ولِلَّهِ الحمدُ .

فمَن أراد اللَّهُ له الخيرَ فإنه تأَثَّر بهذه الدعوةِ المُبارَكَةِ ، وعَرَفَ أنها دَعْوةُ حَقٍّ ، فاسْتَجاب لها وأَيَّدَها ، وقامَتِ الحجةُ على المُعانِدِين ، وللهِ الحمدُ والمِنَّةُ ، وزالَتْ عن البلادِ مَعالِمُ الشركِ والوَثَنِيةِ وعوائدُ الجاهليةِ .





شَرْحُ كَشْفِ الشُّبُهاتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال رحِمَه اللهُ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرحيمِ(١) .

---

(١) ابْتَدَأ الرسالةَ ببسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ، وهذه هي السُّنَّةُ ، أن تَبْدَأَ الكتبُ والرسائلُ ببسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ، كما ابْتَدَأ اللهُ تعالى بها في كتابِه .

فأولُ ما تَرَوْنَ في المصحفِ الشريفِ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة : ١ - ٢] .

وكذلك قبلَ كلِّ سورةٍ « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ » .

والنبيُّ ﷺ كان إذا كتَب يَبْدَأُ كتبَه بـ « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ »(١) ، وإذا تحَدَّث إلى أصحابِه يَبْدَأُ مجلسَه ببسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ .

والحكمةُ فى البَدْءِ بـ «بسمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ» التبرُّكُ بها ؛ لأنها كلمةٌ مُباركةٌ ، فإذا ذُكِرَت في أولِ الكتابِ ، أو في أولِ الرسالةِ تكونُ برَكةً عليه .

أمَّا الكتبُ أو الرسائلُ التي لا تَبْدَأُ ببسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ فإنها تكونُ ناقصةً ، لا خيرَ فيها .

ومن ناحيةٍ أخرى « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ » فيها الاستعانةُ باللهِ جلَّ وعلا ، فقولُه : ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ ؛ أى : أَسْتَعِينُ ، وأَتَبَرَّكُ بـ «بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ» .

---

(١) ومن ذلك الكتاب الذى أرسله النبى ﷺ إلى عظيم بُصْرَى «هرقل» ، وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . الحديث .

رواه أحمد ١/ ٢٦٢، ٢٦٣ (٢٣٧٠)، والبخارى (٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣)، ومسلم ٣/ ١٣٩٣ (١٧٧٣) .

[اعْلَمْ رحِمك اللَّهُ](١) أنَّ التوحيدَ هو إفرادُ اللَّهِ سبحانه بالعبادةِ(٢).

فالجارُّ والمجرورُ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ ، تقديرُه : أَسْتَعِينُ وأَتَبَرَّكُ بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ .

واللهُ عَلَمٌ على الذاتِ المُقَدَّسةِ .

والرحمنُ الرحيمُ اسمان كَريمان من أسمائِه الحُسْنَى يَتَضَمَّنانِ الرحمةَ .

(١) اعْلَمْ : هذه الكلمةُ يُبْدَأُ بها في التنبيهِ إلى الأمورِ المهمةِ ، فإذا أَرَدْتَ أن تُنَبِّهَ شخصًا على شيءٍ مُهِمٍّ من مسائلِ العلمِ ، تقولُ له : اعْلَمْ مِن أجلِ أن يَنْتَبِهَ .

واعْلَمْ : فعلُ أمرٍ ، مِن العلمِ ؛ يعني : تَعَلَّمْ ما يَأْتِي ، واهْتَمَّ به ، وأَلْقِ بالَك لما يُلْقَى عليك ، ولِمَا يُكْتَبُ لك .

فهذه كلمةٌ يُؤْتَى بها لأهميةِ ما يَأْتِي بعدَها ، قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨﴾ [المائدة : ٩٨] .

وقال تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة : ٩٣] .

فهذه كلمةٌ عظيمةٌ يُؤْتَى بها للاهتمامِ .

ثم قال : «رحِمك اللهُ » . هذا دُعاءٌ من الشيخِ رحِمه اللهُ لكلِّ مَن قرَأَ هذه الرسالةَ ، وهذا من بابِ التلطُّفِ لطالبِ العلمِ ، وتحسينِ الكلامِ له ، من أجلِ أن يُقْبِلَ على طلبِ العلمِ .

(٢) أي : اعْلَمْ هذه المسألةَ العظيمةَ ، واجْعَلْها في ذاكرتِك ، واجْعَلْها في

....

اهتمامِك دائمًا وأبدًا ، وهي :

« **أن التوحيدَ هو إفرادُ اللهِ بالعبادةِ** » ، وليس هو إفرادَ اللهِ بالربوبيةِ ؛ فإنَّ هذا أقَرَّ به المشركون ، ولم يكونوا مُوَحِّدين ؛ لأنهم لم يُفْرِدوا اللهَ بالعبادةِ .

فإقرارُهم بتوحيدِ الربوبيةِ ليس هو التوحيدَ المطلوبَ ، وإنما توحيدُ الربوبيةِ دليلٌ على توحيدِ الألوهيةِ ، ولازمٌ له .

فمَن أقَرَّ بتوحيدِ الربوبيةِ لزِمه أن يُقِرَّ بتوحيدِ الألوهيةِ ، واللهُ تعالى يَذْكُرُ في القرآنِ في كثيرٍ مِن الآياتِ توحيدَ الربوبيةِ دليلًا على توحيدِ الألوهيةِ ، كما قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة : ٢١ - ٢٢] .

هذا هو توحيدُ الربوبيةِ ، وهو دليلُ توحيدِ الألوهيةِ ، فأقام سبحانَه وتعالى الحُجَّةَ عليهم فيما أنْكَروه من توحيدِ الألوهيةِ بما اعْتَرَفوا به من توحيدِ الربوبيةِ ليُلْزِمَهم بذلك .

حيث قال لهم : كيف تَعْتَرِفون أنه هو الخالقُ الرازقُ المُحْيِي المُمِيتُ ، وأنه لا شَريكَ له في ذلك ، ثم تُشْرِكون في عبادتِه .

أما الذين يَقُولون : إنَّ التوحيدَ هو الإقرارُ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ الرازقُ المُحْيِي المُمِيتُ ... إلخ ، فهم غالِطون غَلَطًا فاحشًا ، ولم يأتوا بالتوحيدِ المطلوبِ الذي دَعَتْ إليه الرسلُ .

وعلى هذا المنهجِ الباطلِ أغْلَبُ عقائدِ المُتَكَلِّمين التي تُدَرَّسُ الآنَ في كثيرٍ من

وهو دينُ الرُّسُلِ الذى أرْسَلَهم به إلى عبادِه[1]، فأولُهم نوحٌ عليه

المدارسِ الإسلاميةِ .

وقَصْدُ الشيخ رحِمه اللهُ بهذا التعريفِ هو الردُّ على هؤلاء الذين ركَّزوا على توحيدِ الربوبيةِ ، وترَكُوا توحيدَ الألوهيةِ .

فهذه أولُ شُبْهةٍ ، وهي : أنهم جَعَلُوا توحيدَ الربوبيةِ هو التوحيدَ المطلوبَ ، وأنَّ مَن أفْرَدَ اللهَ به فهو المُوَحِّدُ ، وألَّفُوا كتبَهم فيه ، وبَنَوْا منهجَهم عليه ، وصَرَفُوا هَمَّهم إلى تحقيقِه .

(١) فالرسلُ كلُّهم ما طلَبُوا من النَّاسِ أن يُقِرُّوا بأنَّ اللهَ هو الخالقُ الرازقُ المُحْيِي المُمِيتُ ؛ لأنهم مُعْتَرِفون بهذا ، وإنما طالَبُوا الأممَ بإفرادِ اللهِ بالعبادةِ .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] ما قال أن يُقِرُّوا بأنَّ اللهَ هو الربُّ ؛ لأنهم مُقِرُّون بهذا .

بل قال : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ؛ أي : اتْرُكوا الشركَ باللهِ عزَّ وجلَّ في الألُوهيةِ .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ ما قال : إنه لا ربَّ سِوايَ ، ولا خالقَ إلّا أنا ، بل قال سبحانَه : ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ ؛ أي : لا معبودَ بحقٍّ سِوايَ .

هذا الذي بَعَث به اللهُ الرسلَ ، ما بعَثَ الرسلَ لتقريرِ توحيدِ الربوبيةِ ؛ لأنَّ هذا موجودٌ ، لكنه لا يَكْفِي ، بل بَعَثَهم لتوحيدِ الألوهيةِ الذي هو إفرادُ اللهِ تعالى بالعبادةِ ، وهو دينُ الرسلِ كلِّهم ، من أوَّلِهم إلى آخِرِهم .

السَّلامُ[1] .

---

(١) كما قال اللهُ سبحانَه وتعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء : ١٦٣] .

فدلَّت الآيةُ الكريمةُ على أن أولَ الرسلِ هو نوحٌ عليه الصلاةُ والسَّلامُ ، فنوحٌ هو أولُ رسولٍ بعدَ حدوثِ الشركِ فى الأرضِ ، وتَتابَعَتْ بعدَه الرسلُ على هذا المنهجِ الرَّبَّانيِّ .

وآخِرُهم محمدٌ ﷺ ، وهو خاتَمُهم ، ولا نَبِيَّ بعدَه إلى أن تقومَ الساعةُ ، قال اللهُ سبحانَه وتعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وقال ﷺ : « أنا خاتَمُ النبيين ، لا نَبيَّ بعدى » .

فهو آخِرُ الرسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وآخِرُ الأنبياءِ ؛ لأن كلَّ رسولٍ نبيٌّ ، فلا يُبْعَثُ بعدَه لا رسولٌ ، ولا نبيٌّ .

فمَن اعْتَقَدَ أنه يُبْعَثُ بعدَه رسولٌ ، أو نبيٌّ فهو كافرٌ ، قال ﷺ : « وسيَخْرُجُ بعدى كذَّابُون ثلاثون ، كلٌّ منهم يَدَّعِى أنه نبيٌّ ، وأنا خاتَمُ النبيين ، لا نبيَّ بعدى »[1] .

فمَن لم يَعْتَقِدْ خَتْمَ الرسالةِ بمحمدٍ ﷺ ، وأجاز أن يُبْعَثَ بعدَه نبيٌّ ، فهو كافرٌ باللهِ عزَّ وجلَّ ، مُكَذِّبٌ للهِ ولرسولِه ولإجماعِ المسلمين .

---

(١) الترمذى (٢٢١٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢) ، وابن ماجه (٣٩٥٢) ، وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى تعليقه على سنن أبى داود : صحيح .

أرْسَلَه اللَّهُ إلى قومِه لَمَّا غَلَوْا فى الصالِحِينَ[1] وَدًّا ، وسُواعًا ، ويَغُوثَ ،

(١) الغُلُوُّ هو مُجاوَزةُ الحدِّ ، والغلوُّ فى الصَّالحين هو اعتقادُ أنهم يَنْفَعون ، أو يَضُرُّون من دونِ اللهِ .

ودٌّ إلخ هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قومِ نوحٍ ، ماتوا فى عامٍ واحدٍ[1] ، فحزِن قومُهم عليهم حُزْنًا شديدًا ، فجاء الشيطانُ إليهم ، وقال لهم : صوِّروا صُوَرَهم ، وانْصِبُوها على مجالسِهم مِن أجلِ أن تَتَذَكَّروا أحوالَهم ، فتَنْشَطوا على العبادةِ .

جاءهم عن طريقِ النصيحةِ ، وهو يُريدُ لهم الهلاكَ ، فخدَعَهم بهذه الحِيلةِ ، واعْتَبَروا هذه وسيلةً صحيحةً ؛ لأنها تُنَشِّطُ على العبادةِ .

فهذا فيه التحذيرُ من فتنةِ الصُّورِ ، وفتنةِ الغلوِّ فى الصالحين .

وهؤلاء نظَرُوا لمصلحةٍ جُزْئيةٍ ، ولم يَنْتَبِهوا لما يَتَرَتَّبُ عليها من المفاسدِ .

فالإنسانُ لا يَنْظُرُ إلى المصلحةِ الجُزْئيةِ ، ويَنْسَى المَضَارَّ العظيمةَ التى تَتَرَتَّبُ عليها فى المستقبلِ .

ثم أُهْلِك قومُ نوحٍ بالطُّوفانِ ، فانْدَرَسَت هذه الأصنامُ إلى أن جاء عهدُ الطاغيةِ ، وهو مَلِكٌ من ملوكِ العربِ ، يقالُ له : عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ الخُزاعيُّ .

وكان له سلطانٌ على الحجازِ ، وكان فى أولِ أمرِه رجلًا ناسكًا على دينِ قومِه ، ولكن ذَهَب إلى الشامِ للعلاجِ ، فوجَدَ أن أهلَ الشامِ يَعْبُدون الأصنامَ ،

(١) روى البخارى (٤٩٢٠) عن ابن عباس قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابًا ، وسَمُّوا بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عبدت .

ويَعُوقَ ، ونَسْرًا.

وآخِرُ الرسلِ محمدٌ ﷺ، وهو الذى كسَّر صُوَرَ هؤلاء الصالحين[1].

فدَخَل فى فكرِه هذا الشيءُ ، فجاء إلى أهلِ الحجازِ والجزيرةِ ، فدعاهم إلى الشركِ .

وجاءَ الشيطانُ فأرْشَدَه إلى مواطنِ الأصنامِ التى كانت تُعْبَدُ عندَ قومِ نوحٍ ، والتى سُفِى عليها الرملُ بعدَ الطُّوفانِ ، فحفَرَها ، ونقَّب عنها ، فاسْتَخْرَجها ، ووَزَّعها على أحياءِ العربِ ، فانْتَشَر الشركُ من ذلك الوقتِ[1] .

وكانت هذه الأصنامُ الموروثةُ عن قومِ نوحٍ هى أكبرَ الأصنامِ ، وإلّا فلهم أصنامٌ كثيرةٌ حتى إنه كان حولَ الكعبةِ المُشَرَّفةِ ثلاثُمائةٍ وستون صنمًا[2] ؛ اللّاتُ والعُزَّى ومَناةُ الثالثةُ الأخرى ، هى أكبرُ أصنامِهم .

(١) كانت حالُ العربِ الدينيةُ قبلَ بَعْثِ النبيِّ محمدٍ ﷺ هى الوَثَنِيَّةَ ، ثم بَعَثَ اللَّهُ نبيَّه محمدًا ﷺ بمِلَّةِ إبراهيمَ السَّمْحةِ ، ودعاهم إلى التوحيدِ بمكةَ ، وبقِى ثلاثَ عشْرةَ سنةً يَدْعُوهم إلى التوحيدِ[2] ، ويُنْكِرُ عليهم عبادةَ الأصنامِ .

فاسْتَجابَ له مَن أراد اللَّهُ له الهِدايةَ مِن الصَّحابةِ الذين أسْلَموا معه فى مكةَ .

ثم إنَّ اللَّهَ أذِن لهم بالهجرةِ إلى الحَبَشةِ ، ثم إلى المدينةِ ، وهاجَرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ ، واجْتَمَع حولَه المُهاجِرون والأنصارُ ، وكوَّن جيوشَ التوحيدِ ، وصاروا يَغْزُون المشركين .

---

(١) انظر أخبار مكة ٥/ ١٦١، ومعجم البلدان ٥/ ٣٦٨.

(٢) سيأتى تخريجه قريبًا إن شاء الله تعالى فى قصة تكسير النبى ﷺ للأصنام .

(٢) البخارى (٣٩٠٣) ، ومسلم ٤/١٨٢٦ (٢٣٥١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

....

إلى أن جاءَ فى السنةِ الثامنةِ من الهجرةِ إلى مكةَ فاتحًا ، وصارَتْ مكةُ تحتَ سُلْطَةِ الرسولِ ﷺ ، وعندَ ذلك كسَرَ هذه الأصنامَ[1] التى حولَ الكعبةِ ، وغَسَلَ الصُّوَرَ التى فى جوفِ الكعبةِ[2] ، وأرْسَلَ إلى الأصنامِ التى حولَ مكةَ (اللاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ) من الصَّحابةِ مَن كَسَرها[3] .

ومنها صورُ هؤلاء الصَّالحين مِن قومِ نوحٍ ، وانْتَشَر التوحيدُ ، وانْدَحَر الشركُ ، وللَّهِ الحمدُ .

وهذا معنى قولِ الشيخِ – رحِمه اللَّهُ – : كَسَرَ صورَ هؤلاءِ الصَّالحين . وذلك يومَ فتحِ مكةَ ، وطهَّر اللَّهُ به حَرَمَه الشريفَ من هذه الأصنامِ .

وامْتَدَّ التوحيدُ مِن بِعْثَتِه ﷺ وعهدِ الخلفاءِ الراشدينِ وعهدِ القرونِ المُفَضَّلةِ كلِّها خاليًا من الشركِ .

فلما انْتَهَت القرونُ المُفَضَّلةُ انْتَشَر التصوُّفُ والتَّشَيُّعُ ، وعندَ ذلك حدَث الشركُ فى الأمةِ بعبادةِ القبورِ والأضْرحةِ ، وتقديسِ الأولياءِ والصالحين إلى وقتِنا هذا .

وهذا الشركُ موجودٌ فى الأمةِ ، ولكن يُقَيِّضُ اللَّهُ جلَّ وعلا مَن يُقِيمُ الحُجَّةَ على العبادِ من الدُّعاةِ المخْلِصين ، ويَهْدِى اللَّهُ على أيديهم مَن أراد اللَّهُ هِدايتَه .

(١) روى البخارى (٢٤٧٨، ٤٢٨٧، ٤٧٢٠) ، ومسلم ١٤٠٨/٣ (١٧٨١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح ، وَحَوْلَ الكعبة ثلاثمائة وستون نصبًا ، فجعل يطعنها بعودٍ كان بيده ، ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا» . ﴿جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾ .

(٢) انظر زاد المعاد ٣/ ٤٥٨.

(٣) زاد المعاد ٤١٣/٣ – ٤١٤، وابن سعد فى الطبقات ١٤٥/٢ – ١٤٦.

أرْسَلَه اللَّهُ إلى أُناسٍ يَتَعَبَّدون، ويَحُجُّون، ويَتَصَدَّقُون، ويَذْكُرُون اللَّهَ كَثِيرًا، ولكنهم يَجْعَلون بعضَ المخلوقاتِ وَسائطَ بينَهم وبينَ اللَّهِ، يقولون: نُرِيدُ منهم التقرُّبَ إلى اللَّهِ، ونُرِيدُ شفاعتَهم عندَه، مثلَ الملائكةِ، وعيسى، ومريمَ، وأناسٍ غيرِهم من الصالحين.

وهكذا يَنْبَغِي ويَجِبُ على طَلَبةِ العلمِ والدُّعاةِ أن يَهْتَمُّوا بهذا الأمرِ، وأن يَجْعَلوا الدعوةَ للتوحيدِ، وإنكارِ الشركِ، ودَحْضِ الشُّبُهاتِ من أَوْلَوِيَّاتِ دَعْوتِهم.

فهذا هو الواجبُ، وهذه دعوةُ الرسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ كلَّ أمرٍ يَهُونُ دونَ الشركِ، فما دام الشركُ موجودًا، فكيف تُنْكِرُ الأمورَ الأُخرى؟!

لابدَّ أن نَبْدَأَ بإنكارِ الشركِ أولًا، ونُخَلِّصَ المسلمين من هذه العقائدِ الجاهليةِ، ونُبَيِّنَ لهم بالحُجَّةِ والبُرْهانِ، وبالجهادِ في سبيلِ اللَّهِ إذا أمْكَنَ ذلك حتى تَعودَ الحَنِيفيَّةُ إلى المسلمين، كلٌّ بحسَبِ استطاعتِه ومَقْدِرتِه في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

يَجِبُ على الدُّعاةِ ألا يَغْفُلوا عن هذا الأمرِ، ويَهْتَمُّوا بأمورٍ أُخرى، ويَبْذُلُوا جهودَهم فيها، ولا يُغَطُّوا أعينَهم عن واقعِ الناسِ الواقعين في الشركِ، وعبادةِ الأضْرحةِ، واستيلاءِ الخُرَافِيِّينَ، وطَواغِيتِ الصوفيةِ على عقولِ الناسِ.

هذا أمرٌ لا يجوزُ السُّكوتُ عليه، وكلُّ دعوةٍ لا تَتَّجِهُ للنهيِ عنه فهي دعوةٌ ناقصةٌ، أو دَعْوةٌ غيرُ صالحةٍ، أو دعوةٌ غيرُ مُثْمِرةٍ.

كما أنه يَجِبُ أن يُعْلَمَ أن الإقرارَ بتوحيدِ الربوبيةِ لا يَكْفِي، ولا يَنْفَعُ إلَّا إذا كان معه الإقرارُ بتوحيدِ الألوهيةِ، وتحقيقُه قولًا وعملًا واعتقادًا، وأنّ المشركين الذين بُعِثَ إليهم نبيُّنا محمدٌ ﷺ كانوا مُقِرِّين بتوحيدِ الربوبيةِ، ولم يَنْفَعْهم إقرارُهم به لمَّا كانوا جاحِدين لتوحيدِ الألوهيةِ.

فبعَثَ اللَّهُ محمدًا ﷺ يُجَدِّدُ لهم دينَ أبيهم إبراهيمَ عليه السلامُ ، ويُخْبِرُهم أنَّ هذا التقرُّبَ والاعتقادَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ تعالى ، لا يَصْلُحُ منه شيءٌ لغيرِ اللَّهِ ، لا لمَلَكٍ مُقرَّبٍ ، ولا لنبيٍّ مُرْسَلٍ ، فضلًا عن غيرِهما.

وإلا فهؤلاءِ المشركون يَشْهَدون أن اللَّهَ هو الخالقُ وحدَه لا شريكَ له ، وأنه لا يَرْزُقُ إلا هو ، ولا يُحْيِي إلا هو ، ولا يُمِيتُ إلا هو ، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا هو ، وأنَّ جميعَ السماواتِ السبعِ ، ومَن فِيهن ، والأَرَضِينَ السبعِ ، ومَن فيهن ، كلُّهم عبيدُه ، وتحتَ تصرُّفِه وقَهْرِه[1].

فَإِذَا أَرَدْتَ الدَّليلَ على أنَّ هؤلاءِ المُشْرِكِينَ الَّذينَ قَاتَلَهُم رسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْهَدُون بهذا فَاقْرَأْ قولَه تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) أي : أنَّ مُشْركى العربِ الذين بُعِث إليهم محمدٌ ﷺ يَعْبُدون اللَّهَ ، ولم تَنْفَعْهم هذه العبادةُ لمَّا كانت مَخْلوطةً بالشركِ الأكبرِ .

ولا فرقَ بينَ أن يكونَ المُشْرَكُ به مع اللَّهِ سبحانَه صنمًا ، أو عبدًا صالحًا ، أو نبيًّا مُرْسَلًا ، أو مَلَكًا مُقَرَّبًا ، ولا أن يكونَ قَصْدُ المُشْرِكِ أنَّ مَعْبودَه ليس شريكًا للَّهِ فى ملكِه ، بل هو مجردُ وَسيلةٍ إلى اللَّهِ ، ومُقَرِّبٌ إليه .

فدلَّ ذلك على أمْرَيْن :

الأولُ : أن الإقرارَ بتوحيدِ الربوبيةِ وحدَه لا يَكْفِى للدخولِ فى الإسلامِ ، ولا يَعْصِمُ الدمَ والمالَ ، ولا يُنَجِّى من عذابِ اللَّهِ .

الأمرُ الثانى : أن عبادةَ اللَّهِ إذا دَخَلَها شيءٌ من الشركِ أفْسَدَها ، فلا تَصِحُّ العبادةُ إلّا مع الإخلاصِ .

ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وَقَوْلَهُ : ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وَغَيْرَ ذلك من الآياتِ[1].

---

(١) يقولُ الشيخُ رحِمه اللَّهُ تعالى : فإذا طلَبْتَ الدليلَ على أنَّ المشركين مُقِرُّون بهذا - يعنى : بتوحيدِ الربوبيةِ - وأنهم يُشْرِكون فى توحيدِ الألوهيةِ .

إذا أرَدْتَ الدليلَ على هذه المسألةِ العظيمةِ التى يُعْرَفُ بها الحقُّ من الباطلِ ، فاقْرأْ قولَه تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس : ٣١] .

فالمشركون يَعْتَرِفون بأنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى هو الخالقُ الرازقُ المُتَصَرِّفُ فى عبادِه ، الذى بيدِه الأمرُ ، لا يُنْكِرُ أحدٌ منهم هذا ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

هذا الرزقُ الذى تَأْكُلون منه ، وتَشْرَبون ، وتَلْبَسُون ، وتَرْكَبون ، مَن الذى جاء به ، هل جاءَتْ به الأصنامُ ؟

الأصنامُ جَماداتٌ وحِجارةٌ ، أم الأشجارُ ، أو الأمواتُ ، أو القبورُ ، والأضرحةُ ؟! كلُّها لا تَأْتى بأرزاقِكم ، فهم يَعْتَرِفون بأنَّ أصنامَهم لا تَخْلُقُ ، ولا تَرْزُقُ ، قال تعالى : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ .

السمعُ الحاسَّةُ العظيمةُ التى تَسْمَعُ بها الأصواتَ ، والبصرُ الذى تُبْصِرُ به

....

المَرْئِيَّاتِ ، هذه العينُ ، التى يَجْعَلُ اللَّهُ فيها هذا البصرَ ، وهذا النُّورَ ، مَن الذى خَلَقه فيك ؟

هل خَلَقَه أحدٌ غيرُ اللَّهِ ؟ فهل رأَيْتُم أحدًا من الخلقِ أوْجَدَ فى أحدٍ السمعَ إذا سُلِب منه ، وهل يَستَطيعُ أحدٌ أن يَرُدَّ للأعْمَى البصرَ الذى ذَهَبَ عنه ؟

لو اجْتَمَع أهلُ الأرضِ كلُّهم على أن يَجْعَلوا فى عَينِه بصرًا ما استطاعوا ، لا الأصنامُ ، ولا الأطِبَّاءُ ، ولا الحُذَّاقُ من العلماءِ .

فالمشركون مُعْتَرِفون بأن أصنامَهم لا تَعْمَلُ أىَّ شيءٍ من ذلك ، قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ .

لا يُوجَدُ أحدٌ يُجيبُ عن هذا السؤالِ ، ولا أحدَ يَستَطِيعُ غيرَ اللَّهِ أن يَأْتيَ بالسمعِ والبصرِ .

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ هذا من العجائبِ ، يُخْرِجُ الحىَّ من الميتِ ، يُخْرِجُ الزرعَ من الحبَّةِ ، ويُخْرِجُ المؤمنَ من الكافرِ ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ .

يُخْرِجُ الكافرَ من المؤمنِ ، ويُخْرِجُ البَيْضةَ من الطائرِ ، الذى يَقْدِرُ على هذا هو اللَّهُ سبحانه وتعالى :

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ﴾ هذا عمومٌ ؛ يعنى : كلُّ الأمورِ من الموتِ والحياةِ والمرضِ والصحةِ والكفرِ والإيمانِ والغِنَى والفقرِ والليلِ والنهارِ والعِزِّ والذُّلِّ والملكِ ، يُعْطِى ذلك مَن يَشَاءُ ، ويَأْخُذُه ممَّن يَشَاءُ .

كلُّ ما يَجْرِى فى هذا الكونِ من تقلُّباتٍ وتَغَيُّراتٍ ، مَن الذى يُوجِدُ هذه

....

التغيُّراتِ ، وهذه التقلُّباتِ ؟

فسيقولون : اللَّهُ ، فقال اللَّهُ لنبيِّه ﷺ : ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما دام أنكم مُعْتَرِفون أنَّ هذه الأمورَ بيدِ اللَّهِ ، وأنَّ أصنامَكم لا تَفْعَلُ شيئًا منها ، أفلا تَتَّقُونَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ، وتُوَحِّدونه وتُفْرِدُونه بالعبادةِ ؟

لأنكم إن لم تَتَّقُوا اللَّهَ فإنَّ اللَّهَ يُعذِّبُكم ؛ لأنه أقام عليكم الحُجَّةَ ، وقَطَع منكم المَعْذِرةَ ، فلم يَبْقَ إلا العذابُ ، ما دُمْتُم عرَفْتُم الحقَّ ، ولم تَعْمَلوا به ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس : ٣٢] .

تبيَّنَ لكم أن العبادةَ حقٌّ للَّهِ تعالى ، فلا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللَّهُ سبحانَه وتعالى ، فإن لم تَعْبُدوه فإنَّ هذا ضلالٌ ، فماذا بعدَ الحقِّ الذى هو التوحيدُ وإفرادُ اللَّهِ بالعبادةِ إلّا الضلالُ ، الذى هو الشركُ .

فلْيَحْذَرِ المُسْلِمُ من هذا ، ولْيَقْبَلِ الحقَّ إذا تَبيَّنَ له ، خصوصًا فى أَمرِ التوحيدِ والعقيدةِ ، يَقْبَلُ الحقَّ إذا تبيَّنَ له ، ويَخافُ أن يُصْرَفَ عنه ، فلا يَقْبَلُه بعدَ ذلك .

وقولُه تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون : ٨٤ - ٨٩] .

هذه آياتٌ من سورةِ المؤمنون ، مثلُ الآياتِ التى فى سورةِ يونُسَ التى ساقها المصنِّفُ ، ومثلُ غيرِها من الآياتِ التى تُقَرِّرُ أن المشركين يَعْتَرِفون للَّهِ بربوبيتِه ، ولكنهم يُعارِضُون فى توحيدِ الأُلوهيةِ .

فإذا تحَقَّقْتَ أنهم مُقِرُّون بهذا، ولم يُدْخِلْهم في التوحيدِ الذي دعاهم إليه رسولُ اللَّهِ ﷺ، وعرَفْتَ أنَّ التوحيدَ الذي جحَدُوه هو توحيدُ العبادةِ الذي يُسَمِّيه المشركون في زمانِنا (الاعتقادَ)(١).

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥] ما دامت الأرضُ، ومَن فيها للَّهِ، كيف تَعْبُدون الأصنامَ التى لا تَمْلِكُ شيئًا، وتَعْبُدون القبورَ الميتةَ التى لا حَياةَ فى أصحابِها ؟!

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥﴾ أفلا تَذَكَّرون أن الذى يَمْلِكُ الأرضَ، ومَن فيها، هو المُسْتَحِقُّ للعبادةِ دونَ هذه الأصنامِ التى تَعْبُدونها.

وهذا إقامةٌ للحُجَّةِ عليهم بما يَعْتَرِفون به على ما جحَدُوه، فهم يَعْتَرِفون بتوحيدِ الربوبيةِ، ويَجْحَدون توحيدَ الألوهيةِ.

(١) أى: إذا عرَفْتَ أن المشركين مُقِرُّون بتوحيدِ الربوبيةِ، وأنَّ الذى جَحَدوه هو توحيدُ الألوهيةِ، وهم يقولون: إنَّ اللَّهَ هو الخالقُ الرازقُ المُحْيِى المُمِيتُ، لكن إذا قيل لهم: قُولُوا لا إلهَ إلَّا اللَّهُ قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

أى: إذا قيل لهم: اعْبُدوا اللَّهَ، ولا تُشْرِكوا به شيئًا قالوا كما قال قومُ نوحٍ مِن قبلُ: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

كذلك هؤلاء المشركون كان الجِدالُ الذى بينَهم وبينَ الرسولِ ﷺ هو فى عبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شَريكَ له، فالرسولُ ﷺ يقولُ لهم: «قولوا: لا إلهَ إلا اللَّهُ تُفْلِحوا»(١)، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٦٣، ٣٤١، ٥/ ٣٧١، ٣٧٥ (١٥٩٦٥، ١٦٥٥٦، ١٨٩٠٥، ٢٣٠٤٤،=

كما كانوا يَدْعُون اللَّهَ سبحانَه ليلًا ونهارًا[١]، ثم منهم مَن يَدْعو

ويقولون : هذا دينُ آبائِنا وأجدادِنا ، حتى إنَّ أبا طالبٍ عندَ الوفاةِ لمَّا طَلَب منه الرسولُ ﷺ أن يَقولَ : «لا إلهَ إلا اللَّهُ » أَبَى أن يقولَها . وقال : هو على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ[١] .

وملةُ عبدِ المطلبِ عبادةُ الأصنامِ ، هذا هو مَحَلُّ النزاعِ بينَ الرسلِ ، وبينَ الأممِ ، فالرسلُ يقولون للأمم : اعْبُدوا اللَّهَ ، ولا تُشْرِكُوا به شيئًا ، ولكنَّ المشركين أبَوْا إلّا البقاءَ على عبادةِ الأصنامِ .

فالخُصومةُ بينَ الرسلِ ، وبينَ الأممِ هي في توحيدِ الألوهيةِ ، أمَّا توحيدُ الربوبيةِ فهو مَحَلُّ إجماعٍ عندَ الجميعِ ، لم يُخالِفوا فيه ، وإنما خالَفوا في توحيدِ الألوهيةِ .

فهو مَحَلُّ النزاعِ ، وهو الذي شُرِع من أجلِه الجهادُ في سبيلِ اللَّهِ ، يقولُ الرسولُ ﷺ : « أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلّا اللَّهُ »[٢] . وفي روايةٍ : « إلى أن يَشْهَدوا : أن لا إلهَ إلّا اللَّهُ »[٣] .

فلو كان الرسولُ ﷺ يَطْلُبُ منهم الإقرارَ بتوحيدِ الربوبيةِ ما صار بينَهم خُصومةٌ ، ولا نِزاعٌ ؛ لأنهم مُعْتَرِفون به .

(١) وهذا أمرٌ ثانٍ من شأنِ المشركين ، كما أنهم يَعْتَرِفون بتوحيدِ الربوبيةِ فهم أيضًا يَعْبُدون اللَّهَ ، فيَدْعُونه ويَحُجُّون إلى البيتِ ويَعْتَمِرون ويَتَصَدَّقون ويَعْبُدون

=٢٣٠٨٥) ، وابن خزيمة في صحيحه ١/ ٨٢ (١٥٩) ، وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٥١٨ ، والحاكم في مستدركه ١/ ٦١، ٢/ ٦٦٨، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

(١) البخاري (١٣٦٠ ، ٣٨٨٤ ، ٤٦٧٥ ، ٤٧٧٢ ، ٦٦٨١) ، ومسلم ١/ ٥٤ (٢٤) .

(٢) البخاري (٢٩٤٦) ، ومسلم ١/ ٥٢ (٢١) .

(٣) البخاري (٢٥) ، ومسلم ١/ ٥٢ (٢١) ، الحديث رقم (٣٤) من كتاب الإيمان .

....

اللَّهَ بأنواعٍ مِن العبادةِ ، لكنهم يَخْلِطونها بالشركِ ، بحيث يَعْبُدون اللَّهَ ، ويَعْبُدونَ غيرَه .

وهذا لا يَنْفَعُهم شيئًا ؛ لأن الشركَ يُبْطِلُ عبادتَهم ، فالعبادةُ لا تَنْفَعُ إلّا مع الإخلاصِ ، ولهذا يقولُ جَلَّ وعلا : ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء : ٣٦] .

وقال سبحانَه وتعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف : ١١٠] .

ما اقْتَصَرَ على قولِه : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ .

بل لابدَّ أن يَتَجَنَّبَ الشركَ ، فإذا كان لم يتَجَنَّبِ الشركَ ، ولو كان يَعْمَلُ أعمالًا كثيرةً ، فإنها تَبْطُلُ ، ولا تَنْفَعُ ، فالمشركون كان عندَهم عباداتٌ للَّهِ عزَّ وجلَّ ، وهي مِن بقايا دينِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السَّلامُ .

فكانوا في البدايةِ على دينِ إبراهيمَ ، ولكن لمَّا جاء عمْرو بنُ لُحَيٍّ الخُزاعي غيَّر دينَهم ، وأدْخَل فيه الشركَ[1] .

---

(١) ذكر الأزرقي في كتابه أخبار مكة ٥/ ١٦١، عن ابن الكلبي قال : كان لعمرو بن ربيعة رَئِيٌّ من الجن فأتاه فقال : أجب أبا ثمامة ، وادخل بلا ملامة ، ثم ائت سيف جدة ، تجد بها أصنامًا معدة ، ثم أوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادعوا العرب إلى عبادتها تُجب ، قال : فأتى عمرو ساحل جدة ، فوجد بها ودًّا وسواعًا ، ويغوث ويعوق ونسرًا ، وهي الاصنام التي عبدت على عهد نوح وإدريس ، ثم إن الطوفان طرحها هناك ، فسفى عليها الرمل ، فاستثارها عمرو وخرج بها إلى تهامة ، فدعا إلى عبادتها فأجيب .

قال ابن حجر : وعمرو بن ربيعة هو عمرو بن لحي . انتهى كلام الأزرقي .

وقد روى البخاري (٤٦٢٣) ، ومسلم ٤/ ٢١٩١ (٢٨٥٦) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قُصْبَة في النار» .

....

لكن بقِيَت بقايا من دينِ إبراهيمَ عندَهم ، وهم مُشْركون ، فهم يَدْعُون اللَّهَ ، خُصوصًا إذا وَقَعُوا فى الشدةِ ، فإنهم يُخْلِصون الدعاءَ للَّهِ عزَّ وجلَّ ، ويَتْرُكون دعاءَ الأصنامِ ؛ لأنها لا تَنْفَعُ فى هذا الموقفِ ، ولا تُنْجِدُهم فى وقتِ الشدةِ عليهم بهذا .

فقال سبحانَه : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان : ٣٢] .

فالعباداتُ إذا خالَطَها شركٌ تكونُ باطلةً ، فالذين يَدَّعُون الإسلامَ الآنَ ، ويُصَلُّون ، ويَصُومُون ، ويَحُجُّون ، ولكنهم يَدْعون الحسينَ والبَدَوىَّ وعبدَ القادرِ الجيلانىَّ .

هؤلاء مِثْلُ المشركينَ الأوَّلين ؛ فالمشركون يَتَعَبَّدونَ للَّهِ عزَّ وجلَّ ، ولكنهم يَدْعُون اللاتَ والعُزَّى ومَناةَ الثالثةَ الأخرى ، ولا يقولون : إنَّ هذه أربابٌ ، بل يقولون : هذه تُقَرِّبُنا إلى اللَّهِ زُلْفَى ، نُريدُ منها الزُّلْفَى عندَ اللَّهِ ، والتقرُّبَ إلى اللَّهِ ، فهى وسائطُ وشفعاءُ بينَنا وبينَ اللَّهِ .

وهؤلاء يقولون : الحسنُ والحسينُ وعبدُ القادرِ والبدويُّ إنما هم شُفَعاءُ لنا عندَ اللَّهِ ، ولا يقولون : إنَّهم يَخْلُقون ويَرْزُقون ويتَصَرَّفون فى شيءٍ من الأمورِ ، وإنما هذا للَّهِ عزَّ وجلَّ ، إنما هؤلاء وسائطُ وشُفَعاءُ .

ويقولُ بعضُ الناسِ : هؤلاء مُسْلِمون ، فنقولُ : ولماذا لا يكونُ كفارُ قريشٍ

الملائكةَ ؛ لأجلِ صلاحِهم وقُرْبِهم من اللَّهِ ؛ ليَشْفَعوا له ، أو يَدْعُو رجلًا صالحًا مثلَ اللَّاتِ ، أو نبيًّا مثلَ عيسى[1] .

مسلمين أيضًا ؟!

وهذا القائلُ ليس عندَه فهمٌ للتوحيدِ ، ولا بَصِيرةٌ ؛ لأنه ما فَهِم التوحيدَ ، والواجبُ على الإنسانِ أن يَعْرِفَ هذا الأمرَ ؛ لأنه مُهِمٌّ جدًّا .

وهذه هي الثقافةُ الصحيحةُ ، ليست الثقافةُ أن تَعْرِفَ أحوالَ العالَمِ ، والحُكُوماتِ والسياساتِ ، هذه ثقافةٌ لا تَنْفَعُ ، ولا تَضُرُّ .

الثقافةُ التي تَنْفَعُ هي معرفةُ التوحيدِ الصحيحِ ، ومعرفةُ ما يُضادُّه من الشركِ ، أو يَنْقُصُه من البدعِ والمُحْدَثاتِ .

هذه هي الثقافةُ الصحيحةُ ، وهذا هو المطلوبُ من المُسْلِمَ ، ومِن طالبِ العلمِ ، أن يَعْرِفَ التوحيدَ ، وأن يَدْعُوَ إليه ، هذا هو المطلوبُ .

ماذا يَنْفَعُ العِلْمُ الكثيرُ ، من غيرِ تَحْقيقٍ ، ومن غيرِ بَصيرةٍ ؟ لا يَنْفَعُ شيئًا ، ولا يُفِيدُ صاحبَه شيئًا ، إذا لم يَكُنْ مبنيًّا على تحقيقٍ ، وتوحيدٍ ، وعبادةٍ للَّهِ ، ومعرفةٍ للحقِّ من الباطلِ ، فإنه لا يَنْفَعُ صاحبَه إذا كانَ مُجَرَّدَ اطِّلاعٍ ، أو مُجَرَّدَ ثقافةٍ عامةٍ .

[1] **هؤلاء المشركون مُتَفَرِّقون في عباداتِهم ،** منهم مَن يَعْبُدُ الملائكةَ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ عيسى ابن مَرْيَمَ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الصَّالحين .

هذا دينُ المشركين ، وهو الواقعُ في كثيرٍ من العالمِ الإسلاميِّ اليومَ مع الأسفِ ، يَعْبُدون اللَّهَ ، ويَحُجُّون ، ويصومون ، ويُصَلُّون ، لكنهم واقِعون في الشركِ الأكبرِ ، فيَعْبُدون الأمواتَ ، ويَذْبَحون لهم ، ويَسْتَغيثون بهم ، وقد يَعْتَذِرُ لهم بعضُ مَن لا بَصِيرةَ عندَه بالتوحيدِ .

وَعَرَفْتَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَاتَلَهُمْ على هذا الشِّرْكِ، وَدَعَاهُمْ إلى إخْلاصِ العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨][(١)].

فيقولُ: هؤلاء مَعْذُورون، ولا يَعْتَقِدون في الأمواتِ أنهم يَخْلُقون ويَرْزُقون، وإنما اتَّخَذُوهم وسائطَ وشُفَعاءَ، فإن اسْتَحْيَى قال: هؤلاء مُخْطِئون، ورُبَّما يقولُ: هؤلاء مُجْتَهِدون، والمجتهدُ مأجورٌ.

أو يقولُ: هؤلاء جُهَّالٌ، وكيف يَكُونون جُهَّالًا، والقرآنُ يُتْلَى عليهم، والأحاديثُ تُسْمَعُ، وكلامُ أهلِ العلمِ يَتَرَدَّدُ عليهم ؟!

بل هؤلاء مُعانِدون؛ لأنَّهم قد قامت عليهم الحُجَّةُ فلم يَقْبَلوها.

وهناك مَن يَقولُ: إنَّ الإنسانَ مَهْما فعَلَ، ومهما قال لا يُحْكَمُ عليه بالكفرِ، ولا بالشركِ حتى يُعْلَمَ ما في قلبِه.

ويا سبحانَ اللَّهِ هل نحن نَعْلَمُ ما في القلوبِ، أو اللَّهُ الذي يَعْلَمُ ما في القلوبِ ؟!

نحن نَحْكُمُ على الظواهرِ، أما البَواطنُ فلا يَعْلَمُها إلّا اللَّهُ سبحانَه وتعالى.

فالذي يَعْمَلُ بالشركِ يُحْكَمُ عليه أنه مُشْرِكٌ، ويُعامَلُ معاملةَ المشركين حتى يَتُوبَ إلى اللَّهِ تعالى، ويَلْتَزِمَ بعقيدةِ التوحيدِ.

كما أنَّ الذي يَعْمَلُ بالتوحيدِ، ويَنْطِقُ بالشهادتين يُعامَلُ معاملةَ المسلمين ما لم يَظْهَرْ منه ما يُناقِضُ ذلك، فنُعامِلُ كلًّا حسَبَ ما يَظْهَرُ منه.

(١) أي: وعرَفْتَ أن تَعَبُّدَهُم للَّهِ مع الشركِ به لم يَنْفَعْهم؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ لم يَقْبَلْه منهم، بل دعاهم إلى إفرادِ اللَّهِ بالعبادةِ، وتركِ عبادةِ ما سِواه.

وهذه الآيةُ تَمْنَعُ عبادةَ الملائكةِ، وتَمْنَعُ عبادةَ الرسلِ، وتَمْنَعُ عبادةَ الصالحين،

وكما قال تعالى : ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرعد : ١٤](١) .

ففيها إبطالُ عبادةِ غيرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، كائنًا مَن كان ،ولو كان أصحابُها لا يَعْتَقِدون فيهم أنهم يَخْلُقون ويَرْزُقون .

وإنما يقولون : إنَّ هؤلاء صالحون ، فيَتَّخِذُونهم وَسائطَ بينَهم وبينَ اللَّهِ ، وشُفَعاءَ لهم عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، يُقَرِّبُونهم إلى اللَّهِ زُلْفَى ، كما قال تعالى : ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس : ١٨] .

وفي زمانِنا الحاضرِ يقولون : هؤلاء وسائلُ نَتوسَّلُ بهم إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، وهذا كلُّه دينُ الجاهليةِ ، وهو باطلٌ ، لأنَّه عبادةٌ لغيرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

(١) ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ ؛ أي : العبادةُ الصحيحةُ ، كما قال تعالى : ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر : ٣] ، واللَّهُ جل وعلا لا يَقْبَلُ إلّا دعوةَ الحقِّ ؛ يعنى : الدينَ الخالصَ ، أما الذى يَعْبُدُ اللَّهَ ، ويَعْبُدُ معه غيرَه ، فهذه دعوةُ شركٍ ، لا يَقْبَلُها اللَّهُ .

وقولُه : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ . عامٌّ فى كلِّ مَن دُعِى من دونِه ، سواءٌ من الملائكةِ ، أو من الرسلِ ، أو من الصالحين ، أو مِن الأصنامِ ، أو مِن أىِّ شيءٍ .

وقولُه : ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ ؛ أى : لا يَسْتَجيبون لمَن دعاهم بشيءٍ ؛ لأنهم عاجزون ، لا يَقْدِرون على شيءٍ .

*** فائدةٌ فى بيانِ معنى الربِّ والإلهِ ***

اللَّهُ جلَّ وعلا فى القرآنِ ذكَرَ الربَّ فى مَواضِعَ ، وذكَرَ الإلهَ فى مَواضِعَ ، خُذْ مثلًا سورةَ الناسِ ، يقولُ سبحانَه وتعالى : بسمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ : ﴿قُلۡ أَعُوذُ

....

بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ - ٣].

فما الفرقُ بينَ ربِّ الناسِ، وإلهِ الناسِ؟ هل هما بمعنًى واحدٍ؟! إذًا يكونُ الكلامُ مُكَرَّرًا، أو أنهما بمعنيين، فلا بَدَّ من معرفةِ الفرقِ بينَهما.

وكثيرًا ما يأتى ذكرُ الربِّ، كقولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧]. فتكَرَّرُ لفظُ الربِّ، وتكَرَّرَ لفظُ الإلهِ، فما معنى كلٍّ منهما؟

فالربُّ معناه المُرَبِّى لخلقِه بنِعَمِه، ومُغَذِّيهم برزقِه، تربيةً جسميةً بالأرزاقِ والطعامِ، وتربيةً قلبيةً رُوحيةً بالوحيِ والعلمِ النَّافِعِ، وإرسالِ الرسلِ.

ومن معانى الربِّ: أنه المالكُ للسماواتِ والأرضِ، فربُّ الشيءِ مالكُه والمُتَصَرِّفُ فيه.

ومن معانى الربِّ: المُصْلِحُ الذى يُصْلِحُ الأشياءَ، ويَدْفَعُ عنها ما يُفْسِدُها، فاللَّهُ سبحانَه وتعالى هو الذى يُصْلِحُ هذا الكونَ ويُنَظِّمُه على مُقْتَضَى إرادتِه وحكمتِه سبحانَه وتعالى.

أما الإلهُ فمعناه المعبودُ، مِن أَلِه يأْلَهُ، بمعنى عُبِد يُعْبَدُ، فإلهٌ معناه مَعْبودٌ، وليس معناه الربَّ، وإنما معناه المعبودُ.

والإلهيةُ هى العبادةُ، والوَلَهُ هو الحبُّ؛ لأنه سبحانَه وتعالى يُحِبُّه عبادُه المؤمنون، ويَخافونه، ويَرْجُونه، ويَتَقَرَّبون إليه.

هذا هو معنى الإلهِ، فتَبَيَّنَ الفرقُ بينَ معنى الربِّ، ومعنى الإلهِ، وأنهما ليسا بمعنًى واحدٍ، ومَن قال: إنهما بمعنًى واحدٍ فقد غلِطَ.

والعلماءُ يقولون: إذا ذُكِر جميعًا صار الربُّ له معنًى، والإلهُ له معنًى، وإذا

....

ذُكِر واحدٌ دخَلَ فيه معنى الربِّ[1] .

أما إذا ذُكِرا جميعًا مثلَ ما فى سورةِ الناسِ فإنه يكونُ للربِّ معنًى ، وللإلهِ معنًى آخرُ ، كما فى لفظِ الفقيرِ والمسكينِ إذا ذُكِرا جميعًا ، كما فى قولِه تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة : ٦٠] صار للفقيرِ معنًى ، وللمسكينِ معنًى .

فالفقيرُ هو الذى لا يَجِدُ شيئًا ، وأما المسكينُ فهو الذى يَجِدُ بعضَ الكفايةِ ، فالمسكينُ أحسنُ حالًا من الفقيرِ .

ومثلُ لفظِ الإسلامِ والإيمانِ ، إذا ذُكِر الإسلامُ والإيمانُ صار الإسلامُ معناه الأعمالُ الظاهرةُ ، والإيمانُ معناه الأعمالُ الباطنةُ .

كما فى حديثِ جبريلَ : قال : أَخْبِرْنى عن الإسلامِ .

قال : «الإسلامُ أن تَشْهَدَ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، وتُقِيمُ الصلاةَ ، وتُؤْتِىَ الزكاةَ ، وتصومَ رمضانَ ، وتَحُجَّ البيتَ إن اسْتَطَعْتَ إليه سبيلًا » .

فسَّرَه بالأركانِ الظاهرةِ .

قال : أخْبِرْنى عن الإيمانِ .

قال : « أن تُؤْمِنَ باللَّهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه »[2] .

---

(١) لعلها : الآخَر .

(٢) رواه مسلم ٣٦/١ (٨) ، وأبو داود (٤٦٩٥) ، والترمذى (٢٦١٠) ، وابن ماجه (٦٣) ، وابن منده فى الإيمان (١، ١٤) ، والطيالسى ص ٢٤، وابن حبان (١٦٨، ١٧٣) ، والآجرى فى الشريعة ص ١٨٨ ، ١٨٩، وأبو يعلى (٢٤٢) ، والبيهقى فى دلائل النبوة ٦٩/٧ ، ٧٠،=

....

فسَّره بالأعمالِ الباطنةِ ، وهو إيمانُ القلبِ ، هذَّا إذَا ذُكِرَا جميعًا صار لكلِّ واحدٍ معنًى ، وإذا ذُكِر أحدُهما وحدَه دخَلَ فيه الآخَرُ .

ومن هنا نَعْرِفُ الفرقَ أيضًا بينَ توحيدِ الربوبيةِ وتوحيدِ الألوهيةِ ، **فتوحيدُ الربوبيةِ** هو الإقرارُ بأنَّ اللَّهَ هو الخالقُ ، والرازقُ ، المُحْيِى ، المُمِيتُ ؛ أى : الاعترافُ بأفعالِ اللَّهِ سبحانَه وتعالى .

وتوحيدُ الألوهيةِ معناه إفرادُ اللَّهِ بأعمالِ العبادِ التى يتقرَّبون بها إليه مما شَرَعَ . هذا معنى توحيدِ الألوهيةِ .

فهناك فرقٌ بينَ توحيدِ الربوبيةِ وتوحيدِ الألوهيةِ ، وما دُمْنا قد عرَفْنا معنى توحيدِ الربوبيةِ وتوحيدِ الألوهيةِ نأتى إلى حالةِ المشركين الذين بُعِثَ إليهم رسولُ اللَّهِ ﷺ فإنهم كانوا مُقِرِّين بالنَّوعِ الأولِ الذى هو توحيدُ الربوبيةِ ، ولم يُدْخِلْهم فى الإسلامِ ، بل اعْتَبَرَهم الرسولُ ﷺ كفارًا مشركين ، وقاتَلَهم ، وهم يُقِرُّون بتوحيدِ الربوبيةِ .

فهم أقَرُّوا بتوحيدِ الربوبيةِ ، وجَحَدوا توحيدَ الألوهيةِ لَمَّا طُلِب منهم أن يُفْرِدوا اللَّهَ بالعبادةِ ، ويَتْرُكوا عبادةَ الأصنامِ قالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص : ٥٠] لأنه قال لهم : قولوا لا إلهَ إلَّا اللَّهُ .

فهم فهِموا معنى لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وهو أنه لا يُعْبَدُ إلا اللهُ وحدَه ، لا شريكَ له ، وهم لهم أصنامٌ ، ولهم معبوداتٌ كثيرةٌ ، لا يُريدُون تركَها والاقتصارَ على عبادةِ اللَّهِ ، وهذا لا يُرْضِيهم ، ولذلكَ أنْكَرُوا ، وقالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾ .

طَلَبَ منا أن نَعْبُدَ اللَّهَ وحدَه ، ونَتْرُكَ عبادةَ اللاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ وهُبَلَ وغيرِها

= والبغوى فى «شرح السنة» (٢) ، والمَرْوَزى فى تعظيم الصلاة (٣٦٣، ٣٦٧) ، وعبد الله بن أحمد فى السنة (٩٠١، ٩٠٨) .

....

من الأصنامِ ، هذا شيءٌ لا يُعْقَلُ عندَهم .

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ ملةِ آبائِهم ، فهذا احتجاجٌ بما عليه آباؤُهم ؛ الحجةُ الملعونةُ التى احْتَجَّت بها الأممُ مِن قبلُ إذا دُعُوا إلى عبادةِ اللَّهِ .

حتى فِرْعَوْنُ يقولُ : ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه : ٥١] فهم لمَّا فَهِموا معنى لا إلهَ إلا اللَّهُ اسْتَغْرَبوا هذا ، واسْتَنْكَرُوه ؛ وتَواصَوْا برفضِه .

وفى الآيةِ الآخرى يقولُ سبحانَه فيهم : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات : ٣٥ - ٣٦] .

وهذا يُبَيِّنُ معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ تمامًا ، ويُوَضِّحُه ويَقْطَعُ الجدالَ ، فإن فيه ردًّا على مَن غَلِط فى معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ .

فعلَماءُ الكلامِ فى مُقَرَّراتِهم وعَقائدِهم يقولون : لا إلهَ إلّا اللَّهُ معناها لا خالِقَ ، ولا رَازقَ ، ولا قادرَ على الاختراعِ إلّا اللَّهُ . هذا معنى الإلهِ عندَهم .

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْميَّةَ - رحِمه اللَّهُ تعالى - : والحاذقُ منهم مَن يقولُ : الإلهُ هو القادرُ على الاختراعِ ، وهذا غلَطٌ وجهلٌ كبيرٌ باللغةِ وبالشرعِ المُطَهَّرِ ؛ إذ معنى الإلهِ المعبودُ الذى تَأْلَهُه القلوبُ ، وتَخْضَعُ له ، وتَتَقَرَّبُ إليه .

فهم لم يَفْهَموا معنى الإلهِ ، ولذلك يَقولون : لا إلهَ إلّا اللَّهُ ويُكْثِرون ، ولهم أوْرادٌ فى الليلِ والنهارِ يُرَدِّدُونها ، ومع هذا يَعْبُدون القبورَ ، والأَضْرِحةَ ، ويَسْتَغِيثُونَ بغيرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

فلم يَفْهَموا معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، وأنها تَطْلُبُ منهم تركَ عبادةِ القبورِ والأَضْرِحةِ وعبادةِ ما سِوَى اللَّهِ مِن الأصنامِ والأشجارِ والأحجارِ .

وتحَقَّقْتَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ إنما قاتَلَهم ليكونَ الدعاءُ كلُّه للهِ ، والنَّذْرُ كلُّه للهِ ، والذَّبْحُ كلُّه للهِ ، والاستغاثةُ كلُّها باللَّهِ ، وجميعُ أنواعِ العبادةِ كلِّها للهِ[1].

وعَرَفْتَ أنَّ إقرارَهم بتوحيدِ الربوبيةِ لم يُدْخِلْهم في الإسلامِ[2] ، وأنَّ قَصْدَهم الملائكةَ والأنبياءَ ، والأولياءَ يُريدون شفاعتَهم والتقرُّبَ إلى اللَّهِ

فإذا قالوها لزِمَهم تَرْكُ هذه الأمورِ ، وإلّا تَناقَضوا .

والمشركون الأوّلون توَقَّفوا ، ولم يقولوها ؛ لأنهم إذا قالوها لزِمَهم تركُ عبادةِ الأوثانِ ، أما هؤلاء فقالوها ، وعَبَدُوا غيرَ اللَّهِ ، فالأوَّلون أحْذَقُ منهم ، ولهذا يقولُ الشيخُ : لا خيرَ في رجلٍ ، جُهّالُ المشركين أعلمُ منه بمعنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ .

(١) أي : لا يكونُ بعضُ ذلك للَّهِ ، وبعضُه للبَدَويِّ ، وبعضُه للَّهِ ، وبعضُه للحُسَينِ ، لابدَّ أن يكونَ الدعاءُ كلُّه للَّهِ ، والذبحُ كلُّه للَّهِ ،و النذرُ كلُّه للَّهِ ، وسائرُ العباداتِ كلِّها للَّهِ .

وهذا هو الدينُ الصحيحُ ، أما أن تكونَ العبادةُ مُشْتَرَكةً بينَ اللَّهِ ، وبينَ القبورِ والأضْرِحةِ والأولياءِ والصالحين فهذا ليس هو التوحيدَ ، بل هذا هو دينُ المشركين ، وإن كان صاحبُه يَعْتَرِفُ بتوحيدِ الربوبيةِ ، ويَصومُ ، ويُصَلِّي ، ويَحُجُّ ، ويَعْتَمِرُ ، إلى غيرِ ذلك .

(٢) أي : لمَّا كان إقرارُهم بتوحيدِ الربوبيةِ الذي ذكَرَه اللَّهُ عنهم وسجَّله عليهم لم يُدْخِلْهم في الإسلامِ ، دلَّ على أن التوحيدَ المطلوبَ ليس هو توحيدَ الربوبيةِ ، وإنما هو توحيدُ الألوهيةِ ، وهو الفارقُ بينَ المسلمِ والكافرِ .

أما توحيدُ الربوبيةِ فكلٌّ مُقِرٌّ به ؛ المسلمُ والكافرُ ، وهو لا يَنْفَعُ وحدَه .

بذلك هو الذي أحَلَّ دماءَهم وأموالَهم[(١)]، عرَفْتَ حينئذٍ التوحيدَ الذي

(١) أى: أنهم لم يقولوا: إنَّ الملائكةَ والأنبياءَ والأولياءَ الذين يَعْبُدونهم يَخْلُقون ويَرْزُقون ويُحْيُون ويُمِيتون، ما قالوا هذا، وإنما اتَّخَذُوهم شُفَعاءَ ووَسائطَ بينَهم وبينَ اللَّهِ.

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ما أرادوا منهم إلّا الشفاعةَ، وزعَمُوا أنَّ هذا تعظيمٌ للَّهِ، يقولون: اللَّهُ عظيمٌ، ما يُمْكِنُ أن نَصِلَ إليها بدعائِنا، لكن نَتَّخِذُ مَن يُوصِلَ إليه حاجاتِنا مِن عبادِه الصالحين، من الملائكةِ والرسلِ والصالحين.

فقاسوا اللَّهَ على مُلُوكِ الدنيا الذين يَتَوَسَّطُ عندَهم أصحابُ الحاجاتِ بالمُقَرَّبِينَ عندَهم، فهم لم يَعْتَقِدوا فيهم أنهم يَخْلُقون ويَرْزُقون، كما يقولُ الجُهَّالُ: إن الشركَ هو اعتقادُ أن أحدًا يَخْلُقُ مع اللَّهِ، أو يَرْزُقُ مع اللَّهِ، هذا ما قاله أحدٌ من عقلاءِ بنى آدمَ. وإنما قصدُهم الشفاعةُ.

وفى الآيةِ الآخرى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] يقولون: نحن عِبادٌ ضُعَفاءُ، واللَّهُ جلَّ وعلا شأنُه عظيمٌ، ولا نَتَوَصَّلُ إليه، فهؤلاء يُقَرِّبوننا إلى اللَّهِ زُلْفَى.

شبَّهوا اللَّهَ بمُلوكِ الدنيا، هذا هو أصلُ الكفرِ، فدلَّ على أنهم لم يَعْتَقِدوا فيهم الشركَ فى الربوبيةِ، وإنما اعْتَقَدوا فيهم الشركَ فى الألوهيةِ.

فإذا سأَلْتَ أيَّ واحدٍ الآنَ يَذْبَحُ للقبورِ، أو يَنْذُرُ لها: ما الذى حَمَلَك على هذا؟

فإنهم يقولون كلُّهم بلسانٍ واحدٍ: واللَّهِ ما اعْتَقَدْنا أنهم يَخْلُقون ويَرْزُقون،

دعَتْ إليه الرسلُ ، وأبَى عن الإقرارِ به المشركون[1] .

وأنهم يَمْلِكون شيئًا من السماواتِ والأرضِ ، إنما اعْتَقَدْنا أنهم وَسائطُ ؛ لأنهم صالحون يُوصِلون إلى اللَّهِ حاجاتِنا ، ويُبَلِّغونه حاجاتِنا ، هذا قصدُنا .

ومع هذا سمَّاهم اللَّهُ مُشْركين ، وأمَرَ نبيَّه بجهادِهم ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة : ٥] .

مع أنهم يقولون : لا نَعْتَقِدُ أنهم يَخْلُقون ، ويَرْزُقون ، ويُدَبِّرون مع اللَّهِ ، وإنما قصدُنا اتخاذُهم وَسائطَ ، فنحن نَذْبَحُ لهم ، ونَنْذُرُ لهم ، ونَتوَسَّلُ بهم ؛ لأنَّ اللَّهَ لا يَصِلُ إليه شيءٌ من أمورِنا إلا بواسطتِهم ، فهم يُوصِلُونه إلى اللَّهِ ، ويكونون وسائطَ يُقَرِّبوننا إلى اللَّهِ زُلْفَى ، وشفعاءَ عندَ اللَّهِ .

هذه شُبْهَتُهم قديمًا ، وهذه شبهةُ عبادِ القُبورِ اليومَ :﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فتشابَهَت أقوالُهم وأفعالُهم .

(١) أى : إذا فهِمْتَ ما سبَقَ من الآياتِ البَيِّناتِ التى تَدُلُّ على أنَّ المشركين الأوَّلِين لم يُشْرِكوا فى الربوبيةِ ، وإنما أشْرَكُوا فى الألوهيةِ ، فاتَّخَذُوا الآلهةَ مِن دونِ اللَّهِ ؛ لتُقَرِّبَهم إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، وتَشْفَعَ لهم عندَه .

إذا تبيَّنَ لك هذا عرَفْتَ أن التوحيدَ الذى دَعَتْ إليه الرسلُ ، وجَحَدَه المشركون هو توحيدُ الألوهيةِ ، لا توحيدُ الربوبيةِ ، وأنَّ الإقرارَ بتوحيدِ الربوبيةِ وحدَه لا يَكْفِى ، ولا يَدْخُلُ مَن أقَرَّ به فى الإسلامِ .

ومعرفةُ ذلك أمرٌ مُهِمٌّ جدًّا ؛ إذ به يُعْرَفُ التوحيدُ والشركُ والإسلامُ والكفرُ ،

وهذا التوحيدُ هو معنى قولِك : لا إلهَ إلا اللَّهُ(١).

فإن الإلهَ عندَهم هو الذي يُقْصَدُ لأجلِ هذه الأمورِ ، سواءٌ كان مَلَكًا ، أو نبيًّا ، أو وليًّا ، أو شجرةً ، أو قبرًا ، أو جِنِّيًّا(٢) ، لم يُرِيدوا أنَّ الإلهَ هو الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ ؛ فإنَّهم يَعْلَمون أنَّ ذلك للهِ وحدَه ، كما قدَّمْتُ لك ، وإنَّما يَعْنُون بالإلهِ ما يَعْنِي المشركون في زمانِنا بلفظِ : (السَّيِّد)(٣) فأتاهم النبيُّ ﷺ يَدْعُوهم إلى كلمةِ التوحيدِ ، وهي لا إلهَ إلا اللَّهُ.

والجهلُ بذلك ضرَرُه عظيمٌ ، وخطرُه كبيرٌ ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَخْرُجُ من الإسلامِ ، وهو لا يَدْرِى .

(١) **أى** : معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ هو توحيدُ الألوهيةِ ، لا توحيدُ الربوبيةِ ؛ لأنه لو كان معناها توحيدَ الربوبيةِ لَمَا قال الرسولُ ﷺ للمشركين قولوا : لا إلهَ إلّا اللَّهُ ؛ لأنهم يقولون : إنَّ اللَّهَ هو الخالقُ الرازقُ المحْيى المُمِيتُ .

وإنه حينَئذٍ يَطْلُبُ منهم ما هو تحْصيلُ حاصلٍ ، ويُقاتِلُهم على شيءٍ يَعْتَرِفون به ، ويُقِرُّون به ، وهذا القولُ باطلٌ .

(٢) هذا تعليلٌ لما سبَق فى تقريرِ معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، وأنه توحيدُ الألوهيةِ ؛ لأنَّ الإلهَ عندَ مُشْركى العربِ هو الذى يُقْصَدُ لقضاءِ الحاجاتِ وتَفْريجِ الكُرُباتِ وإغاثةِ اللَّهْفانِ .

وليس الإلهُ عندَهم هو الذى يَخْلُقُ ويَرْزُقُ ويُدَبِّرُ ، ليس هذا هو الإلهَ عندَهم ، فالشركُ عندَهم لم يَقَعْ فى توحيدِ الربوبيةِ ، وإنما وقَعَ فى توحيدِ الإلهيةِ .

(٣) **أى** : ليس الإلهُ عندَ المشركين الأوَّلين هو الخالقَ الرازقَ المدبِّرَ ؛ لأنَّ هذا معنى الربِّ ، وفرقٌ بينَ معنى الربِّ ، ومعنى الإلهِ ، وفرقٌ بينَ توحيدِ الربوبيةِ وتوحيدِ الألوهيةِ .

والمرادُ مِن هذه الكلمةِ معناها ، لا مُجَرَّدُ لفظِها[1] ، والكفارُ الجُهَّالُ يَعْلَمون أنَّ مُرادَ النبيِّ ﷺ بهذه الكلمةِ هو إفرادُ اللَّهِ تعالى بالتعلُّقِ به ، والكفرُ بما يُعْبَدُ مِن دونِ اللَّهِ ، والبَراءةُ منه ؛ فإنه لمَّا قال لهم قولوا : (لا إلهَ إلا

وإنما يَعْنُون بالإلهِ ما يعنى المشركون فى زمانِنا – أى : زمانِ المؤلفِ – بلفظِ السيدِ .

وإلى الآنَ يُسَمُّون هؤلاء الذين يَدَّعُون صلاحَهم ، ويَتَقَرَّبون إليهم يُسَمُّونهم السادةَ ، كالسيدِ البَدَوىِّ ، والسيدِ الرِّفاعىِّ ، والسيدِ التِّيجانىِّ ، إلى غيرِ ذلك .

يعْتَقِدُون أنَّ هؤلاء السادةَ لهم منزلةٌ عندَ اللَّهِ ، تُؤَهِّلُهم أن يَتَوسَّطوا لهم عندَ اللَّهِ ، وتُؤَهِّلُهم أن يُدْعَوْا من دونِ اللَّهِ ، ويُذْبَحَ ، ويُنْذَرَ لهم ، ويُطافَ بقبورِهم ، ويُتَبَرَّكَ بها .

فالمشركون الأوَّلون يُسَمُّون هذه الأشياءَ آلهةً ، والمشركون المتأخِّرون يُسَمُّون هذه الأشياءَ وسائطَ ووسائلَ وشُفَعاءَ ، والأسماءُ لا تُغَيِّرُ الحقائقَ ، فهى آلهةٌ .

(١) أى : أنَّ النبىَّ ﷺ دعا المشركين إلى تحقيقِ معنى : لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، التى هى كلمةُ التوحيدِ ، ومعناها : لا معبودَ بحقٍّ إلّا اللَّهُ ، وهو الذى بعَثَ اللَّهُ به رسولَه إلى المشركين ، ولم يَبْعَثْه إليهم يَدْعُوهم إلى توحيدِ الربوبيةِ ؛ لأنهم مُقِرُّون به ، وهو لا يَكْفِى ؛ لأنَّه قاتَلَهم ، وهم يُقِرُّون به .

ومَن قال : إنه يَكْفِى فإنه يَلْزَمُ عليه تَغْليطُ الرسولِ ، وأنه قاتَلَ أُناسًا مُسْلِمِين ، يَعْترِفون بلا إلهَ إلّا اللَّهُ ، إذا فسَّرْناها بتوحيدِ الربوبيةِ ، وهو الإقرارُ بالخالقِ الرازقِ القادرِ على الاختراعِ .

ومع الأسفِ هذا التفسيرُ الخاطئُ للا إلهَ إلّا اللَّهُ موجودٌ فى كتبِ العقائدِ ،

....

التى أَلَّفَها علماءُ الكلامِ ، وعلماءُ المَنْطِقِ من المعتزلةِ[١] والأشاعرةِ[٢] ، والتى تُدَرَّسُ فى كثيرٍ من المعاهدِ الإسلاميةِ الآنَ .

وعقائدُهم مَبْنِيَّةٌ على هذا الرأيِ ، وأن الإلهَ معناه القادرُ على الاختراعِ ، فمَن اعْتَرَفَ أنَّ اللَّهَ هو الخالقُ الرازقُ يُعْتَبَرُ مُوَحِّدًا .

وأما مَن اعْتَقَدَ أن أحدًا يَخْلُقُ أو يَرْزُقُ مع اللَّهِ ، فهذا هو المُشْرِكُ عندَهم مع أنَّ الشركَ إنما وقَع فى توحيدِ الألوهيةِ ، ولم يَقَعْ فى هذا ، وليس هذا هو معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ .

وإنما معناها : لا معبودَ بحقٍّ إلّا اللَّهُ ، فمَن قال : لا إلهَ إلّا اللَّهُ وجَبَ عليه أن يُفْرِدَ اللَّهَ بالعبادةِ ، وأن يَتْرُكَ عبادةَ ما سِواه ؛ فإنَّ المقصودَ من هذه الكلمةِ معناها ،

(١) سُمُّوا بذلك لاعتزالهم أقوال المسلمين فى مرتكب الكبيرة حيث قالوا : إنه فى منزلة بين المنزلتين ، فلا هو مؤمن ولا هو كافر . وقيل : لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى ، ومذهبهم يقوم على نفى الصفات عن الله تعالى ، ونفى القدر فى معاصى العباد ، وإضافة خلقها إلى فاعليها ، وأن القرآن مخلوق ، ونفَوْا شفاعة النبى ﷺ لأهل الكبائر ، وهم فرق كثيرة ، منها : الجبائية والضرارية والنظامية والجاحظية . وغيرها .
انظر فى مذهبهم : البرهان فى عقائد أهل الأديان ص ٢٦، ٢٧، مقالات الإسلاميين ١/ ٣٣٥، وما بعدها ، المِلَل والنِّحَل للشَّهْرَسْتانى ١/٥٤ - دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) سُمُّوا بذلك نسبة إلى أبى الحسن الأشعرى ، ويقولون بإثبات سبع صفات فقط ؛ لأن العقل دل على إثباتها ، وهى : السمع والبصر والعلم والكلام والقدرة والإرادة والحياة ، وقالوا بأن كلام الله هو المعنى القائم ، وهو قائم بالذات يستحيل أن يفارقه ، والعبارات والحروف دلالات على الكلام الأزلى ، وعندهم : أن الإيمان هو تصديق بالقلب ، والعمل والإقرار من فروع الإيمان ، لا من أصله ، وقد رجع أبو الحسن الاشعرى عن قوله فى الأسماء والصفات .
الملل والنحل ١/ ١١٩، رسالة فى الرد على الرافضة ص ١٦٦.

اللَّهُ) قالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[1].

والعملُ بمُقْتَضاها ، لا مُجَرَّدُ النطقِ بها ، دونَ عملٍ بمَعْناها ومُقْتَضاها .

فمَن قالها ، وهو يَعْبُدُ غيرَ اللَّهِ لم يَكُنْ عاملًا بمُقْتَضاها ، وهو تركُ الشركِ ، ولا يَنْفَعُه مجرَّدُ النطقِ بها ؛ لأنه قد ناقَضَ فعلُه قولَه .

والمشركون الأوَّلُون لمَّا سمِعُوا هذه الكلمةَ عرَفُوا معناها ، وأنه ليس المقصودُ التلفُّظَ بها فقط ، ولذلك قالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص : ٥] .

وفى وقتِنا هذا وُجِد مَن يُفَسِّرُ لا إلهَ إلّا اللَّهُ بأنَّ معناها هو إفرادُ اللَّهِ بالحاكميةِ ، وهذا غلطٌ ؛ لأنَّ الحاكميةَ جزءٌ من معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، وليست هى الأصلَ لمعنى هذه الكلمةِ العظيمةِ .

بل معناها لا معبودَ بحقٍّ إلّا اللَّهُ ، بجميعِ أنواعِ العباداتِ ؛ ويَدْخُلُ فيها الحاكميةُ ، ولو اقْتَصَرَ الناسُ على الحاكميةِ ، فقاموا بها دونَ بقيةِ أنواعِ العبادةِ لم يكونوا مسلمين .

ولهذا تَجِدُ أصحابَ هذه الفكرةِ لا يَنْهَوْنَ عن الشركِ ، ولا يَهْتَمُّون به ، ويُسَمُّونه الشركَ الساذجَ ، وإنما الشركُ عندَهم الشركُ فى الحاكميةِ فقط ، وهو ما يُسَمُّونه الشركَ السياسىَّ ، فلذلك يُرَكِّزون عليه دونَ غيرِه ، ويُفَسِّرون الشركَ بأنه طاعـةُ الـحُكَّامِ الظَّلَمةِ .

(١) أى : الكفارُ يَعْرِفون معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، ولهذا لمَّا قال لهم ﷺ : قولوا لا إلهَ إلّا اللَّهُ قالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص : ٥] .

ولمَّا قال لهم : قُولُوا : لا إلهَ إلّا اللَّهُ قالوا ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ مَجْنُونٍ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾ [الصافات : ٣٦ - ٣٧] .

فإذا عرَفْتَ أنَّ جُهَّالَ الكُفَّارِ يَعْرِفون ذلك ، فالعَجَبُ ممَّن يَدَّعِي الإسلامَ ، وهو لا يَعْرِفُ مِن تفسيرِ هذه الكلمةِ ما عرَفَه جُهَّالُ الكفارِ.

بل يَظُنُّ أنَّ ذلك هو التلفُّظ بحروفِها مِن غيرِ اعتقادِ القلبِ لشيءٍ مِن المعانى(1) ، والحاذقُ منهم يَظُنُّ أنَّ معناها : (لا يَخْلُقُ ، ولا يَرْزُقُ ، ولا يُدَبِّرُ

فهم فهِمُوا معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، وأبَوْا أن يَعْتَرفوا به ؛ لأنه يُلزِمُهم بتركِ عبادةِ الأصنامِ ، وهم لا يُريدون هذا ، وإنما يُريدون البقاءَ على عبادةِ الأصنامِ .

ولم يَجْرُؤوا أن يَقولُوا : لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، ويَبْقَوْا على عبادةِ الأصنامِ ؛ لأنَّ فى هذا تناقُضًا ، وهم يَأْنَفون مِن التناقضِ .

فى حينِ أن كثيرًا من المُنْتَمِينَ إلى الإسلامِ اليومَ لا يَأْنَفُون من هذا التناقُضِ .

فهم يقولون : لا إلهَ إلّا اللَّهُ بحروفِها ، ولكنهم يُخالِفُونها ، ويَعْبُدون غيرَ اللَّهِ من القبورِ والأضرحةِ والصالحين ، بل والأشجارِ والأحجارِ ، وغيرِ ذلك فهم لا يَفْهَمون معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ .

فلا يَكْفى التلفُّظُ بلا إلهَ إلّا اللَّهُ دونَ علمٍ بمعناها ، وعملٍ بمُقْتَضاها .

بل لابدَّ من العلمِ بمَعْناها أوَّلًا ، ثم العملِ بمُقْتَضاها ؛ لأنه لا يُمْكِنُ أن يَعْمَلَ بمُقْتَضاها ، وهو يَجْهَلُ معناها ، ولهذا يقولُ جلَّ وعلا : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد : ١٩] .

فبدَأ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ ، فالذى يَجْهَلُ معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ لا يُمْكِنُ أن يعملَ بمُقْتَضَاها على الوجهِ الصحيحِ .

(١) هذا من أعجبِ العَجَبِ أن جُهَّالَ الكفارِ والمشركين فى عهدِ النبيِّ ﷺ يَعْرِفون أن معنى هذه الكلمةِ هو إخلاصُ العبادةِ للَّهِ ، وتركُ عبادةِ غيرِه ، فلذلك امْتَنَعوا عن النطقِ بها ؛ تحاشيًا لتركِ عبادةِ آلهتِهم ، وتعصُّبًا لباطِلِهم .

الأمرَ إلا اللَّهُ)[1] فلا خيرَ في رجلٍ ، جُهَّالُ الكفارِ أعْلَمُ منه بمعنى (لا إلهَ إلا اللَّهُ)[2]...

ومَن يَدَّعِى الإسلامَ اليومَ لا يَفْهَمُ أن معنى هذه الكلمةِ هو تركُ عبادةِ القبورِ والأضرحةِ ، وإخلاصُ العبادةِ للَّهِ .

فلذلك صار يَقولُها ، وهو مُقيمٌ على شركِه ، لا يَأْنَفُ التناقضَ والجمعَ بينَ الضِّدَّيْنِ ، فصارَ جُهَّالُ الكفارِ أعلمَ منه بمعنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلّا باللَّهِ العظيمِ .

وصار هذا المُدَّعِى للإسلامِ يَظُنُّ أن المرادَ بهذه الكلمةِ هو النطقُ بحروفِها ، من غيرِ اعتقادٍ لمعناها ، فصار يُرَدِّدُ معها دعاءَ المَوْتَى والمقبورين ، ليلًا ونهارًا .

(١) كما ذَكَرَ ذلك شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ فى الرسالةِ التَّدْمُرِيَّةِ وغيرِها[1] ، عن علماءِ الكلامِ أن الإلهَ عندَهم هو القادرُ على الاختراعِ ؛ يعنى : هو الذى يَقْدِرُ على الخلقِ والرزقِ والإحياءِ والإماتةِ ، ويَبْنُون عقائدَهم على هذا ، ويُفَسِّرون لا إلهَ إلّا اللَّهُ بهذا المعنى ، ويَجْعَلون التوحيدَ هو الإقرارَ بتوحيدِ الربوبيةِ ، وهذا غلطٌ عظيمٌ .

فإذا كان هذا حالَ العالِمِ منهم ، فكيف بالجاهلِ ؟! وما هذا إلّا من قلةِ الاهتمامِ بدعوةِ التوحيدِ ، وتقليدِ الآباءِ والأجدادِ ، والاكتفاءِ من الإسلامِ بمجرَّدِ الانتسابِ ؛ لأغراضٍ وأهدافٍ دُنْيَوِيةٍ ، اللَّهُ أعلمُ بها ، من غيرِ تعرُّفٍ على الدينِ الحقيقىِّ ، الذى أساسُه التوحيدُ الخالصُ .

(٢) لا خيرَ فى رجلٍ يَدَّعِى الإسلامَ ، بل يَدَّعِى أنه من أهلِ العلمِ ، ولا يَفْهَمُ

(١) الرسالة التدمرية ص ١٨٥ ، ومجموع الفتاوى ١٣/٢٠٣ .

إذا عرَفْتَ ما ذكَرْتُ لك معرفةَ قلبٍ[١]، وعرَفْتَ الشركَ باللَّهِ الذي قال اللَّهُ فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢].

معنى لا إلهَ إلّا اللَّهُ، وقد فهِمَها كفارُ قريشٍ، وعرَفُوا معناها.

إن الأمرَ خطيرٌ، والعارَ شَنيعٌ، والواجبُ على المسلمين أن يَنْتَبِهوا لدينِهم، ويتأمَّلوا دعوةَ نبيِّهم، ويَفْقَهوا دينَهم فقهًا صحيحًا، ويُقِيموه على أساسٍ سليمٍ من عقيدةِ التوحيدِ والبراءةِ من الشركِ وأهلِه.

ولا يَكْتَفُوا بمجردِ التسمِّى والانتسابِ إليه مع البقاءِ على الرسومِ والعاداتِ المخالفةِ له، وتَرديدِ عباراتٍ جَوْفاءَ، لا تُسْمِنُ، ولا تُغْنِى من جوعٍ.

(١) أى: إذا عرَفْتَ ما ذكَرْتُ لك من الفرقِ بينَ توحيدِ الربوبيةِ وتوحيدِ الألوهيةِ، وعرَفْتَ أن المشركين أقَرُّوا بالأولِ، وجَحَدُوا الثانيَ، فلم يُدْخِلْهم فى الإسلامِ، وقُتِلُوا، واستُحِلَّتْ دماؤُهم وأموالُهم.

إذا عرَفْتَ هذه الأمورَ مَعْرفةَ قلبٍ، لا معرفةَ لسانٍ فقط، كأن يَحْفَظَ الإنسانُ هذا المعنى، ويُؤَدِّيَه فى الامتحانِ، ويَنْجَحَ فيه، ولم يَتَفَقَّهْ فيه فى قلبِه، ويَفْهَمْه تمامًا، فهذا لا يكفى.

فالعلمُ هو علمُ القلبِ، وعلمُ البَصيرةِ، لا علمُ اللسانِ فقط.

(٢) أى: الشركَ فى العبادةِ، لا الشركَ الذى هو اعتقادُ أن أحدًا يَخْلُقُ، ويَرْزُقُ، ويُدَبِّرُ مع اللَّهِ، بل الشركُ الذى حذَّر اللَّهُ منه هو اعتقادُ أن أحدًا يَسْتَحِقُّ العبادةَ، أو شيئًا من العبادةِ مع اللَّهِ.

فالشركُ هو دعوةُ غيرِ اللَّهِ معَه، أو صَرْفُ شيءٍ من أنواعِ العبادةِ لغيرِ اللَّهِ، هذا هو الشركُ الذى حرَّمه اللَّهُ، وحرَّم على صاحبِه الجنةَ، وأخْبَرَ أن مأْواه النارُ.

وهو الشركُ الذى يُحْبِطُ جميعَ الأعمالِ، وهو الشركُ فى الألوهيةِ، وليس

وعرَفْتَ دينَ اللَّهِ الذي أرْسَل به الرسلَ مِن أولِهم إلى آخرِهم ، الذي لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِن أحدٍ دينًا سواه(١) .

وعرَفْتَ ما أصْبَح غالبُ الناسِ فيه من الجهلِ بهذا(٢) ، أفادك فائدتين :

الشركَ فى الربوبيةِ ، وهذا تنبيهٌ من الشيخِ رحِمه اللَّهُ إلى أنه كما تَجِبُ معرفةُ التوحيدِ تَجِبُ معرفةُ الشركِ .

(١) دينُ الرسلِ هو الإسلامُ ، وهو الاسْتِسْلامُ للَّهِ بالتوحيدِ ، والانقيادُ له بالطاعةِ ، والخُـلُوصُ من الشركِ وأهلِه ، هذا هو دينُ الرسلِ ، وهذا هو الإسلامُ .

وأما الانتسابُ إلى الإسلامِ فى الظاهرِ دونَ الباطنِ ، أو الانتسابُ إليه بالتَّسَمِّى فقط دونَ التزامٍ لأحكامِه ، أو الانتسابُ إليه مع ارتكابِ ما يُناقِضُه من الشركِ والوَثَنِيَّاتِ ، أوالانتسابُ إليه مع الجهلِ بحقيقتِه ، أو الانتسابُ إليه دونَ مُوالاةٍ لأوليائِه ، ومُعاداةٍ لأعدائِه ، فليس هذا هو الإسلامَ الذى جاءت به رسلُ اللَّهِ .

وإنما هو إسلامٌ اصطلاحيٌّ مُصْطَنَعٌ ، لا يُغْنِى ، ولا يَنْفَعُ عندَ اللَّهِ سبحانَه وتعالى ، وليس هو دينَ الرسلِ .

(٢) وهو الجهلُ بالتوحيدِ ، والجهلُ بالشركِ ، هذا هو الذى أوْقَعَ كثيرًا من الناسِ فى الضلالِ ، وهو أنهم يَجْهَلُون التوحيدَ الصحيحَ ، ويَجْهَلون الشركَ ، ويُفَسِّرون كلًّا منهما بغيرِ تفسيرِه الصحيحِ .

هذا هو الذى أوْقَعَ كثيرًا من الناسِ فى الغلطِ والكفرِ والشركِ والبدعِ والمُحْدَثاتِ ، إلى غيرِ ذلك .

وذلك بسببِ عدمِ معرفةِ ما أمَرَ اللَّهُ به من توحيدِه وطاعتِه ، وما نَهَى عنه من الإشراكِ به ، ومعصيتِه ، فالعوامُّ لا يَتَعلَّمون .

الأولى : الفرحُ بفَضْلِ اللَّهِ ورحمتِه ، كما قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وأفادك أيضًا الخوفَ العظيمَ(١) .

وغالبُ العلماءِ مُكِبُّون على علمِ الكلامِ والمَنْطِقِ ، الذى بَنَوْا عليه عقيدتَهم ، وهو لا يُحِقُّ حقًّا ، ولا يُبْطِلُ باطلًا ، بل هو كما قال بعضُ العلماءِ : لا يَنْفَعُ العلمُ به ، ولا يَضُرُّ الجهلُ به(١) .

(١) أى : العلمُ بهذه الحقائقِ يُفِيدُك فائدتَيْنِ :

الفائدةُ الأولى : أنك تَفْرَحُ بفضلِ اللَّهِ ، حيث مَنَّ عليك بمعرفةِ الحقِّ من الباطلِ ؛ فإنها نعمةٌ عظيمةٌ ، حُرِمَ منها الكثيرُ من الخلقِ ، قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ .

وفضلُ اللَّهِ هو الإسلامُ ، ورحمتُه هى القرآنُ .

﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ فرحَ شكرٍ ، واعترافٍ بالنعمةِ ، والفرحُ بفضلِ اللَّهِ مشروعٌ ؛ لأنه شكرٌ للَّهِ سبحانَه وتعالى على نعمةِ التوحيدِ ، ومعرفةِ الشركِ .

وهذه نعمةٌ إذا وُفِّقْتَ لها فإنه قد جُمِع لك الخيرُ كلُّه ، الفرحُ بالنعمةِ مشروعٌ .

أمّا الفرحُ المنهيُّ عنه فهو الفرحُ بالدنيا ، كما قال تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد : ٢٦] فالفرحُ بالدنيا وحُطَامِها مذمومٌ ، أما الفرحُ بالدينِ ، والفرحُ بالعلمِ النافعِ فهذا مشروعٌ ؛ لأنَّ اللَّهَ أَمَرَ به .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى مجموع الفتاوى ٩/ ٨٢: أما بعد فإنى كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليونانى لا يحتاج إليه الذكى ، ولا ينتفع به البليد . اهـ

فإنك إذا عرَفْتَ أنَّ الإنسانَ يَكْفُرُ بكلمةٍ يُخْرِجُها من لسانِه ، وقد يَقولُها ، وهو جاهلٌ ، فلا يُعْذَرُ بالجهلِ[(١)].

والفائدةُ الثانيةُ : أنك إذا عرَفْتَ التوحيدَ الصحيحَ وعرَفْتَ الشركَ القبيحَ ، فإنَّ ذلك يُفِيدُك الخوفَ ، أن تَقَعَ فيما وقَعَ فيه كثيرٌ من الناسِ بالمخالفةِ لهذا الأصلِ ، والوقوعِ فى الشركِ ، وأنت لا تدرى .

فلا تَأْمَنْ على نفسِك من الفتنةِ ، فلا تَغْتَرَّ بعملِك أو بفهمِك ، ولكن قلْ : لا حولَ ولا قوةَ إلا باللَّهِ ، واسْأَلِ اللَّهَ الثباتَ ؛ فإنَّ إبراهيمَ الخليلَ الذى أعْطاه اللَّهُ من العلمِ واليقينِ ما لم يُعْطِ غيرَه إلّا نبيًّا يقولُ : ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم : ٣٥ - ٣٦] .

فإبراهيمُ لم يَأْمَنْ على نفسِه الفتنةَ ، مع علمِه ويقينِه ، وهو الذى كسَّرَ الأصنامَ بيدِه ، وأُلْقِى فى النارِ بسببِ ذلك ، ومع هذا يَخافُ على نفسِه من الفتنةِ .

فلا تَغْتَرَّ بعلمِك ، وتَأْمَنَ على نفسِك من الفتنةِ ، ولكن كُنْ دائمًا على حَذَرٍ من الفتنةِ بأن لا تَزِلَّ بك القدمُ ، وتَغْتَرَّ بشيءٍ يكونُ سببًا لهلاكِك وضلالِك .

فإنَّ بعضَ المَغْرورين اليومَ يقولُ : إنَّ الناسَ تَجاوَزُوا مرحلةَ الجهلِ ، والبَدائيةِ ، وصاروا مُثَقَّفِين ، واعِينَ ، لا يُتَصَوَّرُ أن يَعُودوا للوَثَنيةِ ، أو نحوًا من هذا الكلامِ الفارغِ ، ولم يَفْطَنْ لعبادةِ الأضرحةِ التى تَنْتَشِرُ فى كثيرٍ من البلادِ الإسلاميةِ ، ولم يَنْظُرْ فيما وصَلَ إليه كثيرٌ من الناسِ من الجهلِ بالتوحيدِ .

(١) **قد يقولُ الإنسانُ كلمةً مِن الكفرِ تُحْبِطُ عملَه كلَّه** ، كالرجلِ الذى قال : « واللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّهُ لفلانٍ . فقال اللَّهُ جلَّ وعلا : مَن ذا الذى يَتَأَلَّى علىَّ أن لا

وقد يقولُها ، وهو يَظُنُّ أنها قُرْبةٌ إلى اللّهِ ، كما كان يَظُنُّ المشركون(١) ، خصوصًا إن أَلْهَمَكَ اللّهُ تعالى ما قَصَّ عن قومِ موسى مع صلاحِهم وعلمِهم أنهم أَتَوْه قائلين : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ﴾ فحينئذٍ يَعْظُمُ خوفُك

أَغْفِرَ لفلانٍ ، إنى قد غَفَرْتُ له ، وأَحْبَطْتُ عملَك »(١) .

كلمةٌ واحدةٌ تَجَرَّأَ فيها على اللّهِ ، وأراد أن يَمْنَعَ اللّهَ أن يَغْفِرَ لهذا المُذْنِبِ ، فاللّهُ جلَّ وعلا أحْبَطَ عملَه ، وغَضِب عليه .

والإنسانُ قد يَتَكَلَّمُ بمثلِ هذه الكلمةِ ، ونحوِها ، فيَخْرُجُ من دينِ الإسلامِ ، فالذين مع النبيِّ ﷺ لما قالوا : ما رأَيْنا مثلَ قُرَّائِنا هؤلاء أرغبَ بطونًا ، وأكذبَ ألسنًا ، وأجبنَ عندَ اللقاءِ(٢) .

يَزْعُمون أنهم قالوها من باب المَزْحِ ، ويَقْطَعون بها الطريقَ بزعمِهم ، قال اللّهُ فيهم : ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ [التوبة : ٦٥ - ٦٦] .

دلَّ على أنهم مؤمنون فى الأولِ ، فلمَّا قالوا هذه الكلمةَ كفَرُوا ، والعياذُ باللّهِ ، مع أنهم يقولونَها من باب المَزْحِ واللعبِ .

(١) أى : يقولُ كلمةَ الكفرِ ، وهو يَظُنُّ أنها تُقَرِّبُه إلى مثلِ ما يقولُ المشركون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس : ١٨] .

---

(١) رواه مسلم ٤/٢٠٢٣ (٢٦٢١) .

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره ١٠/١٧٢ ، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ٤/٢٣٠ إلى ابن جرير وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه .

وحرصُك على ما يُخَلِّصُك من هذا وأمثالِه[١].

واعْلَمْ أنَّه سبحانَه من حكمتِه لم يَبْعَثْ نبيًّا بهذا التوحيدِ إلا جَعَلَ له أعداءً، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

(١) قومُ موسى هم بنو إسرائيلَ الذين آمَنُوا بموسى، خرَجُوا معه من مصرَ حيث أمَرَه اللَّهُ أن يَخْرُجَ بهم فرارًا من فِرْعَوْنَ، فخفِيَ عليهم هذا الأمرُ، مع أنهم علماءُ، وفيهم صلاحٌ وتَقْوَى.

وخرَجُوا مع موسى مُقاطِعين لفِرْعَوْنَ وقومِه، فلمَّا أتَوْا على قومٍ يَعْكُفُون على أصنامٍ لهم أرادوا تقليدَهم في ذلك، وطلَبُوا من موسى فقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فأنكَرَ عليهم موسى هذه المقالةَ، وأخْبَرَهم أن عملَ هؤلاءِ القومِ شركٌ باللَّهِ عزَّ وجلَّ، فانْظُرْ كيف خَفِي عليهم هذا الأمرُ مما يَدُلُّ على خُطورةِ الجهلِ بالتوحيدِ، وعدمِ معرفةِ حقيقةِ الشركِ، مما يُسَبِّبُ أنَّ الإنسانَ قد يقولُ الكلمةَ التي تَقْتَضِي الكفرَ والخروجَ من الدينِ، وهو لا يدري.

ولا يُخَلِّصُك من هذا وأمثالِه إلَّا العلمُ النافعُ، الذي به تَعْرِفُ التوحيدَ من الشركِ، وتَحْذَرُ به من القولِ، أو الفعلِ اللذين يُوقِعانِك في الشركِ، من حيث لا تَدْرِي.

وهذا يَدُلُّ على بُطلانِ قولِ مَن يقولُ: إنَّ مَن قال كلمةَ الكفرِ، أو عمِلَ الكفرَ لا يَكْفُرُ حتى يَعْتَقِدَ بقلبِه ما يقولُ ويَفْعَلُ.

ومَن يقولُ: إن الجاهلَ يُعْذَرُ مطلقًا، ولو كان بإمكانِه أن يَسْأَلَ ويتَعَلَّمَ، وهي مَقالةٌ ظَهَرَت ممَّن يَنْتَسِبون إلى العلمِ والحديثِ في هذا الزمانِ.

وقد يكونُ لأعداءِ التوحيدِ عُلُومٌ كثيرةٌ ، وكُتُبٌ وحُجُجٌ ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾(1) .

---

(1) حكمةُ اللَّهِ تعالى فى هذا تَتَلَخَّصُ فى أمرَيْن :

الأمرُ الأولُ : أنه مَا بَعَثَ نبيًّا من أنبيائِه إلا جعَلَ له أعداءً من المشركين كما فى الآيةِ التى ذكَرَها المؤلفُ ، وكما فى الآيةِ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان : ٣١] .

ولِلَّهِ فى ذلك الحكمةُ من أجلِ أن يتَبَيَّنَ الصادقُ من الكاذبِ ، ويتَبَيَّنَ المُطِيعُ من العاصِى .

إذا بعَثَ الأنبياءَ يَدْعُون إلى الهُدَى صار هناك دُعاةٌ للضَّلالِ ، من أجلِ أن يَمْتَحِنَ الناسَ ، أيُّهم يَتَّبِعُ الأنبياءَ ، وأيُّهم يَتَّبِعُ دُعاةَ الضلالِ .

ولولا ذلك لكان النَّاسُ كلُّهم يَتَّبِعون الأنبياءَ ، ولو فى الظاهرِ ، ولا يَتَمَيَّزُ الصادقُ فى اتِّباعِه من المنافقِ ؛ لأنَّ الأنبياءَ يَتَّبِعُهم المؤمنُ الصادقُ ، ويَتَّبِعُهم المنافقُ الكاذبُ .

والذى يُمَيِّزُ هذا من هذا هو الابتلاءُ والامتحانُ ، فالشدائدُ هى التى تُبَيِّنُ الصادقين من المنافقين .

فاللَّهُ جعَلَ أعداءً للأنبياءِ لحكمةٍ من أجلِ الابتلاءِ والامتحانِ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال : ٣٧] .

هذه هى الحكمةُ بأنَّ اللَّهَ جعَلَ لكلِّ نبيٍّ عَدُوًّا ، شياطينَ الإنسِ والجنِّ .

والشيطانُ هو المارِدُ العاصِى ، فكلُّ مَن تمَرَّد عن طاعةِ اللَّهِ فإنه شيطانٌ ، سواءٌ

....

كان من الجنِّ ، أو من الإنسِ ، حتى الدوابُّ المُتَمَرِّدةُ تُسَمَّى شيطانًا .

وهو من شاط الشيءُ إذا اشْتَدَّ ، أو مِن شَطَنَ إذا ابْتَعَد ، فالشيطانُ يكونُ من عالمِ الجنِّ ، ويكونُ من عالمِ الإنسِ .

وقولُه تعالى : ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأنعام : ١١٢] الزُّخْرُفُ في الأصلِ الذهبُ ، وزُخْرفُ القولِ هو القولُ المُمَوَّهُ المُزَوَّرُ ؛ لأجلِ أن يَغُرَّ الناسَ .

فالقولُ المُزَخْرَفُ هو الباطلُ المُغَلَّفُ بشيءٍ من الحقِّ ، وهذا من أعظمِ الفتنةِ[1] ؛ لأنَّ الباطلَ لو كان مكشوفًا ما قبِلَه أحدٌ ، لكن إذا غُطِّي بشيءٍ من الحقِّ فإنه يَقْبَلُه كثيرٌ من الناسِ ، ويَنْخَدِعون بهذه الزَّخْرفةِ ، فهو باطلٌ في صورةِ الحقِّ .

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ اللَّهُ قادرٌ على منعِهم من ذلك ، لكنه شاء أن يَفْعَلُوه من أجلِ الابتلاءِ والامتحانِ .

وإذا كان هذا مع الأنبياءِ فكيف بغيرِهم من الدُّعاةِ إلى اللَّهِ وعلماءِ التوحيدِ ، فأتباعُ الأنبياءِ أيضًا يكونُ لهم أعداءٌ من دُعاةِ الباطلِ في كلِّ زمانٍ ، وفي كلِّ مكانٍ .

هذا مُسْتَمِرٌّ في الخلقِ ، وجودُ دُعاةِ الحقِّ ، وإلى جانبِهم دُعاةُ الباطلِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ .

---

(١) وقد أحسن من قال :

في زُخْرُفِ القَوْلِ تزيينٌ لباطلِه ... والحقُّ قد يَعْتَريه سُوءُ تَعْبِيرِ
تقولُ هذا مُجاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُه ... وإن تَشَأْ قلت ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ
ذمًّا ومدحًا وما جاوَزْتَ وَصْفَهما ... والحقُّ قد يَعْتَريه سُوءُ تَعْبيرِ

إذا عرَفْتَ ذلك ، وعرَفْتَ أنَّ الطريقَ إلى اللَّهِ لابُدَّ له من أعداءٍ قاعِدِين عليه ، أهلِ فَصَاحةٍ وعِلْمٍ وحُجَجٍ .

فالواجبُ عليك أن تَعْلَمَ من دينِ اللَّهِ ما يَصِيرُ لك سلاحًا ، تُقاتِلُ به هؤلاءِ الشياطينَ الذين قال إمامُهم ومُقَدَّمُهم لربِّك عزَّ وجلَّ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (1) .

الأمرُ الثاني : وهو العَجِيبُ أن دُعاةَ الباطلِ يكونُ عندَهم علومٌ ، وعندَهم كتبٌ ، وعندَهم حُجَجٌ ، يُجادِلون بها أهلَ الحقِّ ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ [غافر : ٨٣] ؛ يعني : الكفارَ .

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الحقائقِ البيِّنةِ ، والعلمِ النافعِ .

﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذى تَوارَثُوه عن أجدادِهم وآبائِهم ، والذى هو عبارةٌ عن كتبِهم ، وعن حُجَجِهم التى تَوارَثُوها ، وهذا واقعٌ الآنَ ، فكم فى الساحةِ من كتبِ أهلِ الباطلِ ، ككُتُبِ الجهميةِ ، وكتبِ المعتزلةِ ، وكتبِ الأشاعرةِ ، وكتبِ الشيعةِ .

كم فى الساحةِ مِن كتبِ هؤلاء ! وعندَهم حججٌ مُرَكَّبةٌ ، ومُزَيَّفةٌ ، تَغُرُّ الإنسانَ الذى ليس عندَه تَمَكُّنٌ من العلمِ ، فعلمُ الكلامِ وعلمُ المَنْطِقِ اعْتَمَدوه ، وجعَلُوه هو العلمَ الصحيحَ الذى يُفيدُ اليقينَ .

(١) أما أدلةُ القرآنِ والسنةِ فهى حُجَجٌ ظَنِّيَّةٌ بزعمِهم ، لا تُفيدُ اليقينَ ، وهذا من تَمامِ الفِتْنةِ والتَّزْيِيفِ على الناسِ ؛ لأنَّ الواقعَ الصحيحَ هو العكسُ ، وهو أن أدلةَ القرآنِ تُفِيدُ اليقينَ ، وأدلةَ المنطقِ والجَدَلِ تُفيدُ الشكَّ والحَيْرةَ والاضطرابَ ، كما أقَرَّ بذلك كبراؤُهم عندَ الموتِ ، أو عندَ توبتِهم ورُجوعِهم عن علمِ الكلامِ .

ولكن إذا أقْبَلْتَ على اللَّهِ ، وأصْغَيْتَ إلى حُجَجِه وبَيِّناتِه ، فلا تَخَفْ ، ولا تَحْزَنْ : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1] .

إذا كان هؤلاء عندَهم فَصاحةٌ ، وعندَهم حُجَجٌ ، وعندَهم كتبٌ ، فلا يَلِيقُ بك أن تُقابِلَهم ، وأنت أَعْزَلُ .

بل يَجِبُ عليك أن تَتعلَّمَ من كتابِ اللَّهِ ، ومن سنةِ رسولِ اللَّهِ ما يُبْطِلُ حججَ هؤلاء الذين قال إبليسُ إمامُهم ومُقَدَّمُهم لربِّك عزَّ وجل :

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ ؛ أى : لبَنِى آدمَ .

صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ؛ أى : الطريقَ المُوصِلَ إليك .

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف : ١٧] .

تعَهَّد الخبيثُ أنه سيُحاوِلُ إضلالَ بنى آدمَ ، وكذلك أتباعُه من شياطينِ الإنسِ مِن أصحابِ الكتبِ الضالةِ ، والأفكارِ المُنْحَرِفةِ ، يقومون بعملِ إبليسَ فى إضلالِ الناسِ .

(١) كما قال اللَّهُ سبحانَه وتعالى : ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ فهم مهما كان عندَهم من القوةِ الكلاميةِ ، والجدالِ ، والبَراعةِ فى المنطقِ ، والفصاحةِ ، إلّا أنهم ليسوا على حقٍّ ، وأنت على حقٍّ .

ما دُمْتَ مُتَمَسِّكًا بالكتابِ والسنةِ ، وفَهِمْتَ الكتابَ والسنةَ فاطْمَئِنَّ فإنهم لن يَضُرُّوكَ أبدًا ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٧٦] .

لكنَّ هذا يَحْتاجُ إلى الرجوعِ إلى الكتابِ والسنةِ فإنك بذلك لا تَخافُ مهما كان مَعَهم من الحججِ والكتبِ ؛ لأنها سَرابٌ ، كما قال الشاعرُ :

والعامِّيُّ من المُوحِّدينَ يَغْلِبُ ألفًا من عُلماءِ هؤلاءِ المُشْركينَ ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾(١) .

حُجَجٌ تَهافَتُ كالزُّجاجِ تَخَالُها حقًّا وكلٌّ كاسرٌ مَكْسورُ(١)

فالسرابُ يَزولُ ، كذلك هذه الحججُ إذا طلَعَتْ عليها شمسُ القرآنِ ، وبيناتُ القرآنِ زال هذا الضَّبابُ الذى مَعهم .

وهذه سنةُ اللَّهِ سبحانَه وتعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء : ١٨] .

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ [سبأ : ٤٨] قَذائفُ الحقِّ تُدَمِّرُ الباطلَ مهما كان .

(١) **هذا من العجائب** أن العاميَّ غيرَ المُتَعلِّمِ مِن المُوَحِّدين يَغْلِبُ ألفًا من علماءِ المشركين ؛ ذلك لأنَّ العاميَّ عندَه الفِطرةُ السليمةُ التى لم تَتَلَوَّثْ بالشُّكوكِ والأوهامِ وقواعدِ المنطقِ وعلمِ الكلامِ .

أما العالمُ المُشْرِكُ فليس عندَه فطرةٌ سليمةٌ ، ولا علمٌ صحيحٌ .

وصاحبُ الفطرةِ السليمةِ يَتَغلَّبُ على الذى ليس عندَه فطرةٌ ،ولا علمٌ ؛ لأن علمَه جهلٌ .

إذًا فالناسُ ثلاثةُ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : مَن عندَه علمٌ صحيحٌ وفطرةٌ سليمةٌ ، وهذا أعلى الطَّبَقاتِ ، وهذا هو الذى أقْبَل على ربِّه ، وأصْغَى إلى حججِه وبيّناتِه ، فصار عندَه علمٌ صحيحٌ ، وفطرةٌ سليمةٌ .

(١) ذكر ذلك البيت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى مجموع الفتاوى ٢٨/٤ ونسبه للخَطَّابى .

فجُندُ اللّهِ همُ الغالِبُونَ بالحُجّةِ واللِّسانِ ، كَما هُم الغالِبُونَ بالسَّيفِ والسِّنانِ(١) ، وإنَّما الخوْفُ على المُوحِّدِ الذي يَسْلُكُ الطَّريقَ ، وليسَ مَعَهُ

القسمُ الثاني : مَن ليس عندَه علمٌ ، لكن عندَه فطرةٌ سليمةٌ ، وهو العاميُّ من المُوَحِّدين .

القسمُ الثالثُ : من ليس عندَه فطرةٌ سليمةٌ ، ولا علمٌ صحيحٌ ، وإنما عندَه سَرابٌ ، لا حقيقةَ له ، فهذا يُهْزَمُ أمامَ العاميِّ ، فكيف أمامَ العالمِ الذى عندَه علمٌ صحيحٌ ، وفطرةٌ سليمةٌ ؟

فهذا مما يَدُلُّك على أنَّ تعلُّمَ العلمِ النافعِ يكونُ سلاحًا للمؤمنِ أمامَ أعداءِ اللَّهِ ورسولِه .

(١) قال تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات : ١٧٣] أضاف الجندَ إليه سبحانَه وتعالى ، وجندُ اللَّهِ هم المُؤْمِنون ، يقالُ لهم : جُنْدُ اللَّهِ . ويقالُ لهم : حِزْبُ اللَّهِ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ إلى قولِه : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فهم حِزْبُ اللَّهِ وجُنْدُ اللَّهِ ، والجندُ جمعُ جُنْديٍّ ، وهو المُقاتِلُ والمُدافِعُ عن دينِ اللَّهِ ، أضافهم إلى نفسِه تشريفًا لهم ، وجعَلَ لهم الغَلَبَةَ بالحُجّةِ والسِّلاحِ .

جُنْدُ اللَّهِ هم الغالِبون بالحُجّةِ واللسانِ ؛ يعنى : بالعلمِ ، والمعرفةِ ، ومجادلةِ أهلِ الباطلِ ، فما تَقابَلَ أهلُ حقٍّ وأهلُ باطلٍ فى خُصومةٍ إلّا تغَلَّب أهلُ الحقِّ على أهلِ الباطلِ فى الخصوماتِ والمناظراتِ دائمًا وأبدًا .

فهم الغالِبُونَ بالحُجّةِ مع المُبْطِلين ، كما أنهم الغالبون بالسيفِ والسِّنانِ فى المعارِكِ .

سِلاحٌ[1] .

إذا تقابَلَ الجُنْدان ؛ المسلمون والكفارُ ، فإنه يَنْتَصِرُ المسلمون على الكفارِ ، إذا توَفَّرَت شروطُ النصرِ فيهم ، بأن توكَّلُوا على اللَّهِ ، واعْتَصَموا باللَّهِ ، وأطاعوا اللَّهَ ورسولَه .

فإنْ حصَلَ فيهم خَلَلٌ لحِقَت بهم الهزيمةُ ، كما حصَلَ للصحابةِ في وقعةِ أحدٍ ، لما عصَوْا أمرَ الرسولِ ﷺ ، ونزَلُوا من الجبلِ الذى قال لهم : « لا تَنْزِلوا منه سَواءٌ انْتَصَرْنا ، أو هُزِمْنا »[1] .

فلمَّا خالَفُوا ونزَلُوا من الجبلِ حَلَّتِ الهزيمةُ بالمسلمين .

(١) هذا هو الواقعُ ، فالمُوَحِّدُ الذى يَسْلُكُ الطريقَ ، ويُواجِهُ الكفارَ ، ويقولُ : أنا أدْعُو إلى اللَّهِ ، وليس عندَه علمٌ ، لو يَقِفُ أمامَه واحدٌ من عوامِّهم ، ويُلْقِى عليه شُبْهةً ما اسْتَطاعَ الجوابَ .

فهذا مما يُوجِبُ على طَلَبَةِ العلمِ ، وعلى الدُّعاةِ إلى اللَّهِ خصوصًا ، أن يَتَفَقَّهوا فى دينِ اللَّهِ ، وأن يتعلَّمُوا حُجَجَ اللَّهِ وبَراهينَه ، وأن يطَّلِعُوا على ما عندَ الخصومِ والكفارِ والمنافقين من الباطلِ ، من أجلِ أن يَدْحَضوه، ويكونوا على معرفةٍ به .

والنبيُّ ﷺ لمَّا أرْسَلَ معاذًا إلى اليمنِ قال له : « إنك تأتى قومًا من أهلِ الكتابِ »[2] .

من أجلِ أن يَسْتَعِدَّ ؛ لأنَّ الذين أمامَه أهلُ كتابٍ ، وأهلُ علمٍ ، وعندَهم حُجَجٌ ، وعندَهم شُبُهاتٌ ، وعندَهم تَلْبيسٌ ، فلابدَّ أن يكونَ مُعاذٌ - رضِى اللَّهُ

(١) انظر صحيح البخارى (٣٠٣٩، ٤٠٤٣) .

(٢) البخارى (٤٣٤٧) ، ومسلم ١/ ٥٠ (١٩) .

....

عنه – على استعدادٍ ؛ من أجلِ أن يَقومَ بالدعوةِ ، ويَرُدَّ الباطلَ .

ثم قال له : «فلْيَكُنْ أولَ ما تَدْعُوهم إليه شهادةُ أن لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ » .

فهذا مما يُؤَكِّدُ على المُوَحِّدينَ عمومًا ، وعلى طَلَبةِ العلمِ خصوصًا ، وعلى الدُّعاةِ إلى اللَّهِ بصفةٍ أَخَصَّ أن يتعلَّموا ما يَدْفَعون به الباطلَ ، ويَنْصُرون به الحقَّ ، وإلّا فإنهم سيَنْهَزِمون أمامَ أيِّ شُبْهةٍ تَعْرِضُ لهم .

والمشكلةُ إذا عجَزَ الداعيةُ إلى اللَّهِ أن يُجِيبَ على شُبَهِ المُلَبِّسِ أمامَ الناسِ ، أو أجابه بجَهْلٍ ، وهذا أشدُّ .

ولا يَتعارَضُ هذا مع قولِ الشيخِ : والعاميُّ من المُوَحِّدين يَغْلِبُ ألفًا من علماءِ المشركين ؛ لأنَّ العاميَّ المُوَحِّدَ ، وإن كان كذلك فعليه الخَوْفُ من شرِّهم ، وأَخْذُ الحَذَرِ منهم بتعلُّمِ العلمِ النافعِ .

وقد اسْتَشْكَل بعضُ الإخوانِ هذه العبارةَ ، وهى قولُ الشيخِ : والعاميُّ من المُوَحِّدين يَغْلِبُ ألفًا من علماءِ هؤلاءِ المشركين ، مع قولِه : وإنما الخوفُ على المُوَحِّدِ الذى يَسْلُكُ الطريقَ ، وليس معه سَلاحٌ .

والجوابُ عن هذا الإشكالِ : أن الشيخَ – رحِمه اللَّهُ – يَقْصِدُ أن العاميَّ عندَه فطرةٌ سليمةٌ يَسْتَنْكِرُ بها الباطلَ .

أما علماءُ الضلالِ ففِطَرُهم فاسدةٌ ، وحُجَجُهم واهيةٌ ، فالعاميُّ يَغْلِبُهم بالفطرةِ السليمةِ ، من حيث الجملةُ ، لامن حيث التفاصيلُ .

فالعاميُّ المُوَحِّدُ أحسنُ حالًا مِن علماءِ الكلامِ والمنطقِ ، فكتابُ اللَّهِ ما ترَكَ شيئًا نَحْتاجُ إليه من أمورِ دينِنا إلّا وبيَّنه لنا ، لكن يَحْتاجُ منا إلى تفقُّهٍ وتعلُّمٍ .

وقَد مَنَّ اللَّهُ تعالى علَيْنا بكِتابِهِ الذي جَعَلهُ : ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

فَلاَ يأْتي صَاحِبُ باطِلٍ بحُجَّةٍ إلَّا وفي القُرآنِ ما يَنْقُضُها ويُبيِّنُ بُطْلانَها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

قال بعْضُ المُفَسِّرين : هذهِ الآيةُ عامَّةٌ في كُلِّ حُجَّةٍ يأتي بها أَهْلُ البَاطلِ إلى يَوم القِيامةِ(١) .

وأَنَا أَذْكُرُ لكَ أشْياءَ مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ في كِتابِهِ جَوابًا لكَلامٍ احْتَجَّ بِهِ المُشْركُونَ

ولو كان عندَك سلاحٌ ، ولكن لا تَعْرِفُ تَشْغِيلَه ، فإنه لا يَدْفَعُ عنك العَدُوَّ ،وكذلك القرآنُ لا يَنْفَعُ إذا كان مَهْجورًا ، وكان الإقبالُ على غيرِه من العلومِ .

(١) **هذه قاعدةٌ معروفةٌ** ؛ لأنَّ اللَّهَ جلَّ وعلا يقولُ عن القرآنِ : ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] ويقولُ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان : ٣٣] .

فلا يُوجَدُ شُبْهةٌ فى الدنيا ، أو باطلٌ فى الدنيا يُدْلِى به كافرٌ ، أو مُلْحِدٌ إلّا وفى القرآنِ ما يَرُدُّ عليه ، لكن لا يَتَبَيَّنُ هذا إلّا بمعرفةِ القرآنِ ، والتفقُّهِ فيه ، ودراستِه حقَّ الدراسةِ ، حتى يَعْرِفَ ما فيه من الكنوزِ ، وما فيه من السلاحِ ، وما فيه من الذَّخيرةِ ، التى نُقاوِمُ بها أعداءَنا .

فنُقْبِلُ على كتابِ اللَّهِ حفظًا وتفهُّمًا وتلاوةً وتدبُّرًا وعملًا ؛ حتى نكونَ مُسَلَّحِين بهذا السلاحِ .

أما مجردُ وجودِ القرآنِ عندَنا من غيرِ أن نَعْتَنِيَ به ، ونَدْرُسَه فلا يَكْفِى ، وأهلُ الكتابِ ضَلُّوا وكفَرُوا ، وعندَهم التوراةُ والإنجيلُ ، لَمَّا ترَكُوا تعلُّمَهما والعملَ بهما .

في زَمَانِنا عَلَيْنا[1] .

فنقُولُ : جَوابُ أهْلِ الباطِلِ من طَريقينِ : مُجْمَلٍ ، ومُفَصَّلٍ .

أمَّا المُجْمَلُ[2] : فهُو الأمْرُ العَظِيمُ والفائدةُ الكبيرةُ لِمَن عَقَلَها ، وذلك قولُه تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ

لكن لابدَّ من دراسةِ القرآنِ على ضَوْءِ السنةِ النبويةِ وتفسيرِ السلفِ الصالحِ ، لا على ضوءِ الدراساتِ المُعاصِرةِ المبنيةِ على التخرُّصِ والجهلِ ، أو ما يُسَمُّونه بالإعجازِ العلميِّ .

فليس هذا خاصًّا بالرسولِ ﷺ وأهلِ زمانِه مع القرآنِ ، بل هذا عامٌّ لكلِّ أمتِه إلى أن تقومَ الساعةُ ، لكن يَحْتاجُ إلى عنايةٍ بالقرآنِ ، ودراسةٍ للقرآنِ كما يَنْبَغِي ؛ لأنَّ فيه بيانَ الحقِّ والردَّ على أهلِ الباطلِ .

(١) لمَّا ذكَرَ لك هذه القاعدةَ العظيمةَ ، وهو أنه لا يأْتى مُبْطِلٌ بشبهتِه إلّا وفى القرآنِ ما يُبَيِّنُ بُطْلانَها ، وأن ذلك مُسْتَمِرٌّ إلى يوم القيامةِ ، دخَلَ فى التمثيلِ من الواقعِ الذى جَرَى للشيخِ رحِمه اللَّهُ فى وقتِه مع خُصومِه .

ومن هنا إلى آخرِ الكتابِ ، كلُّهُ كشفُ شُبُهاتٍ يَعْتَرِضون بها على الشيخِ ، وهو يُجِيبُهم عنها من كتابِ اللَّهِ ، ومن سنةِ رسولِه ﷺ ، ويَدْحَضُ حُجَجَهم ، وبذلك نَصَرَه اللَّهُ عليهم ، وأبْطَلَ كيدَهم .

(٢) **المُجْمَلُ** هو القاعدةُ العامةُ فى جوابِ أهلِ الباطلِ على اختلافِ أصنافِهم ، وفى أيِّ زمانٍ ومكانٍ .

والمُفَصَّلُ هو الردُّ على كلِّ شُبْهةٍ على حِدَةٍ ؛ فإذا عرَفْتَ المُجْمَلَ **والمُفَصَّلَ** فى ردِّ الشُّبُهاتِ صار عندَك سلاحٌ لمُنازلةِ المشركين والمُبْطِلين .

تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] .

---

(١) هذا هو الردُّ المُجْمَلُ على الشُّبُهاتِ ، قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ؛ يعنى : القرآنَ .

مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُحْكَمُ هو الذى لا يَحْتاجُ فى بيانِه إلى غيرِه .

فالقرآنُ منه آياتٌ على هذا الشكلِ ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ ؛ يعنى : بيِّناتٌ واضحاتٌ فى معانيها ، لا تَحْتاجُ إلى غيرِها .

هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أمُّ الشيءِ هو الأصلُ الذى يَرْجِعُ إليه ، فالآياتُ المُحْكَماتُ هُنَّ الأصلُ ، الذى يُرْجَعُ إليه .

وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ المُتشابهُ هو الذى يَحْتاجُ لبيانِ مَعانِيه إلى غيرِه ، فيُرَدُّ إلى المُحْكَمِ ، ومِن المُتَشابِهِ المُحْتَمِلُ لمعانٍ متعددةٍ ، ويَحْتاجُ إلى غيرِهِ فى بيانِ المرادِ منه . ومنه المُطْلَقُ ، ومنه المنسوخُ .

وقد ذكَرَ تعالى موقفَ الناسِ من هذين القسمين : المُحْكَمِ والمُتَشابِهِ ، فقال : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ يَأْخُذون الآياتِ غيرَ الواضحةِ ، أو الآياتِ المُحْتَمِلةَ ، ويَسْتَدِلُّون بها على ما يُريدُون ، مع أنها مُحْتَمِلةٌ ، ليست نصًّا فيما يَقُولون .

لكن هم يُريدون التَّلْبيسَ على الناسِ ، ويقولون : نحن اسْتَدَلَلْنا بالقرآنِ ، فيَأْخُذون الآياتِ التى لا يَتَّضِحُ معناها بنفسِها ، أو الآياتِ المُحْتَمِلةَ لعِدَّةِ معانٍ ، فيَسْتَدِلُّون بها على ما يُريدون .

ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ ؛ أى : التشكيكِ والتَّضْليلِ ، أو ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ التأويلُ

....

يُطْلَقُ على مَعْنَيَيْنِ، كما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رحِمه اللَّهُ فى رسالتِه التَّدْمُرِيةِ[١] .

المعنى الأولُ : أن المرادَ به التَّفْسِيرُ ، وهذا هو المعروفُ عندَ المُتَقَدِّمين ، ولذلك تَجِدُ ابنَ جَريرِ الطَّبَرِيَّ فى تفسيرِه يقولُ : القولُ فى تأويلِ قولِه تعالى ؛ أى : فى تفسيرِه .

فإن كان هذا هو المقصودَ فى الآيةِ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإنه يُعْطَفُ الراسخون فى العلمِ على لفظِ الجلالةِ هكذا : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ ؛ يعنى : والراسخون فى العلمِ يَعْلَمون تأويلَه ، وهو التفسيرُ ، وذلك بِرَدِّه إلى المُحْكَمِ الذى يُبَيِّنُ المرادَ منه .

فتفسيرُ القرآنِ على هذا الوجهِ لا يَعْلَمُه إلا اللَّهُ ، وأهلُ العلمِ المُخْتَصُّون ، وأمَّا العوامُّ والجُهَّالُ فلا يَعْلَمون تفسيرَه ، وأهلُ الزَّيْغِ يَأْخُذون المُتَشَابِهَ ، ولا يَرُدُّونه إلى المُحْكَمِ ، ويَقْطَعون بعضَ القرآنِ عن بعضٍ ، فيَأْخُذون بعضَ الآياتِ ، ويَتْرُكون البعضَ الآخَرَ .

أما المعنى الثانى للتأويلِ : فهو الحقيقةُ التى يَؤُولُ إليها الشىءُ ، وما يَصِيرُ إليه فى المستقبلِ ، مثلُ حقائقِ ما فى الجنةِ من أعنابٍ ، ونَخِيلٍ ، وفَواكهَ ، ولبنٍ ، وخمرٍ ، وعَسَلٍ ، وأشياءَ لا يَعْلَمُ حقائقَها إلا اللَّهُ سبحانَه وتعالى ؛ لأنَّها من علمِ الغيبِ .

وكذلك كيفيةُ أسماءِ اللَّهِ وصفاتِه لا يَعْلَمُها إلا اللَّهُ سبحانَه وتعالى ، فالتأويلُ على هذا المعنى ما يَؤُولُ إليه الشىءُ فى المستقبلِ ، فإذا أُرِيد هذا المعنى

(١) الرسالة التدمرية ص ٩٠ - ٨ ، وما بعدها .

وقَدْ صَحَّ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنَّهُ قال: «إذَا رَأَيْتُم الذينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ فأولَئِكَ الذِينَ سَمَّى اللَّهُ فاحْذَرُوهُمْ»[1].

مِثالُ ذلكَ: إذا قَالَ لَكَ بعْضُ المُشْركين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾. أَو إنَّ الشَّفاعةَ حقٌّ، وإنَّ الأنْبياءَ لَهُم جَاهٌ عِندَ اللَّهِ، أو ذَكَرَ كَلامًا للنَّبيِّ ﷺ، يَستَدِلُّ بهِ على شيءٍ مِنْ باطِلِهِ، وَأنْتَ لا تَفْهَمُ مَعنَى الكَلامِ الذي ذَكَرَهُ.

فَجَاوِبْهُ بقَولِك: إنَّ اللَّهَ ذَكَرَ في كِتابِهِ أنَّ الذينَ في قُلُوبِهم زَيْغٌ يَتْرُكُون المُحْكَمَ ويَتَّبِعونَ المُتشابِهَ، وما ذَكَرْتُه لكَ مِن أنَّ اللَّهَ تَعالى ذَكَرَ أنَّ المُشْركينَ يُقِرُّونَ بالرُّبُوبيَّةِ، وأنَّ كُفْرَهُم بتعَلُّقِهم عَلى المَلائِكَةِ والأنْبِياءِ والأولياءِ، مَعَ

تَعَيَّنَ الوقفُ في الآيةِ على لفظِ الجلالةِ؛ لأنه لا يَعْلَمُ تأويلَه على هذا الوجهِ إلا هو سبحانَه.

(١) صحَّ عن النبيِّ ﷺ في الحديثِ الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ أنه قال: «إذا رأَيْتُم الذين يَتَّبِعون ما تَشابَهَ منه - أي: من القرآنِ والسنةِ، ويأْخُذون بالنصوصِ المُجْمَلَةِ، ويَتْرُكون النصوصَ المُفَصَّلةَ - فأولئك الذين سَمَّى اللَّهُ في هذه الآيةِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ - فاحْذَرُوهم»[1]؛ أي: احْذَروا أصحابَ هذه الطريقةِ، لا يُلَبِّسوا عليكم أمرَ دينِكم.

فهذا فيه التحذيرُ من علماءِ الضلالِ، ومن المُبْتَدِعةِ؛ لئلا يُلَبِّسوا علينا أمرَ دينِنا، فهؤلاء من الذين: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧].

---

(١) البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم ٤/٢٠٥٣ (٢٦٦٥).

قَولِهِم : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ .

هذَا أمْرٌ مُحْكَمٌ بيِّنٌ لا يَقْدِرُ أحَدٌ أن يُغَيِّرَ معنَاهُ .

وَما ذَكَرْتَه لي أيُّها المُشْرِكُ من القُرآنِ أوْ كَلَام رسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أَعْرِفُ مَعناهُ .

ولكن أقْطَعُ أنَّ كلَامَ اللَّهِ لا يَتناقَضُ ، وَأن كَلَامَ النَّبيِّ ﷺ لا يُخالِفُ كلَامَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

وهذا جَوابٌ جيِّدٌ سديدٌ ، ولكن لا يَفْهَمُهُ إلا مَن وفَّقَهُ اللَّهُ تعالى فلَا تَسْتَهِنْ به ؛ فإنَّه كما قال تعالى : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1] .

---

(١) أي : إذا قال لك واحدٌ من علماءِ المشركين الذين يَتَعَلَّقون بالأولياءِ ، ويَطْلُبون منهم المددَ ، ويَسْتَغِيثون بهم ، كما هو الحالُ والواقعُ الآنَ عندَ عُبَّادِ القُبورِ ، ويقولون : إنَّ اللَّهَ جلَّ وعلا يقولُ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس : ٦٢] .

وهؤلاء أولياءُ ، والنبيُّ ﷺ أخْبَرَ أنَّ الصالحين يَشْفَعون ، وأن الأولياءَ يَشْفَعون ، والرسلَ[1] يَشْفَعون ، فالجوابُ أن الشفاعةَ حقٌّ ، لا شَكَّ فى ذلك ، ولكنَّها كما ذكَرَ اللَّهُ ، **لابدَّ لها من شرطَيْنِ** .

١ - الإذنُ للشافعِ أن يَشْفَعَ .

٢ - وأن يكونَ المشفوعُ فيه من أهلِ التوحيدِ .

ولا شكَّ أنَّ اللَّهَ سبحانَه وعَدَ الأولياءَ أنهم لا خَوفٌ عليهم ، ولا هم

---

(١) ومن الأدلة على أن الصالحين والأولياء والرسل يشفعون يوم القيامة ، ما رواه البخارى (٧٤٣٩) عن أبى سعيد الخدرى ، وفيه : «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون» .

....

يَحْزَنُون ، لكن مَن الأولياءُ ؟ هل الأولياءُ طائفةٌ مخصوصةٌ من الناسِ ، عليهم عَمائِمُ ولباسٌ خاصٌّ ؟

أو الأولياءُ الذين بُنِي على قبورِهم قِبابٌ ؟

ليس كذلك ؛ لأنَّ اللَّهَ سبحانَه بيَّنَهم بعدَ هذه الآيةِ مُباشرةً حيث قال : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس : ٦٣] .

فكلُّ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ فهو وليٌّ للَّهِ ، ليست الوِلايةُ خاصةً بطائفةٍ مُعَيَّنةٍ ، أو أشخاصٍ مُعَيَّنِينَ ، لهم لباسٌ خاصٌّ ، ولهم سِماتٌ خاصةٌ ، أو على قبورِهم قِبابٌ وزُخْرُفاتٌ .

الأولياءُ كلُّ مؤمنٍ تَقِيٍّ فإنه وليٌّ اللَّهِ بنصِّ هذه الآيةِ .

والوِلايةُ تَخْتَلِفُ باختلافِ الإيمانِ والتَّقْوَى ، منهم مَن هو وليٌّ كاملُ الوِلايةِ ، ومنهم مَن هو وليٌّ دونَ ذلك بحسَبِ إيمانِه ، وبحسَبِ تَقْواه .

فليست الوِلايةُ خاصةً بما تَزْعُمون من هؤلاء الأشخاصِ ، أو هؤلاء المَقْبُورين ، والنبيُّ ﷺ يقولُ : «رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبوابِ ، لو أَقْسَمَ على اللَّهِ لأَبَرَّه»[1] .

فقد يكونُ الوليُّ غيرَ معروفٍ ، ولا له مكانةٌ عندَ الناسِ .

هذا من ناحيةٍ ، ومن الناحيةِ الثانيةِ ، لو ثَبَتَ أنه وليٌّ للَّهِ عزَّ وجلَّ فإنَّ هذا لا يُعْطِيه شيئًا من الربوبيةِ ، ولا شيئًا من حقِّ اللَّهِ ؛ لأنه عبْدُ اللَّهِ ، مُحْتاجٌ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ ، لا يَمْلِكُ من الأمرِ شيئًا .

---

(١) رواه مسلم ٤/٢٠٢٤ (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

....

لا يَخْلُقُ ، ولا يَرْزُقُ ، فليس المعنى أنه إذا كان وليًّا أننا نَتَعَلَّقُ به ، ونُنْزِلُ حاجاتِنا به ، ونَسْتَغِيثُ به ، ونَطْلُبُ منه ؛ لأنَّ اللَّهَ قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء : ٣٦] لا مِن الأولياءِ ولا غيرِهم .

فاللَّهُ لا يَرْضَى بهذا سبحانَه وتعالى ، فليس معنى قولِه تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس : ٦٢] أنهم يَمْلُكون شيئًا من الربوبيةِ ، وأنهم يَنْفَعون ويَضُرُّون ، وأنهم يُعْطَوْن الشفاعةَ ، وأنهم وأنهم ... كما يَزْعُمُ القُبُوريُّون .

فمَن تعلَّق بالأولياءِ ، وطَلَبَ منهم الشفاعةَ ، وهم أمواتٌ ، أو طَلَبَ منهم الإغاثةَ ، وهم أمواتٌ ، أو طَلَبَ منهم قضاءَ الحاجاتِ ، وهم في قبورِهم ، فإنه مثلُ المشركين الأوَّلِين الذين قال اللَّهُ فيهم : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس : ١٨] .

هم يقولون : نحن لا نَعْتَقِدُ أنهم يَخْلُقون ، ويَرْزُقون ، وإنما من أجلِ أن نَجْعَلَهم وسائطَ بينَنا وبينَ اللَّهِ ؛ لأنهم أولياءُ ، ونحن مُقَصِّرون ، ونحن مُذْنِبون ، فهؤلاء بصلاحِهم وجاهِهم ومكانتِهم عندَ اللَّهِ يَشْفَعون لنا .

واللَّهُ ردَّ عليهم فقال : سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فسَمَّى هذا شركًا .

وقال في الآيةِ الأخرى : أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] .

....

يُرِيدون الوَسَاطةَ فقط عندَ اللَّهِ سبحانَه وتعالى ، وإلا فإنهم مُعْتَرِفون أنَّ اللَّهَ هو الخالقُ الرازقُ المُحْيِي المُمِيتُ ، فيَعْتَرِفونَ بتوحيدِ الربوبيةِ تمامًا ، كما ذكَرَ اللَّهُ عنهم .

وإنما قصَدُوا بفعلِهم هذا وَساطةَ هؤلاء الصالحين عندَ اللَّهِ ، فنذَرُوا لهم ، وذَبَحوا لهم ، واستغاثوا بهم : يا سَيِّدى ، اشْفَعْ لى عندَ اللَّهِ ، افْعَلْ كذا .

هذا الذى يَقُولُونه عندَ القبورِ ، هل هذا يَخْتَلِفُ عمَّا قاله المشركون من قبلُ ، الذين رَدَّ عليهم جلَّ وعلا بقولِه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر : ٣] .

حكَمَ عليهم بالكذبِ ، وحكَم عليهم بالكفرِ ، فعَمَلُهم هذا كفرٌ وكذبٌ .

وفى سورةِ يونُسَ نزَّهَ نفسَه عن ذلك ، فقال : ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس : ١٨] سمَّاه شركًا .

فالأولياءُ عبادٌ صالِحُون ، لهم قَدْرُهم ، ونَحْتَرِمُهم ونُحِبُّهم ، ونَقْتَدِى بهم فى الأعمالِ الصالحةِ ، لكن ليس لهم شَرِكةٌ مع اللَّهِ سبحانه وتعالى .

إنما هم مثلُنا مُحْتاجُون إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، فُقَراءُ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا عامٌّ .

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] كلُّ الخَلْقِ فُقَراءُ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، بما فيهم الأنبياءُ والرسلُ ، بما فيهم الملائكةُ عليهم السلامُ ، كلُّهم فقراءُ إلى اللَّهِ سبحانَه وتعالى .

فهذا مما يُزِيلُ اللَّبْسَ ؛ لأنَّ هؤلاء يَأْخُذون بعضَ القرآنِ ، ويَستَدِلُّون به ، ويَتْرُكون البعضَ الآخَرَ يَأْخُذون الآيةَ التى تَمْدَحُ الأولياءَ ، وتُثْنِى عليهم ، ويَتْرُكون

وأمَّا الجوابُ المُفَصَّلُ فإن أعْداءَ اللَّهِ لهُم اعْتراضَاتٌ كثيرةٌ علَى دِينِ الرُّسُلِ ، يصُدُّونَ بها النَّاسَ عنهُ ، مِنها قولُهم : نحن لا نُشْرِكُ باللَّهِ .

بل نَشهَدُ أنه لا يَخْلُقُ ولا يَرْزُقُ ولا يَنْفَعُ ولا يضُرُّ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ ، وأن مُحمَّدًا ﷺ لا يَملِكُ لنفْسِهِ نفعًا ولا ضرًّا ، فضْلًا عن عبدِ القَادِرِ أو غيْرِهِ ، ولكن أنا مُذْنِبٌ . والصَّالحُونَ لهم جاهٌ عنْدَ اللَّهِ ، وأطْلُبُ من اللَّهِ بهِم .

الآيةَ الأخرى التى تُبَيِّنُ أنهم لا يُعْبَدُون مِن دونِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّ مَنْ طَلَبَ منهم شيئًا ، وهم أمواتٌ ، فإنه مشركٌ كافرٌ .

يَتْرُكون هذه الآياتِ .

فهذا من الزَّيْغ الذى ذكَرَه اللَّهُ سبحانَه وتعالى ، فلْتَكُنْ عندَك هذه القاعدةُ أنَّ الإنسانَ مهما بلَغَ من الصَّلاحِ والكرامةِ والمَنْزِلةِ عندَ اللَّهِ فإنه ليس له من الربوبيةِ شيءٌ ، وإنه لا يُدْعَى مع اللَّهِ ، وإنه لا يكونُ له شيءٌ من العبادةِ ، وهو لا يَرْضَى بذلك .

فالأولياءُ والصَّالحون على الحقيقةِ لا يَرْضَوْن بذلك ، ويَنْهَوْن عنه أشدَّ النهيِ ، إنما يَرْضَى بذلك الطَّواغيتُ الذين يَدْعُون الناسَ إلى عبادَةِ أنفسِهم .

أما أولياءُ اللَّهِ فحاشاهم من هذا ، لا يَرْضَوْن به ، وإنما يَرْضَى به أولياءُ الشيطانِ . هذا معنى قولِ الشيخِ رحِمه اللَّهُ .

[لكن أَقْطَعُ أنَّ كلامَ اللَّهِ لا يَتَناقَضُ ، وأن كلامَ الرسولِ ﷺ لا يُخالِفُ كلامَ اللَّهِ] ، فيَجِبُ ردُّ النصوصِ بعضِها إلى بعضٍ ، وتفسيرُ بعضِها ببعضٍ حتى يَتَّضِحَ المطلوبُ .

وهذا - كما قال الشيخُ - جوابٌ سَديدٌ تَجِبُ العِنايةُ به ؛ لأنه مبنيٌّ على كتابِ اللَّهِ ، فمَن وُفِّق له فهو ذو حَظٍّ عظيمٍ .

فجَاوِبْهُ بما تقدَّمَ ، وهُوَ : أن الذينَ قَاتَلُهم رسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بما ذَكَرْتَ ، ومُقِرُّونَ أن أوْثانَهُم لا تُدبِّرُ شيئًا ، وإنما أرَادُوا الجَاهَ والشَّفاعَةَ ، واقْرَأْ عليهِ ما ذَكَرَ اللَّهُ في كِتابِهِ ووَضَّحَهُ .

فإن قالَ : هؤلاءِ الآياتُ نزلَتْ فيمَنْ يعبُدُ الأصْنامَ ، كيفَ تجْعلُونَ الصَّالحينَ مثلَ الأصْنامِ ؟ أم كيْفَ تجْعَلُونُ الأنْبياءَ أصْنامًا ؟ فجاوِبْهُ بمَا تقدَّمَ ؛ فإنَّه إذا أقَرَّ أنَّ الكُفَّارَ يشهَدُونَ بالرُّبُوبيةِ كُلِّها للهِ ، وأنَّهُم ما أرَادُوا ممَّن قصَدُوا إلَّا الشَّفاعةَ ، ولكِن أرَادَ أن يُفرِّقَ بينَ فِعْلِهِمْ وفِعْلِه بمَا ذَكَرَهُ .

فاذْكُرْ لَهُ أنَّ الكُفارَ منْهُمْ مَن يَدْعُو الأصْنامَ ، ومِنْهُم مَن يَدْعُو الأَوْلياءَ الذين قالَ اللَّهُ فيهم : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآيةُ .

ويَدْعُونَ عيسَى ابنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ ، وقد قَالَ تعالَى : ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ .

واذْكُرْ لهُ قولَه تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

وقَولَه تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى

نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ .

فقُلْ لهُ : أعَرَفْتَ أن اللَّه كفَّرَ مَن قَصَدَ الأصْنامَ ، وكَفَّرَ أيضًا مَن قَصَدَ الصَّالحينَ ، وقاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ولم يُفَرِّقْ بيْنَهُم .

فإن قَالَ : الكُفَّارُ يُرِيدُونَ منهُم ، وأَنا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافعُ الضَّارُّ المُدَبِّرُ ، لا أُرِيدُ إلَّا منهُ ، والصَّالحُونَ ليسَ لهُمْ مِن الأمْرِ شيءٌ ، ولكِنْ أَقْصِدُهُم ، أرْجُو مِن اللَّهِ شَفَاعَتَهُم .

فالجَوابُ : أنَّ هذَا قوْلُ الكُفَّارِ سَواءً بسَواءٍ ، واقْرَأْ عليه قولَه تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ . وقولَه تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ .

واعْلَمْ أنَّ هذهِ الشُّبَهَ الثَّلَاثَ هِي أكْبَرُ ما عندَهُمْ ، فإذَا عَرَفْتَ أنَّ اللَّهَ وضَّحَها لَنَا في كِتَابِهِ وفهِمْتَها فَهمًا جيِّدًا فمَا بَعْدَها أيْسَرُ مِنها[1] .

---

(١) ذكَرَ الشيخُ رحِمَه اللَّهُ في هذا المَقْطَعِ ثلاثَ شُبُهاتٍ للمشركين ، هي من أهمِّ ما عندَهم ، فإذا عرَفْتَ الإجابةَ الصحيحةَ عنها ، فما بعدَها من الشُّبُهاتِ أيْسَرُ منها :

الشبهةُ الأولى : أنهم يقولون : نحن نَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ﷺ ، ونَعْلَمُ أنه لا يَنْفَعُ ، ولا يَضُرُّ إلا اللَّهُ سبحانَه وتعالى ، وأنَّ النبيَّ ﷺ لا يَمْلِكُ نفعًا ولا ضَرًّا ، فضلًا عن عبدِ القادرِ - يعني : عبدَ القادرِ الجيلانيَّ - لكن هؤلاء لهم جاهٌ عندَ اللَّهِ ، فنَطْلُبُ من اللَّهِ بهم ؛ يعني : نَجْعَلُهم وسائطَ بينَنا وبينَ اللَّهِ ؛ لِمَا لهم مِن الفضلِ .

فالجوابُ سهلٌ جدًّا من كتابِ اللَّهِ بأن تقولَ : إنَّ المشركين مع أصنامِهم ما كانوا يَعْتَقِدُون فيها أنها تَخْلُقُ وتَرْزُقُ وتَنْفَعُ وتَضُرُّ ، وإنما اتَّخَذُوها وسائطَ بينَهم

....

وبينَ اللَّهِ .

وهذا واضحٌ في قولِه تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس : ١٨] .

نزَّه نفسَه عن فعلِهم ، وسَمَّاه شركًا مع أنهم يَقُولون : هؤلاء شفعاؤُنا عندَ اللَّهِ ، ويَعْتَقِدون أنهم لا يَنْفَعُون ، ولا يَضُرُّون ، وإنما قَصْدُهم التعلُّقُ بالجاهِ فقط .

فالآياتُ تَدُلُّ على أن المشركين مُعْتَرِفون بأنه لا يَخْلُقُ ، ولا يَرْزُقُ ، ولا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا اللَّهُ سبحانَه وتعالى ، وأنَّ أصنامَهم ومَعْبوداتِهم لا تَخْلُقُ ، ولا تَرْزُقُ ، ولا تُدَبِّرُ مع اللَّهِ ، وإنما اتَّخَذوها وسائطَ ، ولا فرقَ بينَكم وبينَهم .

وإذا كنت مُذْنِبًا فلماذا لا تَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، وتَطْلُبُ من اللَّهِ ، واللَّهُ جلَّ وعلا أمَرَك بالاستغفارِ ، ووَعَدَك بالتوبةِ ، وأن يَقْبَلَ منك ، ويَغْفِرَ ذنوبَك[1] ، ولم يَقُلْ : إذا أذْنَبْتَ فاذْهَبْ إلى قبرِ الوليِّ الفُلانيِّ ، أو العبدِ الصالحِ الفُلانيِّ ، وتوَسَّلْ به ، واجْعَلْه واسطةً بيني وبينَك .

وتقولُ أيضًا : هؤلاء إذا كان لهم جاهٌ عندَ اللَّهِ فإنَّ جاهَهم لهم ، وصلاحَهم لهم ، وأنت ليس لك إلَّا عملُك ، وصلاحُ الصالحين لهم ، وجاهُهم عندَ اللَّهِ لهم ، ما عَلاقتُك بعملِ فلانٍ وصلاحِ فلانٍ ، كلٌّ له عملُه .

(١) روى الترمذي (٣٥٤٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني ، غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا ، لأتيتك بقرابها مغفرة» . قال الترمذي : حديث حسن .

....

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة : ١٣٤] .

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس : ٤٥] فجاهُهم وصلاحُهم لهم ، ولا يَنْفَعُك إذا كنت مُذْنِبًا ، حتى والدُك أقربُ الناسِ إليك ، وولدُك لا يَسْتَطِيعُ – ولو كان من أصلحِ الناسِ – أن يَنْفَعَك .

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار : ١٩] ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر : ٣] . ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان : ٣٣] . ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس : ٣٤ – ٣٦] .

الشبهةُ الثانيةُ : إذا قرَأْتَ عليه قولَه تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس : ١٨] وقولَه تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] وبيَّنْتَ له أن المشركين ما أرادوا ممَّن عبَدُوهم إلا الشفاعةَ .

وقال لك : هذه الآياتُ نزَلَت في الذين يَعْبُدون الأصنامَ ، وأنا لسْتُ أَعْبُد/ الأصنامَ ، وإنما أتوَسَّلُ إليه بالصالحين ، فكيف تَجْعَلُ الصالحين أصنامًا ؟

الجوابُ عن هذا واضحٌ جدًّا ، وهو أنَّ اللَّهَ ذكَرَ أن المشركين منهم مَن يَعْبُدُ الأصنامَ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الأولياءَ والصالحين ، وسَوَّى اللَّهُ بينَهم في الحكمِ ، ولم يُفَرِّقْ بينَهم ، وأنت فرَّقْتَ بينَهم .

في ظَنِّك أن عبادةَ الأصنامِ لا تَجوزُ ، وأن عبادةَ الصالحين تَجوزُ إذا كانت بقَصْدِ التَّوَسُّطِ .

....

والدليلُ على هذا : أنَّ اللَّهَ ذكَرَ أنواعًا من المشركين ، فمنهم مَن يَعْبُدُ الصالحين ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الملائكةَ ، والملائكةُ من أصلحِ الصالحين ، فقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝﴾ [سبأ : ٤٠-٤١] .

في يومِ القيامةِ اللَّهُ جلَّ وعلا يَسْأَلُ الملائكةَ ، وهو أعلمُ سبحانَه وتعالى ، لكن لأجلِ إبطالِ حُجَّةِ هؤلاء : ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ .

فدلَّ على أنَّ منهم مَن يَعْبُدُ الملائكةَ ، لكنَّ الملائكةَ تَتَبَرَّأُ منهم يومَ القيامةِ ، وتقولُ : نحن ما أمَرْناهم بذلك ، ولا رضِينا بذلك ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ ؛ يعني : الشياطينُ هي التي أمَرَتْهم بعبادةِ الملائكةِ ؛ لأنَّ الملائكةَ لا تأْمُرُ إلا بعبادةِ اللَّهِ .

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [الأنبياء : ٢٩] .

فدلَّ على أنَّ منهم مَن يَعْبُدُ الملائكةَ ، والملائكةُ أصلحُ الصالحين ، كما قال تعالى فيهم : ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝﴾ [الأنبياء : ٢٧] .

ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأنبياءَ والصالحين ؛ كالمسيحِ ابنِ مَرْيَمَ وأُمِّه .

وإذا بطَلَ التوسُّلُ بالملائكةِ والأنبياءِ ، ودعاؤُهم من دونِ اللَّهِ بطَلَ التوسُّلُ بغيرِهم من الصالحين ودعاؤُهم من دونِ اللَّهِ ، كما قال تعالى : ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ

....

كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ [الزمر : ٣] .

لأنَّ الواجبَ إخلاصُ العبادةِ للَّهِ عزَّ وجلَّ بجميعِ أنواعِها من الدعاءِ والذبحِ والنذرِ وغيرِ ذلك .

فمَن ذَبَحَ لغيرِ اللَّهِ ، ودعا غيرَ اللَّهِ كان مُشْرِكًا خارجًا من الدين .

الشبهةُ الثالثةُ : إذا سلَّم بأنَّ الدعاءَ لغيرِ اللَّهِ شركٌ ، ولكنه قال : أنا لا أَدْعُو النبيَّ ﷺ ، ولا غيرَه ، وهذا الذى أَفْعَلُه ليس دعاءً ، وإنما هو طلبٌ لشفاعةِ النبيِّ ﷺ ، وهل تُنْكِرُ شفاعةَ النبيِّ ﷺ ؟

فإنك حينَئذٍ تَدْخُلُ معَه فى خُصومةٍ أخرى ، وشُبْهةٍ أخرى ، وهى أنه سَمَّى دعاءَ النبيِّ ﷺ والاستغاثةَ به طلبًا للشفاعةِ ، ولم يُسَمِّه دعاءً ، ويقولُ : إنَّ النبيَّ ﷺ أُعْطِى الشفاعةَ ، فأنا أَطْلُبُ منه الشفاعةَ التى أُعْطِيَها .

فتقولُ له : أنا لا أُنْكِرُ الشفاعةَ ، وأُقِرُّ أن شفاعةَ النبيِّ ﷺ حقٌّ ، وأنه شافعٌ مُشَفَّعٌ ، أنا لا أُنْكِرُ هذا ، ولكنَّ الشفاعةَ لا تُطْلَبُ من النبيِّ ﷺ ، وهو ميتٌ ، وإنما تُطْلَبُ من اللَّهِ ؛ لأنَّ الشفاعةَ مِلْكٌ للَّهِ عزَّ وجلَّ .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الزمر : ٤٤] . فجميعُ أنواعِ الشفاعةِ مِلْكٌ للَّهِ ، وما دامت مُلْكًا للَّهِ فإنها لا تُطْلَبُ إلا ممَّن يَمْلِكُها ، وهو اللَّهُ سبحانَه وتعالى .

والنبيُّ ﷺ لا يَمْلِكُ الشفاعةَ ، ولا أحدَ يَمْلِكُ الشفاعةَ إلا بإذنِ اللَّهِ ، وإنما هى ملكٌ للَّهِ عزَّ وجلَّ .

وأيضًا الشفاعةُ لا تَنْفَعُ كلَّ أحدٍ ، وإنما تَنْفَعُ أهلَ التوحيدِ ، وأنت لَسْتَ من أهلِ التوحيدِ ؛ لأنك تَدْعُو غيرَ اللَّهِ ، **فالشفاعةُ لها شرطان** :

....

الشرطُ الأولُ : أن تُطْلَبَ من اللَّهِ سبحانَه وتعالى ، ولا تُطْلَبَ من غيرِه .

الشرطُ الثاني : أن يكونَ المَشْفوعُ فيه من أهلِ التوحيدِ ، لا من أهلِ الشركِ والكفرِ .

والدليلُ على الشرطِ الأولِ : قولُه تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] وهو لا يَرْضَى إلا عن أهلِ التوحيدِ .

ودليلُ الشرطِ الثاني : قولُه : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ لا الملائكةُ ، ولا الرسلُ ، ولا الأولياءُ ، ولا الصالحون ، لا أحدَ يَشْفَعُ عندَ اللَّهِ إلا بعدَ أن يَأْذَنَ اللَّهُ .

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم : ٢٦] .

فلا تُطْلَبُ الشفاعةُ من المخلوقِ الميتِ ، وإنما تُطْلَبُ الشفاعةُ من اللَّهِ ، فتقولُ : اللَّهمَّ شَفِّعْ فيَّ نبيَّك ، لا تَطْلُبْها من الأمواتِ .

وهذا الذى تقولُ : إنه طلبٌ للشفاعةِ هو الذى كفَّرَ اللَّهُ به المشركين ؛ فإنَّ المشركين حينَما لجَأُوا إلى الأولياءِ والصالحين ، وإلى الملائكةِ ، وإلى الأنبياءِ يَطْلُبون منهم الشفاعةَ كفَّرهم اللَّهُ بذلك ، فقال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس : ١٨] .

فهذا الذى تَقُولُه هو الذى كفَّر اللَّهُ به المشركين ، وهو عبادةُ الأولياءِ والصالحين ؛ طلبًا لشفاعتِهم .

فإن قَالَ : أنَا لَا أعْبُدُ إلَّا اللَّهَ ، وهذَا الالْتِجَاءُ إلى الصَّالحِينَ ودُعاؤُهُم ليسَ بعِبادَةٍ[(١)] . فقُلْ لهُ : أنْتَ تُقِرُّ أنَّ اللَّهَ افْترضَ عليكَ إخْلاصَ العِبادَةِ للهِ ، وهُو حَقُّهُ عليكَ ، فإذَا قَالَ : نعمْ . فقُلْ لهُ : بيِّنْ لي هَذَا الذي فُرِضَ عليكَ ، وهو إخْلاصُ العِبادَةِ للهِ وحْدَه ، وهُوَ حقُّهُ عليكَ ، فإنْ كانَ لا يَعْرِفُ العِبادَةَ ولا أنْوَاعَهَا ، فبَيِّنْها لهُ بقَوْلِكَ : قالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

فإذا أعْلَمْتَهُ بهَذا ، فقُلْ لَهُ : هلْ عَلِمْتَ هذا عِبادَةً للهِ ؟ فلَابُدَّ أن يقُولَ : نَعَمْ ، والدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ . فقُلْ لَهُ إذا أقْرَرْتَ أنَّه عِبادَةٌ ، ودَعَوْتَ اللَّهَ ليْلًا ونَهارًا ، خوفًا وطَمعًا ، ثم دَعَوْتَ في تِلْكَ الحَاجَةِ نَبِيًّا أو غَيْرَهُ هلْ أشْرَكْتَ

---

(١) يعنى : إذا كان يَعْتَرِفُ أن العبادةَ حقٌّ للَّهِ عزَّ وجلَّ ، وأنه لا يَجوزُ عبادةُ غيرِ اللَّهِ ، ولكنه يقولُ : الالتجاءُ ليس من العبادةِ ، فهو جائزٌ .

فإنك تقولُ له : الالتجاءُ إلى اللَّهِ عبادةٌ ، والالتجاءُ إلى غيرِ اللَّهِ فيما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللَّهُ شركٌ ؛ لأنَّ مَن الْتَجأ إلى غيرِ اللَّهِ فى الشدائدِ ، فقد أشْرَكَ مع اللَّهِ فيما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللَّهُ سبحانَه وتعالى ؛ لأنه هو الذى يُجِيبُ المُضْطرَّ إذا دعاه ، ويَكْشِفُ السوءَ ، وهو المَلْجَأُ سبحانَه .

ولذا لجَأَ إليه النبيُّ ﷺ حيث يقولُ : «لا مَلْجأَ ، ولا مَنْجا ، ولا مُلْتَجأَ منك إلا إليك»[(١)] .

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن : ٢٢] .

وقولُه تعالى : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون : ٨٨] .

---

(١) رواه البخارى (٦٣١٥) ، ومسلم ٢٠٨٢/٤ (٢٧١٠) .

في عِبادَةِ اللَّهِ غيْرَهُ ؟ فلابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ[(١)] .

---

(١) أى : تَسْأَلُه عن معنى العبادةِ ، وما الفرقُ بينَها وبينَ الالتجاءِ ؟

وقلْ له : هل العبادةُ واجبةٌ أو مُسْتَحَبَّةٌ ؟ فلابدَّ أن يَعْتَرِفَ أنَّ العبادةَ أمرٌ واجبٌ ، وحَتْمٌ على العبادِ ، وأنَّها حقُّ اللَّهِ على العبادِ ، فإذا اعْتَرَف بهذا فقُلْ له : فَسِّرْ لى العبادةَ ، ما معناها ؟ وبَيِّنْ لى ما أنْواعُها ؟

ما دُمْتَ أنك اعْتَرَفْتَ أنَّ العبادَةَ للَّهِ ، وأنها واجبةٌ على العبدِ ، فإنَّه يَجِبُ عليك أن تَعْرِفَ مَعْناها ، وأن تَعْرِفَ أنواعَها ، وإلا فكيف يُوجِبُ اللَّهُ عليك شيئًا ، وأنت تَجْهَلُه ، ولا تَعْرِفُه ؟!

فإنه لا يَعْرِفُ العبادةَ ، ولا يَعْرِفُ أنواعَها ، وهذه آفةُ الجهلِ .

ومِن هنا يَتَعَيَّنُ على العبادِ أن يَتَعَلَّموا ما أوْجَب اللَّهُ عليهم ، وما فرَضَه اللَّهُ عليهم حتى يُؤَدُّوه على وجهِه الصحيحِ ، ويَتَجَنَّبوا ما يُخِلُّ به ، وما يُبْطِلُه .

أمَّا أن تَعْبُدَ اللَّهَ على جَهْلٍ ، فإنَّ هذه طريقةُ النصارَى الضالِّين يَعْبُدون اللَّهَ على جَهْلٍ وضلالٍ ، واللَّهُ أَمَرَك أن تَسْأَلَه أن يُجَنِّبَك طريقَهم ، فتقولَ : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة : ٦-٧] .

فالضالون هم الذين يَعْبُدون اللَّهَ على غيرِ علمٍ ، وعلى غيرِ معرفةٍ بالعبادةِ ، وإنما يَعْبُدون اللَّهَ بالعاداتِ والتقاليدِ ، وما وجَدُوا عليه آباءَهم وأجدادَهم دونَ أن يَرْجِعوا إلى ما جاءَت به الرسلُ ، ونزَلَت به الكتبُ ، وهذا هو سببُ الضلالِ .

والالتجاءُ هو طلبُ الحمايةِ مِن أمرٍ مَخُوفٍ ، لا يَدْفَعُه إلا اللَّهُ ، فهو نوعٌ مِن أنواعِ العبادةِ ، واللَّهُ سبحانَه يُجِيرُ ، ولا يُجارُ عليه ، ويُعِيذُ مَن اسْتَعاذ به .

فقُلْ له : فإذَا عَلِمْتَ بقولِ اللَّهِ تَعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ وأطَعْتَ اللَّهَ ونَحَرْتَ له ، هلْ هذَا عِبادَةٌ ؟ فلَابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ .

فقُلْ له : إذَا نَحَرْتَ لمخْلُوقَ نَبِيٍّ ، أو جنِّيٍّ ، أو غيْرِهِما ، هل أشْرَكْتَ في هذِهِ العِبادَةِ غيرَ اللَّهِ ؟ فلَابُدَّ أن يُقِرَّ ويقُولَ : نَعمْ[1] . وقُل له أيضًا : المُشرِكُونَ الذينَ نزَلَ فيهمُ القُرآنُ ، هل كانُوا يعْبُدُونَ الملائِكَةَ والصَّالِحِينَ واللَّاتَ وغيرَ ذلكَ ؟ فلَابُدَّ أن يقُولَ : نعَمْ ، فقُل له : وهل كَانتْ عِبَادَتُهُمْ إيَّاهُم إلَّا في

فمَن الْتَجأَ إلى ميتٍ فقد عبَدَه مِن دونِ اللَّهِ ، وكذلك مِن أعظمِ أنواعِ العبادةِ الدعاءُ ، حيث قال اللَّهُ تعالى : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف : ٥٥] وأنت بالتجائِك إلى غيرِ اللَّهِ قد دعَوْتَ غيرَ اللَّهِ ، وهذا شركٌ .

(١) أي : لابدَّ إذا تلَوْتَ عليه الآياتِ والأحاديثَ بأنَّ الدعاءَ عبادةٌ ، لابدَّ أن يَعْتَرِفَ ، فتقولُ له : لو دَعَوْتَ اللَّهَ فى الليلِ والنهارِ ، لكنك فى بعضِ الأحيانِ تَدْعُو غيرَ اللَّهِ ، هل تكونُ مشركًا ؟ فلابدَّ أن يَعْتَرِفَ ، ويقولَ : إنه مُشْرِكٌ ؛ لأنه دعا غيرَ اللَّهِ ، ومَن دعا غيرَ اللَّهِ فهو مشركٌ .

وإذا كان مَن دعا غيرَ اللَّهِ - ولو مرةً واحدةً فى العُمُرِ - يكونُ مُشْرِكًا مع أنه يَدْعُو اللَّهَ فى الليلِ والنهارِ ، فكيف بالذى يَلْهَجُ دائمًا بذلك ، ويقولُ : يا حُسَيْنُ ، يا بَدَوِىُّ ، يا عبدَ القادرِ ، يا فلانُ ، فيَصْدُرُ منه الشركُ كثيرًا ؟!

فإذا كان مَن ذَبَحَ لغيرِ اللَّهِ ، أو صلَّى لغيرِ اللَّهِ يكونُ مشركًا ، فكيف بمَنْ يَلْجَأُ إلى غيرِ اللَّهِ فى كشفِ الشدائدِ ، ألا يكونُ مُشْرِكًا ؟!

بلى ؛ لأنَّ البابَ واحدٌ ، وأنواعُ العباداتِ كلِّها بابُها واحدٌ ، لا يَجوزُ أن يُخْلِصَ للَّهِ فى بعضِها ، ويُشْرِكَ باللَّهِ فى البعضِ الآخرِ .

الدُّعَاءِ والذَّبْحِ والالْتِجَاءِ ونحوِ ذَلِكَ ؟ وإلَّا فهُمْ مُقِرُّونَ أنهُم عبِيدُهُ وتحتَ قَهْرِهِ ، وأن اللَّهَ هوَ الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ ، ولكن دَعَوْهم والْتَجأُوا إليهم لِلْجَاهِ والشَّفاعَةِ ، وهذَا ظَاهِرٌ جِدًّا(١) .

فإن قَالَ : أتُنْكِرُ شَفاعَةَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وتَبَرأُ منها ؟ فقُل : لا أُنْكِرُها ، ولَا أَتَبَرَّأُ منها ؛ بل هُوَ ﷺ الشَّافِعُ المُشَفَّعُ ، وأرْجُو شَفَاعَتَهُ ، ولكنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّها للهِ تعالى ، كما قَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ .

ولَا تَكُونُ إلَّا من بعْدِ إذنِ اللَّهِ ، كمَا قَالَ تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

ولا يَشْفَعُ النَّبيُّ ﷺ في أحدٍ إلَّا من بعدِ أن يأْذَنَ اللَّهُ فيهِ ، كما قَالَ تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ . وهو سُبحانَهُ لَا يَرْضَى إلَّا التَّوحِيدَ ، كما قالَ تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ . فإذا كانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا للهِ ، ولَا تَكُونُ إلَّا من بَعدِ إذْنِهِ ، وَلا يَشْفَعُ النَّبيُّ ﷺ ، ولَا غَيْرُهُ في أحَدٍ حتى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ ، ولَا يَأذَنُ اللَّهُ تعالى إلّا لأَهْلِ

---

(١) **أى** : أنَّ المشركين الأوَّلين ما كان شركُهم إلَّا فى هذه الأمورِ ، وقد نَزَلَ القرآنُ فى الإنكارِ عليهم ، والأمرِ بقتالِهم ، وإباحةِ أموالِهم ودمائِهم .

ما كانوا مع أصنامِهم يَعْتَقِدون أنها تَخْلُقُ وتَرْزُقُ وتُحْيِي وتُمِيتُ ، وما كانوا يَدْعُونها إلا من أجلِ الشفاعةِ .

فكذلك عُبَّادُ القبورِ اليومَ يَدْعُون الأَضْرِحةَ والأولياءَ والصالحين، ولا يَعْتَقِدون فيهم أنهم يَخْلُقون ، ويَرْزُقون ، وأنهم خلَقُوا السماواتِ والأرضَ .

وإنما اتَّخَذُوهم لقضاءِ الحاجاتِ ، والتوسُّلِ بهم إلى اللَّهِ ؛ ليَشْفَعوا لهم ، ويُقَرِّبوهم إليه زُلْفَى ، والالتجاءِ إليهم فى كَشْفِ الكُرَبِ والشدائدِ .

التَّوحِيدِ ، تَبَيَّنَ لَكَ أن الشَّفَاعَةَ كُلَّها للهِ ، فأَطْلُبُهَا منهُ ، فأَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْني شَفَاعَتَهُ ، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ ، وأَمْثَالَ هَذَا[1] .

فإن قَالَ : النَّبيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعالى .

(١) شفاعةُ النبيِّ ﷺ لا يُنْكِرُها إلا أهلُ الباطلِ ، والفرقُ الضالةُ كالخوارجِ والمُعْتَزلةِ ، أما أهلُ السنةِ والجماعةِ فإنَّ من أصولِ عقيدتِهم الإقرارَ بشفاعةِ النبيِّ ﷺ وشفاعةِ الأولياءِ والصالحين .

ولكنها لا تُطْلَبُ منهم ، وهم أمواتٌ ، وإنما تُطْلَبُ من اللَّهِ ؛ لأن أحدًا لا يَشْفَعُ عندَ اللَّهِ إلَّا مِن بعدِ إذنِه ، ولابدَّ أن يكونَ المشفوعُ فيه ممَّن يَرْضَى اللَّهُ عنه من أهلِ التوحيدِ .

والنبيُّ ﷺ ـ وهو أعظمُ الشفعاءِ يومَ القيامةِ ـ إذا تقَدَّم له أهلُ المحْشَرِ ، وطَلَبُوا منه أن يَشْفَعَ لهم عندَ اللَّهِ فى فصلِ القضاءِ بينَهم ، فإنه لا يَشْفَعُ ابتداءً ، وإنما يَسْتَأْذِنُ ربَّه ، ويَطْلُبُ منه أن يَأْذَنَ له بالشفاعةِ .

فيَخِرُّ ساجدًا بينَ يَدَىْ ربِّه ، ويَدْعُوه ويَتَضَرَّعُ إليه ، ويَسْتَمِرُّ حتى يُقالَ له : يا محمدُ ، ارْفَعْ رأسَك ، وسَلْ تُعْطَ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ[1] .

ولكن كيف تُطْلَبُ الشفاعةُ ؟ .

الشفاعةُ تُطْلَبُ من اللَّهِ ، ولا تُطْلَبُ من المخلوقِ ، فتقولُ : اللَّهمَّ لا تَحْرِمْنى شفاعةَ نبيِّك ، اللَّهمَّ شَفِّعْه فيَّ . وأمثالَ هذا .

والنبيُّ ﷺ بعدَ موتِه لا يُطْلَبُ منه شيءٌ ، لا شفاعةٌ ، ولا غيرُها ؛ لأنَّ طلبَ الأشياءِ من الأمواتِ شركٌ أكبرُ .

(١) البخارى (٤٧١٢) ، ومسلم ١/ ١٨٤، ١٨٥ (١٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالجَوابُ : أن اللَّهَ أعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ ونَهَاكَ عن هَذَا ، فقال تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فإذا كنتَ تَدْعُو اللَّهَ أن يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ فأَطِعْهُ في قولِهِ : ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ .

وأيضًا فإنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَها غيرُ النَّبيِّ ﷺ ، فَصَحَّ أنَّ الملائِكَةَ يَشْفَعونَ ، والأَولِيَاءَ يَشْفَعُون ، والأفْرَاطَ يَشْفَعُونَ ، أتَقُولُ : إنَّ اللَّهَ أعْطاهُمُ الشَّفَاعَةَ فأَطْلُبُها منهُم ؟ فإن قُلْتَ هذا رَجَعْتَ إلى عِبَادَةِ الصَّالِحِينِ التي ذَكَرَ اللَّهُ في كِتَابِهِ ، وإن قُلْتَ : لَا . بَطَلَ قَوْلُكَ : أَعْطاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ[1] .

فإن قَالَ : أنا لَا أُشْرِكُ باللَّهِ شَيْئًا ، حَاشَا وَكلَّا ، ولكنَّ الالْتِجَاءَ إلى الصَّالِحِينَ ليسَ بشِرْكٍ .

فقُل لَهُ : إذَا كُنْتَ تُقِرُّ أنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِن تَحْرِيمِ الزِّنى ، وَتُقِرُّ أن اللَّهَ لا يَغْفِرُهُ ، فمَا هذا الأَمْرُ الذي حَرَّمَهُ اللَّهُ وذَكَرَ أنَّهُ لا يَغْفِرُهُ ؟ فإنَّه لا يَدْرِى .

---

(١) **أى** : ليس من لازمِ إعطاءِ النبيِّ ﷺ وغيرِه الشفاعةَ ، جَوازُ طلبِها منهم ، وهم أمواتٌ ؛ بدليلِ أنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى نفَى أن يَشْفَعَ أحدٌ عندَه إلا بإذنِه ورِضاه عن المشفوعِ فيه .

ولأنَّ طلبَ الشفاعةِ من الأمواتِ شركٌ ، واللَّهُ قد حرَّم الشركَ ، وأحبَطَ عملَ صاحبِه ، وحرَّم عليه الجنةَ ، وقد أنْكَرَ سبحانَه على الذين يَدْعُون غيرَه ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤُنا عندَ اللَّهِ ، ونزَّه نفسَه عن ذلك ، وسَمَّاه شركًا .

وأيضًا إعطاءُ اللَّهِ الشفاعةَ ليس خاصًّا بالنبيِّ ﷺ ، فهل كلُّ مَن أُعْطِى الشفاعةَ تُطْلَبُ منه مِن دونِ اللَّهِ ، كما كان المشركون الأَوَّلُون يَفْعَلون ذلك ، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس : ١٨] .

فقُل له : كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفسَكَ مِن الشِّرْكِ ، وَأَنْتَ لا تَعْرِفُهُ ؟ أَمْ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هذَا ، ويَذْكُرُ أنَّه لا يَغْفِرُهُ ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ ، ولا تَعْرِفُهُ ؟ أَتَظُنُّ أن اللَّهَ يُحَرِّمُهُ ، وَلا يُبَيِّنُهُ لنَا؟ .

فإن قَالَ : الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ ، ونحنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ .

فقُل له الجَوَابَ الأَوَّلَ :

ما مَعنَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُم يَعْتَقِدُونَ أن تِلْكَ الأَخْشَابَ والأَحْجَارَ تَخْلُقُ ، وتَرْزُقُ ، وتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها ؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ القُرآنُ .

وإن قالَ : هُوَ مَن قَصَدَ خَشَبةً ، أو حَجَرًا ، أو بِنْيَةً علَى قَبْرٍ ، أو غَيْرِه ، يَدْعُونَ ذلكَ ، ويَذْبَحُونَ له ، يَقُولُونَ : إنَّه يُقَرِّبُنا إلى اللَّهِ زُلْفَى ، وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بِبَرَكَتِه ، أو يُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ .

فقُل : صَدَقْتَ ، وهذا هو فِعْلُكُمْ عندَ الأَحْجَارِ والأَبْنِيَةِ التي علَى القُبُورِ وغيرِها ، فهذَا أَقَرَّ أنَّ فِعْلَهُم هذَا هو عِبَادَةُ الأَصْنَامِ ؛ فهُوَ المَطْلُوبُ .

الجَوَابُ الثَّانِى :

ويُقالُ له أيضًا : قوْلُكَ : الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَام ، هل مُرَادُكَ أن الشِّرْكَ مخْصُوصٌ بهذَا ، وأن الاعْتِمَادَ على الصَّالحِينَ وَدُعاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ في ذَلِك ؟ فهَذا يَرُدُّ ما ذكَرَهُ اللَّهُ في كِتابِهِ مِن كُفرِ مَن تَعَلَّقَ على المَلائِكَةِ أو عيسَى أو الصَّالحِينَ ، فلابُدَّ أن يُقِرَّ لَكَ أن مَن أَشْرَكَ في عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا من الصَّالحِينِ فهذا هُوَ الشِّرْكُ المَذْكُورُ في القُرآنِ ، وهذا هو المَطْلُوبُ .

وَسِرُّ المَسْأَلَةِ : أنَّه إذا قالَ : أَنَا لا أُشْرِكُ باللَّهِ .

فقُل له : وَمَا الشِّرْكُ باللَّهِ ؟ فَسِّرْهُ لِى ؟

فَإن قالَ : هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ .

فقُل : ومَا مَعْنَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ؟ فَسِّرْهَا لِي .

فإن قَالَ : أنا لا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وحْدَهُ . فقُل : ما مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَه ؟ فَسِّرْهَا لِي . فإن فَسَّرَها بِمَا بَيَّنَهُ القُرآنُ فهوَ المَطْلُوبُ ، وإن لم يَعْرِفْهُ فكيفَ يَدَّعِي شَيئًا ، وهُوَ لا يَعْرِفُهُ ؟

وإن فَسَّرَ ذلك بغَيرِ مَعناهُ بَيَّنْتَ له الآيَاتِ الوَاضِحَاتِ في معْنَى الشِّركِ باللَّهِ وَعِبادَةِ الأَوْثَانِ ، وأنهُ الذي يَفْعَلُونَهُ في هذا الزَّمانِ بعَيْنِهِ ، وأن عِبادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هِيَ التي يُنْكِرُونَ علَيْنَا ، وَيَصِيحُونَ فيهِ ، كمَا صَاحَ إِخْوانُهُم حَيثُ قَالُوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[1] .

---

(١) **يُبَيِّنُ الشيخُ رحمه اللَّهُ** أن الشركَ ليس مقصورًا على عبادةِ الأصنامِ ؛ لأنَّ المشركين الأوَّلين منهم مَن يَعْبُدُ الملائكةَ ، والملائكةُ أَصْلَحُ الصالحين ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء : ٢٦-٢٩] .

ومنهم مَن يَعْبُدُ الصالحين ، وذلك في قولِه تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

قيل : إنها نزَلَت فيمَن يَعْبُدُ عُزَيْرًا ، والمسيحَ من الأنبياءِ .

وقيل : نزَلَت في قومٍ كانوا يَعْبُدون الجنَّ ، فأسْلَمَ الجنُّ ، ولم يَعْلَمْ مَن يَعْبُدُهم من الإنسِ أنهم أسْلَموا .

والمقصودُ من ذلك أنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أنَّ المشركين الأوَّلين منهم مَن يَعْبُدُ الأصنامَ

فإذا عَرَفْتَ أن هذَا الذي يُسَمِّيهِ المُشْرِكُونَ في زَمَانِنا « كَبِيرَ الاعتِقَادِ » هو الشِّرْكُ الذي نَزَلَ فيهِ القُرآنُ ، وقَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ عَليهِ ، فاعْلَمْ أن شِرْكَ الأوَّلِينَ أخَفُّ من شِرْكِ أهْلِ زَمَانِنَا بأَمْرَيْنِ :

أحَدُهُمَا : أن الأوَّلِينَ لا يُشْرِكونَ ، وَلا يَدْعُونَ الملائِكَةَ والأَوْلِياءَ وَالأَوْثَانَ مَعَ اللَّهِ إلَّا في الرَّخَاءِ ، وَأَمَّا في الشِّدَّةِ فَيُخْلِصُونَ للهِ الدِّينَ ، كَما قَالَ تَعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ .

وقال تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ ، وقَالَ تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ

والأشجارَ والأحجارَ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الأنبياءَ والصالحين ، وسوَّى بينَهم فى الحكمِ وحكَمَ عليهم بالكفرِ والشركِ .

وأنت أيها المُشَبِّهُ تُرِيدُ أن تُفَرِّقَ بينَ مَن عَبَدَ الأصنامَ ، ومَن عَبَدَ الصالحين ، فتُفَرِّقَ بينَ ما جَمَعَ اللَّهُ ، وهذا من المُحادَّةِ للَّهِ سبحانَه وتعالى .

هذا وجهُ رَدِّ هذه الشبهةِ ، حيث تَبَيَّنَ أنه لا فرقَ بينَ شركِ الأولين ، وشركِ هؤلاءِ الذين يَدَّعُون الإسلامَ ، وهم يَعْبُدون القبورَ والأولياءَ والصالحين ؛ لأنَّهم لا يَعْرِفون أنَّ هذا شركٌ .

وهذه نتيجةُ الجهلِ بعقيدةِ التوحيدِ الصحيحةِ ، والجهلِ بما يُضادُّها من الشركِ ، فإنَّ مَن لا يَعْرِفِ الشركَ يَقَعْ فيه ، وهو لا يَدْرِى .

ومن هنا تَتَّضِحُ ضرورةُ العنايةِ بدراسةِ العقيدةِ الصحيحةِ وما يُضادُّها .

مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إلى قولِه : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ .
وقولِهِ تعالى : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1] .

فَمَنْ فَهِمَ هذهِ المَسْأَلَةَ التي وَضَّحَها اللَّهُ في كِتَابِهِ ، وهِيَ أنَّ المُشْرِكِينَ الذينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَ اللَّهَ تعالى ، ويَدْعُونَ غَيْرَهُ في الرَّخَاءِ ، وأَمَّا في الضَّرَّاءِ والشِّدَّةِ فَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، ويَنْسَوْنَ

---

(١) **يقولُ الشيخُ رحمه اللَّهُ** : إذا عرَفْتَ مما سبَقَ أنه لا فرقَ بينَ شركِ أهلِ الجاهليةِ الذى نَزَلَ فيه القرآنُ ، والذى قاتَلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وأصحابُه ، وشركِ هؤلاء المُنْتَسِبين إلى الإسلامِ ، مِن عُبَّادِ القبورِ ، وأصحابِ الطُّرُقِ الصُّوفيةِ المُنْحرِفةِ ونحوِهم .

لا فرقَ بينَ شرك هؤلاء وهؤلاء إلا فى الاسمِ ، حيث يُسَمُّونه الاعتقادَ فقط ، فاعْلَمْ أنَّ شركَ هؤلاء المُتَأَخِّرين المُنْتَسِبين إلى الإسلامِ أشدُّ وأغلظُ من شركِ المُتَقدِّمين من أهلِ الجاهليةِ من وجهين :

الأولُ : أن شركَ الأوَّلين إنما يَحْصُلُ فى حالِ الرخاءِ ، وأمَّا فى حالِ الشدةِ فإنهم يَتْرُكُون الشركَ ، ويُخْلِصون الدعاءَ للَّهِ ؛ لعلمِهم أنه لا يُنْجِى من الشدائدِ إلا اللَّهُ سبحانَه .

كما ذكَرَ اللَّهُ عنهم فى الآياتِ التى ساقَها الشيخُ ، وغيرِها .

وأمَّا هؤلاء المشركون المُنْتَسِبون إلى الإسلامِ فشركُهم دائمٌ فى الرخاءِ والشدةِ ، بل إنَّ شركَهم فى الشدةِ يَزِيدُ على شركِهم فى الرخاءِ ، بحيث إذا وقَعُوا فى خطرٍ وشدةٍ ، ارْتَفَعَت أصواتُهم بالشركِ ودعاءِ غيرِ اللَّهِ .

هذا الوجهُ الأولُ من وجوهِ الفرقِ بينَ المشركين الأولين ومُشْرِكى زمانِنا .

الوجهُ الثانى : سيأتى .

سَادَاتِهِم ، تَبَيَّنَ لَهُ الفَرْقُ بَيْنَ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا وشِرْكِ الأَوَّلِينَ ، ولكن أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هذِهِ المَسْأَلَةَ فَهْمًا رَاسِخًا ؟! واللَّهُ المُسْتَعانُ[١] .

والأَمْرُ الثَّانى : أنَّ الأَوَّلِينَ يَدْعُونَ معَ اللَّهِ أُنَاسًا مُقَرَّبِينَ عِندَ اللَّهِ إمَّا أَنْبياءُ ، وَإِمَّا أَوْلِيَاءُ ، وإِمَّا مَلائِكَةٌ ، أَو يَدْعُونَ أَحْجَارًا ، أو أَشْجَارًا مُطِيعةً للهِ ، لَيْسَت عَاصِيَةً ، وأَهْلُ زَمانِنَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أُنَاسًا من أَفْسَقِ النَّاسِ ، والَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمُ الذين يَحْكُونَ عنهُمُ الفُجُورَ ؛ مِنَ الزِّنَى ، والسَّرِقَةِ ، وَتَرْكِ الصَّلاةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ[٢] ، والذي يَعْتَقِدُ في الصَّالِحِ ، أو الذي لا يَعْصِي مِثْلَ الخَشَبِ وَالحَجَرِ أَهْوَنُ مِمَّن يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشاهِدُ فِسْقَهُ وفَسَادَهُ ، ويَشْهَدُ بِهِ[٣] .

---

(١) يقولُ رحِمه اللَّهُ : إنه لا يُدْرِكُ الفرقَ بينَ شركِ الأولين وشركِ المتأخِّرين فى أنَّ شركَ المتأخرين أغلظُ وأشدُّ ، إلا مَن فَهِم الآياتِ القرآنيةَ التى تُوَضِّحُ ذلك ، ومَن لم يُدْرِكِ الفرقَ فإنه راجعٌ لسوءِ فهمِه .

(٢) **الوجهُ الثانى** ، مِن أوجهِ الفرقِ : أنَّ المشركين الأولين يَدْعُون أُناسًا فيهم صلاحٌ وتقرُّبٌ إلى اللَّهِ من الملائكةِ والأنبياءِ والصالحين ، أو يَدْعُون أشجارًا أو أحجارًا ليست عاصيةً للَّهِ .

وأما المشركون المُتأَخِّرون فيَدْعُون فَجَرَةَ الخلقِ ، وأشدَّهم كفرًا وفسقًا ، ممَّن يَزْعُمون لهم الكراماتِ ، وسقوطَ التكاليفِ عنهم مِن مَلاحِدةِ الصُّوفيةِ ، الذين يَسْتَحِلُّون المُحَرَّماتِ ، ويَتْرُكون الواجباتِ .

كالبَدَوىِّ والحلَّاجِ وابنِ عربىٍّ وأضرابِهم من أئمةِ المَلاحِدةِ ، فيَعْبُدونهم ، وهم يُشاهِدُونهم يَفْعَلون الفواحشَ ، ويَتْرُكون الفرائضَ ، ويَزْعُمون أنَّ هذا من كراماتِهم وفضلِهم ، حيث سقَطَت عنهم التكاليفُ .

(٣) **هذه نتيجةُ المُقارنةِ بينَ شركِ الأولين وشركِ المتأخِّرين المُنْتَسِبين إلى**

إذا تحَقَّقْتَ أنَّ الذين قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولًا ، وأَخَفُّ شِرْكًا من هَؤُلاءِ ، فاعْلَمْ أنَّ لِهَؤُلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَها عَلَى ما ذَكَرْنا ، وهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوابِهَا ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُون : إنَّ الذِينَ نَزَلَ فِيهِمِ القُرْآنُ لا يَشْهَدونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ويُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ ﷺ ، وَيُنْكِرونَ البَعْثَ ، ويُكَذِّبُونَ القُرْآنَ ويَجْعَلُونَهُ سِحْرًا ، وَنحنُ نَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَنُصَدِّقُ القُرْآنَ ، وَنُؤمِنُ بالْبَعْثِ ، وَنُصَلِّي ، وَنَصُومُ ، فكَيْفَ تجْعَلُونَنا مِثْلَ أُولَئِكَ .

فالجَوَابُ : أنْ لَا خِلافَ بَيْنَ العُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أن الرَّجُلَ إذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في شَيءٍ ، وَكَذَّبَهُ في شَيءٍ ، فإنَّهُ كَافِرٌ ، لَمْ يَدْخُلْ في الإسْلامِ ، وَكَذَلِكَ إذَا آمَنَ بِبَعْضِ القُرْآنِ ، وجَحَدَ بَعْضَهُ ، كَمنْ أَقَرَّ بالتَّوحِيدِ ، وجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ ، أَوْ أَقَرَّ بالتَّوْحِيدِ والصَّلاةِ ، وجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ ، وَجَحَدَ الصَّوْمَ ، أو أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ ، وجَحَدَ الحَجَّ .

ولَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أُنَاسٌ في زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ للحَجِّ أَنْزَلَ اللَّهُ في حَقِّهِمْ : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] .

وَمَنْ أَقَرَّ بهَذا كُلِّه ، وجَحَدَ البَعْثَ كَفَرَ بالإجْمَاعِ ، وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ ، كَمَا قَالَ تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟

الإسلام ، وهى أنَّ الشركَ بعبادةِ الصالحين والمخلوقاتِ التى لا تَعْصِى أخفُّ من الشركِ بعبادةِ الفَجَرَةِ والمَلاحِدةِ والعُصاةِ ؛ لأنَّ ذلك يَدُلُّ على تزكيتِهم ومُوافقتِهم على كفرِهم وفجورِهم واعتبارِه صلاحًا وكرامةً ، وأىُّ مُحادَّةٍ للَّهِ أشدُّ مِن هذه المُحادَّةِ ، نَسْأَلُ اللَّهَ العافيةَ .

بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾.

فإذَا كان اللَّهُ قَدْ صَرَّحَ في كِتَابِه ، أنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ ، وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ الكَافِرُ حَقًّا ، زَالَتْ هذِهِ الشُّبْهَةُ ، وَهَذِهِ هي التي ذَكَرَها بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ في كِتَابِهِ الذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا .

وَيُقالُ أيضًا : إذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ في كُلِّ شيءٍ ، وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاَةِ ، فهو كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالمَالِ بالإجْمَاعِ ، وَكَذَلِكَ إذَا أَقَرَّ بكُلِّ شَيءٍ إلَّا بالبَعْثِ ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وُجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ ، وصدَّق بالباقي ، وهنا لَا تَخْتَلِفُ المَذَاهِبُ فِيهِ ، وقَدْ نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا .

فَمَعْلُومٌ أنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِها النَّبيُّ ﷺ ، هُوَ أَعْظَمُ مِن الصَّلاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، والصَّوْمِ ، والحَجِّ .

فكَيْفَ إذَا جَحَدَ الإنْسَانُ شَيْئًا مِن هَذِهِ الأُمُورِ كَفَرَ ، وَلَوْ عَمِلَ بكُلِّ ما جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَإذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الذِي هُو دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لا يَكْفُرُ ؟! سُبْحَانَ اللَّهِ ، ما أَعْجَبَ هَذَا الجَهْلَ .

وَيُقَالُ أيضًا : هَؤلاءِ أصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ ، وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبيِّ ﷺ ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَيُؤَذِّنُونَ وَيُصَلُّونَ .

فإنَّ قَالَ : إنَّهُمْ يقُولُونَ : إنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ .

قُلْنَا : هَذا هُوَ المَطْلُوبُ ، إذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا إلى رُتْبَةِ النَّبيِّ ﷺ كَفَرَ ، وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهادَتَانِ ، وَلَا الصَّلَاةُ ، فكَيْفَ بمَنْ رَفَعَ شمسانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَابِيًّا أَو نَبِيًّا إلى مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ ؟! سُبْحَانَ اللَّهِ ، ما

أعْظَمَ شَأْنَهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

وَيُقَالُ أيضًا : الذِين حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالبٍ بالنارِ رضِيَ اللَّهُ عَنهُ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الإسْلامَ ، وَهُمْ مِنْ أَصْحابِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ ، وَتَعَلَّمُوا العِلْمَ مِن الصَّحَابةِ ، ولكن اعْتَقَدُوا في عَليٍّ مِثْلَ الاعْتِقَادِ في يُوسُفَ وشمسانَ وَأَمْثَالِهِمَا ، فكَيْفَ أجْمعَ الصَّحَابَةُ على قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ؟ أتَظُنُّونَ أنَّ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرونَ المُسْلِمينَ ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أنَّ الاعْتِقَادَ في تاجٍ وأَمْثَالِه لا يَضُرُّ ، وَالاعْتِقَادَ في عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضِىَ اللَّهُ عنهُ يُكَفِّرُ؟ .

ويقالُ أيضًا : بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحُ الذِينَ مَلَكُوا المَغْرِبَ ومِصْرَ في زَمَانِ بَني العَبَّاسِ ، كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، ويَدَّعُونَ الإسْلامَ ، ويُصَلُّونَ الجُمُعَةَ والجَمَاعةَ ، فَلمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ في أشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ علَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ ، وَأَنَّ بِلادَهُمْ بِلادُ حَرْبٍ ، وَغَزَاهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا ما بَأَيْدِيهِم مِنْ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ .

وَيُقَالُ أيضًا : إذَا كَانَ الأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إلَّا أَنَّهُم جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وتَكْذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ وَالقُرْآنِ ، وإنْكَارِ البَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فما مَعْنَى البَابِ الذِي ذَكَرَه العُلَمَاءُ في كُلِّ مَذْهَبٍ : (بَابُ حُكْمِ المُرْتَدِّ) وَهُوَ المُسْلِمُ يَكْفُرُ بَعْدَ إسْلامِهِ ، ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْواعًا كَثِيرَةً ، كُلُّ نُوْعٍ منها يُكَفِّرُ ، وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ ، حَتَّى إنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا ، مِثْلَ كَلِمةٍ يَذْكُرُها بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ ، أو يَذْكُرُها عَلى وَجْهِ المَزْحِ واللَّعِبِ .

ويُقَالُ أيضًا : الذِين قَالَ اللَّهُ فِيهم : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٤] . أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ كَفَّرَهُمْ بكَلِمَةٍ ؟ مَعَ كَوْنِهِمْ في زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ ، وَيُصَلُّونَ معه ،

ويُزَكُّونَ ، وَيَحُجُّونَ ، وَيُوحِّدُونَ ، وَكَذَلِكَ الذينَ قالَ اللَّهُ فيهم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

فَهَؤلاءِ الذِينَ صَرَّحَ اللَّهُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ ، قَالُوا كلمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُم قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ المَزْحِ .

فتَأَمَّلْ هذِهِ الشُّبْهَةَ ، وَهِيَ قَوْلُهُم : تُكَفِّرُونَ المُسْلمينَ ، أُناسًا يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ ، ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَها ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ ما في هذِهِ الأَوْراقِ[1] .

---

(١) ما زال الشيخُ رحمه اللَّهُ يُواصِلُ الردَّ على شُبُهاتِ المُشَبِّهين في مسألةِ الشركِ والتوحيدِ ، فانْتَهَى إلى هذه الشبهةِ العظيمةِ التى هى من أعظمِ شبهِهم وأخطرِها ، ألا وهى قولُهم : إنَّ مَن شَهِد أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، وصلَّى وصام وحجَّ وأدَّى الأعمالَ ، فإنه لا يَكْفُرُ ، ولو فَعَلَ ما فعَلَ مِن أنواعِ الردةِ .

أما الذين نزَلَ فيهم القرآنُ ، وهم المُشْرِكون الأوَّلون فإنهم ليسوا مثلَ هؤلاء ، فهم لم يَشْهَدوا أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ولم يَدْخُلوا فى الإسلامِ ، فهم لا يُؤْمِنون باللَّهِ ، ولا بالرسولِ ، ولا بالإسلامِ ، ولا بالقرآنِ .

أما هؤلاء فأظْهَروا الإيمانَ بالبعثِ ، ويُصَلُّون ، ويَصُومون ، ويَحُجُّون ويُزَكُّون ، ويَذْكُرون اللَّهَ كثيرًا .

فالشيخُ رحِمه اللَّهُ عندَ هذه الشبهةِ خاصةً قال : أَصْغِ سمعَك لجوابِها ؛ فإنَّها من أعظمِ شبهِهم .

ثمَّ رَدَّ الشيخُ على هذه الشبهةِ من سبعةِ وجوهٍ مُهِمَّةٍ :

....

الوجهُ الأولُ : أنَّه مَن آمَنَ ببعضِ الأحكامِ الشرعيةِ ، وكفَرَ ببعضِها الآخَرِ فهو كافرٌ بالجميعِ .

وهؤلاء أنْكَرُوا التوحيدَ الذى جاءَتْ به الرسلُ ، وهو إفرادُ اللَّهِ بالعبادةِ ، فهؤلاء لم يُفْرِدوا اللَّهَ بالعبادةِ ، وإنما أشْرَكوا معَه غيرَه من الأولياءِ والصالحين .

فالإسلامُ لا يَقْبَلُ التَّجْزئةَ ، ولا التَّفْرِقةَ ، وأعظمُ الإسلامِ التوحيدُ ، وهو دعوةُ جميعِ الرسلِ ، وهؤلاء جَحَدوا أعظمَ شيءٍ ، وهو توحيدُ العبادةِ ، وقالوا : لا بأسَ أن يَنْذُرَ الإنسانُ لفلانٍ ، ويَذْبَحَ لفلانٍ ؛ لأنه ولىٌّ ، والولىُّ يَنْفَعُ ويَضُرُّ ، مما هو مثلُ فعلِ المشركين الأولين .

الوجهُ الثانى :

ذكَرَ الشيخُ رحِمه اللَّهُ وقائعَ فى التاريخِ الإسلامىِّ تَدُلُّ على أنَّ العلماءَ فى كلِّ زمانٍ يُكَفِّرون مَن آمَنَ ببعضٍ ، وكفَر ببعضٍ .

منها : أنَّ الصحابةَ ومَن بعدَهم قاتَلوا الذين يَتَظَاهرون بالشهادتين ، ويُصَلُّون ، ويصومون ، ويَحُجُّون ، لكن لما فعَلُوا شيئًا من الشركِ ، أو جَحَدَوا شيئًا من الدينِ قاتَلُوهم واسْتَحَلُّوا دماءَهم وأموالَهم ، وذلك كما يلى :

أولًا : بنو حَنِيفَةَ اعْتَقَدوا أن مُسَيْلِمَةَ رسولُ اللَّهِ ، والذين جَحَدوا وجوبَ الزكاةِ بعدَ وفاةِ النبىِّ ﷺ[1] .

وثانيًا : فى عهدِ علىٍّ رضِى اللَّهُ عنه كفَّروا الغُلاةَ الذين قالوا : إنَّ عليًّا هو اللَّهُ مع أنهم يَشْهَدون أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ويُصَلُّون ،

---

(١) روى ذلك أحمد ٣/١٠٥ (١٦٠٢٢) ، والبخارى (٤٠٧٢) ، وانظر تاريخ الطبرى ٢/٢٧٥ - ٢٨٤، وفتوح البلدان ١/ ٩٨، والبداية والنهاية ٤/ ١٩، ٦/ ٣٢٣.

....

ويصومون ، وهم فى جُنْدِ عليٍّ رضِى اللَّهُ عنه .

لكن لمَّا أظْهَروا الغُلُوَّ حرَّقَهم عليٌّ رضِى اللَّهُ عنه ، مع أنهم يَشْهَدون أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، ولكنه حرَّقهم لمَّا اعْتَقَدوا أن شخصًا له حقٌّ فى الألوهيةِ ، كفَّرهم ، وحرَّقَهم بالنارِ[1] .

ثالثًا : فى عهدِ العَبَّاسِيِّينَ ظَهَرَت فرقةُ العُبَيْدِيِّينَ ، وهم طائفةُ الشيعةِ الإسماعيليةِ ؛ لأنهم يَنْتَسِبون إلى إسماعيلَ بنِ محمدِ بنِ جعفرٍ ، ولذلك سُمُّوا بالإسماعيليةِ .

وسُمُّوا الفاطمية ؛ لأنهم يَزْعُمون أنهم من ذُريةِ فاطمةَ ، ولذلك يقالُ لهم : الفاطِمِيُّون .

وفى الحقيقةِ أنهم من اليهودِ ، أظْهَروا الإسلامَ ، ولكن ظَهَرَ منهم كُفْرياتٌ ، وفى النهايةِ ادَّعَى حكامُهم الألوهيةَ ، مثلَ الحاكمِ العُبَيْديِّ[2] .

(١) روى ذلك البخارى (٣٠١٧، ٦٩٢٢) ، وأبو داود (٢٥٣٥) ، والنسائى (٤٠٦٠) ، والبيهقى فى السنن ٥/ ٦٧، ٢٠٢، ٨/ ١٩٥، وابن حبان (٤٤٧٦، ٥٦٠٦) ، والحميدى (٥٣٣) ، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٥٣٨، وانظر طبقات المحدثين بأصبهان ٢/ ٣٤٣، والبدء والتاريخ ٥/ ١٢٥.

(٢) قال الشيخ مشهور بن حسن فى تحقيقه لكتاب الاعتصام ٢/٣٥٢ - ٣٥٦: وهم بنو عبيد ، أظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون ، فملكوا البلاد ، وقهروا العباد ، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلًا ، ولا نسبهم صحيحًا . وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديًّا من أهل سَلَمْية من بلاد الشام ، وكان حدادًا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدًا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمى ، وادعى نسبًا ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب العَلَوِيَّة ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه ، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وبنى المهديَّة بالمغرب ونسبت إليه ، وكان زنديقًا خبيثًا عدوًّا للإسلام ، متظاهرًا بالتشيع متسترًا =

....

= به ، حريصًا على إزالة الملة الإسلامية ؛ قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده إعدامهم من الوجود ، ليبقى العالم كالبهائم ، فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف : ٨] ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين ، يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسروه ، والدعاة لهم منبثون فى البلاد ، يضلون من أمكنهم إضلاله من العباد ، وبقى هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها . وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومئتين إلى سنة سبع وستين وخمس مئة .

وفى أيامهم كثرت الرافضة واستحكم أمرهم ، ووضعت المكوس على الناس ، واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، والحشيشية نوع منهم ، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم ، وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة ، إلى أن مَنَّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكى ، وتقدمه مثل صلاح الدين ، فاستردوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد .

وكانوا أربعة عشر مستخلفًا ، ثلاثة منهم بإفريقية ، وهم الملقبون : بالمهدى والقائم والمنصور ، وأحد عشر بمصر ، وهم الملقبون : بالمعز ، والعزيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلى ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد .

يدَّعون الشرف ، ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودى ، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام ، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة العلوية ، وإنما هى الدولة اليهودية أو المجوسية الباطنية الملحدة ، ومن قِحَتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ، ويكتبونه على جُدران المساجد وغيرها .

وخطب عبدهم جوهر ـ الذى أخذ لهم الديار المصرية ، وبنى لهم القاهرة المعزية ـ بنفسه خطبة طويلة قال فيها : «اللَّهم صَلِّ على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة وسليل العترة الهادية المهدية ، معد أبى تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين ، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين» .

كذب عدوُّ الله اللعين ، فلا خير فيه ولا فى سلفه أجمعين ، ولا فى ذريته الباقين ، والعِترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل ، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الأول .

وقد بين نسبهم هذا ، وأوضح مُحالهم وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الإسلام جماعة ممن سلف من الأئمة والعلماء ، وكل متورع منهم لا يسميهم إلا بنى عبيد الأدعياء ، أى يدعون من النسب ما ليس لهم ، ورحمة الله على القاضى أبى بكر محمد بن الطيب ، فإنه كشف فى أول كتابه ، المسمى بـ «كشف أسرار الباطنية» ، عن بطلان نسب هؤلاء إلى على رضى الله عنه ، =

....

= وأن القداح الذى انتسبوا إليه دَعِيٌّ من الأدعياء ممخرق كذاب ، وهو أصل دعاء القرامطة ، لعنهم الله .

وأما القاضى عبد الجبار البصرى ، فإنه استقصى الكلام فى أصولهم ، وبينها بيانًا شافيًا فى أواخر كتاب «تثبيت النبوَّة» له ـ وهو مطبوع فى مجلدين ـ، وقد نقل أبو شامة كلامهما فى ذلك ، وكلام غيرهما فى «مختصر تاريخ دمشق» فى ترجمة (عبد الرحيم بن إلياس) ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس .

وأظهر عبد الجبار القاضى فى كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التى يقف الشعر عند سماعها ، ولكن لابد من ذكر شىء من ذلك ؛ تنفيرًا لمن لعله يعتقد إمامتهم ، وخفى عنه محالهم ، ولم يعلم قحتهم ومكابرتهم ، وليعذر من أزال دولتهم ، وأمات بدعتهم ، وقلل عدتهم ، وأفنى أمتهم ، وأطفأ جمرتهم .

ذكر عبد الجبار القاضى أن المقلب بالمهدى ـ لعنه الله ـ كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل ، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون فى فرشهم ، وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين ؛ وأكثر من الجور واستصفاء الأموال وقتل الرجال ، وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم ، فيقولون لبعضهم : هو المهدى ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه .

ويقولون لآخرين : هو رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه ، ويقولون لطائفة أخرى : هو الله الخالق الرازق . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه ، وزاد شره على شر أبيه أضعافًا مضاعفة ، وجاهر بشتم الأنبياء ، فكان ينادى فى أسواق المهدية وغيرها : العنوا عائشة وبعلها ، العنوا الغار ومن حوى . اللَّهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين ، والعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين ، وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم ، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم ؛ وأَصْلِهِم سعيرًا ، ولَقِّهم ثُبُورًا ، وأسكنهم النار جميعًا ، واجعلهم ممن قلت فيهم : ﴿الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ [الكهف : ١٠٤] .

وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور ، فقتل من خرج على أبيه ، ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذكره ، وسلخه وصلبه ، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم ، خوفًا من أن يثور عليه ثائر .

وقام بعده ابنه المسمى بالمعز ، فبث دعاته ، فكانوا يقولون : هو المهدى الذى يملك ، وهو الشمس التى تطلع من مغربها ، وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم ، واحتجب عن الناس أيامًا ، ثم ظهر ، وأوهم أن الله رفعه إليه ، وأنه كان غائبًا فى السماء ، =

....

= وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه .

وهذا أول خلفائهم بمصر ، وهو الذى تنسب إليه القاهرة ، واستدعى بفقيه الشام أبى بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملى ، ويعرف بابن النابلسى ، فحمل إليه فى قفص خشب ، فأمر بسلخه ، فسلخ حيًّا ، وحشى جلده تبنًا وصلب ، رحمه الله تعالى . قال أبو ذر الهروى : سمعت أبا الحسن الدارقطنى يذكره ، ويبكى ، ويقول : كان يقول وهو يسلخ : ﴿كان ذلك فى الكتاب مسطورا﴾ [الإسراء : ٥٨] .

قلت : وفى أيام الملقَّب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضى الله عنهم على حيطان الجوامع ، والقياسر والشوارع ، والطرقات ، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب ، ثم أمر بقلع ذلك .

وفى أيامه طوف بدمشق رجل مغربى ، ونودى عليه : هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ، ثم ضربت عنقه ، وكان يجرى فى أيامهم من نحو هذا أشياء ؛ مثل قطع لسان أبى القاسم الواسطى ، أحد الصالحين ، وكان أذَّن ببيت المقدس ، وقال فى أذانه : «حى على الفلاح» فأخذ وقطع لسانه ، ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربى وأبى بكر النابلسى الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى «تاريخه» (١٤/ق٣٤٤) ، وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلا محنة من الله تعالى ، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عدتهم ، فإن عدتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر ، وأولئك بقوا نيفًا وتسعين سنة ، وهؤلاء بقوا مئتى سنة وثمانيًا وستين سنة ، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم ، وإبادة ملكهم ، ورضى الله عمن سعى فى ذلك وأزالهم ، ورحم من بين مخرقتهم وكذبهم ومُحالهم .

وقد كشف حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن على بن أبى نصر الشاشى فى كتاب «الرد على الباطنية» ، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش فى أيام نزار ، وكان المستنصر قد عهد فى حياته بالخلافة لابنه نزار ، فخلعه الأفضل ، وبايع المستعلى بالله . انظر «الكامل» : (١٠/٢٣٧-٢٣٨) وما بعده .

ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه فى قصيدة سماها : «الإيضاح عن دعوة القداح» أولها :

حىَّ على مصر إلى خلع الرسن فثم تعطيل فروض وسنن

وقال : لو وفق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين ، فإنهم من شر أعداء دين الإسلام ، وقد خرجت من حد المنافقين إلى حد المجاهرين ، لما ظهر فى ممالك الإسلام من كفرها وفسادها ، وتعين على الكافة فرض جهادها ، وضرر هؤلاء أشد على الإسلام وأهله =

....

فالصحابةُ قاتَلُوا بنى حَنِيفةَ ، وهم يَشْهَدون أنْ لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ويَصُومون ، ويَحُجُّون ، لكن لمَّا ادَّعَوْا أن مُسَيْلِمةَ نبيٌّ كفَّرُوهم ؛ لأنَّ مَن اعْتَقَدَ فى شخصٍ بعدَ محمدٍ ﷺ أنه نبيٌّ فقد كفَرَ ، وإن كان يُصَلِّى ، ويَصومُ .

ولذلك حَكَم المسلمون اليومَ بكفرِ القاديانيةِ الذين يَدَّعُون نبوةَ أحمدَ القاديانيِّ .

فإذا كان مَن رَفَعَ رجلًا إلى مرتبةِ النبيِّ كفَرَ ، فكيف لا يَكْفُرُ مَن رَفَعَ رجلًا

= من ضرر الكفار ؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية ، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها فى الأرض ، والله الموفق .

قاله أبو شامة فى «الروضتين» (٢/٢١٤ - وما بعد) ، وزاد : «ثم إنى لم يقنعنى هذا من بيان أحوالهم ، فأفردت كتابًا لذلك سميته «كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد» ، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به ، فإنى بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم ، ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمى رحمه الله ، وكان فى أيام الملقب بالعزيز ثانى خلفاء مصر ، فبين فيه أصولهم أتم بيان ، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد ، وتتبع ذكر فضائحهم ، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة ، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة ، وبالله التوفيق .

وما أحسن ما قال فيهم من مدح بعض بنى أيوب بقصيدة ، منها :

ألستم مزيلى دولة الكفر من بنى ... عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية ... مجوس وما فى الصالحين لهم أصل
يسرون كفرًا يظهرون تشيعًا ... ليستتروا شيئًا وعمهم الجهل

وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى على رضوان الله عليه ، والتستر بالتشيع قد فعله جماعة القرامطة ، وصاحب الزنج الخارج بالبصرة ، وغيرهم من المفسدين فى الأرض على ما عرف من سيرهم من وقف على أخبار الناس ، وكلهم كذبة فى ذلك ، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال ، واستتباعهم لهم ، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، ولا يغتر بأبيات الشريف الرضى فى «ديوانه» (٢/٩٧٢-٩٧٣) فى ذلك ، فقد حصل الجواب عنها فى كتاب «الكشف» بوجوه حسنة ، وبالله التوفيق» انتهى .

....

إلى مرتبةِ ربِّ العالَمِينَ ، وصَرَفَ له أنواعًا من العبادةِ ؛ كالذبحِ ، والنذرِ ، والدعاءِ ، والاستغاثةِ ، وغيرِ ذلك ؟!

وقولُ الشيخِ : كمَن رفع تاجًا وشمسانَ ويوسُفَ . ناسٌ في زمانِه غلا فيهم الناسُ بحُجَّةِ أنهم أولياءُ ، ولهم شَعْوذاتٌ ، وخَوارقُ ، وهم على طريقةِ الحَلَّاجِ وابنِ عَرَبيٍّ .

الوجهُ الثالثُ :

أنَّ العلماءَ رحِمَهم اللَّهُ عقَدوا بابًا في كتبِ الفقهِ ، سَمَّوْه بابَ الرِّدَّةِ ، وذكَرُوا فيه نواقضَ الإسلامِ ، وذكَرُوا أشياءَ قد تكونُ صغيرةً في أعْيُنِ الناسِ ، ولكن حكَمُوا أنَّ مَن فعَلَها ، أو اعْتَقَدَها يَكْفُرُ ، مع أنه يُصَلِّي ، ويَصُومُ ، ويَعْبُدُ اللَّهَ ، ولم يَحْصُروا حصولَ الردةِ فيما ذكَرْتُم .

الوجهُ الرابعُ :

أنَّ اللَّهَ حكَمَ بكفرِ أُناسٍ ؛ لقولِهم كلمةً تكَلَّموا بها أبْطَلَت إسلامَهم ، وإيمانَهم ، كما قال تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة : ٧٤] فكفَّرهم بكلمةٍ ، مع كونِهم مع رسولِ اللَّهِ يُصَلُّون ويُجاهِدُون .

الوجهُ الخامسُ :

أنَّ اللَّهَ كفَّر أُناسًا بسببِ كلامٍ قالوه على وجهِ المِزاحِ واللَّعِبِ ، وأنْزَل في شأنِهم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة : ٦٥ - ٦٦] مع أنهم يُصَلُّون ، وقد غزَوْا مع الرسولِ

....

ﷺ في غزوةِ تبوكَ[١] .

لكن لمَّا قالوا هذه الكلمةَ كفَرُوا بعدَ إيمانِهم ، ولم يَنْفَعْهم أنهم يُصَلُّون ، ويَصُومون ، ويُجاهِدُون .

فهذه الوجوهُ فيها إبطالُ هذه الشُّبْهةِ ، وفى الحقيقةِ أنها من أعظمِ الشُّبَهِ ، ولكنَّ جوابَها واضحٌ ، ولِلَّهِ الحمدُ .

الوجهُ السَّادسُ :

أنَّ قولَهم : إنَّ الذين نزَلَ فيهم القرآنُ لا يَشْهَدون أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، ويُكَذِّبون الرسولَ ﷺ ، ويُنْكِرون البَعْثَ ، ويُكَذِّبون القرآنَ ، ويَجْعَلونه سِحْرًا ، ونحن نَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ونُصَدِّقُ القرآنَ ، ونُؤْمِنُ بالبعثِ ، ونُصَلِّى ، ونَصومُ ، فكيف تَجْعَلوننا مثلَ أولئك ؟!

يُجابُ عنه : أنَّ الرجلَ إذا صدَّق اللَّهَ فى شىءٍ ، وكذَّبه فى شىءٍ فهو كافرٌ مُرْتَدٌّ عن الإسلامِ ، كمَن آمَنَ ببعضِ القرآنِ ، وجَحَد بعضَه ، وكمَن أقَرَّ بالتوحيدِ والصلاةِ ، وجَحَد وجوبَ الزكاةِ ، أو أقَرَّ بهذا كلِّه ، وجَحَد الصومَ ، أو أقَرَّ بهذا كلِّه ، وجَحَد الحجَّ ، وإن كان يَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّهِ .

الوجهُ السَّابعُ :

أنَّ مَن جَحَد وجوبَ الحجِّ كفَرَ ، وإن كان يَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ ، ويُصَلِّى ، ويَصومُ ، قال تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ إلى قولِه : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ

(١) روى ابن جرير فى تفسيره ١٠/ ١٧٢، أن المنافقين فى غزوة تبوك قالوا : ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء أرغبَ بطونًا ، ولا أكذب ألسنًا ، ولا أجبن عند اللقاء . وقد تقدم ص ٦٦.

وَمِنَ الدَّليلِ عَلَى ذَلِكَ أيضًا ما حَكَى اللَّهُ تعالى عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ مَعَ إسْلامِهِم وَعِلْمِهِم وَصَلاحِهِم أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف : ١٣٨] . وَقَوْلُ أُنَاسٍ مِن الصَّحَابةِ : «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْواطٍ» فَحَلَفَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ هَذَا نَظِيرُ قَوْلِ بَنِي إسْرَائِيلَ لِمُوسَى : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ .

وَلَكن لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِها عِنْدَ هَذِهِ القِصَّةِ ، وهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ بَنِي إسْرائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ قَالُوا للنَّبِيِّ ﷺ : اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْواطٍ . لَمْ يَكْفُرُوا .

فَالجَوَابُ : أَنْ نقُولَ : إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ، وَلَا خِلافَ أَنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا ، وَكَذَلِكَ لا خِلَافَ في أَنَّ الذِينَ نَهَاهُمُ النَّبيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ ، واتَّخَذُوا ذاتَ أَنْواطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لكَفَرُوا . وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ(١) .

ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦ - ٩٧] .

فدلَّتِ الآياتُ على أنَّ مَن جَحَد وجوبَ الحجِّ كفَرَ ، وإن كان يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، فكيف بمَن جحَدَ التوحيدَ ، وأجاز عبادةَ القبورِ ؟!

(١) أي : من الأدلةِ على أنَّ مَن ارْتَكَبَ ناقضًا من نواقضِ الإسلامِ يَكْفُرُ ، ولو كان يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، ويُصَلِّي ، ويَصومُ إلى غيرِ ذلك من الأعمالِ ، ما قصَّه اللَّهُ عن بني إسرائيلَ حينَ طَلَبوا مِن موسى أن يَجْعَلَ لهم إلهًا ، كآلهةِ المشركين .

وقصةُ الذين طَلَبوا من النبيِّ محمدٍ ﷺ أن يَجْعَلَ لهم ذاتَ أَنْوَاطٍ(١) ، وأنَّ

---

(١) روى هذه القصة أحمد ٥/٢١٨ (٢١٧٩٧) ، والترمذي (٢١٨٠) ، وقال : حديث حسن صحيح .

وَلَكن هَذِه القِصَّةُ تُفِيدُ أنَّ المُسْلِمَ - بَلِ العَالِمَ - قَدْ يَقَعُ فِي أَنْواعٍ مِنَ الشِّرْكِ لا يَدْرِي عَنْها، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ والتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الجَاهِلِ: (التَّوْحِيدَ فَهِمْنَاهُ) أَنَّ هذا مِنْ أَكْبَرِ الجَهْلِ وَمَكايِدِ الشَّيْطَانِ.

وتُفِيدُ أيضًا أنَّ المُسْلِمَ المُجْتَهِدَ إذا تَكَلَّمَ بِكَلامِ كُفْرٍ، وَهُوَ لا يَدْرِي، فَنُبِّهَ عَلَى ذَلِكَ، فَتابَ مِن ساعَتِهِ أنَّه لا يَكْفُرُ، كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرائِيلَ، وَالذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ.

وَتُفِيدُ أيضًا أنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَليْهِ الكَلامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[1].

النَّبِيَّيْنِ الكريمَيْنِ أنْكَرا ذلك، واعْتَبَرَاه شركًا، يُخْرِجُهم من الملةِ، لو فعَلُوه، مع أنهم يُؤْمِنون بالنبيَّيْنِ الكريمَيْنِ، ويُجاهِدُون معَهما.

ثم أوْرَد الشيخُ اعتراضًا على هذا الاستدلالِ، وهو أن بنى إسرائيلَ الذين طلَبُوا من موسى أن يَجْعَلَ لهم إلهًا لم يَكْفُروا، وكذلك الذين طلَبُوا من محمدٍ ﷺ أن يَجْعَلَ لهم ذاتَ أنواطٍ لم يَكْفُروا.

وأجاب عن هذا الاعتراضِ بأنَّ الفريقَيْنِ لم يُنَفِّذا ما قالا، ولو فعَلا لكَفَرا، ولكن لمَّا نُهِيا عن ذلك، وبُيِّنَ لهما أنه كفرٌ تجَنَّبُوه، وانْتَهَوْا عنه.

ومَحَلُّ الشاهدِ من القِصَّتَيْنِ: أنَّ مَن فعَلَ الشركَ كفَرَ، وإن كان يَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ، ويُؤْمِنُ بالأنبياءِ ويَعْمَلُ الأعمالَ الصالحةَ.

(١) **هذه القصةُ فيها فوائدُ**:

الأولى: الحَذَرُ من الشركِ، وأنه قد يَدِبُّ إلى المسلمين عن طريقِ التقليدِ والتشبُّهِ بالكفارِ ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ، كما لهم ذاتُ أنْواطٍ).

....

ففى ذلك التحذيرُ من مُجاراةِ الكفارِ ، والتحذيرُ من الفتنِ التى تَنْجُمُ عن ذلك .

ومن ذلك عبادةُ القَبورِ التى أحْدَثوها ، وفُتِنوا بها ، وصاروا يَدْعُون الناسَ إليها ، والخليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الذى كسَّر الأصنامَ بيدِه ، وأُوذِى ، وأُلْقِى فى النارِ بسببِ إنكارِ الشركِ يقولُ : ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم : ٣٥ - ٣٦] .

خاف على نفسِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الفتنةِ ، وخاف على ذريتِه من الفتنةِ .

إذا كيف يقولُ جاهلٌ : إنَّ التوحيدَ يُمْكِنُ تعَلُّمُه فى خمسِ دقائقَ ، والمهمُّ عندَه البحثُ فى أمورِ السياسةِ ، والكلامُ فى الحُكَّامِ ، وفقهُ الواقعِ ، كما يقولون .

ومعناه رَصْدُ الوقائعِ الدَّوْليةِ وتحليلاتُها والانشغالُ بها عن التفقُّهِ فى الدينِ .

ومنهم مَن يَنْتَقِدُ مُقَرَّراتِ التوحيدِ فى المدارسِ والمعاهدِ والكُلِّيَّاتِ ، ويقولُ : لا داعىَ لهذه الكثافةِ فى مُقَرَّراتِ التوحيدِ ، الناسُ مُسْلِمون ، وأولادُ فِطْرةٍ ، وبإمكانِ الطُّلَّابِ أن يَتَعَلَّموا التوحيدَ من البيئةِ الاجتماعيةِ ... إلخ هَذَيانِهم الفارغ .

ولو سأَلْتَ واحدًا من هؤلاء عن أبسطِ مسألةٍ فى التوحيدِ ما أجابك بجوابٍ صحيحٍ ؛ أعنى : الذين يقولون هذه المَقالةَ .

والفائدةُ الثانيةُ : وهى فائدةٌ عظيمةٌ أنَّ مَن نَطَقَ بكلمةِ الكفرِ عن جهلٍ ، وهو لا يدرى ، ثم نُبِّه ، وتاب من ساعتِه فإنه لا يَكْفُرُ بدليلِ قصةِ بنى إسرائيلَ مع موسى عليه السَّلامُ ، وبعضِ الصَّحابةِ مع النبىِّ ﷺ .

فهو لا يَكْفُرُ بذلك ، لكن بهَذْين الشرطَيْن :

الشرطُ الأولُ : أن يكونَ قال هذا الكلامَ عن جهلٍ ، ولم يَتَعَمَّدْ .

الشرطُ الثانى : أن يتوبَ من ساعتِه ، ويَتْرُكَ هذا الشىءَ ، إذا تَبيَّنَ له أنه كفرٌ .

وَلِلْمُشْرِكينَ شُبْهَةٌ أُخْرَى يَقُولُونَ : إنَّ النَّبيَّ ﷺ أَنْكَرَ عَلَى أُسَامَةَ قَتْلَ مَنْ قَالَ : «لَا إلَـهَ إلَّا اللَّهُ» ، وَقَالَ : «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» وَأَحادِيثُ أُخَرُ في الكَفِّ عَمَّنْ قَالَها ، وَمُرَادُ هُؤلاءِ الجَهَلَةِ أَنَّ مَنْ قَالَها لا يَكْفُرُ ، وَلا يُقْتَلُ ، وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ .

فَيُقَالُ لِهَؤُلاءِ الجُهَّالِ : مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَ اليَهُودَ وَسَبَاهُمْ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ أَصْحَابَ النَّبيِّ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُصَلُّونَ ، ويَدَّعُونَ الإسْلامَ ، وَكَذلِكَ الذِينَ حَرَّقَهُم عَليُّ بنُ أَبي طالبٍ بِالنَّارِ .

وَهَؤُلاء الجَهَلةُ مُقِرُّونَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ كَفَرَ وَقُتِلَ ، وَلَوْ قَال لَا إلَهَ إلَّا

فهذا لا يَضُرُّه الكلامُ الذى قالَه ، وهذا جوابٌ عن شُبْهَتِهم التى سبَقَت ، وهى أنهم يقولون : إنَّ بنى إسرائيلَ لم يَكْفُروا ، وأصحابَ محمدٍ ﷺ لم يَكْفُروا بهذه الكلمةِ .

نقولُ لهم : إنهم لم يَكْفُروا ؛ لأنهم قالوها عن جهلٍ ، ونُبِّهُوا ، وتركُوها ، وتابُوا إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

أما أنتم فتُنبَّهُون بالليلِ والنهارِ ، وتُصِرُّون على دعاءِ القبورِ والصالحين ، ولا تُصْغُون أسماعَكم لما يقالُ لكم تكبُّرًا وعِنادًا .

والفائدةُ الثالثةُ : تُفِيدُ هذه القصةُ أنَّ مَن لم يَكْفُرْ بكلمةِ الكفرِ إذا قالها جهلًا فإنه لا يُتَساهَلُ معَه ، بل يُغَلَّظُ عليه فى الإنكارِ ، كما غَلَّظ موسى عليه السَّلامُ على قومِه ، وكما غلَّظ محمدٌ ﷺ على أصحابِه الذين قالوا هذه المقالةَ ، من بابِ الزَّجْرِ والتحذيرِ لاجتنابِ ذلك ، والحَذَرِ منه .

اللَّهُ ، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ كَفَرَ وَقُتِلَ ، وَلَوْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فكَيْفَ لا تَنْفَعُهُ إذا جَحَدَ فَرْعًا مِن الفُرُوعِ ، وتَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الذِي هُوَ أَصْلُ دِينِ الرُّسُلِ وَرَأْسُهُ ؟!

وَلَكِنَّ أَعْداءَ اللَّهِ ما فَهِمُوا مَعنَى الأَحَادِيثِ .

فَأَمَّا حَدِيثُ أُسَامَةَ فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ادَّعَى الإِسْلامَ بِسَبَبِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ ما ادَّعَى الإِسْلامَ إِلَّا خَوْفًا على دَمِهِ وَمَالِه ، والرَّجُلُ إذا أَظْهَرَ الإِسْلامَ وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنْهُ ما يُخَالِفُ ذَلِكَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالى في ذَلِكَ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء : ٩٤] ؛ أَيْ : فتَثَبَّتُوا ، فالآيَةُ تَدُلُّ علَى أَنَّهُ يَجِبُ الكَفُّ عَنْهُ والتَّثَبُّتُ ، فَإذا تَبَيَّنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ ما يُخَالِفُ الإِسْلَامَ قُتِلَ ؛ لقولِهِ : ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ وَلَوْ كَانَ لا يُقْتَلُ إِذَا قَالَها لَمْ يَكُنْ للتَّثَبُّتِ مَعْنًى .

وَكَذَلِكَ الحَدِيث الآخَرُ وَأَمْثَالُه مَعْنَاهُ ما ذَكَرْنَاهُ ، أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ والتَّوحِيدَ وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُ إِلَّا إِنْ تَبَيَّنَ مِنْهُ ما يُنَاقِضُ ذَلِكَ .

والدَّلِيلُ علَى هَذَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الذي قال : «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . وَقَالَ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، هُو الذِي قَالَ فِي الخَوَارِجِ : « أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُم» ، «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» . مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبادَةً وتَهْلِيلًا وتَسْبِيحًا ، حَتَّى إِنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَهُمْ ، وَهُمْ تَعَلَّمُوا العِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَلَمْ تَنْفَعْهُم لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلا كَثْرَةُ العِبادةِ ، وَلا ادِّعَاءُ الإِسْلامِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُخَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ .

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِن قِتَالِ اليَهُودِ ، وَقِتَالِ الصَّحَابَةِ بَني حَنِيفَةَ ،

وَكَذَلِكَ أَرَادَ ﷺ أَنْ يَغْزُوَ بني المُصْطَلِقِ لَمَّا أَخْبَرَهُ رَجُلٌ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝﴾ [الحجرات : ٦] . وَكَانَ الرَّجُلُ كَاذِبًا عَلَيْهِم ، وكلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ في الأَحَادِيثِ التِي احْتَجُّوا بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ[1] .

---

(١) هذه شبهةٌ مِن شُبَهِ المشركين عبادِ القبورِ الذين يَدَّعُون الإسلامَ ، ويَزْعُمون أن عبادةَ القبورِ والاستغاثةَ بالأمواتِ ودعاءَ الغائبين لتفريجِ الكُرُباتِ ، أنَّ هذه أمورٌ لا تَضُرُّ ، ولا تُخْرِجُ من الإسلامِ ما دام صاحبُها يقولُ : لا إلهَ إلا اللَّهُ .

بدليلِ أنَّ النبيَّ ﷺ أنْكَر على أسامةَ بنِ زيدٍ رضِي اللَّهُ عنهما لما قتَلَ رجلًا من المشركين أظْهَرَ الإسلامَ ، وقال : لا إلهَ إلا اللَّهُ . فقتلَه أسامةُ بعدَ ذلك ظانًّا أنه إنما قالها ؛ ليَسْلَمَ من القتلِ ، فأنْكَرَ عليه النبيُّ ﷺ[1] .

فاسْتَدَلُّوا بهذه القصةِ على أنَّ مَن قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ فهو مُسْلِمٌ ، ولو فعَلَ ما يُناقِضُها من أنواعِ الشركِ الأكبرِ .

وكذلك اسْتَدَلُّوا أيضًا بقولِ النبيِّ ﷺ : «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يَقُولوا : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، فإذا قالوها عصَمُوا منى دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها ، وحسابُهم على اللَّهِ عزَّ وجلَّ»[2] .

قالوا : فهذا دليلٌ على أنَّ مَن تلَفَّظ بهذه الكلمةِ لا يُقْتَلُ ، ولو فعَلَ ما فعَلَ من أنواعِ الشركِ فى العبادةِ مع الأمواتِ والأضْرِحةِ ، وصَرْفِ العباداتِ لغيرِ اللَّهِ ، ما

---

(١) البخارى (٤٢٦٩، ٦٨٧٢) ، ومسلم ١/٩٦ (٩٦) .
(٢) البخارى (١٣٩٩، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤) ، ومسلم ١/٥٠ (٢٠، ٢١) .

....

دام أنه يقولُ : لا إلهَ إلا اللَّهُ .

هذا حاصلُ شبهتِهم ، وهى شبهةٌ خطيرةٌ إذا سمِعَها الجاهلُ رُبَّما تَرُوجُ عليه ، لاسيَّما أنهم طلَوْها بطِلاءٍ خادعٍ ، وهو الاستدلالُ بالأحاديثِ الصحيحةِ ، لكن فى غيرِ مَوْضِعِها .

وقد أجاب الشيخُ رحِمه اللَّهُ عن هذه الشبهةِ بستةِ أجوبةٍ ، مُجْمَلُها :

الجوابُ الأولُ : أن النبيَّ ﷺ قاتَلَ أناسًا يقولون لا إلهَ إلا اللَّهُ ، فقاتَلَ اليهودَ[1] ، وهم يقولون لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، وقاتَلَ بنى حَنيفةَ ، وهم يقولون : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، لمَّا ظهَرَ منهم ما يُنافِى هذه الكلمةَ ، ولم تَنْفَعْهم هذه الكلمةُ ، ولم تَكُنْ مانعةً من قتلِهم .

والجوابُ الثانى : فى بيانِ تناقُضِ هؤلاء ؛ لأنهم يقولون : مَن أنْكَر الصلاةَ ، أو الزكاةَ ، أو الحجَّ ، أو أنْكَر البعثَ والنُّشورَ يَكْفُرُ عندَهم ، وأمَّا مَن أنْكَرَ التوحيدَ فإنه لا يَكْفُرُ عندَهم .

والجوابُ الثالثُ : أنَّ معنى حديثِ أسامةَ بنِ زيدٍ ليس كما فهِمُوا أنَّ مَن قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ . يكونُ مسلمًا ، ولو فعَلَ الشركَ والكفرَ .

وإنما معناه : أنَّ مَن قال لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وجَبَ الكفُّ عنه حتى يَظْهَرَ منه ما

---

(١) ومن ذلك غزو النبى ﷺ لخيبر ، رواه البخارى (٤١٩٥، ٤٢٠١، ٤٢٠٥) .
وكذلك غزوه ﷺ لبنى قريظة ، رواه البخارى (٤١١٧ - ٤١١٩) .
وكذلك غزوه ﷺ لبنى المُصْطَلِق ، رواه البخارى (٢٥٤١، ٤١٣٨) ، ومسلم ٣/١٣٥٦ (١٧٣٠) .
وأيضًا غزوه ﷺ لبنى النضير ، رواه البخارى (٤٠٢٨، ٤٠٣٠ - ٤٠٣٢)، ومسلم ٣/ ١٣٦٥ (١٧٤٦) .

....

يُخالِفُ مدلولَ هذه الكلمةِ من كفرٍ، أو شركٍ.

والجواب الرابعُ: أنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى قال: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

فأمَرَ سبحانَه وتعالى بالتبيُّنِ؛ يعني: التثبُّتِ، بشأنِ مَن قال لا إلهَ إلَّا اللَّهُ، فما فائدةُ التثبُّتِ إذا كان لا يُقْتَلُ إذا قالها، ولو فَعَلَ ما فعَلَ؟!

الجوابُ الخامسُ: أنَّ النبيَّ ﷺ أمَرَ بقتلِ الخوارجِ[1]، وهم من أشدِّ الناسِ عبادةً وخوفًا من اللَّهِ ووَرَعًا، بل هم تَتَلْمَذُوا على الصحابةِ، ومع هذا أمَرَ بقتلِهم، لمَّا فعَلَوا أشياءَ تَتَنافَى مع الإسلامِ، وهم يقولون: لا إلهَ إلا اللَّهُ، وهم أشدُّ الناسِ عبادةً وصلاةً وتلاوةً للقرآنِ.

والجوابُ السادسُ: قصةُ بني المُصْطَلِقِ، وهم قبيلةٌ دخَلُوا في الإسلامِ، وأرْسَل إليهم النبيُّ ﷺ المُصَدِّقَ[2] لجبايةِ الزكاةِ، ولكنه لم يَذْهَبْ إليهم، بل رجَعَ إلى النبيِّ ﷺ، وقال: إنهم منَعُوا الزكاةَ.

فهَمَّ النبيُّ ﷺ بغَزْوِهم، فأنْزَل اللَّهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾[3] [الحجرات: ٦].

---

(١) روى البخارى (٦٩٣٠)، ومسلم ٢/٧٤٦ (١٠٦٦) عن على أن النبى ﷺ قال فى الخوارج: «أينَمَا لقِيتُمُوهُم فاقتلوهم».

وروى أيضًا البخارى (٣٣٤٤، ٧٤٣٢)، ومسلم ٢/٧٤١ (١٠٦٤) عن أبى سعيدٍ الخدرى أن النبى ﷺ قال فى الخوارج: «لَئِنْ أدركتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

(٢) المُصَدِّق: هو عامل الزكاة الذى يستوفيها من أربابها. النهاية لابن الأثير (ص د ق).

(٣) رواه ابن جرير فى تفسيره ٢٦/١٢٣، ١٢٤.

ولَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرى : وَهي ما ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ القِيامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بآدَمَ ، ثُمَّ بنُوحٍ ، ثُمَّ بإبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ بمُوسَى ، ثُمَّ بعِيسَى ، فكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُ حَتَّى يَنْتَهُوا إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قالُوا : فَهَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ الاسْتِغَاثَةَ بغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَتْ شِرْكًا .

وَالجَوَابُ : أَنْ نَقُولَ : سُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ على قُلُوبِ أَعْدَائِه ؛ فَإنَّ الاسْتِغَاثَةَ بالمَخْلُوقِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْه لا نُنْكِرُها ، كَمَا قَالَ تعالى في قِصَّةِ مُوسى : ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص : ١٥] ، وَكَمَا يَسْتَغيثُ الإنْسَانُ بأَصْحَابِهِ في الحَرْبِ أَوْ غَيْرِها في أَشْيَاءَ يَقْدِرُ عَلَيْها المَخْلُوقُ ، وَنحْنُ أَنْكَرْنَا اسْتِغَاثَةَ العِبَادَةِ التِي يَفْعَلُونَها عِندَ قُبُورِ الأَوْلِيَاءِ ، أَو في غَيْبَتِهم في الأَشْياءِ التي لا يَقْدِرُ علَيْها إلَّا اللَّهُ .

إذا ثبَتَ ذَلِكَ فالاسْتِغَاثَةُ بالأَنْبِيَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ أَن يَدْعُوا اللَّهَ أَن يُحَاسِبَ النَّاسَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ أَهْلُ الجَنَّةِ مِنْ كَرْبِ المَوْقِفِ ، وَهَذَا جَائِزٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْتِيَ عِندَ رَجُلٍ صَالِحٍ حيٍّ يُجَالِسُكَ ، وَيَسْمَعُ كَلامَكَ ، وتَقُولُ لَهُ : ادْعُ اللَّهَ لي ، كَمَا كانَ أَصْحَابُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ ذَلِكَ في حَيَاتِهِ ، وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِه فَحَاشَا وَكَلَّا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِهِ ، بَلْ أَنْكَرَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَلَى مَنْ قَصَدَ دُعَاءَ اللَّهِ عِنْد قَبْرِهِ فَكَيْفَ بِدُعَائِهِ نَفْسِهِ؟[1] .

فالنبيُّ ﷺ هَمَّ بغزوِهم وقتالِهم ، وهم يقولون : لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، لماذا ؟
لمَّا بلَغَه أنهم منَعُوا الزكاةَ ، فمَنْعُ الزكاةِ يَتَنافَى مع قولِ لا إلهَ إلا اللَّهُ .
هذا مُلَخَّصُ أجوبةِ الشيخ رحِمه اللَّهُ عن هذه الشبهةِ الخطيرةِ .

(١) هذه شبهةٌ أخرى من شُبَهِهم ، وهى أنهم يقولون : إنه ثبَتَ فى الحديثِ

....

الصحيحِ ؛ حديثِ الشفاعةِ العُظْمَى ، أنَّ الناسَ يومَ القيامةِ إذا طال عليهم الوقوفُ والقيامُ على أقدامِهم خمسين ألفَ سنةٍ ، والشمسُ قد دَنَت منهم .

فالخلائقُ كلُّهم مَجْموعون من أولِهم إلى آخرِهم في زحامٍ شديدٍ ، والشمسُ على رؤوسِهم قريبةٌ منهم ، وهم واقِفون على أقدامِهم .

فعندَما يَحْصُلُ لهم هذا الكَرْبُ يَتَذَاكَرون الشفاعةَ عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، فيَرَوْنَ أنَّ الأنبياءَ هم أولُ الذين يَشْفَعُون عندَ اللَّهِ ، فيأتون إلى آدمَ يَطْلُبون منه أن يَشْفَعَ عندَ اللَّهِ لهم ؛ ليُريحَهم من الموقفِ ، فيَعْتَذِرُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بسببِ ما حصَلَ منه من الخَطيئةِ ، مع أنه تاب منها ، وتاب اللَّهُ عليه ، ولكن يَسْتَحِي من اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

ثم يَأْتُون إلى نوحٍ أوَّلِ الرسلِ ، فيَعْتَذِرُ ، ثم يأتون إلى موسى فيَطْلُبون منه ، فيَعْتَذِرُ ، ثم يأتون إلى عيسى عليه السَّلامُ آخِرِ أنبياءِ بنى إسرائيلَ ، فيَعْتَذِرُ ؛ لأنَّ الموقفَ موقفٌ عظيمٌ أمامَ اللَّهِ سبحانَه وتعالى .

ثم يَأْتُون إلى محمدٍ ﷺ ، **فيقولُ** ﷺ : «أنا لها ، أنا لها» . ثم يأتى ويَسْجُدُ بينَ يَدَىْ ربِّه ، ويَحْمَدُ اللَّهَ ، ويُثْنِى عليه ، ويَدْعوه ، ويَسْتَمِرُّ ساجدًا بينَ يَدَىْ ربِّه حتى يُقالَ له : يا محمدُ ، ارْفَعْ رأْسَك ، وسَلْ تُعْطَ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ(1) .

لأنه لا أحدَ يُشَفَّعُ عندَ اللَّهِ إلا بإذنِه ، والرسولُ ما ذهَبَ إلى اللَّهِ ، وشفَعَ ابتداءً ، بل اسْتَأْذَنَ من ربِّه ، وسجَدَ بينَ يديه حتى أذِنَ له .

وهذا كقولِه تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٢٥] .

فيَطْلُبُ من اللَّهِ أن يَفْصِلَ بينَ عبادِه ، ويُريحَهم من الموقفِ ، فيَسْتَجِيبُ اللَّهُ

---

(1) تقدم تخريجه ص ٨٥ .

....

شفاعةَ محمدٍ ﷺ .

وهذه تُسَمَّى الشفاعةَ العُظْمَى والمَقامَ المحمودَ ، وهى قولُه تعالى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء : ٧٩] بمعنى : أنه يَحْمَدُه عليه الأوَّلُون والآخِرون .

قال القُبُوريُّون : فهذا فيه جَوازُ الاستغاثةِ بالأنبياءِ والأولياءِ والصالحين ، وأنتم تقولون : لا يُسْتَغاثُ إلا باللَّهِ .

وقالوا : فهذا يَدُلُّ على أنَّ طلبَ الشفاعةِ من الرسولِ ﷺ جائزٌ حيًّا وميتًا ، وكذلك غيرُه .

والجوابُ عن هذا ، كما يقولُ الشيخُ : إنَّ هذا طَلَبٌ مِن إنسانٍ حيٍّ قادرٍ على الدعاءِ ، وعلى الاستئذانِ بالشفاعةِ ، والطلبُ من الإنسانِ فى حالِ حياتِه وقدرتِه ليس من الممنوعِ ، كما فى قصةِ موسى : ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص : ١٥] .

وكما يَسْتَغِيثُ الإنسانُ بإخوانِه فى الحربِ وغيرِها .

فهذا فيه دليلٌ على أنَّ الاستغاثةَ بالحيِّ فيما يَقْدِرُ عليه جائزةٌ ، والذى يَقَعُ من الأممِ يومَ القيامةِ هو استغاثةٌ بالحيِّ ، وطَلَبُ الدعاءِ منه .

فيجوزُ أن تَذْهَبَ إلى إنسانٍ حيٍّ قادرٍ يَسْمَعُ كلامَك ، وتقولُ : يا فلانُ ، ادْعُ اللَّهَ لى بكذا وكذا .

والصحابةُ كانوا يَعْمَلون هذا مع النبيِّ ﷺ فى حياتِه[1] ، وليس هذا من

(١) ومن ذلك ما يلى : =

وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى ، وَهِيَ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ اعْتَرَضَ لَهُ جِبْرِيلُ فِي الهواءِ فَقَالَ : أَلَكَ حَاجَةٌ ؟ فَقالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ : أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا . قَالُوا : فَلَوْ كَانَت الاسْتِغَاثَةُ بِجِبْرِيلَ شِرْكًا لَمْ يَعْرِضْها عَلى إِبْرَاهِيمَ .

فالجَوَابُ : أَنَّ هَذا مِن جِنْسِ الشُّبْهَةِ الأُوْلى ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَرَضَ عَلَيْه أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْه ؛ فَإِنَّهُ كَما قالَ اللَّهُ تَعالى فِيهِ : ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فَلَوْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَارَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَوْلَها من الأَرْضِ وَالجِبَالِ وَيُلْقِيَها في المَشْرِقِ أَوْ المَغْرِبِ لَفَعَلَ ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ إِبْرَاهِيمَ علَيْه السَّلَامُ في مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنهُم

الشركِ ، إنما الذى يكونُ شركًا ، وأنْكَرْناه هو الاستغاثةُ بالميتِ ، وهذا لا عَلاقَةَ له بحديثِ الشفاعةِ ؛ لأنكم تَستَغِيثون بأمواتٍ ، وتَطْلُبون الشفاعةَ منهم ، والأمواتُ لا يَقْدِرون على شيءٍ .

فلا يَجوزُ أن يَذْهَبَ إلى قبرٍ يَسْتَنْجِدُ به ، ويَدْعوه ، أو يَطْلُبُ منه الدعاءَ ، أو الشفاعةَ ، أو غيرَ ذلك .

ففيه فرقٌ بينَ عملِ هؤلاء المشركين وبينَ ما فى الحديثِ الصحيحِ ، وفى قصةِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فبهذا التفصيلِ زالَتْ هذه الشبهةُ ، والحمدُ للَّهِ .

= ١ ـ ما رواه البخارى (١٩٨٢) ، ومسلم ٤٥٧/١ (٦٦٠) ، عن أنس رضى الله عنه أن أم سُلَيم قالت : يا رسول الله ، خُوَيْدِمُك أنس ، ادع الله له .

٢ ـ وما رواه البخارى (٦٥٤٢) ، ومسلم ١/ ١٩٩، ٢٠٠ (٢٢٠) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وفيه : فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : «اللَّهم اجعله منهم» . ثم قام رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم .

لفَعَلَ ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَرفَعَهُ إلى السَّمَاءِ لَفَعَلَ ، وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيٍّ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ يَرَى رَجُلًا مُحْتَاجًا فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُقْرِضَهُ ، أَوْ أَنْ يَهَبَهَ شَيئًا يَقْضِي بِهِ حَاجَتَهُ ، فَيَأْبَى ذَلِكَ الرَّجُلُ المُحْتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ ، ويَصْبِرُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ ، لا مِنَّةَ فِيهِ لأَحَدٍ ، فأَيْنَ هَذَا مِن اسْتِغَاثَةِ العِبَادَةِ والشِّرْكِ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ؟![1] .

---

(١) هذه آخِرُ الشُّبُهاتِ التى ذكَرَها الشيخُ فى هذه الرسالةِ العظيمةِ ، فأجاب عنها بجوابٍ سَديدٍ مُوَفَّقٍ ، وهى أنَّ عُبَّادَ القبورِ الذين يَطْلُبون المَدَدَ من الأمواتِ ، ويَسْتَغِيثُونَ بهم يقولون : إنَّ هذه الاستغاثةَ ليست شركًا ، وذلك بدليلِ قصةِ جبريلَ عليه السلامُ مع إبراهيمَ عليه السلامُ حينَما أُلْقِى فى النارِ ، فإنَّ جبريلَ جاء إلى إبراهيمَ ، كما يُرْوَى[1] فقال جبريلُ لإبراهيمَ عليه السلامُ : هل لك من حاجةٍ . يَعْرِضُ عليه المساعدةَ لإنقاذِه .

وجبريلُ عليه السلامُ لاشكَّ ذو قوةٍ عظيمةٍ ، وعندَه قدرةٌ على إنقاذِ إبراهيمَ ، وقد وصَفَه اللَّهُ عزَّ وجلَّ فقال : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير : ٢٠] ، وفى الآيةِ الأخرى : ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ؛ يعنى : قوةٍ .

فعرَضَ جبريلُ على إبراهيمَ أن يُساعِدَه فى إخراجِه من هذه الشدةِ ، فلمَّا كان إبراهيمُ عظيمَ الثقةِ باللَّهِ عزَّ وجلَّ قال له : أمَّا إليك فلا ، وأمَّا إلى اللَّهِ فبَلَى .

فإبراهيمُ عليه السلامُ لم يُرِدْ أن يَطْلُبَ من مخلوقٍ أن يُنْقِذَه من هذه الشدةِ ، وإنما توَجَّه إلى ربِّه ، كما صحَّ فى الحديثِ أنه قال : «حَسْبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيلُ»[1] .

---

(١) روى ذلك ابن جرير فى تفسيره ١٧/ ٤٥، والبخارى فى التاريخ ١/ ١٤٨، وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٠، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠٧٧) .

(١) البخارى (٤٥٦٣، ٤٥٦٤) .

وَلْنَخْتِمِ الكَلامَ - إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالى - بِمَسْأَلةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا تُفْهَمُ مِمَّا تَقَدَّمَ ، وَلَكِنْ نُفْرِدُ لَهَا الكَلامَ ، لعِظَمِ شَأْنِها ، ولكَثْرَةِ الغَلَطِ فيها ، فنَقُولُ : لا خِلافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بالقَلْبِ واللِّسَانِ وَالعَمَلِ ، فَإِنِ اخْتَلَّ شيءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُسْلِمًا .

فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ ، مُعَانِدٌ ، كَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ ، وَأَمْثَالِهِمَا .

فهذا من بابِ التوكُّلِ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ وتَفْويضِ الأمرِ إليه ، وهذه صفةُ أكملِ الخلقِ إيمانًا ، حيث إنَّ إبراهيمَ رفَضَ مساعدةَ المخلوقِ ، وقَبِلَ مساعدةَ الخالقِ ؛ لأنَّ مساعدةَ المخلوقِ فيها مِنَّةٌ وحاجةٌ إلى المخلوقِ ، ومساعدةَ الخالقِ سبحانَه وتعالى لا مِنَّةَ فيها لغيرِ اللَّهِ ، وهى فضلٌ من اللَّهِ سبحانَه وتعالى .

وجبريلُ عرَضَ على إبراهيمَ شيئًا يَقْدِرُ عليه ، وهو عَرْضٌ من حيٍّ حاضرٍ قادرٍ ، كما يَعْرِضُ الغنيُّ على الفقيرِ مساعدتَه بالمالِ .

وليس هذا من جنسِ الاستغاثةِ بالأمواتِ أو الغائبين الذى يَسْتَغِيثُ بهم القُبُوريُّون ؛ فإنَّ الأمواتَ لا يُسْتغاثُ بهم ، ولا يَقْدِرون على ما طُلِبَ منهم ، ولا يَسْمَعون دُعاءَ مَن دعاهم ، كما قال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٢ - ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر : ١٣ - ١٤] .

وهَذا يَغْلَطُ فِيهِ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، يَقُولُونَ : هَذَا حَقٌّ ، ونَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا ، ونَشْهَدُ أَنَّهُ الحَقُّ ، وَلَكِنْ لا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ ، ولا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنا إلَّا مَنْ وَافَقَهُم ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الأَعْذَارِ .

وَلَمْ يَدْرِ المسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ يَعْرِفُونَ الحَقَّ ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ إلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الأَعْذَارِ ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِن الآياتِ ، كَقولِه : ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ .

فَإِنْ عَمِلَ بالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا ، وَهُوَ لا يَفْهَمُهُ ، ولا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ ، فَهُوَ مُنافِقٌ ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الكَافِرِ الخَالِصِ : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .

وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةٌ كَبيرةٌ طَويلَةٌ تُبَيِّنُ لَكَ إِذَا تَأَمَّلْتَها في أَلْسِنَةِ النَّاسِ ، تَرَى مَنْ يَعْرِفُ الحَقَّ ، ويَتْرُكُ العَمَلَ بِهِ لِخَوْفِ نَقْصِ دُنْيا ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ مُدَاراةً لأَحَدٍ ، وتَرَى مَنْ يَعْمَلُ بِهِ ظاهِرًا لا بَاطِنًا ، فَإِذَا سَأَلْتَهُ عَمَّا يَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ فَإِذا هُوَ لَا يَعْرِفُهُ[١] .

---

(١) ختَمَ الشيخُ رحِمَه اللَّهُ هذه الرسالةَ بمسألةٍ عظيمةٍ مُهِمَّةٍ يَجِبُ تَفَهُّمُها وتعَقُّلُها ؛ لأنه إذا فهِمَها الإنسانُ فإنه يُدْرِكُ أخطاءَ الناسِ فى العقيدةِ .

وهذه المسألةُ هى : أنَّ التوحيدَ يكونُ بالقولِ والعملِ والاعتقادِ ، لابدَّ من هذه الأمورِ الثلاثةِ .

فإذا اجْتَمَعَت هذه الأمورُ الثلاثةُ صار الإنسانُ مُوَحِّدًا مُؤْمِنًا باللَّهِ ورسولِه ، وإذا اخْتَلَّ واحدٌ منها لم يَكُنْ مؤمنًا ، ولا مُوَحِّدًا .

وهم فى هذا أصنافٌ :

الصِّنْفُ الأولُ : مَن يَعْتَقِدُ التوحيدَ بقلبِه ، ويَعْرِفُ أنه لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، وأنَّ عبادةَ ما سواه باطلةٌ ، ولكنه لا يَعْمَلُ به بجوارحِه ، ولا يُقِرُّ به بلسانِه ؛ لطَمَعٍ دُنْيَوِيٍّ .

....

فهذا كافرٌ مثلُ فِرْعَوْنَ ؛ فإنَّ فِرْعَوْنَ كان مُعْتَرِفًا بالتوحيدِ فى قلبِه ، وأنَّ ما جاء به موسى هو الحقُّ ، ولكنَّه تَرَكَ العملَ به ، وتَظَاهَرَ بخلافِه ، وجَحَده تكبُّرًا وعِنادًا ، كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل : ١٤] .

وقال موسى عليه السَّلامُ لفرعونَ : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء : ١٠٢] لقد علِمْتَ ؛ أى : عرَفْتَ بقلبِك ما أنْزَلَ هذه الآياتِ التى جِئْتُك بها إلَّا ربُّ السماواتِ والأرضِ بَصائِرَ للناسِ .

فهذا دليلٌ على أن فرعونَ كان مُسْتَيْقِنًا بقلبِه صِدْقَ ما جاء به موسى عليه السَّلامُ ، وإنَّما جَحَد ذلك وتظَاهَرَ بجحدِه كحالِ كفارِ قريشٍ ، الذين قال اللَّهُ فيهم : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام : ٣٣] .

دلَّتِ الآيةُ على أنَّ كفارَ قريشٍ يُصَدِّقون بالرسولِ بقلوبِهم ، ولكن يَجْحَدون ذلك بظَواهِرِهم وألسنتِهم .

وكما قال اللَّهُ سبحانَه وتعالى فى اليهودِ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ [البقرة : ١٤٦] يَعْرِفون هذا بقلوبِهم ، ويَتَظَاهَرون بالكِتْمانِ والجُحُودِ ، مع تيقُّنِهم فى قلوبِهم بأن محمدًا رسولُ اللَّهِ ، وأنه جاء بالحقِّ مِن عندِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، ولكن مَنَعَهم الكِبْرُ والحَسَدُ من اتِّباعِه .

واعْتقادُهم بقلوبِهم لا يَنْفَعُهم فهم كفارٌ مُخَلَّدون فى النارِ .

وكثيرٌ من عبَّادِ القبورِ اليومَ على هذا ، يقولون : نَعْرِفُ أنَّ الذى تقولون هو التوحيدُ ، ولكن ما نَقْدِرُ أن نُخالِفَ أهلَ بلدِنا ؛ لأنَّ أهلَ بلدِنا عندَهم أَضْرِحةٌ

....

واستغاثةٌ بالأمواتِ ، ولا نَقْدِرُ أن نُخالِفَهم لأجلِ أن نَعِيشَ معهم ، ولا نَقْدِرُ على مُجابَهَةِ الناسِ ، فهم يُوافِقون الكفارَ والمشركين على عقائدِهم .

إما أن يَفْعَلوا مثلَ فعلِهم ، وهم يَعْتَقِدُون بُطْلانَ ذلك ، وإما أن لا يُنْكِروا عليهم ، ولا يُبَيِّنُوا الحقَّ ، بل رُبَّما يُدافِعون عنهم .

وهذا هو واقعُهم الآنَ ، ويقولون لِمَن دَعاهم إلى الحقِّ : هذا الرجلُ خارجيٌّ ، وهذا الرجلُ جاء بمذهبٍ خامسٍ ، وهم يَعْتَقِدون أنَّ ما جاء به هو ما جاء به الرسولُ ﷺ ، وهو مُقْتَضَى الكتابِ والسنةِ ، يَعْرِفون هذا .

وإنما حَمَلَهم الحسدُ ، أو الكِبْرُ ، أو الطَّمَعُ فى أمورِ الدنيا ؛ لأنهم يَظُنُّون أنهم إذا وافَقُوا على هذا الحقِّ ، وقبِلوه سيَخْسَرون رئاستَهم ، ويَخْسَرون أموالَهم ، ويَخْسَرون جاهَهم عندَ الناسِ .

والصنفُ الثانى : مَن وافَقَ فى الظاهرِ ، ونطَقَ بالتوحيدِ ، وقال : هذا هو الصحيحُ ، وهذا هو الحقُّ ، وصلَّى وصام وصار مع المسلمين .

لكن فى قلبِه لا يَعْتَقِدُ هذا ، ويَعْتَقِدُ أنَّ هذا خُرافاتٌ ، وأنه تقاليدُ باليةٌ ، فهو لم يَعْمَلْ به ، ولم يَتَكَلَّمْ به إيمانًا ، وإنما عَمِلَ به ، وتكَلَّم به نفاقًا كحالةِ المنافقين الذين هم فى الدَّرْكِ الأسفلِ مِن النارِ ؛ لأنهم يقولون بألسنتِهم ما ليس فى قلوبِهم : ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون : ١ - ٢] .

فالناسُ مع التوحيدِ ثلاثةُ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : مَن يَعْرِفُه ويُؤْمِنُ به باطنًا ، ويَجْحَدُه ظاهرًا ، ويُنْكِرُه .

القسمُ الثانى : مَن يَتَكَلَّمُ به ، ويَعْمَلُ به ظاهرًا ، ويُنْكِرُه ويَكْفُرُ به باطنًا .

وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِفَهْمِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ :

أُولاهُمَا : ما تَقَدَّمَ مِن قَوْلِهِ : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة : ٦٦] ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ الذِينَ غَزَوُا الرُّومَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَفَرُوا بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالُوها عَلى وَجْهِ المَزْحِ وَاللَّعِبِ ، تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الذِي يَتَكَلَّمُ بالْكُفْرِ ، أَوْ يَعْمَلُ بِهِ ؛ خَوْفًا مِن نَقْصِ مَالٍ ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ مُدَارَاةً لأَحَدٍ أَعْظَمُ مِمَّن يَتَكَلَّمُ بكَلِمَةٍ يَمْزَحُ بِهَا .

والآيَةُ الثَّانيةُ : قَوْلُه تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل : ١٠٦] . فَلَمْ يَعْذُرِ اللَّهُ مِن هؤلاءِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئِنًّا بالإيمَانِ ، وأَمَّا غَيْرُ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بعْدَ إيمانِهِ ، سَواءٌ فَعَلَهُ خَوْفًا ، أو مُدَاراةً ، أو مَشَحَّةً بِوَطَنِهِ أَوْ أَهْلِهِ ، أو عَشِيرَتِه أو مَالِهِ ، أو فَعَلَهُ عَلى وَجْهِ المَزْحِ ، أو لغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَغْرَاضِ ، إِلَّا المُكْرَهَ .

فَالآيةُ تَدُلُّ عَلى هذا مِن جِهَتَيْنِ :

الأُولى : قولُه : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فَلَمْ يَسْتَثْنِ اللَّهُ تعالى إِلَّا المُكْرَهَ ، ومَعْلُومٌ أنَّ الإنْسَانَ لا يُكْرَهُ إِلَّا على العَمَلِ أَو الكَلَامِ ، وَأَمَّا عَقِيدَةُ القَلْبِ فَلَا يُكْرَهُ أَحَدٌ عَليها .

والثَّانيةُ : قَوْلُه تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ . فصَرَّحَ أنَّ هذَا الكُفْرَ والعَذَابَ لَمْ يَكُنْ بِسَببِ الاعْتِقَادِ ، أو

وهم المنافقون .

القسمُ الثالثُ : مَن يَعْتَقِدُه باطنًا ، ويَعْمَلُ به ظاهرًا وباطنًا .

والقسمان الأوَّلان كافِران خاسِران ، والقسمُ الثالثُ مؤمنٌ مُفْلِحٌ .

الجَهْلِ ، أو البُغْضِ للدِّينِ ، أو مَحَبَّةِ الكُفْرِ ، وَإِنَّما سَبَبُهُ أَنَّ لَهُ في ذَلِكَ حَظًّا من حُظُوظِ الدُّنْيا ، فآثَرَهُ عَلَى الدِّينِ .

واللَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى أعْلَمُ وَأَعَزُّ وأَكْرَمُ ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ ، وصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ[1] .

❋ ❋ ❋

---

(١) نعم إذا عرَفْتَ هذه القاعدةَ ، وهى معرفةُ ما يَحْصُلُ به الإيمانُ الصحيحُ ، فإنه يَجِبُ أن تَعْرِفَ ما يُضادُّها من الأقوالِ والأفعالِ .

ومن ذلك الكلامُ الذى يَتَكَلَّمُ به الإنسانُ ، وهو من نواقضِ الإسلامِ ، لكنه يَمْزَحُ به ، فإنه يَكْفُرُ ، ولو كان ليس جادًّا فى كلامِه ، فالدينُ ليس فيه مَزْحٌ .

والدليلُ على ذلك : قصةُ هؤلاء النَّفَرِ الذين خرَجُوا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ فى غزوةِ تَبُوكَ لغَزْوِ الرومِ لمَّا بَلَغَ الرسولُ ﷺ أنَّ الرومَ يُجْمِعَون على غَزْوِ المسلمين .

فالنبىُّ ﷺ بادَرَ فى وقتِ الحرِّ وشدةِ القَيْظِ والصيفِ ، ووقتِ طِيبِ الثمارِ ، والمسافةُ بعيدةٌ من المدينةِ إلى تبوكَ .

وإن ناسًا من الذين خرَجُوا مع الرسولِ ﷺ جلَسُوا فى مَجْلِسٍ يَمْزَحون ، قال واحدٌ منهم : ما رأَيْنا مثلَ قُرَّائِنا هؤلاء ، أرْغَبَ بطونًا ، ولا أكذبَ أَلْسِنةً ، ولا أجْبَنَ عندَ اللقاءِ . يَعْنُون : رسولَ اللَّهِ ﷺ وأصحابَه .

وكان فى المجلسِ غلامٌ من الأنصارِ ، فأنْكَر عليهم ، وقال : كذَبْتَ ، ولكنَّك منافقٌ ، لأُخْبِرَنَّ رسولَ اللَّهِ .

فلمَّا ذهَبَ هذا الفتى ليُخْبِرَ الرسولَ ﷺ وجَدَ الوَحْىَ قد سبَقَه ، ونَزَلَ على

....

الرسولِ ﷺ قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

فجاء هؤلاء إلى الرسولِ ﷺ يَعْتَذِرون، ويقولون: يا رسولَ اللَّهِ، ما قصَدْنا إلَّا المَزْحَ، حديثُ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ به عنَّا الطريقَ.

ولا يَزِيدُ الرسولُ ﷺ على تلاوةِ الآيةِ، ولا يَلْتَفِتُ إليهم[1].

فإذا كان هؤلاء كفَرُوا باللَّهِ، وارْتَدُّوا، وقد كانوا مسلمين مِن قبلُ، بسببِ كلمةٍ قالوها على وجهِ المَزْحِ واللَّعِبِ، فكيف بمَن يقولُ كلامَ الكفرِ، لا من بابِ المزحِ، وإنما مِن بابِ المحافظةِ على مالِه، وعلى جاهِه، وعلى مكانتِه؟!

وهذا شرٌّ من المازحِ؛ لأنَّه اشْتَرَى الحياةَ الدنيا بالآخرةِ؟

فالحاصلُ أنَّ الذى يَتَكَلَّمُ بكلمةِ الكفرِ لا يَخْلُو من خمسِ حالاتٍ:

الحالةُ الأولى: أن يَكونَ مُعْتَقِدًا ذلك بقلبِه، فهذا لا شكَّ فى كفرِه.

الحالةُ الثانيةُ: أن لا يكونَ مُعْتَقِدًا ذلك بقلبِه، ولم يُكْرَهْ على ذلك، ولكنْ فعَلَه من أجلِ طَمَعِ الدنيا، أو مُداراةِ الناسِ، ومُوافقتِهم، فهذا كافرٌ بنصِّ الآية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧].

الحالةُ الثالثةُ: مَن فَعَلَ الكفرَ والشركَ؛ موافقةً لأهلِه، وهو لا يُحِبُّه، ولا يَعْتَقِدُه بقلبِه، وإنما فعَلَه شُحًّا ببلدِه، أو مالِه، أو عشيرتِه.

الحالةُ الرابعةُ: أن يَفْعَلَ ذلك مازحًا ولاعبًا، كما حصَلَ من النفرِ

(١) تقدم تخريج هذه القصة ص ٥٤.

....

المذكورين . وهذا يكونُ كافرًا بنصِّ الآيةِ الكريمةِ .

الحالةُ الخامسةُ : أن يقولَ ذلك مُكْرَهًا ، لا مُخْتارًا ، وقلبُه مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ ، فهذا مُرَخَّصٌ له فى ذلك ؛ دَفْعًا للإكراهِ .

وأما الأحوالُ الأربعُ الماضيةُ فإنَّ صاحبَها يَكْفُرُ كما صرَّحت به الآياتُ .

وفى هذا ردٌّ على مَن يقولُ : إنَّ الإنسانَ لا يُحْكَمُ عليه بالكفرِ ، ولو قال كلمةَ الكفرِ ، أو فعَلَ أفعالَ الكفرِ ، حتى يُعْلَمَ ما فى قلبِه .

وهذا قولٌ باطلٌ مُخالِفٌ للنصوصِ ، وهو قولُ المُرْجِئةِ الضُّلَّالِ .

وذكَرَ الشيخُ رحِمه اللَّهُ قاعدةً عظيمةً فى الإكراهِ الذى يُعْذَرُ به ، والذى لا يُعْذَرُ به ، حيث قال : (ومعلومٌ أنَّ الإنسانَ لا يُكْرَهُ إلا على العملِ أو الكلامِ ، وأما عقيدةُ القلبِ فلا يُكْرَهُ أحدٌ عليها) . وصلَّى اللَّهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وآلِه وصحبِه .



مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب

تأليف

الإمام ابن هشام الأنصارى ٧٦١هـ

تعليق

سماحة الشيخ / محمد بن صالح العيثمين

ضبط نصه وخرج أشعاره

أبو أنس / أشرف بن يوسف

روجع على عدة نسخ خطية

كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار

تأليف
الإمام تقي الدين أبي بكر بن محمد
الحسيني الدمشقي الشافعي
(٧٥٢ ـ ٨٢٩هـ)

تحقيق
أبي أنس / أشرف بن يوسف

روجع على عدة نسخ خطية

الأخبار العلمية من الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف

علاء الدين أبى الحسن على بن محمد بن عباس البعلى
الدمشقى الحنبلى (ت ٨٠٣هـ)

ومعه تعليقات وتصحيحات لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين

حققه وخرج أحاديثه
أبو أنس / أشرف بن يوسف

روجع على عدة نسخ خطية